دراسات أدبية (٢)

من أعلام الشعر السعودي

تأليف

الدكتور بدوي طبانة



مِنْ أَعْلَامِ الشِّعْرِ السُّعُودِيّ

الدكتور بدوي طَبانة

٨١١,٩٥٣١٠٠٩
ــــــــــــ طبانة ، بدوي
ط ب م
من أعلام الشعر السعودي /بدوي طبانة . ــ ط ١ . ــ الرياض
دار الرفاعي ، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م .
(٣٧٦) ص . ــ ٢٤ سم .
١. الشعر العربي ــ نقد ــ السعودية . ٢. الشعراء العرب ــ السعودية .

دراسات أدبية (٢)

من أعلام الشعر السعودي

تأليف

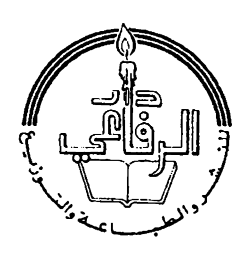
الدكتور بدوي طبانة

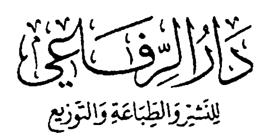
دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع

الرياض ١٤١٢ هـ

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩١م

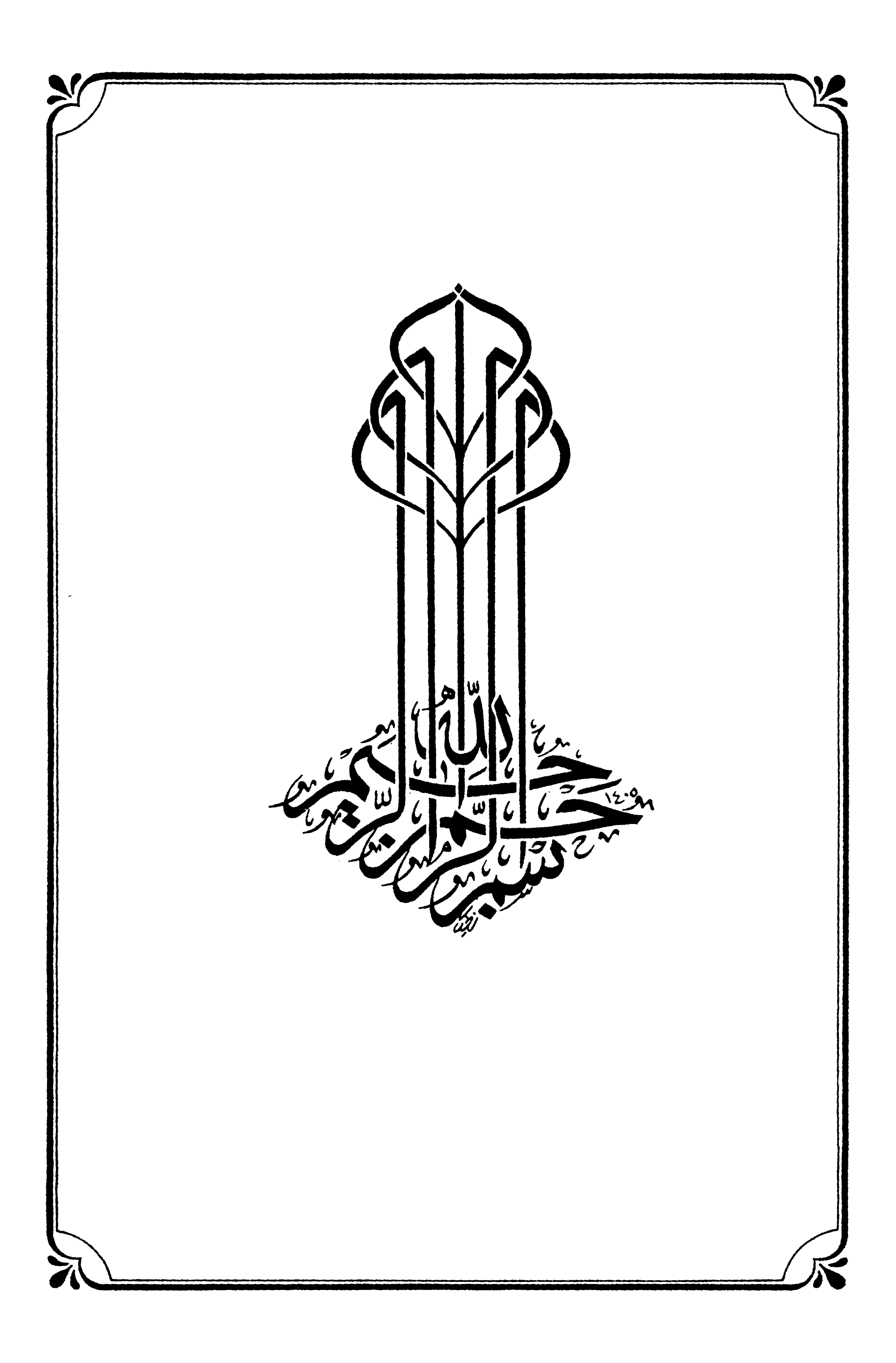
حقوق الطبع محفوظة





دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع

ص.ب : ١٥٩٠ - الرياض ١١٤٤١ - تليفون: ٤٧٨٨٨٣٣
تلكس : ٤٠١٣٦٧ (الفرات) - فاكسميلي: ٤٧٩٤٣٢١
المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٠٥

إهداء

الى راعي دولة العلم وباعث نهضة الأدب
خادم الحرمين الشريفين
الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود
ملك المملكة العربية السعودية حفظه الله

المؤلف

تصـــدير

أعترف أنني لم أكن أعرف واحداً من هؤلاء الشعراء ، ولا سمعت بأسمائهم ، ولا قرأت شيئاً من أشعارهم قبل أن أفد على المملكة العربية السعودية أستاذاً للنقد الأدبي في الدراسات العليا التي بدأتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في خريف سنة ١٩٧٥ م (١٣٩٥ هـ) .

بل إنني لأعترف أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا وحدهم من بين شعراء المملكة العربية السعودية الذين غابت عنّي صُورهم ، وخفيت عليَّ معالم شاعريتهم ، بل إن شعراء كثيرين ، وكثيرين جدّا في هذا البلد ، وفيهم عدد غير قليل من شعراء العربية المعاصرين ، وفيهم عدد غير قليل من المجيدين لم أكن أسمع عنهم ، أو أقرأ لهم شيئا من أعمالهم الشعرية .

والحقيقة أن كثيراً من أدباء العربية يجهلهم عامّة أهل الأدب في غير أوطانهم ، ولا يكادون يذكرون منهم إلاّ عدداً قليلا من الذين اتصلوا بهم عن كثب ، أو قرءوا لهم كتابات كتبوها ، أو أعمالا شعرية أنشئوها ، ثم نشرت هذه الكتابات أو القصائد في صحف أو مجلات أتيح لهم الاطلاع عليها .

ولست أدري كيف تمزّقت أوصال العروبة ، وكيف تقطعت الأواصر والصلات بين أدباء العربية في شتى أمصارها مع وفرة الدواعي إلى التقارب ، ومع توافر أسباب التواصل والاتصال في هذا الزمان .

وقد كان شداة الأدب ، وعامة المتأدبين من الصغار والكبار في كلّ بلد عربي يعرفون أدباء العربية وشعراءها القدماء ، ويحفظون قدراً صالحاً من أدبهم المنظوم والمنثور ، أعانهم على التعرّف على الفن الأدبي وتذوّقه ، والوقوف على تقاليده ، وعلى معالم العبقرية عند كل أديب . وكان هذا عاملاً من أكبر العوامل في وصل حاضر هذه الأمة بماضيها ، وفي تنمية الملكات ، وإرهاف الأذواق عند المحدثين ، فقلّدوا ، وقلّدوا ، حتى استطاعوا أن يجيدوا ، وأن يبدعوا .

كانوا جميعا يحفظون لامريء القيس ، والنابغة ، وزهير ، وحسّان ، وجرير ، والفرزدق ، وابن أبي ربيعة ، والبحتري ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، وابن الرومي ، وأبي الطيب ، وأبي العلاء ، وابن زيدون ، وابن خفاجة ، وابن حمديس .. ولقسّ ابن ساعدة ، والإمام علي ، وزياد ، والحجاج ، ولعبد الحميد ، وابن المقفع ،

والجاحظ ، وابن العميد ، والصاحب ، وبديع الزمان .. وغيرهم من أمراء البيان ، وأعلام الشعر والخطابة والكتابة .

ولم تقف معرفتهم عند أولئك الأعلام المعروفين ، والفحول المتقدمين ، ولكنها تجاوزتهم إلى من دونهم بكثير .

ولم يحل بينهم وبين هذه المعرفة الواعية المستوعبة بُعد الزمان ، ولا اختلاف الأوطان ..

* * *

وتلك الظاهرة – ظاهرة العناية بالقديم ، وتجاهل الحديث – تثير التساؤل ، وتستوجب التأمل والدراسة ، والفحص عن أسبابها الظاهرة والخفيّة ، بغية الوصول إلى الحقيقة ، وإزالة الحجب التي تحول دون المعرفة ، أو دون الرؤية الصحيحة الواضحة لكل عربي بما يضطرب في غير بلده من ألوان النشاط الفكري أو الفني التي ينبغي ألاّ يجهلها ، أو يتجاهلها .

ولست أشكّ في أن هذه الظاهرة كانت سبباً من أهم الأسباب في تلك الثغرات الملحوظة في تأريخ أدبنا العربي المعاصر ، وضياع كثير من حلقاته ، وفي تعميم الأحكام الأدبية والنقدية التي قد تصدق على حياة الأدب العربي المعاصر في بيئة من البيئات ، أو في فترة من الفترات التاريخية ، لتشمل كل أديب عربي ، وكلَّ موطن من مواطن هذا الأدب . وفي ذلك من الإسراف ومجانبة الحق والإنصاف ما لا يخفى على الناقد البصير .

ولا أتصوَّر أن واحداً من المنصفين يستطيع أن يحكم ، وهو مطمئن إلى حكمه ، بأن الحياة الأدبية في بيئاتنا العربية المختلفة تسير في خط واحد ، أو في خطوط متساوية أو متوازية ، لأن الذي يجرؤ على هذا الحكم يسقط من حسابه النظر في ظروف الحياة في كل وطن من أوطان العروبة ، ويغفل حظّ أهله من الحضارة ، وما حصّلوا من ضروب الثقافة ، فإن الفروق واضحة فيما قطعهُ كل بلد من الأشواط في سبيل الأخذ بأسباب الحياة .

والمتأمل في هذه الحياة يرى أن من هذه البلاد العربية ما اتّسعت أطرافه ، وما توافرت فيه مطالب العيش ، وكثرت فيه مصادر الثروة ، فاستطاع ساكنوه

الوقوف على ماجدّ في عوالم أخرى من مظاهر الحضارة والعمران ، وعوامل التحضر والتطلع إلى آفاق جديدة في الفكر والفنّ .. ومنها ما لايزال أهله يحيون حياة البداوة أو قريباً منها ، ويجترّون موروثهم الذي أخذ يخبو ويتضاءل بفعل الأحداث ، وكرّ الليالي والأيام .

ولا مناص من التسليم بأنّ ما يؤلفه أدباء كل إقليم من أعمالهم الأدبية يصوّر هذه الحياة ، وتنعكس على صفحته آثارها ضعة وارتقاءً ، وتخلّفا وتقدُّما .

وقد تتفّق العواطف ، وتتوحّد المشاعر بينهم وبين أدباء العربية باعتبارهم أمة واحدة لها مثلها وآمالها في الحياة كما تصورها آدابهم ، وتتحد كذلك القوالب والأشكال الموروثة التي يصبّون فيها تجاربهم أو مضموناتهم .

ولكن هذا لا ينفي الاختلاف في اتجاه التفكير ، وفي درجة التأثر بالعواطف والأحاسيس والمشاعر التي عبّر عنها كلّ أديب .

وفي رأيي أن كل نزعة إلى التجديد لم تنشأ من فراغ ، بل إن هذه النزعات لم تقم إلاّ على أساس من المحاكاة أو التقليد لمن سبقت لهم محاولة للتجديد ! .

ونضرب مثلا لذلك بالشعر المسرحيّ الذي لم يعرفه أدبنا العربي قبل هذا القرن العشرين ، فإنّ رائدهُ وزعيمه « أحمد شوقي » لم يخترعه اختراعاً ، ولكنه قلّد فيه ما قرأه أو مارآه ممثلاً على خشبات المسارح في أوربا من مسرحيات شكسبير وغيره من كبار الشعراء الأوربيين ، وقلّد شوقيًّا فيه عدد من شعراء العربية في مصر ، ثم قلّدهم فيه غيرهم من شعراء العالم العربي .

وكذلك التجديد في قوالب الشعر العربي إنما بدأ بتقليد بعض المهاجرين لبعض شعراء الغرب ، ثم أخذ شعراء العربية يُحاكي بعضهم بعضاً في هذا التجديد العروضي ، حتى امتلأت به الدواوين ، وفاضت به جداول الصحف والمجلات .

وخلاصة ما أردناه بهذه الكلمات هو الإشارة إلى نقص المعرفة بأدباء العربية وشعرائها في بعض المواطن التي يحيا فيها الأدب والشعر ، وما يترتب على ذلك النقص أو الجهل من فقد بعض الحلقات أو اللبنات التي قد تكون لها قيمة كبيرة في استكمال جوانب الصورة أو في بناء صرح الأدب العربي الحديث .

* * *

ولا يعنينا في هذا المقام تعيين المسئول عن هذه الثغرات ، أو ذلك الضياع ، وإن كان السبب الظاهر هو أن الكاتبين في هذا الأدب ومؤرخيه لا يعني أكثرهم بالتعريف إلا بأدباء بلدهم ، ولا يدرسون إلاّ ما أَلِفُوه في فنون الأدب وأجناسه المختلفة ..

ولقد أرادت بعض مدارس « التجديد » في هذا القرن ألاّ يكون الأدب إلاّ أدباً « إقليميّا » وألاّ يكون اتجاه التفكير بعامّة إلا اتجاهاً إقليمياً ، أو اتجاهاً محلّيا .

وقد تتيح لي هذه المناسبة أن أذكر أنني لم أكتب عن شاعرية شوقي ، أو حافظ إبراهيم ، أو عن خليل مطران ، أو عن غيرهم من كبار الشعراء في بلدي ، لسبب واحد ، هو أن جلّ الكتّاب والنقاد المصريين لم يتجاوزوا في كتاباتهم أو دراساتهم أمثال أولئك الأعلام من شعراء بلدهم .

ولكنني كتبت فيما لم يكتب فيه غيري ، كتبت أول دراسة أدبية نقدية لشاعر العراق الكبير معروف الرصافي في كتاب كامل طبع في أوليات سنة ١٩٤٧م قبل أن يكتب عن الرصافي أيّ كاتب عربيّ ، أو أيّ كاتب عراقي ، وبعد حين توالت الكتابات والتأليفات عن الرصافي !

وظهر لي في السنة نفسها كتاب كامل عن شواعر العراق ، جعلت عنوانه « أدب المرأة العراقية » وكان أول كتاب عرف فيه عالم الأدب العربي الحديث رائدات الشعر في العراق من أمثال نازك الملائكة ، وأمّها أم نزار ، وعاتكة الخزرجية ، ورباب الكاظمي ، وصدوف العبيدية ، ولميعة عباس عمارة ..

وقد أشار المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد إلى شيء مما أسلفت في الكلمة الكريمة التي حيًّا بها كتابي « معروف الرصافي » ونشرها في افتتاحية العدد ٧١٧ الصادر في ١٩٤٧/٣/٣١م من مجلة « الرسالة » التي كان يصدرها المرحوم أحمد حسن الزيات .. وفي هذه الكلمة يقول العقاد رحمه الله :

« ... ونرحّب بكتاب « معروف الرصافي » مرة أخرى ، لأنه علامة من علامات التقارب بين الأقطار العربية في هذه الآونة التي وجب فيها التقارب بين هذه الأقطار ، وتهيأت له العوامل والأسباب ..

وكثيراً ما سمعنا العتب من أدباء العرب في سورية ولبنان وفلسطين والعراق

والحجاز ، لأن صحف مصر لا تفسح صدرها للتنويه بآثارهم ، والتعقيب على أعمالهم ، فكنّا نقول لهم : إن شأن الأدباء العرب في ذلك كشأن المصريين أنفسهم بغير خلاف ، لأن الصحافة المصرية لا تكتب عن مؤلّفات الأدباء المصريين ، ولا تتبع أعمالهم بالنقد أو الثناء ...

أما إذا رجعنا إلى الشعب المصريّ فقد يكون إقباله على المؤلفات العربية متى وصلت إليه أكثر من إقباله على المؤلفات المصرية ، لأنه في هذه الحالة يضيف حبّ الاستطلاع وحبّ المجاملة إلى حبّ التقدير والاستفادة ..

فالآن يسرّنا أن نرى أديباً مصرياً يتجرّد لدراسة شاعر عراقي كبير ، ويسبق أدباء العراق إلى هذه الدراسة .. وهو من واجب الأدباء في الأقطار العربية جمعاء .. »

* * *

وأحسب أن هذه الصورة التي صوّرها العقاد في هذه الكلمات الصادقة الواعية قبل ما يزيد على خمسة وأربعين عاماً قد تغيّرت الآن ، فقد قربت آثار إخواننا العرب ، وأصبحت في متناول أيدي القارئين والدارسين في مصر وسائر البلاد العربية ، وأصبحنا نرى المكتبات فيها وقد غصّت بمؤلفات الكتاب ودواوين الشعراء العرب ، وسائر آثارهم الفكرية والأدبية ، وأصبحنا نرى الصحف والمجلات العربية تزاحم مجلات مصر وصحفها في دكاكين الورّاقين ، وعلى أفاريز الطرقات ، وفي أيدي الباعة في كل مكان .

وذلك بالإضافة إلى رحلة عدد كبير من العلماء والنقاد إلى أرجاء من الوطن العربي ، ووقوفهم على مظاهر نهضة الفكر والأدب في بلاد العرب ، مما أدى إلى اتساع دائرة المعرفة ، وإلى الحث على دراسة هذه الآثار وتقويمها . وكان ذلك من أعظم الدلائل على نموّ الوعي الثقافي ، وعلى وحدة المشاعر بين أبناء هذه الأمة في مواطنها البعيدة والقريبة على السّواء .

* * *

ولقد عبرت بالجزيرة العربية قرون من الجدب ، وقرون من الضعف الذي غشّى سائر مرافق الحياة ، وطمس على معالم الحيوية والازدهار التي كانت تنعم بها في عهدها السّابق ، وأثّر تأثيراً أليماً في حياتها الفكرية والثقافية ، وتخلّف أهلها عن مجاراة الركب المغذّ في طريق التقدم والصعود فيما جاورهم من الأوطان العربية

التي تأثرت بحضارات وافدة ، ورياح هبَّت عليها من الشرق ومن الغرب ، اتصلت بها ، وتفاعلت معها .

وذلك بعد أن كان الشعب العربي في جزيرته في مقدمة الشعوب العريقة في حضارتها الأصيلة في معارفها ، وفي لغتها ، وفي أدبها .

وفي قرون ذلك التخلف فقدت لغة العرب بهاءها ورونقها ، وفقد الأدب العربي سحره وبهاءه ، وأخذت العامية تفشو على ألسنة الناس ، حتى فتنوا بها ، وأصبحت لغة الأدب والشعر ، وراج ما يسمّونه « الشعر الشعبي » أو « الشعر النبطي » وأخذت الفصحى تبكي مجدها الداثر ، وتنعى حظها العاثر ، وهي في كنف أربابها ، وبين يدي أصحابها ، حتى أصبح أولو الغيرة على لغة قرآنهم يتناشدون قول شاعر النيل على لسان هذه اللغة :

رجعت لنفسي فاتَّهمتُ حَصَاتي ... وناديت قومي فاحتسبْتُ حياتي

ويتراوون ما أنشده قديماً فيلسوف المعرّة من شعره :

أين امرؤ القيس والعذارَى ... إذ مال من تحته الغبيطُ

استنبط العُرْب في الموامي ... بعدَك واستعرب النبيطُ

* * *

ثم صحا هذا الشعب من رقدته ، ونفض عن نفسه غبار القرون ، ليحطم أغلال الفقر والتخلّف ، ولينطلق في طريق الحياة الواعية الصحيحة ، بعد تلك النهضة الشاملة التي عمّت جوانب الحياة في المملكة العربية السعودية ، منذ أيقظ البطل الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود هذا الشعب ، ولمّ شعثه ، ووحّد أرضه ، ورفع علم التوحيد في سماء المجد عالياً خفاقاً ، وفجرّ الله تعالى في عهده السعيد ينابيع الخير والبركة التي فاض بها على البلاد والعباد ، وزاد عطاؤها وبرّها في عهد أبنائه البررة الذين تابعوا مسيرته المباركة ، فشقّوا لشعبهم طريق السعادة ، وأرسوا في بلادهم دعائم المجد ، وبنوا صروح الكرامة والسيادة .

وسرعان ما دبت الحياة في مختلف مناحيها بهمة الأبطال ، وعزيمة الرجال ، حتى غدت المملكة العربية درّة في جبين العروبة والإسلام .

ومن الطبيعي أن تنعكس آثار هذه الصحوة الجديدة على الحياة الثقافية ، وأن

يحسّ قادة البلاد بالحاجة إلى إحياء مادرس أوكاد من مناهل العلم ، وبعث الحياة فيها ، وإلى ارتياد آفاق جديدة للمعرفة ، يجارى فيها شباب الأمة أندادهم من أبناء الأمم والشعوب الآخذة بأسباب الحضارة ، فسارعوا إلى نشر المدارس النظامية ، وإنشاء المعاهد والجامعات التي تخرجت فيها أعداد كثيرة من المتخصصين في فروع المعرفة المختلفة الذين شاركوا في النهوض ببلادهم ، وفي تثقيف أبنائها بما حصَّلوا من فنون العلم في المعاهد والجامعات داخل المملكة وخارجها .

وإذا كان فن الأدب يمثل الصورة الحية لمشاعر الأمة وعواطفها وجماع الحياة المادية والعقلية والفكرية التي يحياها أصحابه ، فقد انطلق هذا الأدب من عقاله ، وحظي بنشاط ملحوظ في هذه الحياة الجديدة .. فبرز شعراء أعادوا لدولة الشعر شبابها ونضارتها ، وولد فن القصة وفن المسرحية ، وأجاد في تأليفهما عدد من الكاتبين .

* * *

وهذه مجموعة من الشعراء المعروفين في المملكة العربية السّعودية أتاحت لي الظروف الوقوف على شيء من أعمالهم الشعرية في المدة التي قضيتها في تلك البلاد أستاذاً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في خُلس من الوقت الذي خصّصته للعمل العلمي الذي كان عليَّ أن أنهض به في المحاضرة والتدريس لطلاب الدراسات العليا ، وفي الإشراف على الرسائل الجامعية التي يعدّونها للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه .

وأعتقد أن هؤلاء الشعراء الذين قرأت لهم وكتبت عنهم يمثلون حياة الشعر في هذه المرحلة من الحياة الأدبية الناهضة أو الآخذة بأسباب النهوض في تلك الديار ، فإن فيهم شعراء من جنوبي المملكة ومن شماليها ، وشعراء من شرقيها وغربيّها ، وشعراء من وسطها .

وقد رسمت فيما كتبت صورة واقعية لهذه الشخصيات كما رأيتها فيما وقفت عليه من الأشعار التي قرأتها من نتاجهم .

وكان الهدف الأول من هذا التأليف هو التعريف بهؤلاء الشعراء ، أو بالأحرى التوقيف على ما قطع كل واحد منهم في مسيرته الشعرية من أشواط ،

وما بلغته المملكة العربية السعودية – وهي مهد هذا الجنس العربي في أصالته وحضارتـه وفي أدبه وفنـه – من درجات في عالم الشعر العربي في حيـاتها الحـاضرة .

وقد وجَّه إلى هذا الهدف الإحساس بحاجة هؤلاء الشعراء إلى التعريف بهم خارج مواطنهم بعد أن عمروا الحياة الأدبية في بلادهم بما جادت به مواهبهم بما ينشدونه في المحافل والمناسبات المختلفة من الأشعار ، أو بما ينشرونه في الصحف أو المجلات المحلية ، وبما أصدره بعضهم من الدواوين الحافلة بالقصائد والمقطعات في أغراض الشعر وفنونه ، وبقى الأدباء والشعراء في سائر المواطن العربية في حاجة إلى معرفة أندادهم من أرباب صناعتهم .

نعم ! أصبحت هذه المعرفة ضرورة من الضرورات لأمة تبحث عن ذاتها وتكشف عن مقوماتها ، وترتاد طريق سلامتها وكرامتها في زمن عظم فيه الإحساس بالحاجة إلى وحدة الصف ووحدة الهدف ، ولا يتهيأ واحد منهما إلا على أساس من الوعي ، ووحدة الفكر والاتجاه في كل منحى من مناحي الحياة ، حتى يلتئم الشمل ، ويسير الركب نحو غايته الواحدة التي رسمها الوعي العميق ، وانفعلت بها عقول المفكرين والعلماء ، وأحلام الأدباء والشعراء في شتى مواطن الأمة ومختلف ديارها ..

وينبغي ألا يغيب عن الأذهان ذلك الدور الخطير الذي لعبته وما تزال الكلمة تلعبه في حياة البشرية ، وذلك السحر العجيب الذي يحدثه الأدب والشعر في عواطف الناس ومشاعرهم ، بما يهيج من انفعالاتهم ، وبما يدفعهم إليه من السلوك والعمل في بناء الأمم والجماعات ، وتوجيهها نحو الغايات التي تسعى إليها .

* * *

وإذا كان هدفنا من هذا التأليف – كما قدمنا – هو التعريف بشاعرية هذه الطائفة من الشعراء المعاصرين في المملكة العربية السعودية ، وتناول بعض أشعارهم بالدراسة والتحليل ، فإننا لم نستطع أن نقف موقف المعرِّف أو المنادي على السلعة من غير أن يعرف حقيقتها ، أو يكون له رأي في جودتها أو رداءتها ، أو بعبارة أخرى لم نستطع أن نكبح جماح شهوة النقد الذي يأخذ بيد القارىء ،

ويعينه على تقدير ما يقرأ ، ويبصّره بمواطن الإجادة أو التقصير فيما يقرأ ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

وفي الوقت نفسه لا يعدم قارىء هذه الصفحات شيئاً من الفائدة التي قد يجدها فيما يجد من توجيه نحو المثل الصالحة في الشعر والأدب . وفي رأيي أن إفادته من هذا التوجيه أجدى عليه وعلى فنّه الشعري من طربه للثناء الأجوف على شخصه من غير غوص إلى أعماق فنّه ، ومن التصفيق الذي يستجديه من أكفّ السّامعين ، وبخاصة إذا صدر ذلك التوجيه أو النقد عن رغبة صادقة في الإفادة من غير محاولة للنيل ، أو جنوح إلى الاستعلاء .

ولذلك لم يخل هذا التأليف من النظرات النقدية عندما تسنح فرصة للنقد والتقويم ، إذا وقفنا عند مأخذ من المآخذ ، أو عندما يستوجب الإشادة أو التنويه في غير تحامل مقصود ، أو مجاملة كاذبة ، فقد انقطعت أسباب كل منهما ، وأنا أعرف تماماً أن صناعة النقد تختلف تماماً عن صناعة المديح ، أو صناعة الهجاء ! .

ولكني قلت ما أعتقد أنه الصواب متجردًا من كل سبب يدعو إلى مخالفة الحقيقة ، أو تشويه الرؤية أمام قارىء هذه الصفحات .

* * *

وسيلحظ القارىء أن هؤلاء الشعراء الذين يقرأ لهم أو عنهم في هذا الكتاب لا ينتمون إلى مدرسة واحدة ، أو إلى مدارس متقاربة ، وأنهم ليسوا على درجة واحدة من حيث الاتجاه ، أو من حيث التمكن من فن الشعر أو القدرة على الإجادة والإتقان ، أو الإبداع والعطاء .

إن قارىء هذه الصفحات سيجد أولئك الشعراء مختلفين أشد الأختلاف فيهم المقصرّ والمجيد ، وفيهم المتكلف والمطبوع ، وفيهم من استوت ملكته الشعرية ونضجت ، وآتت أكلها سمحة طائعة ، ومن لا يزال يروض هذه الملكة ، ليصل بها إلى ما يريد ، وفيهم من بهرته أضواء التجديد التي انبعثت في بعض البلاد العربية ، فأسرع في طلب اللحاق بهذا الركب الزاحف ، ومن هو مغرق في محاكاة القدامى من أساطين الشعر العربي وأعلامه الذين فتن بهم ، وآثر أن يجري في ركابهم ، وأن يحذو حذوهم .

ولا يختلف شعراء المملكة العربية السّعودية في ذلك عن أندادهم في مختلف بيئات الشعر العربي ؛ مما أدّى إلى التباعد بين مستويات الشعر العربي المعاصر ، وأفقده التوازن أو التقارب لاختلاف المنهج ، واختلاف الشعراء في مدى تمكّن كل منهم من أداة المحاكاة الشعرية التي لا يكون الكلام شعراً إلا بوفرتها ، والقدرة على التصرف فيها ، ولفقدان النموذج أو المثال الذي يحتذى .

وقد يكون من وراء ذلك كلِّه غيبة النقد الموجِّه أو النقد البنّاء الذي يزن الأعمال الشعرية بموازين المعرفة المستنيرة المتبحّرة بأصول الأدب ، ومظاهر فنِّيَّته ، وأسباب الإبداع فيه ، كما استوت في أذهان الخبراء العارفين .

ولقد كان ذلك التباين الملحوظ أهم الأسباب ، أو أهم العقبات التي اعترضت محاولة نسبة هؤلاء الشعراء إلى مدارس يجري المنتمون إلى كلّ منها في مضمار واحد ، أو محاولة تقسيمهم إلى طبقات يقفو بعضها بعضاً ، ويتميز فيها السّابق من اللاحق ..

ولم نعمد إلى شيء من الموازنة التي تفضي إلى تفضيل شاعر على شاعر من الذين تناولتهم هذه الدراسة ، لإشفاقنا من مغبّة هذه الموازنة ، وما تثيره من نوازع الشرِّ بين أرباب صناعة الأدب ، أو بينهم وبين من يحاول المفاضلة بينهم ، فإن كل فتاة بأبيها معجبة ، وإعجاب الشاعر بنفسه في مقدمة الأسباب التي تحول بينه وبين الرؤية الصحيحة لحسنات غيره ، أو الاعتراف له بالسّبق أو الإبداع .

* * *

ولست أزعم أن هذا الكتاب قد استوعب جميع الشعراء الذين يعيشون في أرجاء متباعدة من المملكة العربية السعودية ، فإنهم من الكثرة بدرجة تجعل من العسير تحقيق ما يراد من الاستيعاب أو الاستقصاء الذي كنت أرجوه ، وحالت دون تحقيقه أسباب كثيرة ، منها أنه لم يصل إليّ من أعمال أولئك الشعراء ما يكفي لتحقيق هذه الغاية ، فإن منهم من لم يجمع شعره في ديوان ، ومنهم من نشر مختارات من شعره في ديوان صغير ، ومن نشر شيئاً من شعره في بعض الصحف والمجلات التي لم أستطع متابعتها أو الحصول عليها .

ولهذا تفاوتت الكتابة عن هؤلاء الشعراء من حيث السّعة أو الكمّ ، فقد

كان منهم من اتسع له المجال ، فتناولت شعره بشيء من التفصيل ، فشغل الكلام في شعره حيزاً فيه شيء من السَّعة ، كما كان منهم من أوجزت الكلام فيه لقلّة ما وقع لديّ من نتاجه ، ولكنه مع قلته يبرز كوامن شاعريته ، ويكشف عن اتجاهه كما استطعت أن أتبيّنه من هذا القليل ..

وأرجو بعد ذلك أن يكون في حسبان القارىء أنني حين عرضت لمن عرضت لهم من أولئك الشعراء لم أكن أملك من الوقت ما يساعدني على تحقيق الغاية المثلى لما تصدَّيت له ، وعلى إصدار هذا الكتاب في الصورة التي كنت أنشدها له ، ويرضى عنها القارىء الأريب .

فقد كان يشغل وقتي ، ويستهلك جهدي العمل الرسمي الذي وفدت على هذه الديار المباركة من أجله ، وهو التدريس والمحاضرة ، والمشاركة في تخريج طائفة من طلاب الدراسات العليا الذين بذلت لهم من جهدي وخبرتي جهد الطاقة حتى حصلوا على أعلى الدرجات الجامعية ، وانضموا إلى زمرة العلماء العاملين في هذه النهضة العلمية المشهودة ، بالإضافة إلى ما كانت تكلفني به الجامعة من أعمال علمية تتصل بما انتدبتني له .

ولعل في شيء من هذا ما يقوم باعتذاري إلى نفسي أولاً ، وإلى الشعراء الذين لم تتسع لهم هذه الدراسة ، والذين شملتهم بأقل مما كان ينبغي لهم ثانياً ، وإلى جمهرة القراء المنصفين ثالثاً .

وأنا بعد ذلك وقبله واحد من جملة البشر الذين استولى عليهم النقص وهم ينشدون الكمال ، ولا حول لهم ولا قوة إلا بالله العظيم .

* * *

وقبل أن أختم هذه التقدمة التي أحسبها قد طالت أودّ أن أنبّه إلى أنه إذا كان هنالك اختلاف واضح بين نتاج هؤلاء الشعراء الذين تناولتهم هذه الدراسة ، وأن هذا الاختلاف قد يصل إلى درجة التباين ، وأن في هؤلاء الشعراء من هو آخذ بأسباب التجديد في معاني الشعر وصوره ، وفي قوالبه وأشكاله ، ومن هو موغل في القديم يحتذيه صياغة وفكراً وقالباً ، فإن هذا الاختلاف ظاهرة طبيعية في مطالع النهضات الفكرية أو الفنية وفي أعقاب فترات الضعف أو التخلف حين

يوم الشعور بهذا التخلف ، وحين تحسّ المجتمعات بحاجتها إلى النهوض ، فينشط جديد بطرافته وفتوّته ، ويهوى على الموروث بمعاول الهدم والإخراب مدّعياً أن هذا القديم لا خير فيه ، وأنه قد أدّى دوره في زمانه وانتهى ، ولم تعد له قدرة على مسايرة ركب الحياة المتقدم المتحرك .

وكذلك ينشط القديم متشبثا بحياته ، ومدافعا عن وجوده وأصالته ، وذلك ضرب من ضروب الصراع الأبديّ بين القديم والجديد ، عرفته الإنسانية في كل بيئة ، وفي كل زمان .

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الشعراء الذين تناولتهم هذه الدراسة يمثلون بشعرهم مطلع نهضة جديدة في الشعر السعودي .

ومن ثم كانت تسميتي لهذه الكوكبة من الشعراء « شعراء الصحوة » لأنهم يمثلون جانباً مهمّا من صحوة الجزيرة العربية التي عمت مختلف جوانب الحياة فيها ، في عهد حكامها من آل سعود ، وبلغت ذورتها حتى بهرت حضارتها أمم الأرض في الشرق والغرب ، واستطاع شعبها أن يحتل المنزلة الجديرة بتاريخه وحضارته بين الشعوب الحية في هذا العهد السعيد عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود أيدّه الله .

وإنما استحقّ هؤلاء الشعراء أن يكونوا (شعراء الصحوة) لأنني قرأت شيئاً من نتاج شعراء الفترة التي سبقتهم فلم أجد في أكثره ما يدل على طبع أصيل ، أو يعبر عن عاطفة صادقة ، وإنما وجدت كلاماً أشبه بالنظم الذي لا ماء فيه ، ولا شيئاً من خصائص الشعر الحيّ الذي يحرك القلوب ، ويهز مكامن الشعور . وليس فيه من قوة الأسْر أو روعة الأداء أو فخامة المعنى أو جودة التصوير ما يحملك على أن تلحقه بقديم موروث ، أو بمبتدع جديد .

وليته كان مما صحَّت لغته واستقام وزنه ، إذن لعددناه من النظم الذي لا يرقى إلى مستوى الشعر !

ولكنا وجدناه يفتقد شرط الصحة والالتزام بأصول لغة العرب الواجب مراعاتها في كل كلام ، وفيه ما اختلت أوزانه ، وكثرت ضروروراته ، وما هدمت

فيه أصول النحو وقواعد الإعراب طلباً لإقامة الأوزان . وبذلك لا نستطيع أن نعدّ مثل هذا الكلام شعراً بأي ميزان .

وهو في الوقت نفسه مما يكبر صنيع هؤلاء الشعراء الذين عرضنا لهم في هذا الكتاب ، ويجعلهم جديرين بهذه التسمية التي اخترناها ، وجديرين أيضا بأن يكونوا روّاداً لنهضة هذا الفن العربي الأصيل الجميل في المملكة العربية السعودية .

* * *

وقد كان من العسير كما أسلفت نظم أولئك الشعراء الذين عنيت بهم في هذه الدراسة في مدارس شعرية ، تجمع بين المؤثرين والمتأثرين ، وتضمّ شمل المتقاربين ، أو تقسيمهم إلى طبقات على حسب نضج الشاعرية واستوائها والقدرة على الإبداع والافتنان في صناعة الشعر .

ولذلك اضطررت إلى ترتيب أعلام الشعر في هذا الكتاب بحسب ترتيب أسمائهم وفق ترتيب حروف المعجم وتركت للقارىء حرية الرأي في الموازنة وتقدير الفاضل والمفضول بعد أن يسّرت له سبيل الحكم بما قدمت من الأسباب ، وبما عمدت إليه من الوصف والتحليل الذي يرسم صورة قريبة واضحة المعالم لكل شاعر ، وبالإشارات الكثيرة إلى معالم القوة ومظاهر التهافت في شعره .

والحمد لله على ما هدى إليه ، وأعان عليه ، له الحمد في الأولى والآخرة . نعم المولى ، ونعم النصير ، .

وانتهت مراجعته في الرياض يوم الخميس
غرة ذي الحجة سنة ١٤١١هـ
١٣ من يونيو سنة ١٩٩١م

بدوي أحمد طبانه

مدخل البحث الأدبي في المملكة العربية السعودية

تفضل صديقي الأستاذ الأديب محمد بن عبد الله الحمدان فأهدى إليّ منذ حين سفراً ضخماً يقع في خمس مجلدات تحوي أعمال المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي دعت إليه جامعة الملك عبد العزيز بجدّة في الأيام الستة الأولى من شهر ربيع الأول سنة ١٣٩٤ هـ .

ولا شك أن حفاوة جامعة الملك عبد العزيز وتكريمها لأدباء المملكة العربية السعودية وشعرائها تقليد جميل يستحق الإشادة والتقدير من كلّ من يمتّ إلى صناعة الأدب بسبب من الأسباب .

ذلك أن رصد معالم النشاط الفكري أو الفنّي في بيئة من البيئات ، والعمل على تنظيم هذا النشاط والإشادة به ، والأخذ بيد أصحابه ، كل ذلك معدود في طليعة الأعمال الكبرى الجديرة بعناية الجامعات ، فإن مهمة الجامعات ، وهى كبرى المؤسسات العلمية في هذه البلاد وفي غيرها من بلدان العالم المتحضّر ، لا تنحصر في قاعات المحاضرة والدرس ، ولا في مختبرات البحث ، ولكنها تتجاوزهما إلى التفاعل مع ما يضطرب في البيئة من حركات العقول ، وثمرات الفنون ، ورصد ما هو كائن ، ثم تقويمه وتوجيهه إلى ما ينبغي أن يكون ، بالوسائل العلمية الصحيحة التي تملك الجامعات أسبابها بالكفايات التي تتوافر لها .

ولقد مضى أكثر من سبعة عشر عاماً منذ انعقد المؤتمر الأول للأدباء السعوديين من غير أن يتبعه مؤتمر ثان ، ثم مؤتمر ثالث .. وكأن شعلة الحماسة التي دفعت جامعة الملك عبد العزيز إلى عقد هذا المؤتمر قد انطفأت ، أو كأن ذلك المؤتمر قد حقق جميع أغراضه ، وزالت الأسباب التي تدعو لانعقاده .

وأعتقد أن جامعة الملك عبد العزيز قد نهضت بواجبها ، وقامت بدورها الرائد خير قيام ، وأن على سائر جامعات المملكة أن تحذو حذوها في الدعوة إلى هذا المؤتمر واستضافة المشاركين فيه ، ونشر البحوث التي يتقدم بها إليه الشعراء والكتاب والنقاد أسوة بما كان في المؤتمر الأول .

وأرى أن تكون اجتماعات ذلك المؤتمر دورية ، بين كل دورة وأخرى خمس سنين ، وأن تتعاقب الجامعات حمل لواء هذا المؤتمر جامعة بعد جامعة .

وذلك مدعاة للتنافس بين الجامعات ، وعامل من عوامل تنشيط الحياة الأدبية

وإثرائها ، لأن كل كاتب أو شاعر يتوق إلى المشاركة في هذه المؤتمرات التي لا يشارك فيها إلاّ من هو أهل لها .

وأعتقد أيضاً أن سبعة عشر عاماً ليست قليلة في حساب أعمار البشر ، ولم تكف عجلات الزمن في هذه المدة عن الدوران ، ولم تتوقف فيها حركة الأدب ، ولم يصبها العقم أو الشلل ، حتى يتوقف ذلك المؤتمر ، فإن التيار الأدبي يتابع مسيرته ، وقد شقّ لنفسه مسالك مختلفة ، واتجاهات جديدة ، اشتد حولها الجدل والصراع ، ونشبت من أجلها معارك قلمية بين الأنصار والخصوم ، كالجدل الذي ثار حول شعر الفصحى وشعر العامية الذي يسميه بعضهم الشعر الشعبي ، ويسميه بعضهم « الشعر النبطي » .

كما أن فنوناً أدبية برزت في هذه الفترة بروزاً ملحوظاً ، وكان لها حظ من السّعة والنضج لم تحظ به من قبل ، وأهمها فن القصة الذي راج وازدهر ، وشغل به كثير من الكتاب ، وشارك فيه بعض النساء ، وهذه المشاركة جديرة بالدرس والتقويم ، وجديرة بعناية هذه المؤتمرات الأدبية .

أردت أن أقول إن الحاجة إلى استئناف عقد هذا المؤتمر ماتزال قائمة ، بل إن الحاجة إليه في مثل هذا الوقت بالذات أكثر ضرورة .

وقد يطيب لي أن أدعو جامعة الإمام محمد بن سعود إلى تبنّي هذا المؤتمر في دورته الثانية كما تبنت من قبل مؤتمرات وندوات ناجحة ونافعة ، كمؤتمر الفقه الإسلامي ، ومؤتمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ومؤتمر تاريخ الملك عبد العزيز ، وندوة اللغة العربية في مرحلة التعليم العام على مستوى دول الجامعة العربية .

لقد شهدت هذه البلاد منذ تاريخها البعيد مولد فن الشعر العربي في ربوعها ، وبين وهادها ونجادها ، وسار مع الركبان حيث ساروا ، وحَلّ حيث حلّوا في كل بلد استوطنه الأسلاف .

وبذلك التقليد الجميل الذي استنّته جامعة الملك عبد العزيز تصل هذه البلاد ما انقطع من أسباب العناية بالفن الشعري بخاصة ، وبالفن الأدبي بعامة . وما كان لأحد أن ينسى أسواق الشعر في عكاظ ومجنة وذي المجاز في الجاهلية ، وسوق المربد في الإسلام .

وقد استعاد هذه الذكريات الأمير عبد الله الفيصل في مطلع قصيدته العصماء التي حيّا بها ذلك المؤتمر ، حيث قال :

في رحابِ النّهى وصَرح العلومِ   جُمع الشملُ مثل عقدٍ نـظيمِ
وأعيـدتْ إلى عكـــاظ أمـــانٍ   كـنَّ حُلمـاً مجنّـحَ التهويـــمِ
فاستعاد الأديبُ والشاعـر الصدّا   حُ جنحاً له مطافَ النَجـومِ

والمطلع على المجلدات الخمس التي تضمنت بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين وأعمال المؤتمرين يرى أن المجلد الأول منها قد خصص للأعمال الشعرية التي ألقيت في المؤتمر باستثناء كلمات الافتتاح ، وهي كلمة المرحوم الأستاذ حسن عبد الله آل الشيخ وزير المعارف إذ ذاك ، وكلمة معالي الأستاذ الدكتور محمد عبده يماني مدير الجامعة وقتئذ ، وكلمة عميد كلية الآداب الدكتور محمد زيان عمر ، وكلمة الأستاذ عبد الله بن خميس التي مثل بها الأدباء السعوديين .

أمّا القصائد فعددها إحدى وعشرون ، منها قصيدتان ألقيتا في حفل الافتتاح أولاهما للأمير عبد الله الفيصل وقد أشرنا إليها ، والأخرى للشيخ أحمد إبراهيم الغزاوي . بالإضافة إلى مختارات من الشعر الحر اختارها وألقاها الشيخ عبد الله ابن إدريس منها قصيدتان من نظمه ، وست قصائد لشعراء آخرين .

وللشاعر ضياء الدين رجب وحده سبع قصائد ، ولكل من الشعراء إبراهيم فودة ، وأحمد عبد السلام غالي ، وحسين عرب ، وزاهر الألمعي ، وعبد الله محمد جبر ، ومحمد إبراهيم جدع ، ومحمد على السنوسي ، ومحمد العيد الخطراوي ، قصيدة واحدة .

أما الشاعر حسن عبد الله القرشي فإن له قصيدتين أولاهما بعنوان « الشاعر » والأخرى مرثية لعلي أحمد باكثير وعنوانها « راهب الفن » .

وأمّا المرحوم أحمد قنديل فقد احتوى هذا السفر الأول من شعره على قصيدتين أولاهما قصيدة ضاحكة ساخرة ، تختلط فيها العامية بالفصحى من ذلك اللون الذي يسمونه « الشعر الحلمنتيشي » الذي برع فيه الشاعر المصري حسين شفيق المصري . وعنوان هذه القصيدة « الغزاوية » . ومن أبياتها التي يذكر فيها دعوته للمشاركة في المؤتمر :

تعالى ، واقعد معايا دون مصخرة   فالمصخراء من التمرا هي الحشَفُ
وافضلْ بجنبي إذا دار الكلام هنا   مصفّقا إن أتى دوري وإذ أقفُ
فقد أتانيَ من يومين ظرفهـمُ   وداخل الظرف كرتٌ ماله طرَفُ
يقـول ندعوكـمُ ليــلاً لمؤتمر   تُحْيُون فيه عكاظاً ياله شرَفُ

وأما الأخرى فهى مطوّلته التى سماها « الزهراء » . وهى جديرة بحديث خاص إن شاء الله .

ويشتمل السفر الثاني على طائفة من الدراسات في الأدب السعودي المعاصر تناولت الشعر والقصة والرواية والأمثال والشعر النبطي بأقلام طائفة من الكتاب المعروفين في المملكة العربية السعودية ، كما تناولت بعض القضايا والاتجاهات الأدبية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر .

وفي السفر الثالث ثلاثة عشر بحثا تناول كاتبوها الأدب العربي قديمه وحديثه ، ودرسوا بعض موضوعاته واتجاهاته وأعلامه وقضاياه .

أما السفران الرابع والخامس فقد اشتملا على دراسات متنوعة منها موضوعات قومية وموضوعات تربوية وتحقيقات تاريخية وجغرافية ، وليس فيهما من حديث عن الأدب إلا في المقال الذي كتبه الأستاذ محمد الحمدان عن « نجد في الشعر العربي » .

ويبدو أن القائمين على هذا المؤتمر وكلهم من أهل العلم والفضل لم يريدوا لمؤتمرهم الفريد أن يتقيّد بالمفهوم الخاص المحدود لصناعة الأدب في فنون المنظوم والمنثور ، وما يتصل بهما من دراسة وتحليل ، أو نقد وتقويم .

وإنما أرادوه مؤتمراً أدبياً جامعاً ، ليصوّر أبرز الظواهر التي يعنى بها المجتمع . ولذلك نظروا إلى الأدب بمفهومه الأعمّ الذي يرادف مفهوم الثقافة .

وربما شجّعهم على هذا التعميم أن جلّ المشاركين في بحوث المؤتمر ودراساته ينتمون إلى صناعة الأدب ، إذ كان أكثرهم شعراء أو كتابا أو نقاداً ...

إبراهيم أمين فودة

في

خمسة دواوين

أتحفني العالم الأديب الشاعر الأستاذ إبراهيم أمين فودة بهديّة نفيسة تتمثل في تلك الأسفار الخمسة التي تضم خلاصة تجاربه الشعرية ، وحصيلة هذه المعاناة فيما سلف من حياته المباركة .

ولست أخفي أنني حين هممت بالكتابة عن شعر إبراهيم فودة تهيّبت الكتابة ، وأحسست بكثير من الإشفاق على نفسي من الخوض في هذا الخضمّ الزاخر ، أو في هذا الديوان الحافل الذي توزعته خمسة أجزاء كبار ، اختصّ الشاعر كل جزء منها باسم أو بعنوان خاص ، حتى يجد القارىء أنه أمام خمسة دواوين ضخام ، عنواناتها بحسب تسمية المؤلف وترتيبه : مطلع الفجر ، ومجالات وأعماق ، وصور وتجاريب ، وحياة وقلب ، وتسبيح وصلاة .

ولم تكن هذه الضخامة أو الكثرة وحدها سبب ما أحسست به من التهيّب أو الإشفاق ، وإنما كانت هنالك دواع أخرى منها أنه لم يسبق لي التعرّف على شخصية هذا الشاعر أو اتجاهه في فن الشعر ، برغم تلك السنوات الطوال التي عشتها في المملكة العربية السعودية ، والتي تجاوزت عقداً من الزمان ، فقد كان الشاعر من جيرة بيت الله في البلد الحرام ، لم يبرحه إلى غيره من الأمصار في المملكة إلاّ لماماً فيما أعلم . ولم يسمح لي عملي في الجامعة بمغادرة « الرياض » إلى البَلد الحرام إلا مرّات قليلة قصدت إليه فيها حاجًّا أو معتمرًا .

ومثل هذه الزيارات – وإن تعدّدت – كانت ذات غرض محدود حرصتُ ألا يزاحمه غرض من أغراض الدنيا التي قد تعنيني قبل غيرها من الأغراض ، وأهمها الوقوف على جوانب الحياة العلمية وجوانب الحياة الأدبية ، والتعرّف على الشخصيات التي كنت أسمع عنها ، أو أقرأ لها ، وأتوق إلى معرفتها عن قريب .

وفي مكة المكرمة بخاصة ، وفي المنطقة الغربيّة بعامة عدد كبير من الأدباء ، وعدد كبير من الشعراء الذين يعدّون في طليعة شعراء المملكة العربية السّعودية المعروفين ، ومنهم : أحمد قنديل ، ومحمد حسن العواد ، وحمزة شحاتة ، ومحمود عارف ، ومحمد حسن فقي ، وضياء الدين رجب ، وحسين عرب ، وحسين سرحان ، وأحمد عبد الغفور عطار ، وعبد الله الفيصل ، وطاهر زمخشري ،

وحسن عبد الله القرشي .. وإلى جانبهم عشرات من الشعراء المعروفين ، وعشرات من الشعراء المغمورين .

ولا شك أن دارس الأدب وناقده يجد في المعرفة بالأديب عوناً على دراسة أدبه ونقده ، وعلى رسم صورة صحيحة أو أقرب إلى الصحة للشخصية الفكرية أو الأدبية أو للعمل الذي يريد النظر فيه لدراسته وتحليله ، أو لنقده وتقويمه .

وذلك لأن هذه المعرفة تعينه على الفهم والإدراك ، وتيسّر له السبيل لتفسير الظواهر التي قد يتوقف عندها في شعر الشاعر ، أو في أدب الكاتب .

ومع الاعتراف بجدوى هذا التعرّف وبُعد أثره في دراسة الأدب ونقده ، قد يكون في الاقتصار على النظر في العمل الأدبي وحده من غير نظر إلى صاحبه فائدة محققة ، لأن النظر إلى العمل الأدبي بمعزِل عن صاحبه فيه تجرّد ، وتنحية للعنصر الذاتي الذي يحول دون النظرة الموضوعية الخالصة ، ويؤثر في نزاهة الأحكام ، وفي التزام الحيدة المطلقة التي ينبغي أن تكون الدعامة الأساسية في كل تقدير سليم يتحرى صاحبه العدالة ، ويحرص على الإنصاف في كل عملية نقدية ، لأن الناقد كما قررنا في كلام سابق لا يعدو أن يكون قاضياً أدبيا .

* * *

وربما يكون السبب فيما أحسست به من الإشفاق ما رأيته من التشابه الملحوظ في أعمال أكثر الشعراء الذين عاشوا في هذا الزمان ، وفي تلك البيئة في الحجاز ، ومنه شاعرنا إبراهيم فودة .

بل إن هذا التشابه ملحوظ أيضا في نتاج أكثر الشعراء في سائر أقاليم المملكة العربية السّعودية ، وذلك للتشابه الكبير بين ظروف حياتهم المادية وحياتهم الفكرية ، وما استطاعوا أن يحصّلوه من الثقافات التي تكاد تتحد في مختلف تلك الأقاليم .

أقول هذا وأنا موقن تماماً أن هنالك أفراداً أو أفذاذاً من شعراء المملكة برزت لكل واحد مهم شخصيته المستقلة ، وطابعه المتميز ، بتأثير دوافع ذاتية ، وعوامل خارجية ، ليس هذا مجال البحث عنها .

وكثيراً ما يؤدى ذلك التشابه في الدواعي والأغراض والموضوعات إلى تشابه

في المعاني والأفكار ، وتشابه في الأخيلة ، وتقارب في الصياغة والأداء .. وذلك يؤدّى بالضرورة إلى تشابه في القول ووحدة في البيان .

ولقد كان شعراء الجزيرة في القديم كغيرهم من شعراء العربية في سائر مواطن العروبة مختلفين أشد الاختلاف ، متباينين في منازعهم ومشاربهم ، حتى لقد يصعب على مؤرخي الأدب أن يحكموا على الشعر في عصر من العصور البعيدة بحكم واحد ينطبق على الشعراء كلهم أو أكثرهم في ذلك العصر ، فقد كان منهم الشعراء الغَزِلون ، والشعراء الوصافون ، وشعراء المراثي ، وشعراء الزهد والتعفّف ، وشعراء الخلاعة والمجون ، وشعراء المديح ، وشعراء الهجاء ...

حتى أولئك الشعراء الذين يتفقون في غرض من الأغراض تجد لكل شاعر منهم سمته الخاصة ، واتجاهه المتميز في التصوير وفي التخيل ، وفي لغة الشعر ، وأساليب التعبير ..

وذلك الاختلاف هو الذي يسّر لدارسي الشعر وناقديه استخلاص الخصائص الفنية التي يمتاز بها كل شاعر من الموهوبين ، وتمييز الشعراء بعضهم من بعض . ويسّر لهم كذلك الحكم لشاعر بالأصالة والإبداع ، وعلى شاعر آخر بالاحتذاء والاتباع ..

وذلك المقياس في تقدير الشعر والشعراء هو أهم مقاييس النقد أو الحكم على الإطلاق .

وأحسب أن ما يصدق من هذا على صناعة الشعر يصدق على صناعة الكتابة وصناعة الخطابة . وهذا هو الذي أبرز عدداً من كبار الكتاب وكبار الخطباء في تاريخ الأدب العربي ، تميّزت طرائق بعضهم من طرائق بعض .

وأحسب أيضاً أن هذه الخصوصيات المميزة لا تقتصر على الفن الأدبي بأجناسه المختلفة ، ولكنها تعمّ سائر الفنون الإنسانية ، ومنها الرسم والتصوير والموسيقى والنحت والتمثيل والغناء .

* * *

ومن ثَمَّ كان عليّ أن أقرأ هذا الديوان الحافل بشعر إبراهيم فودة قراءة متأنية فاحصة عن هذا الشعر ، وعن اتجاه صاحبه قبل أن أكتب عنه حرفاً واحداً .

وكنت أخشى ألا أخرج من هذه المعاناة المضنية في قراءته بشيء ، أو أخرج منها بصورة قريبة أو حائلة من ذلك النظم المألوف الذي قرأته لشعراء كثيرين ينتسبون إلى تلك البيئة وذلك الزمان اللذين ينتسب إليهما إبراهيم فودة .

وكنت أخشى ألا أجد في هذا الشعر جديداً يطمع في المضيّ في قراءته ، ثم في الكتابة عنه ، أو أن أضطر إلى أن أقول فيه ما سبق أن قلته في شعراء آخرين من أمثاله .

وإذا كان على الشاعر أو صانع الفن الأدبي بعامّة ألا يكرر نفسه ، فإن الشأن في هذا هو الشأن في الأديب الدارس أو الأديب الواصف أو الأديب الناقد ، لأن التكرار في كل حال داعية السآمة والملل . والقول المعاد ممجوج مكروه لا أرضاه لنفسي ، ولا أظن قارئاً يرضى عنه ، لأن هذا القارىء يتطلع دائما إلى الجديد ، كما تتشوف الآذان إلى اللحن الجديد الذي يجدّد أنسها ، ويستدعي طربها .

ولكن هذه المخاوف تبددت بعد قراءة هذا الديوان ، فقد وجدتني أمام شعر جيد جدير بالقراءة ، وجدير أيضا بالدراسة والكتابة .

وربما كان وصف شعر إبراهيم فودة بجدارته بالقراءة ، وجدارته بالدراسة والكتابة هو الوصف المتواضع ، وإن كان هذا الوصف لا ينهض من وجهة نظري بتقويم هذا الشعر ، أو بيان منزلته في عالم الشعر السعودي المعاصر له ، أو عالم الشعر العربي الحديث في سائر مواطن العروبة . وذلك لأننا نقرأ الشعر الجيد كما نقرأ الشعر الرديء ، ونكتب عن هذا كما نكتب عن ذاك !

بل إننا لا نحكم على عمل أدبي بالجودة أو بالأصالة أو بالإبداع إلاّ بقياسه بأعمال أخرى مهلهلة النسج ، مبتذلة في مبانيها ، متهافتة في معانيها .

وإنما تبرز قيمة شعر الشاعر بعد الكشف عن خصائصه واتجاهاته التي يتميز بها . وذلك ما سنعمد إليه وما سنحاوله في الصفحات التالية بمقدار ما يتسع له المجال ، وما يواتى به الوقت أو الجهد المحدود .

* * *

ويجمل بنا قبل هذه المحاولة أن نشير إلى أن شاعرية إبراهيم قد أفصحت عن

مكنونها مبكرة ، وأبرزت مذخورها منذ زمن بعيد يناهز نصف قرن من هذا الزمان ، وظلت هذه الشاعرية تؤتى ثمراتها دون انقطاع طوال هذه الحقبة .

وفي شعره ما يدل على مقامه بمصر فترة من الزمن ، وعلى إعجابه بمظاهر الحضارة فيها ، وعلى اتصاله بعدد كبير من علمائها وأدبائها وشعرائها الذين وفى لهم كما وفوا له ، وكما أحبّوه وقدروه . وكان ذلك الاتصال القريب من العوامل التي فتحت لمواهبه مجالاً جديداً خصباً للإنشاد والإبداع .

وكان لإبراهيم فودة أنداد من أرباب الشعر فيهم من يسبقه بسنوات ، ومن يتأخر عنه سنوات . ومنهم الذين حظوا بالشهرة الواسعة ، وذيوع الصيت ، وحلّقت أسماؤهم في أرجاء المملكة شماليها وجنوبيها ، وفي نجدها وحجازها . وربما تجاوزت أصداؤهم مواطنهم إلى آفاق أخرى قريبّة وبعيدة عن بلادهم ، فعرف الناس أسماءهم وقرءوا أشعارهم ، وذكروهم بين أعلام الأدب والشعر في شتى مواطن العروبة .

* * *

وهنالك سؤال يلح في طلب الجواب ، وأعتقد أنه يجول بخاطر كثير من الذين يقرءون هذا الكلام ، كما جال بخاطر كاتب هذه السطور .

وهذا السؤال يدور حول الأسباب التي أخرت الشاعر الكبير عن بلوغ ما بلغ بعض لداته من الشهرة وذيوع الصيت في عالم الشعر مع ظهور بواكير شعره في سنّ مبكرة ، وهو ما يزال طالباً في المرحلة الثانوية .

وهو يذكر أن المجلات والصحف المحلية نشرت شيئاً من مقالاته وقصائده قبل عام ١٣٥٨ هـ ، أى قبل أن يتمّ السادسة عشرة من عمره ، ويذكر أيضا في مقدمة الجزء الأول من ديوانه (مطلع الفجر) أن هذا الجزء صورة لشعره الذي قرضه بين الخامسة عشرة والسابعة والعشرين من عمره .

وأخشى ما أخشاه أن يظنّ ظانّ أنني أتحدث هنا عن شاعر مغمور ، أو شاعر خامل الذكر ، فإن الأستاذ إبراهيم فودة معروف مذكور ، ومنزلته في الفن الشعري لا يجحدها أحد .

ولكنى أقصد أن شهرته لا توازي إجادته ، ولا تعدل إبداعه ..

وأقصد أيضاً أن هذه الشاعرية لم يكتب لها أن تنفذ من أقطار الحجاز أو أقطار المملكة العربية السّعودية إلى آفاق رحبة في أقطار العالم العربي لتزاحم أسماء الأعلام التي حلّقت في سماء هذه الأقطار ، باستثناء مصر التي أنشد بها وفيها وفي غربته وحنينه إلى أهله وبلده عدداً من القصائد الجياد التي وصلته بأدباء مصر وشعرائها الذين عرفوه وقدّروه كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ولا شك أن جمهرة الأدباء والنقاد في البلاد العربية معذورون في جهلهم هذا الشاعر المجيد وغيره من الشعراء المجيدين في المملكة العربية السعودية . وذلك لأن شعر إبراهيم فودة وأمثاله من المجيدين لم يكن في متناول أيديهم ليقرءوه ويقوّموه ويقولوا قولهم فيه ، وينزلوه منزلته من ديوان الشعر العربي الحديث في أمصاره المختلفة .

لقد نشر هذا الشعر أو شيء منه في مجلات وصحف محلية محدودة الانتشار خارج البلاد ، كما أن جهد الورّاقين أو الناشرين في توصيل هذه الآثار الفكرية أو الفنّية إلى القارىء العربي حيث يعيش ، جهد ضئيل ، لا يكفي لنقل صورة صحيحة واضحة لثمرات النشاط الفكري أو الفني في داخل المملكة إلى ما وراءها ، ولا يسهم بواجبهم في نقل المعارف وتبادل الثقافات .

وقد يكون الشاعر ضنيناً بنشر نتاجه الشعري فلا يرسله إلى الصحف والمجلات ، وقد تكون عناية هذه الصحف بشعره دون ما ينبغي من العناية به ، والحرص على نشره .

وسواء أكان ذلك ناشئاً عن زهد الشاعر في ذكر اسمه ونشر شعره ، أم كان ذلك صدوفاً من هذه الصحف وإيثارها الترويج لأشخاص بعينهم ، فإنه على كل حال تقصير يشترك في تحمل تبعته الشاعر الذي قصّر في حق نفسه ، ومحررو الصحف الذين قصروا في حمل رسالتهم في التعريف والتثقيف والتنوير .

ولا شك أن جمع الأشعار في ديوان يبقى على الزمن خير ألف مرة من نشره في صحيفة يومية تقرأ ثم تُطوى !

* * *

على أن إبراهيم فودة يبدو حريصاً على ألاّ يذاع من شعره إلاّ ما يرضى عنه كلّ الرضا .

وفي أول « مطلع الفجر » وهو الجزء الأول من ديوانه ذي الأجزاء الخمسة التي طبعت سنة (١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م) يقرر الشاعر أنه قد سبق له « أن جمع قصائده ، ونسّقه وقدّمه إلى المطبعة ، وطبع فعلاً سنة ١٣٦٩ هـ ، ولكنه أوقف توزيعه بسبب يتعلق بالظروف ، وكثرة أخطائه المطبعية » .

ثم يقول « وكان في التأجيل ما ملأ نفسي رضاً ، فقد شملته بالتهذيب والتحذيف ؟ مرة أخيرة ، وألغيت ما أردت أن أتخفّف منه ، وأخفف عن القرّاء بحذفه . وإذا كنت قد ألغيت مقطّعات برمّتها ، وشذّبت كثيرا من قصائده بحذف أبيات منها ، وهذّبت بعض أبياته ، فهذا لا يجعله صورة لغير مرحلته ، وإن جاءت صورة مهذبة لها .. » .

ومعنى ذلك باختصار أن هذا الجزء الأول من ديوان إبراهيم فودة ظل حبيساً في خزانة صاحبه سبعاً وثلاثين سنة بالتمام والكمال ينقح فيه ويهذب ، ويحذف ويضيف ، حتى صحّ منه العزم ، فأخرجه للناس بعد هذا الحبس الطويل ، وأتبعه بالأجزاء الأربعة التي جمع فيها ما جادت به قريحته بعد ذلك الجزء الأول .

ومعنى ذلك أيضاً أن الشاعر كان حريصاً كل الحرص على ألا يبدي صفحة شعره للناس إلا في تلك الصورة التي رأى أنها الصورة المثالية الجديرة بأن تكون صورته في عالم الشعر الحديث .

وذلك فيما أرى تعليل جيد لتلك الظاهرة التي نعرفها لأفذاذ من الشعراء المجيدين . ولعله السبب الذي أخفى عن الناس شاعرية فحل من فحول الجاهليين هو نابغة بنى ذبيان أربعين سنة ، ثم فاجأهم بذلك الشعر الفحل ، الذي لقبوه بسببه « النابغة » وزعموا أنه لم يقل الشعر إلا في سنّ الأربعين ، وذلك في رأيي ما لا يكون ، لأنني لا أومن بالفجأة في عالم الفنون ، ولأن الفنّية تولد مع صاحبها . وإنما المعقول أنه تدرج في سلّم الشعر حتى استوت ملكته ، ونضجت شاعريته ، فأنشد الناس ما عدّوه به نابغة ، وجعلوه المحكّم في دولة الشعر .

وهذا هو التعليل لما يحكى عن فحل آخر من فحول الجاهليين هو زهير بن أبي سُلمى الذي يقال إنه كان ينظم القصيدة من شعره ، ثم يبالغ في تهذيبها ، ثم يعرضها على خواصّه الذين يثق بقدرتهم على نقد الشعر ، وتمييز جيّده من

رديئه ، فلا يبرزها للناس إلا بعد حول كامل ، ولذلك سموا كُبْرَ قصائده « الحوليات » .

ولزهير والنابغة أشباه من المجيدين في كل عصر من العصور .

وعندي أن عناية الشاعر بتنقيح شعره وتهذيبه ضرب من ضروب احترام النفس ، لأن الشاعر لا يريد أن يبدى صفحته للناس إلاّ في الصوْرة التي يتصورها للكمال والجمال والإبداع .

وعندي أن احترام النفس هو أيضاً ضرب من ضروب احترام الناس ، أو احترام عامة أهل الأدب ، لأن الشاعر حينئذ يكون على علم بما يحبون وما يكرهون ، وبما يرضى أذواقهم ، وما يبعثها على السخط والاشمئزاز .

وقد أردت بهذا أن أقول إن تهذيب الشاعر شعره وتنقيحه إنما هو طلب للكمال ، وليس عيباً فيه ، وليس دليلاً على قصور ملكته الشاعرية كما قد يُظن .

أما أولئك الذين لا يبالون ما يصنعون فإنهم عاجزون عن إدراك مشاعر الناس وأحاسيسهم ، وهؤلاء هم الذين يوالون الصياح ، ويتابعون النشر ، وقد يظفرون بهذا الضجيج والإعلان عن أنفسهم بما يتطلعون إليه من الشهرة في حين يحرم هذه الشهرة أولئك الذين يتوارون عن الأنظار ، منصرفين إلى إجادة نتاجهم وتهذيبه .

وقد أشار إلى هذا المعنى الشاعر الكبير محمد حسن فقي في تلك الكلمة التي حيّا بها صديقه إبراهيم فودة حين أزمَع نشر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٣٦٩ هـ ثم صدف عن هذا النشر للأسباب التي ذكرها الشاعر وأشرنا إليها فيما سبق . ثم نشر هذه التحية في صدر هذه الطبعة الجديدة لهذا الجزء الذي أتبعه بنشر الأجزاء الأربعة الباقية من ديوانه متضمنة ما جمعه من شعره الذي ألفه بعد تلك السنة .

وقد كشف محمد حسن فقي في كلمته عن جوانب من طبيعة صديقه إبراهيم فودة ومزاجه الشخصي . وأهم هذه الجوانب في نظره هو عزوف الشاعر عن الشهرة ، وبعده عن الضجيج ، في حين يعرف أن بعض الشعراء في بلده « أقاموا الدنيا وأقعدوها دعاوة لأنفسهم ولشعرهم ، وهم لم يبلغوا معشار ما بلغ الأستاذ

فودة من ناحية المكانة الشعرية ، ومن ناحية الإنتاج الغزير ، ولقد بلغوا بعض ما يريدون ، فاستحوذوا على نصيب من الشهرة لم ينله شاعرنا بعد » .

ويتنبأ الأستاذ فقي بأن هذا الشاعر حينما يقرأ الناس ديوانه « سيزيح كثيراً منهم عن الطريق ، وسينال بعمله العظيم ما لم ينالوه بالزمر والتطبيل .. قد يخدع البهرج قليلاً ، ولكنه لن يخدع طويلا . وقد يخبو نور الحق فترة من الزمن ، ولكنه سرعان ما يبدّد السحب ، ويَسطع نوره في كل مكان » .

ويرجع الكاتب تأخر ذيوع صيت الأستاذ فودة بين الناس إلى ما رُكِّب في طبعه ، « فهو صموت ، متروٍّ ، مترفّع ، ينطوي على نفسه ، ولا يمنح صداقته إلا القليل من الناس ، يصطفيهم بعد خبرة طويلة ، وامتحان عسير » (١) .

ولا شك أن رأي الأستاذ محمد حسن فقي في صديقه الشاعر الأستاذ إبراهيم فودة من الآراء التي يعتّد بها ، ويعتمد عليها في تقويم الشاعر ، إذ أنه في طليعة فحول الشعر المعدودين في الجزيرة العربية في العصر الحديث . والشعراء هم أعرف الناس بفن الشعر ، وأقدرهم على تقدير الشعراء ، والمفاضلة بينهم ، إذا استطاعوا أن يكبحوا جماح أهوائهم ، ويتخلصوا من مشاعر الرضا والسخط التي قد تتسلط على جماعة النقاد ، وتوجه آراءهم توجيهاً يباعد بينها وبين الحقيقة ، وتحول بينهم وبين الرؤية الصحيحة المجردة من أهواء النفوس ونزعاتها .

* * *

إذا كان فنّ المديح قد شغل حيّزاً كبيراً من التراث الشعري عند الأمة العربية ، وغلب على سائر أغراضه وفنونه من حيث الكمّ ، ومن حيث الكثرة الكثيرة من شعراء العربية الذين عُنوا به وتخصصوا فيه في عصور الأدب المتعاقبة ، فإن الظاهرة التي تلفت النظر في ديوان إبراهيم فودة ذي الأجزاء الخمسة هي ندرة المديح فيه .

ولم أعثر إلا على عدد قليل جداً من المدائح في هذا الديوان ، حتى ليمكن القول إن هذا الشاعر ليس من شعراء المدح الذين يجيدون الثناء والإطراء .

---

(١) مقدمة المطلع ، بقلم محمد حسن فقي ، ص ٩ من ديوان (مطلع الفجر) .

ومن أبرز ما قرأت له في هذا الفن تلك القصيدة التي افتتح بها ديوانه (مجالات وأعماق) وهو الجزء الثاني من ديوانه الكبير ، وعنوانها « أمّة تتهادى مكارم الأخلاق » . وفي مطلعها يقول (١) :

في بلاد الأنفاق والإنفاق تتلاقى الأعناق بالأعناقِ
تلك من فطرة الطبيعة في الإسـ ـلام يعيش الإخوانُ كالعشّاقِ
فاعذروني إذا هوِيت بلادي أنا أهوى طهارة الأحداقِ

وقد أنشد الشاعر هذه القصيدة في حفل افتتاح « نادي مكة الثقافي الأدبي » بوصفه رئيساً لذلك النادي .

وقد قالها مرحّبا بالأمير ماجد بن عبد العزيز أمير منطقة مكة الذي حضر هذا الحفل نائباً عن أخيه الأمير فهد وليّ عهد المملكة إذ ذاك ، وعاهل المملكة العربية السعودية الآن .

وفيها أثنى على الأمير ماجد ، وعلى أدبه العالي ، وأطرى ذوقه الرفيع ، وتواضعه الجمّ ، واحتفاءه بالعلم والأدب . ويشير إلى ما صرّح به هذا الأمير الجليل عندما عبّر عن سعادته باختياره أميراً للبلدِ الحرام ، وتحميله أعباء هذه الأمانة الغالية الشريفة ، فيقول فيما تحلّى به من فضائل :

أدبٌ فائقٌ ، وذوقٌ لطيفٌ واحتفاءٌ بالعلم حلو المذاقِ
كيف لا تملأ القلوب حواليْـ ـكَ احتراماً يلتفّ بالأشواقِ
لستُ أنسَى ما قد حييت وأرويـ ـها ، لتحيا من بعدُ في الآفاقِ
حينما قلتَ والخشوعُ بعينيـ ـك ، ونبضُ الإيمان في الأعراقِ
هذه مكةُ الحرامُ عَرَتْني عندها هزّةٌ من الإشفاقِ
واحتواني البكاءُ من رَهف الحس حياء من ربِّها الخلاّقِ
حينما اختارني المليكُ إليها وتلوْتُ الكتاب في إغراقِ
والمليكُ العزيزُ يمنحني العبْـ ـءَ وأعطي عهدي على الميثاقِ
خدمة البيت والوفود وأهليـ ـه حياتي وذمّتي ووثاقي

(١) ص ١٩ من ديوان (مجالات وأعماق) .

ولا ينسى الشاعر في هذه الفرصة السانحة أن يذكر بالإكبار مآثر العاهل الراحل الملك عبد العزيز بن سعود مؤسس الدولة السعودية ، وباني أمجادها ، ويشيد بالجهد التاريخي الجبار الذي بذله في توحيد الجزيرة العربية .

ولا يفوته أن يشير إلى موقف نبيل وقفه ذلك العاهل العظيم من أبيه العالم الفاضل الشيخ محمد أمين فودة ، فيقول في الملك عبدالعزيز :

هو من وحّد الجزيرة بالتو حيد ، وأعلى منارها بالوفاقِ
عبقريٌّ في حلمه والمعاني عبقريّ العطاء والأخلاقِ
لست أنسى ما قد حييتُ وأرويـ ـها لتحيا من بعدُ في الآفاقِ
حينما قالِ والرجال شهودٌ لأبي بعد جفوةٍ وانغلاقِ
يُشهد الربعَ أنه قد عداه نحوه الرأيُ من جُناة النفاقِ
وبهذا ضمّ القلوب إليهِ وطوى الأرض تحته في اتساقِ

ويستطرد إلى الثناء على ابنِهِ الملك خالد بن عبد العزيز ، وفي عهده كانت المناسبة التي أنشدت فيها القصيدة ، فيصفه بأنه « بضعة من جنان أبيه الخفاق » وبأنه :

قائد الركب والمسيرة في الخيـ ـرِ زكي الفؤاد والإنفاقِ

ثم ينتقل إلى الثناء على أخيه « الفهد » الذي كان وليّ العهد إذ ذاك ، وهو مليك البلاد اليوم ، فيذكر حبه للعلم ، وتكريمه للعلماء ، منذ كان أول وزير للمعارف في دولة آل سعود ، فأنشأ المدارس والمعاهد المختلفة في ربوع البلاد وأرجائها ، وعُني بالجامعات ورجالها ، لأنه أدرك بحكمته ونافذ بصيرته أثر العلم في نهضة شعبه الوفي ، وارتقائه في سلّم الحضارة . ولم ينس الفهد رعاية الأدب ، وهو الفن الأصيل عند الأمة العربية .

وهذا النادي الثقافي الأدبي الذي ألقيت هذه القصيدة في حفل افتتاحه إنما هو غرس من غراس « الفهد » الذي حقق به أملاً كبيراً من الآمال التي كانت تتطلع إليها جماهير العلماء والأدباء في البلد الحرام ، فيقول في « الفهد » بعدما قال في أخيه الملك خالد :

وأخوه « الفهد » الذي احتضن العلْـ ـمَ وروَّى حياضَه بالسّواقي
ورعاها منارةً بعد أخرى تتسامى كالكوكب البرَّاقِ
وهو اليوم يكْرِم العلمَ والآدا بَ بهذا اللقاء بعد انبثاقِ
إن هذا النديَّ في مشرق النو رِ انفتاحٌ من وعيه التواقِ
مجمعٌ للقلوب يأتلف الأفكا رَ جديداً خيراً بخير العِتاقِ
وزها مثله على كل صقعٍ مِن بلاد موصولة كالعناقِ

وبعد أن يضفي على الملك فهد هذا الثناء الفاخر الذي هو أهله برعايته نهضة العلم والأدب في المملكة العربية السعودية يتحدث الشاعر عن أصالة الشعب العربي في السعودية ، وعراقته في العلم ، واحتفائه بفن الأدب ، وجدارته بمثل هذا المنتدى الثقافي الأدبي الذي يعدّه وصلا للماضي المجيد بالمستقبل السعيد ، مشيراً إلى محافل الأدب وأسواق الشعر في الجاهلية والإسلام ، فيقول :

نحن أحرَى به ، فما هو إلاّ من تراث الأسلاف والأعلاقِ
نحن أحرَى به ، لندرك ما فا تَ ، لطول المدى ، وبُعد اللّحاقِ
فالمعاني إلى العُروق غذاءٌ وغذاء الأجساد في الأعراقِ
هكذا كان شأننا يوم كنّا كيف كنّا من عزّة وانطلاقِ

ويختم الشاعر قصيدته بابتهال إلى الله ليبارك هذا المسعى الحميد ، ويحقق الآمال المعقودة عليه ، وبدعاء لحكام البلاد بالنصر والتأييد ، ولشعوب الإسلام بالعزة والهداية والرشاد ، لتصنع الأمجاد ، و « تتهادى مكارم الأخلاق » .

* * *

ذلك أبرز ما وقفت عليه من شعر المديح في هذا الديوان الحافل ، وهي قصيدة أوحتْ بها تلك المناسبة ، مناسبة افتتاح هذا المنتدى الأدبي الثقافي في مكة المكرمة الذي تولّى إبراهيم فودة رياسته منذ إنشائه حتى عهد قريب .

ومن الطبيعي أن يكون لمثله في هذا المقام كلمة ، ومن الطبيعي أن تكون كلمة الشاعر قصيدة من شعره .

ومن الطبيعي أيضاً أن يحيي الأمير ماجداً الذي حضر هذا الحفل ، وكان

ضيف الشرف فيه ، وأن يستطرد إلى ذكر أبيه الملك عبد العزيز الذي يقدر جهاده وبطولته الناس قاطبة ، وإلى ابنه الرجل الصالح الخيّر الملك خالد ، وإلى أخيه الفهد قائد النهضة الحضارية وراعي الحياة العلمية والأدبية في البلاد منذ كان أول وزير للمعارف في التنظيم الجديد لدولة آل سعود حتى آل إليه الملك ، وما يزال يرعى هذه النهضة الحضارية المباركة .

ثم إن الشاعر لم يعمد في شيء مما قال في مدح أحدهم إلى أن يمدحه بما ليس فيه ، ولم يركب مركب الغلوّ في أي معنى من المعاني التي أوردها ، ولم يتجاوز دائرة الحقائق التي يعرف ويسلّم بها عامة أهل البلاد وخاصتهم فيما ذكر من الأخلاق أو الأعمال أو الفضائل التي وصف بها كل واحد من هؤلاء الممدوحين .

ولا يسع قارئاً لهذا الشعر أو مستمعاً إليه إلاّ أن يذعن للشاعر ويعترف له بالإنصاف ، وأن يقدره ويكبره بالتزامه جانب الحق ، وإيثاره الصدق في كل ما قال .

على أني لم أظفر في ديوانه الضخم بمثل هذه القصيدة في مديح رجال الحكم أو ذوي اليسار إلا من وصلته بهم صلة من عشرة أو ودّ أو صداقة .

* * *

وهذه الظاهرة – ظاهرة خلوّ ديوانه من شعر المديح – جديرة بالتأمل والتوقف عندها مع ماقدمناه في صدر هذا الكلام من عناية الشعر العربي بفن المديح ، ومع كثرة المتكسّبين به منهم في تاريخ الأدب العربي .

وما تزال ظاهرة التكسّب بالفن الشعري موجودة في زماننا . ونحن نعرف كثيرا من الشعراء نالوا من عطاء ممدوحيهم ما قرّت به أعينهم ، وما أصبحوا به من السَّراة المترفين بعد أن كانوا من السّوقة المعدمين .

ونحن لا ننكر على هؤلاء المتكسّبين بفن الشعر حق العيش بما وُهِبوه من الملكة إذا لم يجدوا غيره من وسائل العيش وأسباب الرزق ، ولا ننكر على ذوي المروءة والسخاء أن يهتزوا للإطراء ، وأن يطربوا للثناء ، لما ركّب في النفوس من الولوع ببقاء الأثر ، وخلود الذكر ، فإن الذكر للإنسان عمر ثانٍ ، وحبّ الثناء طبيعة الإنسان .

ولا ينكر عليهم أحد الاستجابة للمديح ، ومكافأة أولئك الشعراء الذين أشبعوا هيامهم بحبّ الثناء ماداموا يجدون ما يكافئون به وما يبذلون .

لا شيء على المادحين إذا أثنوا ورغبوا ، ولا شيء على الممدوحين إذا اهتزوا ووهبوا ، مادام الإنسان محتاجاً إلى الإنسان ، ومادام في الناس القويّ والضعيف ، والقادر والعاجز ، والغني والفقير ، والعاني والكريم .

ويبقى النكير في امتهان الإنسان كرامته ، وامتهان الشاعر فنّه ، وفتله بين الذروة والغارب ، وبذل ماء وجهه في ثناء كاذب ، لقاء عرض زائل .

وقد أثنى عمر بن الخطاب على زهير بأنه « كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه » .

ومّر عمران بن حِطان بالفرزدق ، وهو ينشد شعراً في المديح ، فوقف عليه فقال :

أيّها المادحُ العبادَ ليُعطَى ... إنّ لله ما بأيدي العبادِ
فاسأل اللهَ ما طلبتَ إليهمْ ... وارجُ فضلَ المقسِّم العوَّادِ
لا تقلْ للجواد ما ليس فيه ... وتُسَمِّ البخيل باسم الجوادِ

أما إبراهيم فودة فإن الشعر في رأيه مرآة تنعكس عليها حياة الشعوب وأخلاقها ، وهو صدى ينبعث عن صوت ضمير الشاعر ، وليس ضرباً من ضروب العبث يتلهّى به السّوقة والعوامّ الذين لا يدرون ما كنهه ، ولا يدركون حقيقته . وإنما هو مستودع أسرار النفُوس ، وما تنبض به القلوب ، وليس سلعة تباع وتشترى ، أو مادة للتكسّب والارتزاق ، فيقول [1] :

الشعرُ مرآةُ الشعو ... بِ ، وليس أوهام الظلامِ
الشعر أصداءُ الضمير ... رِ الحرِّ لا عبث الطّغامِ
الشعر أوعية القلو ... بِ ، وليس أوعيةِ الطعامِ

* * *

وتتجلّى لنا شخصية إبراهيم فودة في شعره الذي يعكس على صفحته صورة رجل مؤمن شديد الحفاظ على دينه ، يخشى ربّه ، ويراقب نفسه ، ويملك زمام هواه .

(١) ص ١٥ من ديوان (مجالات وأعماق) .

كما نقرأ في هذا الشعر ما يؤكد تصوُّن صاحبه وعفافه ، فهو لا يطعم إلا طيِّبا حلالا ، ويفرّ من الحرام وما فيه شبهة للحرام ، ولذلك يرفض الهديَّة ، ويعدَّها رشوة مقنّعة ، لولا المناصب لم يقدّمها أحد ، وهو يقول الحق ، ولا يخشى في الحق لومة لائم .

ويستشهد على صدقه بأقرانه ومعاصريه ، وما يزال كثير منهم أحياء يعترفون له بالإباء والصدق إذا راقبوا الله فيما يقولون .

اقرأ قوله في قصيدة عنوانها « تاريخ » [1] :

والله ما قبضتْ كفِّي ولا ملكتْ قرشاً حراما، ولم أمددْ إليه يدَا
ولا قبلتُ الهدايا رشوةً خفيتْ لولا المناصبُ ما جاءتْ إليّ سُدَى
مازال كلّ لِداتي في الحياة على وجه الحياة ولا أخشى المماتَ غدَا
سَلوهمُ اليومَ أو بعدي فإن رقبوا فيّ الإلهَ رضيتُ الله لي سندَا

ويمضي الشاعر في تأكيد ترفّعه وإبائه وعزّة نفسه التي لم يمتهنها في طلب العطاء ، ويتحدّى الناس جميعاً أن يدلّه واحد منهم على منّة منّ بها عليه ، لأنه مؤمن بربّه ، شاكر لأنعمه ، راض بما قسمه له ، فعفّ عن طلب عطاء من إنسان ، فيقول :

ولا تذللتُ أستجدي العطاء يدًا ذلّتْ لها الناسُ كَرها أو رجاءَ جدَى
سَلوهم مَن ترى منهم يمنّ بها جدوى عليّ فما استرفدتهم أبدَا
غَنيتُ بالله مغني المؤمنين بـه مَنْ يَغْنَ بالله لا يرجو سواه نَدى

هَذا الإيمان بالله ، والرضا بما قسم له من رزق حلال هو الذي أورثه ما رأيناه من ترفّع وزهد فيما هو في أيدي الناس ، وهو الذي باعد بينه وبين فنّ المديح الذي افتنّ فيه أكثر شعراء العربية في كل بيئة ، وفي كل زمان .

ولست أعرف على وجه التحقيق السبب الذي يختفي وراء هذه العفة أو ذلك الزهد فيما يتهافت عليه الناس بعامة ، وكثير من الشعراء في بيئته بخاصة ، والزهد والعفة على كل حال من كبريات الفضائل الإنسانية التي يفضُل فيها أو بها إنسان إنساناً ، ويكبر بها في قلوب الناس .

---

(١) ص ٢٧١ من ديوان (تسبيح وصلاة) .

أكان زهد إبراهيم ناشئاً عن غنى النفس ؟ أى أنه كان ملكة راسخة طبعت عليها نفسه الكبيرة ، فلا يستطيع الخروج عليها مهما ضغطت عليه الحاجة ، وذلك من شيم النسّاك أو الحكماء ، والله يؤتى الحكمة من يشاء !!

أم كان ذلك ناشئاً عن يساره وسعة ذات يده بمال موروث أو مكسوب بالسّعي وعرق الجبين ؟

أم كان السبب فيه بنوّته لذلك الشيخ الجليل محمد أمين فودة الذي شرفه الله بإمامة البيت الحرام ، والتدريس فيه ، بعد تشريفه برياسة القضاء ؟

لست أدري على وجه اليقين أي هذه الأسباب الذي أثر في سلوكه ، وغرس في نفسه ما رأينا من تعفّفه وزهده فيما لم يزهد فيه أنداد له من الشعراء الكبار ، والشعراء الصغار من باب أولى .

هذا ، وإن كنت أرجح أن هذه الأسباب مجتمعة هي التي طبعته بطابع الترفع والإباء .

* * *

أقول هذا وبين يديّ من شعر إبراهيم فودة عدد كبير من القصائد والمقطعات التي ألّفها في الثناء على عدد كبير من الفضلاء الذين توثقت صداقته بهم ، والتحمتْ مشاعره بمشاعرهم .

ولا نستطيع أن نعدّ هذه القصائد والمقطعات من باب المديح بالمعنى المعروف في عالم الشعر الذي ينسى فيه الشاعر نفسه ، ويتضاءل أمام ممدوحه ، ويخلع عليه بالحق وبالباطل ما شاء من النعوت والأوصاف ، ويصطنع له من المآثر والأمجاد ما لا حقيقة له ، ويغلو في ذلك غلوّاً ينكره ذوو المروءات ، ولو كانوا هم المقصودين بالمديح والإطراء .

ليس لإبراهيم فودة شيء من هذا ، لأنه - كما يبدو لنا - لم يتسلّط عليه انفعال بالرجاء ، ولم يثره شعور بالخوف .

وإذا ألحت الرغبة ، واشتدت الرهبة ، ووصلت إلى أعماق النفس الشاعرة كان ذلك من أقوى الدوافع في إثارة الشاعرية ، وتوجيهها نحو المديح ، بل وإلى الإجادة فيه أيضاً ، وربما صرف هذا الشعور صاحبه عن التغني بعواطفه الخاصة ومشاعره الذاتية .

ولكن الذي نقرؤه من ذلك لإبراهيم فودة يمثل تعبيراً عن أحاسيس صادقة نحو أحبة له صادقين ، قاسمهم كئوس الصفاء ، واستقرّت في سويدائه محبتهم فانطلق ينتهز المناسبات للإعراب عن هذا الهوى الكامن بين أضلاعه .

من ذلك قصيدته « تحية وسرور » (١) وقد صاغها في مناسبة مقدم الشيخ محمد سرور الصبان من الرياض إثر رحلة طويلة إليها .

وفي أولها يصف مشاهد الطبيعة ، ومفاتنها السّاحرة ، وكأنها نهضت ترحّب بمقدم صاحبه الكبير في أبيات من أجود شعره الوصفي :

أتى الروضَ مخضرَّ الخمائل طائرُه ووافاه من سَيْب السحائب ماطرُهْ
فمالتْ غصونُ الأيك من فرط شجْوها يناشدها غرِّيدُها وتسايرُهْ
ورفرفت الأوراقُ واخضلّت الرُّبا وفاح بعرف من شذا الزهر عاطرُهْ
وثرّ عليه البدرُ نورا مفضضاً فرقّت مغانيه ورفّتْ أزاهرُهْ

ثم يأخذ في شرح عواطفه نحو هذا الشيخ ، ويذكر أشواقه إليه ، ووفاءه له ، ومحبته التي غرسها في قلبه ، فيقول :

وفاض على الوادي « سرورٌ » ترنمتْ بأعذبِ ألحان الوفاء مزاهرُهْ
غدوْتَ فكان الشوق نحوك لايني يساورنا آناً وآناً نساورُهْ
وعُدْتَ فقرَّت أعينٌ طال سُهدها حفاظاً على الودّ الذي أنت باذرُهْ

ولا يقتصر الشاعر على وصف مشاعره وحده نحو مقدم هذا الشيخ الصديق من سفره الذي رآه قد طال ، ولكنه يجعل موجة البشر والابتهاج تغمر جميع الذين عرفوه عن كثب ، وقدَّروا فضائله وأحبّوه . وقد أهرعتْ جموعهم إلى داره فرحين مستبشرين ، يرحبون به ، ويعبرون عن فرحتهم الكبرى بمقدمه ، ولقائهم إياه ، فيقول :

وجاءتْ وفود الناس نحوك جمةً تراوح دوحَ الحبّ ثم تباكرُهْ
وسارتْ على الأفواه ذكراك والفتى حديث على الأيام تبدو سوائرُهْ
سرتْ كأريج الورد شذّان عاطرًا وما المرءُ إلا فعلُه ومآثرُهْ

(١) ص ١١٥ من ديوان (مطلع الفجر) .

ويختتم القصيدة ببيتين عامرين بتحية صادقة تنبعث من عقل الشاعر وجنانه يؤكد فيهما حبّه وسعادته بعودة هذا الشيخ الصديق إلى حماه بين قلوب تحبّه وترعاه ، ويعرب عن وفائه وبقائه على عهد الوداد ، فيقول فيهما :

أحيِّيك من قلبي وفكري وخاطري ... تحية من أصفاك بالحبّ خاطِرُهْ
وإنّي لأرعى الودّ ما عشتّ جاهدًا ... كما يحفظ الدرّ المنضّد ذاخـرُهْ

* * *

تلك واحدة من قصائد كثيرة نجد فيها تعبيراً صافياً عن صداقة صادقة ، وإعراباً عن فضيلة نادرة في هذا الزمان ، وخلق راسخ طبع عليه الشاعر ، وهو خلق الوفاء الذي يتميز به أفذاذ من الفضلاء في كل زمان .

ولا نقرأ فيها أثراً للتهافت أو التدنّي المألوف الذي نقرؤه في أشعار المداحين الذين يتَّضِعُون ليستعلي عليهم ممدوحوهم بما يخلعون عليهم من النعوت ، وبما يصطنعونه لهم من الأمجاد .

وأمثال هذه القصيدة في شعر الشاعر كثير ، وكلها يدل على إخلاص في الحب ، ووفاء عميق لمن أحبّ .

وما من أحد توجه إليه الشاعر بمثل هذا إلا وهو واحد من خلصائه ، وصفيٌّ من أصفيائه الذين بادلوه حبّا بحبّ ، ووفاءً بوفاء ، وهم لا يملكون له ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضرّا .

وإذا كنا قد وصفنا شاعرنا بما يحملنا عليه ما قرأناه في ديوان شعره من آيات الترفع فإن بين الترفع والكبرياء بوناً بعيدًا ، فإن هذا الترفع مظهر من مظاهر احترام النفس والسموّ بها عن الصَّغار ، في حين أن الكبرياء استعلاء على عباد الله الذي تفرّد بالكبرياء ، كما أن التواضع غير الضعَة التي تعني هوان النفوس على أصحابها .

وقد أمتع الله الشاعر بكلتا الفضيلتين ، فضيلة الترفّع وفضيلة التواضع ، وهما فضيلتان بارزتان بوضوح في هذه القصائد .

* * *

ويزخر ديوان إبراهيم فودة بفيض من العواطف النبيلة ضمَّنها تحيات أنشدها في بعض المحافل أو بعث بها إلى نفر من خلانه وخلصائه الذين قاسمهم كئوس المودة والصفاء من الذين صحبوه في رحلة الحياة ، أو من الذين عرفهم في بعض مراحلها ، واحتفظ لهم في أعماق قلبه بأغلى الذكريات التي تفاعلت تجاربها مع مشاعره ، فسجلها في قصائد أو مقطعات من شعره العذب الأنيق ، تكريماً لهم ، ووفاء بحقّهم .

ومن هذه القصائد قصيدته « رفيق العمر » [1] ، وهي تحية بعث بها في بعض رحلاته إلى صديقه « حمزة بصنوي » .

ويدل عنوان القصيدة على موضوعها ، وقد عبّر فيها عما كان يحسّه من آلام الفراق ، ولوعة البعد عن صديق طالت صحبته إياه في مسيرة الحياة ، وعن ذكريات غالية ملأت قلب الشاعر ، ولم يستطع البين المشتّ أن ينال منها أو أن يخمد جذوتها .

وندع الشاعر يتحدث إلينا في هذا الشعر العذب بهذه المعاني الشريفة في هذه المناجاة الرقيقة الآسرة ، فإن حديثنا عنها لا يفي بشرح ما تضمنته من هذه العواطف الدافقة . وفي أول هذه القصيدة يقول الشاعر :

يا رفيق العمر منذ الصغَرِ	وصديقي في الصِّبا والكِبَرِ
راعنا البين فما فرّقنا	إنما استنفر أحلى الذِّكَرِ
ذكريات ملؤها أنبلُ ما	أودعَ الله ضمير البشرِ
ذكريات كلها الودّ سقَى	نبعُه الفيّاض خير الوطرِ
ذكريات كلّما طال بها	عهدُنا تعلو على المدَّكرِ
ذكريات هنَّ في الدنيا لنا	أفضل الذخر لدى المدَّخِرِ
ذكريات رفرفُ الخلد بها	حافلٌ في موكب مزدهرِ
حوَّم القلب عليها فانتشى	وعراه الشجوُ فيما يعترِي
قد هفا يحنو إلى أيامنا	بالنّقا مرّت كلمح البصرِ

(١) ص ١١٦ من ديوان (مطلع الفجر) .

ثم يأخذ في تعداد شيء من هذه الذكريات العزيزة عليه منذ أيام الصبا والشباب وهي ذكريات لا تنسى مهما شطت به النوى ، وطال بها أمد الفراق :

يوم كنّا والمنى مورقـة ... ومجالي الأنس ملءُ النظرِ
وربيع العمر في مقتبلٍ ... مشرقِ الجدّة غضٍّ نَضِرِ
وعرانا من عوادِي البين ما ... يطرق النفس بشتّى الصّورِ
لم يباعدْ بين قلبيّنا على ... فَسْحَة العمر وزحْم الفِكرِ

ويبدو أن « حمزة بصنوي » كان حبّه يحتل أرفع المنازل في قلب الشاعر ، وأنه ينزل هذه المنزلة عنده شاهداً وغائبا ، ولذلك كثر شعرُهُ فيه الذي شرح ذكرياته معه فيه ، ووصف عواطفه نحوه .

وشعره فيه من أجود شعره ، وأغزره بالعاطفة .

وفي رحلة أخرى من رحلاته يبعث إليه بقصيدة يسميها « سفارة الشعر » وقد وضعها في ديوانه الأول (مطلع الفجر) عقب قصيدته السّابقة « رفيق العمر » وفي أولها يقول :

لكَ الودّ ما بين القلوب غميرُ ... ستيرٌ له في الخافقين عبيرُ
أضنّ على الدنيا بسرّي وإنما ... أبثك ما يُخفي هوى وضميرُ
وأشهدُ قد وفّيتَ حبّا ونصرةً ... فلي أنت قبلَ العالمين ظهيرُ
رويدك لا تحمل على قلب لاهفٍ ... يكاد من الشوق الكبير يطيرُ

ويلتفت إلى الماضي البعيد ، فيذكر الربوع التي يستعر شوقه وحنينه إليها ، ويذكر عهد الشاب الذي كانت تعمره الأماني والأحلام ، ويزدهر بالعيش الخصب الرغيد ، وبما كان يتمتع به في شبابه أنس ومرح وطلاقة :

يحنّ إلى خير الربوع وعهدنا ... بها حيث جلبابُ الشبابِ طريرُ
وحيث نروّي النفس من منهل المنى ... ومن كوثر الآمال وهو نميرُ
وشعّ علينا ثمّ والدهرُ باسمٌ ... شبابٌ على غصنِ النفوس منيرُ
مدارج أنس طاب فيها مقامنا ... كأنـا لها فـوق المجرّة دورُ

تلك الذكريات السعيدة التي كان يتغنى بها مازالت تعمر قلبه ، وقد أصبحت عزاءه وسلواه بعد أن أصابه ما أصاب غيره من تبدل الحال ، فقد روّعه البين ، وشطت به النوى ، وتفرَّق الشمل ، فودّع صفو الحياة وسرّاءها بعد أن طوّحت به الأحداث ، ورمتْ به بعيداً عن مرابعه ، ونأت به عن أحبابه :

تعاودني الذكرى فأجترّ ماضياً ... يواكب ذكراه جوى وزفيرُ
لقد كنتُ ريان الفؤاد مغرّداً ... بشعري وكلّي بهجة وحبورُ
مضى ذلك العهد البعيد تتابعتْ ... على إثره الأحداث وهي كثيرُ
فحلّ بنا ما حلّ بالناس قبلنا ... وروّعنا البينُ المريع يغيرُ
وودّعنا صفو الحياة ولم يعدْ ... لنا من تباريحَ الحياة مجيرُ
تقضتْ ليالينا كأن لم تكن لنا ... وإنا على أعقابها سنسيرُ

ويختتم الشاعر قصيدته بالرجاء وبسط الأمل في استئناف تلك الحياة الماضية التي سعد بها حيناً من الدهر باجتماع الأحبة ، ولمّ الشمل ، وواسطة عقدهم صديقة الحميم حمزة بصنوي الذي قال فيه وفي أبنائه شعراً كثيراً .

وحسبنا بعد هذا أن نورد من هذا الشعر مقطعة من ثلاثة أبيات نظمها الشاعر ، وبعث بها مع هدية خصَّ بها ذلك الصديق الأثير ، وهي تفصح بالمنزلة العليا التي يحتلّها من قلبه ، وهي [1] :

أهدي إليك أخي الكريـ ... ـم هديتي هذي الضئيلهْ
لو قوّم الإحساسَ إنسـ ... ـانٌ ليُودِعه رَسيلهْ
إني أرى ياصاحبـ ... ـي في حقك الدنيا قليلهْ

وصف هديته إلى صاحبه بالضآلة ، وجعل الدنيا كلها قليلة في الوفاء بحق صاحبه . وكان في ذلك أكثر غلوا من الذي قال :

لو كان يُهدى على قدري وقدركمُ ... لكنت أهدي لك الدنيا وما فيها

وإن كان بيت المتقدم أحكم وأجود من حيث البناء ، ولتمام معناه باكتمال الشرط والجواب . أما شاعرنا فقد جعل جواب شرطه استئنافا .

---

(١) ص ١٢٠ من ديوان (مطلع الفجر) بعنوان « هدية » .

ولا يقصُر إبراهيم فودة محبته ووفاءه على رفقته من لداته وإخوانه من بني بلده ، ولكنه محبّ وفيّ لكل من رأى فيه أثارة من علم أو خلق ، أو تقًى وورع مهما يكن وطنه إذا رآه وعرف فضله .

وهو يكبر خلق الوفاء ، ويراه لازماً لكل من أحبّ لمعنى من هذه المعاني ، أى أن الوفاء في رأيه نتيجة حتمية لكل حبّ خالص منزّه عن الهوى والغرض ، وهو القائل [1] :

ولم أر في وفاء الناس حالاً أعزَّ من الوفاء لمحضِ حبٍّ
يريد لمن أحبَّ الخير حتى ولوضحّى له بعُصار قلبِ
تلذّ له ملذّته ولو لم بطاعمه على طُعْم وشُربِ
ولا يجدُ الحياة سوى رضاه ففي رضوانه النُّعمى لصبٍّ

ولقد أحبّ إبراهيم فودة الناس جميعا ، ووفى لأهل الوفاء منهم ، ولمن عرفه وقدره من العلماء والأساتذة الذين تتلمذ لهم ، وصاغ في فضائلهم القصائد الطوال الجياد من أنفس شعره الذي خلّد فيه ذكرهم ، وأحصى فضائلهم .

وأسعدني كثيراً أن أرى بين أسماء هؤلاء الفضلاء اسم الأستاذ « أحمد سليمان رشوان » الذي كان يدرس له العلوم في مرحلة الثقافة العامة في مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة ، وقد أنشد في تكريمه قصيدة طويلة ، ختمها بهذه الأبيات [2] :

يا طيّب النفحات من قلب ومن عقل بصيرِ
يا حافز العزَمات شكـ ـرًا بالنظيم وبالنثيرِ
لك في القلوب مكانةٌ والله أعلم بالضميرِ
تأتي الدهورُ على الدهو رِ ، ولا تغير على الصدورِ
فاسْم المعلمِ في القلو بِ تشعّ أحرفُه بنورِ

وسرّ سعادتي بما ذكرت أن الأستاذ الفاضل أحمد سليمان رشوان كان واحدًا

---

(١) ص ٢٤٠ من ديوان (صور وتجاريب)

(٢) ص ١٣٥ من ديوان (مطلع الفجر)

من أساتذتي الفضلاء الذين تتلمذت لهم في المرحلة الثانوية في مصر قبل أن يكون أستاذاً للشاعر الوفي بكثير .

وقد يكون في تسجيل هذه الخاطرة التي سنحت لي شيء من الوفاء لذكراه الطيبة كما وفى له الشاعر الكبير .

* * *

وتجد شاعرية إبراهيم فودة لها منطلقاً فسيحاً رحباً ، تتغنى فيه بمشاعره وأحاسيسه نحو أسرته وخاصةِ أهله .

وذلك مجال لم يخض فيه إلا عدد قليل جدا من شعراء العربية في القديم والحديث .

نعم تحدث كثيرون من أولئك الشعراء من قديم عن الأدباء والأجداد ، ولكنهم قصروا شعرهم في هذا على الأسلاف في مجالات المنافرة ، ومجالات الفخر بالأحساب والأنساب ، والزهو ببسالتهم في الحروب ، وبلائهم في الوقائع والأحداث ، أو قرى الضيفان ، لأن الشجاعة والكرم كانا في مقدمة الفضائل التي كان العرب يتباهون بها .

وأيّا ما كان الأمر فقد كان ذكر الآباء والأسلاف والتغني بما حصّلوا من أمجاد يصطبغ بالصبغة القبلية في أكثر الأحوال .

وقد اتسعت تلك النظرة القبلية اتساعاً عظيما ، وأدّت بها تلك السّعة إلى إبعادها عن الأصل الذي اشتقت منه ، بل إلى القضاء عليها قضاءً تامّا ، بعد أن جاء الإسلام فوحّد العرب ، وألف بين قلوب المسلمين ، وسوّى بينهم في الحقوق والواجبات .

وليس يعنينا الآن حديث عن ذلك الشعر الذي أنشده إبراهيم فودة في تمجيد الإسلام والعروبة ، فإن له في ذلك باعاً طويلا ، قد نعرض للإشارة إليه فيما بعد .

ولكن الذي يعنينا الآن هو البحث عن مظاهر التفرّد والإبداع ، ومظاهر السبق والتفوق على الأقران في شعره .

ومن هذه وتلك عنايته الفائقة بالتعبير عما يكنّه قلبه من الحب العميق لمجتمعه الصغير ، وأسرته المحدودة .

ولا شك أن المتأمل لشعر إبراهيم فودة سيروعه ذلك النتاج الغزير المفعم بأنبل العواطف مما خص به أسرته .

وسيرى طغيان ذلك اللون من الشعر ، وأعني به « الشعر الأُسْرِي » الذي أنشأه في عشيرته الأقربين ، وغلبته على سائر الأغراض والفَنون التي عالجها في شعره .

وسيرى ذلك رأي العين في الجزء الثاني من ديوانه الذي سماه (مجالات وأعماق) ، كما يراه منثورا في تضاعيف دواوينه ، أو أجزائه الأخرى .

إن أفراد هذه الأسرة هم ملاذ الشاعر ، وجماع ماله في الحياة : الأب الحاني ، والأم الرءوم ، والزوج العطوف ، والأبناء البررة ، والبنات والأصهار والأحفاد .

إن هؤلاء جميعا هم دنيا الشاعر وعالمه القريب ، وهم الدوحة التي يتفيّأ ظلالها ، والثمرة المشتهاة التي تغذوه ، وتسكّن روحه الثائرة ، وجنانه الملتاع ، إذا التقى بهم رضيت نفسه ، وترنم بأعذب ألحان الرضا ، وإن نأى عنهم ، أو نأوا عنه أظلمت الدنيا في وجهه ، واستعرت بين جوانحه جذوة الجوى والحنين إلى اللقاء .

وكلّهم قال فيه شعراً ، وأنشده أعذب ألحان الأمل ، وأشجى أنغام الألم ، وهم الذين ملئوا قلبه ، وألهموه معاني الحبّ والرحمة والوفاء .

وبذلك ينضَمّ إبراهيم إلى أولئك الأفذاذ الذين نسميهم « شعراء الأسرة » . وهم في تاريخ أدبنا العربي أقل من القليل ، نذكر منهم صديقنا المرحوم عبد الرحمن صدقي الذي ألف في زوجه ديوانه « حواء والشاعر » وصديقنا المرحوم العوضي الوكيل الذي خصّ كل واحد من أبنائه وبناته بأبيات من شعره ، ثم جمع ما أنشده فيهم في ديوان صغير سماه « شفق » وهو اسم كبرى بناته .

ولا يفوتنا في هذا السياق الشاعر الكبير عزيز أباظة الذي ألّف في زوجه قصائد رائعة حزينة بعد رحيلها إلى عالم البقاء .

ولا أكاد أجد لهؤلاء أمثالاً إلاّ في شاعرنا إبراهيم فودة ، وإن كان يمتاز عنهم بالسعة والشمول ، ويذكر الأب والأم والأصهار والأحفاد .

ونقرأ شيئا من شعره في أبيه « الشيخ محمد أمين فودة » . وكان الشاعر

متعلقاً به تعلّقا شديدا ، فإذا غاب عنه فهو في نصب دائم ، وهمٍّ مقيم ، لا يجد إلى السلوّ عنه سبيلا ، فيقول فيه في قصيدته « حنين » [1] :

أنا أهوَى ، وما سلوتُ الذي أهـ ـواه ، لكن شطّ المزار إليه
كيف أسْلو وليَّ نعمتى الكبْـ ـرى ، وكلّي منه وصنع يديهِ
نبتتْ أضلعى على كفّه البيـ ـضاء ، وشِمتُ الضياء من ناظريهِ
وحياتي من روحه ، وطباعي نسجُ رَوْح يفوح من جنبيهِ
كيف أسْلو وكلّ ما فيّ يشدو باسمه ضارعاً إلى أذنيهِ

هذا شيء قليل نجتزىء به في هذا المقام ، ليكون دليلاً على المعاني الشريفة التي انبعثت من خاطر ابنه الوفيّ البار ، وكلّها على هذا النحو من الاعتراف بحق الآباء على الأبناء .

ولما انتقل أبوه إلى رحمة الله رثاه بقصيدتين باكيتين ، إحداهما بعنوان « إلى روح أبي » والأخرى بعنوان « على قبر أبي » وعدّة أبيات الأولى ستة وخمسون بيتا ، وأبيات الأخرى اثنان وثلاثون بيتاً [2] .

أما أمه فقد قرأت في شعره قصيدتين [3] : أولاهما بعنوان « أم إبراهيم » ، وفيها وصف لما أبكاه من أنينها لفراقه ، وهو يزمُّ رحاله للرحيل عنها ، وفيها أيضا إشارة غير واضحة إلى الظروف التي اضطرته إلى هذا الرحيل . وفي أولها يقول :

لأول مرة أحسستُ دمعي كجمر النار حرقني لظاهُ
على أنّات والدة رءوم براها الشوق بالغ منتهاهُ
تقول : صبرتُ ما يكفي فقلبي عليك وفيك حطمني جواهُ
معاذ الله ! ليس تُلام لكنْ يُلام وليدُها فيما جناهُ
وتعلم ما جناه هوًى ولكنْ أمورٌ لا تجيء على هواهُ
يواكبُ بعضها بعضاً وتجري بها الأقدارُ راكبةً خطاهُ

---

(١) ص ٣٦ من ديوان (مجالات وأعماق) .
(٢) القصيدتان في ديوانه الأول (مطلع الفجر) ١٧٥ و ١٨٣ .
(٣) القصيدتان في ديوانه الثاني (مجالات وأعماق) ص ١٤٥ وما بعدها .

ثم يذكر مشاعره نحو هذه الأمّ الرءم ، وهي لا تشكّ في صدق هذه المشاعر فيقول :

وتعلمُ حبّه فيها غراماً   يوافق قلبه فيها هداهُ
وتعلمُ طاعةً منه وبرّا   وأن رضاءها أعلى مناهُ
وتعلمُ ما يطيقُ لها فراقاً   ولا يرضى بفُرقتها نهاهُ
ولكن الحياة لها شئونٌ   تطاوعها وإن رغمت جباهُ
فما تجري الأمور بنا رُخاءً   وإنْ وفرَتْ لنا نِعمٌ وجاهُ
زمام الدهر يملكه وحيدًا   إلهٌ لا يشاركه سواهُ
وتشهدُكم خفضت لها جناحاً   فما وفّيتَها حقا أراهُ

وأما قصيدته الأخرى في أمّه ، وعنوانها « أمّي » فإنها مرثية حزينة لتلك الأم الرءوم التي يذكّره فقدها بأبيه الذي قضى نحبه قبلها .

وقد توفيت والدته قبيل وفاة صديقه الشيخ محمد سرور الصبان بأيام ، وقد رثاه بقصيدة من غرر شعره عنوانها « وجب الوفاء » [1] أشار إلى صداقته له ، وإلى أنه كان صامتاً في حياته حتى لا يتهمه أحدٌ بالمداهنة والرياء ، وأنه كان يمحضه النصح وهو في قمة مجده ، شأن الأحبّة الصادقين الذين لا يصانعون ولا يراءون ، أما الآن فقد وجب الوفاء ، بعد أن انقطع الرجاء :

وجب الوفاءُ فما عليَّ ملامةٌ   إن بُحتُ بعد الصمت بالإطراءِ
قد كنت ألتزم السكوت مخافةً   من أن يقالَ مُداهنٌ ومراءِ
وأنا الذي صارحتُه في مجده   بالنصح والشكران والإغراءِ
لكن وقد ذهب الرجاء ولم يعدْ   إلاّ الوفاء فشيمة لإبائي

ولا ينسى في هذا الموقف الباكي فجيعته في أمّه الحبيبة ، فإن الشجا يبعث الشجا ، وإذا كان قد فجع في أمه وحبيبته بالأمس ، فقد فجع اليوم في صديقه وحبيبه :

بالأمس ودّعتُ الحبيبة صامتاً   إلا الدعاء فكان كلَّ رثائي

---

(١) ص ١٨٢ من ديوان (تسبيح وصلاة) .

واليوم أفجع في حبيب لا أرى   أنّي موفّيه بغير دعائي
إن الدعاء إذا تصعّد خالصاً   من أكبُدٍ حرّى أحرُّ ثناءِ

* * *

أما حليلته فإن لها حظّا موفوراً من حبّه ، وحظّا موفورًا في شعره ، فقد أنشأ فيها كثيراً من قصائده ومقطعاته التي تتدفق فيها عاطفة الحبّ والوفاء .

ومن يتأمل الشعر الذي أنشده إبراهيم فودة في حليلته يجد فيه من سلاسة العبارة ، وقوّة الانفعال ، وتوهج العاطفة ، ولطافة المعاني ما يجده في أشعار كبار الشعراء الغزِلين الذين عرفهم تاريخ الشعر العربي ، من الذين شغفهم الحبّ ، وبرِّحت بهم الصبابة .

ولا نعرف من الشعراء من تغزّل بامرأته أو وصف هواه بها كما رأينا إبراهيم ، إذا استثنينا زهير بن أبي سلمى الذي عرف بالعفة ، ولم يجد من يشبب به في مطلع معلقته ، فذكر امرأته « أم أوفى » تقليداً لما ألف الناس من ذكر المرأة في مطالع القصائد ، ولو لم يتعلق الشاعر منهن بهوى .

ولا شك أن إبراهيم فودة قد وجد في حليلته كلّ ما كان يتمناه في المرأة من صفات الكمال مما قد يفتقده الأزواج في حلائلهم ، وهو القائل في بعض شعره مخاطباً إياها [1] :

فأنتِ الحبّ أحلى من خيالٍ   وأنتِ الحبّ في أسمى المعاني
أحبّكِ لا للهو الحب لكنْ   لخالده على عمر الزمانِ
عرفتُ الحب حين وجدتُ قلبي   على كفّيك ينعم بالأمانِ
فإن يكُ بيننا غزلٌ وشوق   هما لغةُ الجوانح والحَنانِ
فإنّا بيننا رحمٌ وقربى   أبرّ من الهوى ومن العيانِ

ويقول فيها من قصيدته « أنا .. وهي .. وتلك » .

لم يَعُد في الضلوع موضعُ أنثى   غير تلك التي تعيش ببالي
هي من تملأ الحقيقة في النفـ   ـس وتغذو على الكمال خيالي

(١) ص ١٦٤ من ديوان (مجالات وأعماق) .

هي من وافقتْ معانيَّ في الحـ ـب وعاشتْ معي على منـوالي

ثم يستطرد إلى شرح ما تسعده به تلك الزوجة المثالية التي لم تدع بين جوانحه موضعاً لسواها من بنات حوّاء .

وفي قصيدة أخرى من القصائد التي أنشدها في شريكة حياته يعمد إلى وصفها بأنها « سيّدة النساء » ويجعل هذا الوصف عنوانا لتلك القصيدة [1] ، وفي أولها يقول لها :

أسيِّدةَ النساءِ بـلا جـدالِ إذا استثنيت أُمِّي بين آلي
ومن سَبقوا من النمط المثالي على التاريخِ والعُصُـر الخوالي

وفي إحدى مقطعاته يصفها بكمال الحسن ، وفي مقطعة أخرى ينعتها بأنها « أعزّ النساء » (١٦١/٢) .

ومن إبداعه في وصفها قوله في قصيدة عنوانها « لنا الخلد » :

أعاقرها صهبـاء والحبّ كأسُهـا سُلافتها ريـقٌ ألـذّ مـن الخمـرِ
وأشربُهـا نـفساً تسيـل عذوبــةً وأنفاسها أشذاء عطرٍ بلا عطرِ
وأسكر من صحْو الأماني وإنه لصحوٌ يدير الرأس نشوًى بلا سُكْرِ
وأنعـم بالآمـال وهـي مطيفــةٌ عليّ طوافَ الخاشعين على الحجْرِ
وأحسب في إقبالها الدهرَ مقبلا إلّي صبيح الوجه ينضحُ بالبشْرِ [2]

وهكذا عبر الشاعر أجمل تعبير وأصدقه عن أصدق شعور بسعادته بشريكة حياته التي قاسمته سرّاء الحياة وضراءها ، وقد وفى لها خير الوفاء ، وخلَّد ذكرها في هذا الشعر الجنّي الذي افتنّ في تدبيجه ، ورسم صوره الفنية .. وقد أعانته على بلوغ ما أراد شاعرية ثرة ، تنهل من معين لا ينضب .

وفي رأيي أن ذلك كلّه يدل أعظم دلالة على تعفّفه الذي نشأ عن إيمانه وقناعته ورضاه بما قسم الله له ، ثم على خلق الوفاء الذي أمتعه به الله ، والذي رأينا كثيراً من شواهده فيما سبق .

---

(١) ص ١٥٩ من ديوان (مجالات وأعماق) .

(٢) ص ١٦٢ من المصدر السابق .

وهي أخيراً مشاعر الحبّ ، تفيض من قلب شاعر إنسان ، وسع حبّه الناس جميعاً عامّتهم وخاصتهم ، ورأى بعين بصيرته معالم الخير والجمال ، فأبصر حسنات من عرف منهم ، وأشاد بهم وبحسناتهم ، وتغاضى عن مثالبهم ، فلم يصرّح في شعره بشيء منها ، ولم تعرف الضغينة أو الحقد سبيلا إلى قلبه ، ولا إلى شعره .

* * *

وبرغم هذه المسيرة التي نحسبها قد طالت لا نستطيع أن نغفل الإشارة إلى مجال من أرحب المجالات التي انطلقت فيها شاعرية إبراهيم فودة ، وأجادت فيها ما وسعتها الإجادة .

فقد كان هنالك عاملان من أهم العوامل التي وجّهت هذه الشاعرية ، وطبعتها بطابع واضح متميز .

وأول هذين العاملين أن إبراهيم فودة وُلد وشبّ واكتهل في مكة المكرّمة بلد الله الحرام ، ومهبط الوحي ، ومهد الرسالة المحمدية ، ومبعث نور الإسلام إلى سائر الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها .

وفي هذا البلد الأمين عاش إبراهيم في كنف أبيه الشيخ محمد أمين فودة الذي جلس في البيت الحرام مجلس المعلم لدين الله ، وسنّة رسول الله ﷺ ، وأمّ جموع المسلمين الذي يتوافدون على بيت الله الحرام زرافات ووحدانا من كل فج عميق .

ومن الطبيعي أن يأخذ عن أبيه ، وأن يتتلمذ له فيما كان يعلّم المسلمين ، وأن يرنو ببصره وقلبه إليه ، وأن يتأدب بأدبه ، وهو القائل :

كان لي والد يعيش مثالاً ... للنُّهى ، للتقى ، لنفسٍ وحسٍّ
عبقرياً في ذاته ، عبقرياً ... في كثير من المواهب تَكْسي !
كلّ يوم أرنو إليه ، وأرجو ... أن أكون المفيد من خير دَرسٍ (1)

وكان هذا المقام الكريم في أشرف بقعة من بقاع الأرض ، كما كانت صحبته لأبيه وتلمذته له من أهم العوامل في تنشئته ، وفي تشبعّه بروح الإسلام الذي

(1) من قصيدة « الأبناء والآباء » ص ٣٠٦ من ديوان (تسبيح وصلاة) .

ملك عليه حسّه ، ووجّه موهبته في فن الشعر ، فقد كانت عينه لا تقع إلاّ على حاجّ أو معتمر ، أو مستغفر تائب ، أو ذاكر شاكر ، أو عالم ومتعلم ، ولا يسمع إلا القرآن تتلى آياته ، أو أذان الصلوات والتلبيات والدعوات تملأ الأجواء .

والعامل الآخر أن إبراهيم فودة عربي صميم ، عاش في بيئته العربية ، فوق أرضها وتحت سمائها ، وبين ظهراني عرب ، صريحي النسب ، فأشرب حبّ قومه ، ونشأ شديد الاعتداد بأصالته وعروبته ، حفيظا على قيمها وتقاليدها ، شديد الغيرة على كرامتها وسيادتها .

ولهذا وذاك كان إحساسه بالانتساب إلى أشرف عقيدة ، والانتماء إلى أكرم أمة ..

وقد ملأ ذلك الإحساس بالانتماء جوانب قلبه ، واستقرّ بين جوانحه ، وتسلط على مواهبه الشعرية التي استجابت لذلك الإحساس ، وصرّحَتْ بمكنونها في الإشادة بالدين الحنيف ومثله العليا ، وفي الدعوة إلى الله ، وفي تمجيد الجنس العربي ، والذود عن حياض العروبة ، والتصدّي لكل من يسوّل له شيطانه الاعتداء على كرامتها ، أو السطو على مقدساتها .

وإنك لواجد أثر ذلك فيما يطالعك من قصائده الضافية ، ومقطعاته القصيرة التي عبر فيها عن عظمة العقيدة الإسلامية وجلالها ، وعن حماسته في الدفاع عن الأمة العربية في شتى مواقعها .

وإذا أنت قرأت ديوانه الخامس بخاصة ، وقد سماه (تسبيح وصلاة) ، ألفيت نفسك في جنة وارفة الظلال ، تحفّ بك الملائكة الأطهار ، يسبّحون بحمد ربهم لا يفترون . أو كأنك في روض أنيق ، تحلّق فيه الأرواح ، وتستنزل البركات ، وتستمطر الرحمات ، بين تسبيح لله ، واعتداد به ، واعتماد عليه ، ودعوة إليه .

وتجد إلى جانب ذلك تمجيداً لرسالة الإسلام ، ومديحاً لصاحب الرسالة ، وهادي الأنام إلى صراط الله المستقيم .

اقرأ قوله في مناجاة ربّه ، والاعتذار إليه عن حجّة فاته أداؤها ، من قصيدة عنوانها « حجة غائب » [1] :

---

(١) ص ١٦ من ديوان (تسبيح وصلاة) .

تعاليتَ ياربَّ الحجيج فما أرى لـفضلك أمـداءً تحدّ مكـانِي

وإن يك حجّ البيت زُلفى فإنني لـذاتك حَجَّـاج بكـلّ مكـانِ

وإنْ تكُ باركتَ المكان فإن تشأ وَسِعْتَ بهذا الفضل كلّ مكانِ

ويا ربّ هذا اليوم تشهدُ أنني أُجلّك عن يوم وحدّ زمانِ

وإن تكُ باركْت الزمان فإن تشأ وَسعْتَ بهذا الفضل أيّ زمانِ

وسِعْتَ إذا ماشئتَ من شئَت منعما بِأيّ مكان أو بأيّ زمانِ

ولستُ بهذا أستخفّ بمنحةٍ خَصَصْتَ ، ولكنْ طامعٌ متفَانِ

وأجدني مضطرّاً لأن أتوقف قليلاً عند هذه الأبيات ، لأنني لا أجد سبباً لهذا التزاحم الملحوظ في الأزمنة والأمكنة ، مع اعترافي بجودة المعاني لأن الله رب كل زمان ومكان كما أراد الشاعر أن يقرّر ، ورحمة الله وسعت كلّ شيء ، ولكنه يعلم علم اليقين أن للحجّ مشاعر معروفة في زمن معلوم ، وفي أماكن محدودة .

وإذا كان الشاعر يتطلب الجناس فقد بعد عن طريق الصواب ، لأن « المكان » الذي شغل به الشاعر قافية ثلاثة أبيات واحد في معناه ، ومثله « الزمان » الذي شغل به قافية ثلاثة أبيات أخر واحد أيضا في معناه ، كما يوضح ذلك سياق المعاني .

وشرط التجنيس أن تتشابه الألفاظ وتختلف المعاني .

والعروضيون وعلماء القوافي لا يتقبلون هذا التكرار في لفظ القافية ، ويعدّونه عيباً من عيوب القوافي ، يسمّونه « الإيطاء » .

ولم ينح الشاعر هذا المنحى فيما بقي من أبيات القصيدة ، ولم أقف على شيء من هذا في قصيدة سواها فيما قرأت في دواوينه الخمسة .

ولقد اضطر الشاعر اضطرار للتخلف عن شهود موسم الحج ثلاثة أعوام ، لأنه كان بعيداً عن البلد الحرام . وهو يأمل أن يكون بعده الاضطراري عنه سبباً من أسباب قربه من الله ، ويدعو الله أن يُهَيِّئ له بعد هذا البعد والضيق قرباً وفرجاً قريباً ، اقرأ حسرته على هذه الأعوام الثلاثة التي تعدل الدهر كله في رزاياه ، بحرمانه شهود الحج فيها :

ثلاثة أعوام ، هي الدهر كلُّه بـلاءً وإعـذاراً إلى الحِدثـانِ

حُرمتُ شهود الحج فيها وإنني   على البُعد من ربّ الحجيج لدَانِ
وفيه احتسابي ما لقيتُ فإن يشأ   تبـدّلت الدنيـا خـلالَ ثـوانِ

وقبل هذه الأبيات الثلاثة التي كشف فيها عن سنوات تخلفه عن شهود موسم الحج وأداء الفريضة فيها بيتان فيهما ضراعة وابتهال إلى الله أن يغفر له هذا التخلف الذين لم يكن فيه مختارا ، ولكنها الأقدار التي اضطرته إلى ذلك اضطراراً ، وفيهما يقول مناجياً ربّه :

حنانيك فاشملني بـفضلك إنـني   وإن غبتُ ما لي في الغياب يدانِ
وتعلم ما قصّرتُ عزماً ونيّـةً   ولكـن قضاءٌ آخـذٌ بعِنـاني

* * *

ولقد نفذت العاطفة الدينية إلى قلب إبراهيم ، واستقرّت في أعماقه ، وقد وجد الشعور الديني فيه ما يجد الغيث في الأرض الصالحة وفي التربة الكريمة التي ينزل عليها فتهتزّ وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .. ولم يكن قلب إبراهيم صخراً صلداً ينحدر على جوانبه الماء فلا يمسك منه شيئا ، ولكنه يذهب بددًا ، لا يروي ظمأ ، ولا ينبت زرعاً .

ولكن هذا الحيا صادف نفساً سوية ، فروى ظمأها ، واستقر في قرارها ، ليظل نبتها موصول النماء ، بما لا يغبّ عنه من السقيا والغذاء .

وآية ذلك إيمانه المطلق بالله ، وتسليمه له ، وإقراره بأن كل نعمة هي من فضله ، وأن كل طاعة لا تقوم بشكره ، وأنه المرجوّ في الملمات ، يكشف الضرّ ، ويغفر الذنوب :

يا صاحبَ الأمر في شأني وفي قَدَري   لطفاً بعبدك في عجزي وفي كبَري
لا أجحد الفضل ، كم أغدقت من منن   عزّت على خيرة الأفذاذ والسِّيَرِ
لو عشتُ عمري أصلّي شاكراً قصُرتْ   عن واجب الشكر أيامي من العمُرِ

وهو يحيا بين الخوف والرجاء ، ولكنه خوف من الله وحده ، ورجاء فيه وحده ، لا يحسب لواحد من عباده حساباً . ويصرّح بأن بين يديه من الأسباب ومن نعم الله ما يتيح له أن يستمتع بما تشتهي نفسه الأمّارة بالسّوء من زينة الحياة

الدنيا . ولكنه يكبح جماح هواه خوفاً من الله الذي يعلم السرّ والنجوى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويقنع بما أحلّ الله من الطيبات ، ويحرم على نفسه ما حرَّم الله ، راضياً بحكمه ، مطيعا لأمره . والخوف من الله ، ومراقبته في السرّ والعلن ، وغير ذلك من سمات المؤمنين الصالحين القانتين :

خوفي من الله لا خوفي من الناسِ ليت الخليّ درى شأني وإحساسي
كل الملذات في طوعي ورهن يدي والمال والجاه في بذلٍ وإينــاسِ
وحسّ نفس ، وطاقات مـيسّرةٌ وعطـر رَوْح وأرواحٍ وأنفــاسِ
لا أمنع النَّفسَ عن ضعف ولا خوَرٍ عندي من البأس والأستار أمراسي
لكن أخاف الذي يدرى بخافية بين العيون ، وطيّ القلب ، والراسِ
فأمتع النفس في حد الحلال وما دون الحرام ، وأرضى حَجْره القاسي
قناعـة بالـذي أعطـى وحكمتـه فيما يقنن ربّ النـاس للنــاسِ

وله كثير من القصائد الطوال والمقطعات القصار التي يناجي بها ربّه ، ويستغفر ذنبه ، ويعترف فيها بتقصيره في جنب الله الذي لم يف له بواجب الشكر على ما أولاه من نعم لا يجحدها ، وإذا كان قد أخطأ أحيانا طريق الصواب ، فإن عفو الله أكبر من ذنبه ، ورحمته وسعت كل شيء ، وكلّ بني آدم خطّاء ، ولكن طمعه في عفو الله غلب على أمره . وشفيعه إلى الله حبّه إياه ، وإيمانه الذي ملأ قلبه ، وشكره الذي لا ينفد .

اقرأ معي هذه الأبيات التي سماها « نجوى قلب » ٥/٧٠ :

يا ربّ ما ذنبي إليك بهيِّـنٍ لكنّ عفوك فوق كـلّ ذنـوبي
أنا ما وفيتُ الفرض إلا أنني بالحمد تلهج مهجتي وجنـوبي
أنا ما وفيت الشكر لكن لا أرى في غير عفـوك سُترة لعيـوبي
وإذا أخـذتُ بما تحبّ فـرحمةٌ من فيض جودك هادياً لدروبي
وإذا ضللت عن الصواب فمخطىء لا عامـد مستـحسن لمعـيبِ
إن كان تقصيري جريرة ظاهري فلبابُ قلبي من هـواك نقِيبـي

إن الشاعر يردّد كثيراً هذه المعاني في شعره ، معاني التوبة إلى ربّه ،

والاستغفار لذنبه ، وإعلان الندم على ما فرط في جنب الله ، والإيمان بالله ووحدانيته وقدرته ، والاعتراف بفضل الله ، وشكره على ما أولاه ، والأمل في عفوه وغفرانه ، والطمع في جنته ورضوانه . وهي المعاني التي تجيش بها قلوب المؤمنين الأبرار .

وإذا كان لكل حديث غاية ، وإذا كانت هذه المعاني في شعر إبراهيم فودة من الكثرة بمكان ، فنحن مضطرون إلى أن ننهي الكلام ، وحسبنا أن نستشهد بأبيات ثلاثة عنوانها « لم أذق الكفر » ٥/٧١ :

ظننتُ بنفسي الخير ، وهي مع الأسى ... براءٌ من الحسنى وإن تعشق الخيرا
فياربّ إنْ أخطىء فأنت لمثلها ... غفورٌ فلم أشركْ ولم أذق الكفرا
ويارب إنْ يشفعْ لمثلي شافعٌ ... فإيمان قلبٍ يُلهم الحمدَ والشكرا

وبأبيات في توحيد الله (٥/٢٥) ينعى فيها على أولئك الذين يقبلون الأيدي ملتمسين الخير والبركة من أصحابها ، وهم عباد لا يملكون لهم ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضرّا :

أنا إن وجدتُ الناس قد حلفوا بمن ... تَخِذَ التَنسُّك مظهراً برّاقا
ووجدتُهم كلفاً به صاروا له ... فرْطَ الصبابَة والهوى عُشّاقا
ووجدتُ كلّ الناس يلثم كفَّهُ ... ويظنّ أن بكفِّه ترياقا
آمنتُ بالله العظيم موحِّدا ... ربّاً لآلهة الورَى خلاّقا

* * *

ولقد استحوذت العاطفة الدينية على مشاعر إبراهيم فودة على هذا النحو الذي سجّله في شعره ، وأشرنا إلى شيء منه في الكلمات السّابقة ، من حبّ لله ، وإيمان به ، واعتماد عليه ، وتسليم إليه .

وإلى جانب ذلك وجدت هذه العاطفة مكاناً فسيحاً في قلبه المؤمن لحبّ رسول الله ﷺ ، فشغلت كثيراً من قصائد العامرة التي أطلق فيها العنان لشاعريته لتعبر عن مشاعرها الصادقة التي ألهبها ذلك الحبّ الذي تغلغل في أعماقه .

ولقد وزع الشاعر شعره في ديوانه الخامس (تسبيح وصلاة) على أربع

مجموعات ، جعل لكل مجموعة منها عنوانا يرمز إلى موضوعات قصائدها ومقطعاتها ، وهي على الترتيب :

١ - (نجوى السماء) وتضم شعره الذي أنشده في تمجيد الذات الإلهية ، وما عبّر فيه عن إيمانه ، ووثيق صلته بالله تعالى .

٢ - (في رحاب النبي ﷺ) . وقد أعرب في قصائده عن المشاعر التي يفيض بها قلبه المؤمن تجاه الرسول عليه الصلاة والسلام .

٣ - (عبرات) . وفيها مجموعة من المراثي التي أنشدها في جماعة من أعلام الوطنية والإسلام ، وطائفة من رجال الفكر والأدب الذين كانت لهم مواقف مأثورة .

٤ - (زفرات) . وفيها شيء من تأملاته ، وأحاديث نفسه ، وخواطر شتّى في الحياة والأحياء .

وتملأ المجموعتان الأوليان أكثر من نصف الديوان ، ولا تفقد المجموعتان الأخريان صلتهما بما تضمنتاه من مظاهر الحب والإيمان . وبذلك يمكن أن يقال إن الوحدة الموضوعية متحققة في هذا الديوان بمجموعاته الأربع .

ويعنينا الآن الإشارة إلى شيء مما تضمنته المجموعة الثانية التي أخلصها لمناجاة رسول الله ﷺ ، ووصف مشاعره تجاه ذاته الكريمة ، وتجاه رسالته الشريفة ..

ففي كل مرة يخفّ فيها لزيارة مدينة الرسول ، وفي كل ذكرى لمولده الشريف تتفجر ينابيع هذا الحب شعراً عاطفياً حاراً ، لا يدانيه شعر واحد من العشاق المدنفين الذين أحرقتهم لواعج الوجد ، وبرحت بهم الصبابة من الشعراء الذين عرفهم تاريخ الآداب الإنسانية ، لأنه شعر مؤمن أوّاب ، ليس شيء في الوجود أحبّ إليه من الله ورسوله .

اقرأ قوله في مطلع قصيدة أنشدها في وصف رحلة لزيارة مدينة الرسول ، ومسجده النبوي الشريف :

أوشك القلبُ أن يطير سروراً ... فرحاً غامراً وشوقاً جهيرا
ودنا العهدُ باللقاءِ فأَضحى ... كل نبض في مهجتي تكبيرا
وامتطيت الطريق لم أجد الأرْ ... ضَ تراباً بل لؤلؤاً منثورا

وتشمّـمتُ للـنّسيم عــبيراً خِلْتُهُ المسْكَ نفحة وبخورا
وظننتُ الركابَ تحتي بساطاً من نسيج الهوى يشقّ الأثيرا
وإذا أسكر الوصال فـؤادًا أيقظ الحسّ نشوةً وحبورا

وفي هذه الرحلة المباركة إلى دار النبيّ تستولى على الشاعر حال من الوجد والهيام ، فكلما طافت بخاطره الذكرى وحاول أن يعرب عن مشاعره نحوها انسجمت من عينيه العبرات ، فسابقت في تدفّقها العبارات . وكلّ ما يجد من المعاني مستوحى من حبّه ﷺ الذي لا يجد إلى السّلوّ عنه بديلا :

يا ضياء النبيّ قد شمل الدّر بَ ، وقلبي ، والكائنات غميرا
شهد اللهُ ما خبتْ جذوةُ الشو قِ هياماً يغشى الفؤاد ونورا
غير أنّ اللقاء من قدَر اللّـ ـهِ كتاباً موقّتـاً مقـدورا
شهد الله ما ذكرتكَ إلاّ سابق الدمع منطقي ، التعبيرا
كلّ ما فيّ من بناء المعاني عاشقٌ بات في هواك أسيرا

وبعد أن يفيض في وصف هيامه وحبّه للرسول الكريم يصف حالته النفسية ، وضيقه بما يرى من حاله وأحوال أمته المسلمة ، وما تعاني أمم الشرق من فرقة وشتات أدّى بهم إلى الضعف والهوان في عالم لا حياة فيه إلا للأقوياء .

ويستطرد إلى ذكر مأساة فلسطين التي شُرِّد أبناؤها ، وأصبحت داراً للغرباء وشذّاذ الآفاق ، لأن أهلها رضوا بالهوان ، فعانوا الذل والفقر ، لتقاعسهم عن الجهاد في سبيل وطنهم وكرامتهم ، واعتمادهم على رفاق لهم ضعفاء ، وهيهات أن يجير ضعيف ضعيفاً .

ولكنه يرى بارقة الأمل في الخلاص في « منظمة فتح » التي أعلنت الجهاد على قوى الشر والفساد ، لتطهر الأرض من رجس أولئك الذين دنسوا المسجد الأقصى الذي باركه الله .

أمّا العالم الإسلامي فإنه في شغل عن ردّ هذا العدوان ، لأن كلّ صقع من أصقاعه مشغول بهمومه وأوضاعه .

وينعى على أولئك الحاقدين عليه الذين توغر كلمة الحق صدورهم ، وهو

لا يعرف إلا الجهر بما يعتقد أنه الحق والصواب ، فقد أغناه الله بما وهبه من رزق حلال عن مصانعة الناس .

وإذا كان النقص مستولياً على جملة البشر ، وإذا كان الكمال أملاً بعيد المنال فإن هذا النقص ليس مقصوراً على أمتنا ، بل إن الشعوب التي استطاعت أن تتسلطّ على غيرها ، وأن تبسط نفوذها على أمم الأرض في زماننا « ليست أقلّ منا شروراً » ، ولكنها استطاعت أن تجمع بين المتناقضات .

وقد أفادت تلك الشعوب الغالبة أن تفيد من تراث العروبة والإسلام ، وأن تبني على هذا التراث جسور نهضتها .

أما نحن فقد أضعنا أمجادنا بتضييع تراثنا ومقوّماتنا ، وبهرنا السراب فلم نعرف من حضارة الغرب إلا القشور وصنوف البلاء :

فالشعوب التي تهيمنُ في الأرْ ... ضِ ، وليست أقلَّ منا شرورا
عرفتْ كيف تجمع النقيضين فيها ... فاستقامتْ أمورها تقديرا
أخذتْ من تراثنا ما استفادت ... وأخذنا منها البلاء الخطيرا
ثم زادوا على التراث كثيراً ... وحملنا عبءْ التراث ثبورا
وأسأنا صلاتنا بقديمٍ ... منطقاً قاصراً ، وعقلاً حصيرا
وركضنا إلى الجديد حيارَى ... فخطفنا من الجديد القشورا
وأخذنا بلاءهم وجهلنا ... فيه تدبيرهم : هوى مستطيرا
وإذا أسرف البداة بخير ... أو بشرّ سال المِدِيّ غزيرا

ثم يهيب بالنيام أن يفيقوا من سباتهم قبل أن تعصف بهم الأحداث ، وأن يطرحوا الخلاف الذي فرق صفوفهم ، لتستقيم وحدتهم ، ويبدءوا المسير في طريق البناء الصحيح :

أيّها النائمون هلاّ أفقتُمْ ... قبل أن تهدم الرياح الدورا
لو صحوْنا على الهدى وصحوتم ... لانتفى الخلف بيننا مدحورا
واستقامتْ أمورُنا من جديدٍ ... وبدأنا على الطريق المسيرا

ويأخذ عليهم إسرافهم في الصياح والنفج والادّعاء ، وفي التهديد والوعيد

الذي لا يعدو حناجرهم ، ولا يتجاوز ألسنتهم ، وينعى عليهم الاستهانة بعدوّهم اللدود الذي يبدو لهم ذليلا ضعيفا ، فإذا جدّ الجدّ كشر عن أنيابه ، وبرز وحشاً كاسراً يرغى ويزبد ، ويملي عليهم شروط الخزي والعار . ثم يأخذ في مناجاة رسول الله ﷺ معتذراً إليه عن بث هذه النفثات التي أطلقها إشفاقا على أمته المسلمة وقد رآها والأمواج تتقاذفها ، والرياح تعصف بها ، وقد بعدت عن شاطىء الأمان ، وهو الاستمساك بالعروة الوثقى ، وبشريعة القرآن الذي تعبّدت بحروفه ، وجهلت جوهره ، وهجرته روحاً ومعنى ، فضلّت سبيل النجاة بفصلها عما تكفله لها أحكامه الشريفة من أسباب العزة والسيادة :

يا أبا المؤمنين عذراً ولكنْ … هي نجوى قلب يخاف المصيرا
كلّنا نشتكي ونحسِنُ في القو … ل أنيناً ، وحَمشةً ، ونكيرا
نحن مَن ننتمي إليك اعتباطاً … رغم ما ننتمي إليك ظهورا
قد هجرنا القرآن روحاً ومعنى … واتخذنا حروفَه الدستورا
ثم جئنا بما نشاء وقلْنا … كان هذا في ديننا مذكورا
وإذا المسلمون شتّى قلوباً … وعقولاً تباينتْ تفكيرا
فاختلفنا رأياً وعلماً وفهما … واختلفنا عقيدةً وأمورا

ولا ينسى الشاعر أن يتوجه إلى جماعات المسلمين التي فرقت بينها الأهواء ، وبين أيديها كتاب أحكمت آياته وفصّلت تفصيلاً بما لا يدع مجالاً للخلاف حول جوهر دينهم ، وأصول معتقدهم ، ويناشدهم أن يتقوا الله في السرّ والعلن ، ويلجؤوا إليه في الضرّاء ، ويشكروه في السرّاء ، فهو ولّي نعمتهم ، والكفيل بكشف غمتهم ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، كما يدعوهم إلى أن يذكروه دائما بالعمل الصالح ، ويضرعوا إليه بقلب سليم :

أيها المسلمون هذا كتاب … فصِّلتْ آيُهُ سراجاً منيرا
لا يصحّ الخلاف حول أصولٍ … وضحتْ في كتابِنا تفسيرا
وإذا مالت الغصون يميناً … أو شمالاً فلن تضرّ الجذورا
واذكروا الله في اليسار وفي العُسْـ … ـرِ فلم يكفكم سواه العسيرا

ليس ذكرَ الشّفاهِ فالذكرُ يَغْني عمـــلاً صالحاً وقلبـــاً وقـــورا
وإذا صحّت القلوب من العِلّـ ـــة لم تشتكِ الجسومُ نفـــورا

* * *

هذه هي قصيدة « عبير الشكوى » التي أنشدها الشاعر في إحدى زياراته للمسجد النبويّ الشريف ، وقد افتتح بها الباب الثاني من ديوانه (تسبيحٌ وصلاة) وجعل عنوان هذا الباب « في رحاب النبي ﷺ » .

وقد طال نفس الشاعر في هذه القصيدة طولاً لم نجد له مثيلا إلا في شعر أفذاذ من شعراء العربية الذين عرفناهم .

ويدل هذا الطول على تمكن الشاعر من صناعة الشعر ، وامتلاكه ناصية القوافي ، كما يدل على ثقافته اللغوية الواسعة ، فقد جاوزت أبيات هذه القصيدة مائة بيت بثلاثة أبيات ، أسلمت له فيها القوافي قيادها .

وقلّما رأينا في هذه القوافي لفظاً غير متمكن دعت إليه ضرورة النظم ، أو نفر عن موضعه من سياق المعنى .

وقد عبرت القصيدة كما رأينا عن مجموعة من الأحاسيس والمشاعر التي انبعثت من قلب مؤمن مفعم بالولاء والحبّ الصادق للرسول عليه الصلاة والسلام ، والحنين إلى ترابه . كما رأينا فيها الإكبار لشخصيته ، ولرسالة السّماء التي حملها ، والأمانة التي بلّغها ، واستنقذ بها البشرية من مهاوي الكفر والشرك والضلال ، وهداها إلى الصراط المستقيم ، وأخرجها من الظلمات إلى النور .

وكذلك عبّرت هذه القصيدة عن مجموعة من الخواطر التي أثارها في نفسه ما رآه من الخلل الماثل في بناء المجتمع الإسلامي ، واضطراب أحوال المسلمين ، وما ساد بينهم من التدابر والتنافر ، وما انتهى إليه أمرهم من التمزق والشتات لبعدهم عن أصول دينهم ، ونبذهم قرآنهم ، واستسلامهم لأهواء النفوس ونزواتها ، وهجرهم تقاليدهم ومآثرهم ، وأخذهم بالقشور دون اللباب ، وتقليدهم غيرهم فيما لا ينفع .

وكل ذلك أدى إلى تفكك عراهم ، وإخلادهم إلى الدعة ، وإيثارهم

السلامة ، وقعودهم عن الجهاد ، مما أطمع فيهم ذئاب البشرية الذين اغتصبوا أرضهم ، واعتدوا على مقدساتهم ، وسلبوهم حريتهم وكرامتهم .

ولم يكتف الشاعر بوصف هذه الخواطر المفزعة ، والأحوال المرديه وصفاً مجرّداً ، بل شرح آثارها في نفسه ، وتفاعلها مع مشاعره المرهفة ، وحذّر الأمّة من سوء مغبتها ، وأنحى بالعتب حيناً ، واللوم أحيانا على تقاعسها عن نصرة الحق ، وهي تراه رأى العين ، وعن الجهاد في سبيل القيم الشريفة التي تؤمن بها .

ولم يفقد الشاعر الأمل في صلاح هذه الأمة ونهوضها من كبوتها ، واستعادتها مجدها إذا صدقت العزم ، وأنابت إلى ربها ، وتنكرت لأهوائها ..

وبذلك تحتفظ القصيدة بوحدتها الموضوعية ، وبغلبة الروح الإسلامية ، والعاطفة الدينية على معانيها .

* * *

وهذه المعاني التي قرأناها في هذه القصيدة « عبير الشكوى » هي المعاني التي يردّدها الشاعر في أكثر قصائد هذا الباب ، وقد أنشد أكثرها في زيارات لمدينة الرسول ، أو ذكريات المولد الشريف ، أو في ذكرى الإسراء والمعراج . وإن كانت هذه القصائد النبوية لا يختص بها ديوانه الأخير (تسبيح وصلاة) ، فإنها قديمة في شعره حتى ليمكن القول بأن هذه العاطفة ولدت معه ، وإنها آتت أكلها منذ أفصحت شاعريته عن مكنوناتها .

وفي ديوانه الأول (مطلع الفجر) يطالعنا عدد من القصائد النبوية التي تفيض بآيات الحبّ والولاء لسيدنا رسول الله .

ومنها قصيدته « في رحاب رسول الله » [1] وهي أطول من قصيدته السّابقة إذ بلغت عدة أبياتها مائة وستة عشر بيتا . وقد أنشدها في زيارته للمسجد النبوي الشريف عام ١٣٦٨ هـ بعد انقطاع وصفه بأنه طويل ، وفي أول هذه القصيدة يقول :

إلى رحاب رسُول الله ذي الكرمِ　　　شدّي الرحال وغُذِّي السَّير واعتزمي

(١) ص ١٨٩ من ديوان (مطلع الفجر) .

وفيها يقول معبّراً عن سعادته بتَحقق أمله في هذه الزيارة المباركة :

يا نفسُ هذا من الفوز العظيم فما تَبْغِينَ بعدُ وهذا خيرُ مُغتنَمِ
إن الرسول صفيّ الله أفضلُ ما سوَّى من الخلق والأكوان والنَّسَمِ
خير البريّة والمبعوث خاتمةً للرّسْل والمصطفى من أوسط الأممِ

وفي كلّ قصيدة من تلك القصائد تستعر لواعج أشواقه إلى تلك البقاع الطاهرة التي انطلق منها نور الإسلام ، وشرّفها النبيّ بالمقام ، وثوى في ترابها الشريف ، حتى لنجدنا تجاه شاعر في طليعة العشاق الذين برحّت بهم الأشواق ، واستبدّ بهم الهيام بحب المصطفى عليه الصلاة والسلام .

اقرأ قوله في مطلع قصيدته « معنى النوال » [(1)] :

بعد حرّ الجوى وطول المطافِ أذن الله باللقاءِ الشافي
يا حبيبي ومن سواك حبيبي حين أعفى النداء من أوصافِ
يا حبيب الورى .. وكل محبّ فيك يهوى العشّاق بالآلافِ
يغبط العاشقين فيك ولا يحـ ـسُدُ ، بل يلتقون حول المطافِ
إنْ تكنْ مُنْية الأحبّة في الحبِّ وصالَ الأعطافِ بالأعطافِ
فلكَ الوصلُ في قلوب أحبَّا ئكَ رَوْحٌ يندسّ بين الشغافِ
هو حبٌّ يُشيعُ فلسفة الحبّ فتقوَى به قلوب الضعافِ

ومن طبيعة المحبين أنهم ينفرون كل النفور ، ويأبون كل الإباء أن يكون لهم شركاء ينافسونهم أو يشاركونهم في حبّ من يحبّون ، أو في الزلفى إليهم ، وتستبدّ بهم الغيرة إذا أحسّوا شيئا من الشركة أو المزاحمة في هذا الحب ، لأن من طبيعتهم الأثرة ، وحبّ التفرّد بمحبوبيهم . وتلك طبيعة العشاق .

وكثيراً ما يغلو المحبّون لرسول الله ، فيزعم كل واحد منهم أن حبّه إياه وهيامه به لا يعدله ، بل لايدانيه حبّ غيره من أتباع محمد ﷺ .

ولكن شاعرنا يقرر شيئا جديداً في هذا المجال فيما نقرؤه في هذه الأبيات ،

---

(١) ص ١٠٠ من ديوان (تسبيح وصلاة) .

وهو أن الرسول حبيب لكلّ الورى ، وأن هؤلاء المحبين على كثرتهم لا ينفس واحد منهم على غيره ، ولا يحسده على حبّه ، بل إنّ كل متيّم بحبّه عليه الصلاة والسلام عاشق لكلّ من يعشقه ، ومحبّ لكلّ من أحبّه ..

وهذا معنى جميل ، وهو في الوقت نفسه جديد ، لم يتردّد في عالم الشعر . وربما سمعنا شيئا منه فيما ينشده شعراء العاميّة .

* * *

ولعل في هذا القدر اليسير من التناول للشعر الإسلامي الذي جادت به شاعرية إبراهيم فودة ومما قاله في تمجيد الله تعالى ، وفي مناجاته والتضرّع إليه ، والاستغفار لما تقدم من ذنبه ، ومن الشعر الذي أنشده في حبّ رسول الله ﷺ ، وفي وصف الأدواء والعلل التي ألمت بالمسلمين ، وأقعدتهم عن بلوغ ما ينبغي لهم من المنزلة والجاه ، ومن الكرامة والسيادة في عالم اليوم .

لعل في ذلك كله ما يكفي لكشف النقاب عن إيمانه العميق ، وشعوره المرهف نحو ربّه ، ونحو نبيّه ، ونحو إخوانه من المسلمين في كل مكان .

على أن هنالك مجالاً آخر من المجالات الرحبة الفسيحة التي حلقت فيها شاعرية إبراهيم فودة ، فلقد عاش إبراهيم فودة بقلبه ومشاعره مع أمته العربية في أقطارها المتقاربة والمتباعدة يتغنى بأمجادها ، ويشيد بمآثرها ، ويرقب أحداثها ، ويصف طموحها وعثراتها .

ولقد كانت محنة فلسطين وما تزال واحدة من أهم المآسي التي ألّمت بالأمة العربية التي أرّقتها ، وأقضّت مضاجع العرب في كلّ قطر من أقطارهم ، وفي كل موطن من مواطنهم في هذا القرن العشرين ، بعد أن ابتليت تلك الأرض الطيبة المباركة بمؤامرات اليهود ومعاونة الصليبيين لهم ، للعدوان على الشعب العربي المسلم في فلسطين ، مما أدّى إلى سفك دماء عزيزة لأبنائها ، واستشهاد ألوف منهم في سبيل الدفاع عن أرضهم والذود عن كرامتهم ومقدّساتهم ، وتشريد عشرات الألوف منهم ، حتى يتمكن اليهود من تحقيق أملهم في طرد العرب من فلسطين ، واتخاذها وطناً قومياً يجمعهم ويلمّ شتاتهم بعد أن لفظتهم البلاد التي كانوا يعيشون فيها بالبغي والفساد .

وبذلك أصبحت كارثة فلسطين جرحاً لا يندمل في قلب كل عربي وكل مسلم .

واستثارت تلك الأحداث الخطيرة نفوس العرب ، وانفعلت بها نفوس الشعراء فصاغوا مشاعرهم شعراً حماسيّا أليماً في التنديد بهمجية اليهود ووحشيتهم ، والإنحاء باللوم والتقريع على بعض العرب الذين قصّروا في القيام بواجبهم في نصرة فلسطين ، وفي وصف الآلام التي يعانيها اللاجئون في معسكراتهم ، والنازحون إلى غير أوطانهم ، والأحرار في سجونهم ومعتقلاتهم . حتى فاض ديوان الشعر العربي الحديث بفيض من تلك القصائد الحماسية الحارة التي لا يكاد يخلو منها ديوان لشاعر من شعراء العرب المعاصرين ، بالإضافة إلى سيل من المقالات والقصص والمسرحيات التي ألّفها عدد كبير من الكتاب والمؤلفين ، وكانت مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية في زماننا .

ومن الطبيعي أن تنفعل مشاعر إبراهيم فودة الذي نوّهنا بشعوره الفياض بالانتماء إلى العروبة والإسلام بأحداث هذه النكبة وآثارها المدمرة ، وأن تنطلق شاعريته لتعبّر عن هذه المشاعر الحارّة تجاهها .

وقد أشرنا فيما سبق إلى قليل مما نظمه في مأساة فلسطين في أثناء تناولنا لشعره الإسلامي .

ولكننا نحبّ أن نقرر في هذا المجال أن لإبراهيم فودة قصائد مستقلة ، وصف فيها أحداث فلسطين وأهوالها ، واستنهض همم العرب ليهبّوا لنجدة أبنائها ..

وهذه القصائد تعدّ فيما أرى من أجود ما نظم الشاعر ، لأنه عبّر فيها تعبيراً قوياً جميلاً عن انفعال قويّ ، وعاطفة صادقة تجاه هذا الرزء الأليم .

ومنها قصيدته « فلسطين » [1] التي نظمها في بداية الأحداث التي ألمّت بذلك البلد العزيز ، وهي من « المخمّسات » . وفي أولها يقول :

أيُّ رُزءٍ دها ، وأيّ مصابِ جلّل العُرْبَ بالأسى والعذابِ
دبّ في جسمهم دبيب انسيابِ كدبيب الحِمام والأوصابِ

(١) ص ٣٥ من ديوان (مطلع الفجر) .

ناهشاً في القلوب والأعصابِ

كلّما طاف بالعروبة عـادِ ودعا للجهاد داعي الجهادِ

تتلاشى أصداؤه في البوادي مثل ريح تمضي هباءً بوادِ

ليس يشفي ولا يِرَجْع خطابِ

ومنها :

كلَّ يومٍ يُفنِي النضالُ المئينا ويروحُ الرجالُ فيه طحينا

فكأنّ العيونَ عنه عَمِينا وكأنّ النداءَ كان طنينا

حسبوه طنينَ سِرْب الذبابِ

ذي (فلسطينُ) كمْ تئنّ أنينا تشتكي داءَها الأليم الكمينا

تملأ الجوّ بالنداءِ حزينا تطلبُ العونَ منكمُ والمعينا

ويحكمْ .. إن عيشها في لُهابِ

فاحذرُوا من غد أمرَّ وأغبرْ حين يسْري اللهيبُ في كلّ معبرْ

وتجول الأطماعُ فيكم وتنخرْ والعدوّ الحقيرُ يطغَى ويسخَرْ

أطفئوا النارَ في وصيد البابِ

أيها القومُ إنكم في اتحادِ من عُرا الدين وهو خيرُ عمادِ

واتحادٍ في أصلكمْ والبلاد لا تكونوا أضحوكةً للعبادِ

بافتراقٍ يُرْدِيكمُ في تبابِ

وفي هذه القصيدة التي صحَّت بنيتها ، وعذبت عبارتها ، ترى الإحساس الصادق بهول الموقف وخطورته ، والأسى لأرواح المجاهدين التي تزهق بالمئات ، والدعوة إلى الاعتصام بالوحدة التي توافرت أسبابها ، في وحدة الوطن ، ووحدة المعتقد ، ووحدة الجنس ، والتحذير من القعود عن تلبية داعي الجهاد حتى لا تمتد شرارة العدوان ، فلا ينجو منها في أرض العرب مكان .

ومن قصائده في فلسطين قصيدة عنوانها « لا يحقن الدم إلا الدم » [1] وقد أنشدها في أحداث فلسطين سنة ١٣٦٧ هـ ، وجعلها أول قصائد ديوانه الأول

---

(١) ص ٣١ من ديوان (مطلع الفجر) .

(مطلع الفجر) ، وقد بدأها بهذا اللحن الذي نقرأ فيه نبرات الأسى والشجون لما أصاب العرب في كرامتهم نتيجة لتوانيهم عن تلبية دعوة داعي الجهاد ، ويصف ما يلقى شعب فلسطين من عسف وهوان :

اللهُ يشهدُ والتاريخُ والحِقبُ ... ما يفعل المسلمون اليومَ والعربُ
إن شئتمُ فسِمُوا بالعارِ لِمَّتَكُمْ ... أو فاملئوا مسمع الأيام ما يجبُ
هذي فلسطينُ تدعوكمْ لنجَدتها ... عاث الغريبُ وضاع الحقّ والأدبُ
فيها لكم إخوةٌ في الله تجمعكمْ ... بهمْ وشائجُ منها الدين والنسبُ
قد عُذِّبوا واستبيحوا في ديارهمُ ... وسُوِّموا العسفَ وانتابتْهم النّوبُ
لبّوا النداءَ وذودوا عن محارمها ... بالسيف ، والمال ، والأرواح تلتهبُ
لا تنكروا أخذَكمْ بالسّيف حقكمُ ... فالحقُّ من جاحدٍ بالسّيف يكتسبُ

ثم يخاطب شعب فلسطين يدعوه إلى الاستبسال والثبات في وجه العدوّ الغاشم ، فلابد أن يهب العرب أهل المروءة والحميّة لنجدتهم ، وليسوا باغين ولا معتدين ، ولكنهم يأبون الضيم ، ولا ينامون عن الثأر من الباغين عليهم ، والمعتدين على حرماتهم :

مهلا فلسطين إنا معشر عربٌ ... فينا المروءةُ دينٌ والعُلا حَسَبُ
لسْنا بغاةً ، ولكنْ إنْ بغَى أحدٌ ... على حمانا ردَدْنا البغيّ يضطربُ ؟

ويهزأ بالمنظمات الدولية التي ملأت الدنيا أملا بميثاقها الذي زعم واضعوه أنهم دعاة الحق والعدل والسلام ، وأنهم سيقفون في وجه كل معتد على الشعوب الآمنة المسالمة ، حتى صدّق الناس ما زعموا ، واستبشروا بالوعود الكاذبة التي روّجتها أجهزة الإعلام ، وإذا الحقّ للطغاة الباغين ، وليس للمظلومين المستضعفين :

إن الذين دَعَوْا للسلم وانتظموا ... له منظمةً ضجت بـه الخطَبُ
ودندنت صحفُ الدنيـا منمقـةً ... من الدعاوَى كثير الخير يرتقبُ
وصدّق الناسُ بعضَ الصدق ما أَلِفوا ... نكرانه ، وعرانا البشر والطـربُ
واهتزّت الأرضُ حيناً فهي تائهة ... عُجباً بما صنع الإنسان والعُصَبُ

ما بالهم نسجوا من صنعهم كفناً   وارى الوليدَ ولمّا ينته العجبُ
وأين ميثاقهم عبر المحيط ، وما   جفّ المدادُ على العهد الذي كتبوا

ويحذّر قادة العرب من الاغترار بالوعود الكاذبة ، والآمال المعسولة التي يمنيهم بها أعداؤهم الذين يتربصون به الدوائر ، ليلهوهم عن قضيتهم ، ويصرفوهم عن الكفاح في سبيل استخلاص حقهم ، ويحثهم على الجهاد ، وامتشاق الحسام الذي هو أبلغ ردّ على أولئك البغاة المعتدين :

يا قادةَ العُرب هبّوا نحو غايتنا   لا يُلْهنا الغربُ بل حيّاته الرُّقُبُ
إن المواعيدَ والآمال مضيَعة   أصابنا الوهْنُ - جرَّاهنَّ - والنَّصَبُ
ويُركب الصعبُ للغايات فادّرِعُوا   إن العواليَ - قِدْماً - للعلا سببُ
من يطلبِ الموتَ أرضتْه الحياةَ ومَن   يحرصْ عليها فَقد يفنَى ويُسْتلبُ
لو مات ذَاك ففي الأحياء سيرتُه   أو عاش هذا ففي الأموات يُحتسبُ

ذلك شيء مما عالج به الشاعر مأساة فلسطين ، وقد رأينا فيها الإحساس والشعور كما رأينا فيه الوعي والإدراك لألاعيب السياسة ومؤامرات الأعداء .

* * *

والباحث في شعر إبراهيم فودة عن اتجاه العاطفة الوطنية ، وهو يتلمّس منافذها ، ويبحث عن دوربها ومسالكها سيروعه من غير شك تلك الأعمال الشعرية الكثيرة التي فاضت بها دواوينه الخمسة ، وقد عبّر فيها تعبيراً قويا رائعاً عن مشاعره نحو أمته العربية في كثير من مواطنها وأمصارها ، فقد وصف في تلك القصائد ما فيها من معالم الحضارة ، ومظاهر الطبيعة الخلابة في أرضها وسمائها ، كما وصف بعض الأحداث التي ألمت بها في تاريخها المعاصر ، وأشاد بما أعجبه من أخلاق أهلها وطباعهم التي لم ير فيها إلاّ كلّ آسر جميل .

والسبب في تلك العناية الملحوظة بالعالم العربي ، أن الشاعر لم يكن يعيش بعواطفه في منشئه ومرباه في البلد الأمين وحده ، ولا في وطنه الأم المملكة العربية السعودية وحدها ، وإنما كان يعيش بمشاعره المتقدة في وطنه الأكبر في العالم العربي المترامي الأطراف .

لقد أوغل حبّ العروبة وديارها وأهلها في أعماق هذا الشاعر العربي الأصيل ، واستقر من جوانحه ، وجرى من نفسه الشاعرة مجرى الدماء في العروق ، أو الغيث في التربة الخصبة الصالحة ، فجادت شاعريته بأروع ما أوتيت من حذق وبراعة في وصف هذه المشاعر الحية نحو أمته العربية في كل مكان . وفي ديوانه الثاني (مجالات وأعماق) باب عنوانه « في دنيا العروبة والإسلام » تملأ قصائده أكثر من ثلث الديوان ، وقد طوف بشاعريته بآفاق من العالم العربي ، وعبر أجمل تعبير وأحكمه عما أراد أن يعبّر عنه من الخواطر والمعاني .

ويطول نفَسه في تلك القصائد طولاً ملحوظاً مع وفرة المعاني وتزاحمها ، وإحكام صنعتها .

وقد بلغ طول واحدة من قصائد هذا الباب ثلثمائة وسبعة عشر بيتا ، وهي أطول قصيدة من شعره على الإطلاق ، ولا أعرف لها أمثالاً إلاّ في شعر القصص والملاحم . وقد احتفظ الشاعر فيها بوحدة الوزن مع تغيير القافية بعد عدد من الأبيات .

وعنوان هذه القصيدة « تحية شعب العراق » [1] بمناسبة ثورة هذا الشعب على حكامه الغاشمين . وقد أنشدها في حفل خاص أقامته له رابطة الأدب الحديث في القاهرة ، بعد أن قضى الشعب على أولئك الطغاة الذين قطعوا الوشائج القوية التي تصلهم بالشعب العربي في كل مكان . وأولها :

حُيّيتَ يا شعبَ العراقْ ... حُيِّيتَ في رَكب الرفاقْ
ووصلتَ بعد قطيعةٍ ... وقطعتَ أسبابِ الشّقاقْ
حُيِّيتَ قد أحْيَيْـ ... ـتَ إخوانا أمضَّهمُ الفراقْ
قالوا استبدّ بك الدَّخيـ ... ـلُ فأنت منه على وفاقْ
وطواكَ في أثوابه ... وقضى على سمة العراقْ

ومنها في وصف تقلب الأحوال في وادي الرافدين بين اليسر والعسر ، وبين

---

(١) ص ٧٣ من ديوان (مجالات وأعماق) .

الحرية والاستبداد ، وبين الاستقلال والاحتلال ، وكيف استأثر الأجنبي الدخيل بثروة العراق وخيراته فيقول :

الرافـــدان هما الــــنُّضَا	رُ جرى بأرضكَ وهي بِكرُ
الــيُسْر فيضهمـــا عليــــ	ـكَ ، وإنَّ فيض اليسْرِ برُّ
فـــإذا الحضارة أينـــعتْ	ولها بأرضكَ كان سِحْــرُ
ومضت سِنُــونَ تعاقــبتْ	للهِ فيمـــا كَــان أمــرُ
وعـــدا علــيكَ الأجْنبـــــ	ـيُّ ، فعاد يُسرُك وهو عسْرُ
نهبُــوا نُضارك مـــن حما	كَ ، وكلّ حظِّكَ منه خُسْرُ
فتفجّــرتْ غيظـــاً رُبـــا	كَ ، وفاضَ بالبترول قفْــرُ
وإذا بـــه شرٌّ عليْـــــ	ـك ، وإنه لسواكَ خيرُ
وكأنـــه الــعبءُ الجديــــ	ـدُ ، عليك من جرّاهُ وِزرُ
وكسَبْتَ أنت لظى اللهيـــ	ـب ، ومكسبُ الدخلاءِ تبرُ
ومضى الغــــــريبُ بخيرِهِ	ومضيتَ ملءُ رباك فقــرُ

وذلك تصوير دقيق لحال العراق إبان احتلال الإنجليز ، واستبدادهم بأهله ، واستئثارهم بخيراته ، ومعاناة شعب العراق الذي لم يجن من خيرات بلده إلاّ العنت والحرمان .

وما أجمل تعبيره ، وما أحسن تعليله لتدفّق « البترول » في أرض العراق في قوله إن الرُّبا قد ضاقت بعسف المحتلين ، واستشاطت غيظاً ، فتفجرت رُباها وتدفق منها « البترول » الذي هو مصدر عظيم من مصادر الثروة والرخاء ، وقد استأثر به الدخلاء ، وحرموا العراقيين ثمرة هذا الرزق الحلال الذي أجراه الله في بلادهم .

ولست أرى المجال يتسع لبسط ما اتسعت له هذه الخريدة المطوّلة من تتبّع الأحداث التاريخية التي مرّ بها شعب العراق ، وما تعاقبت عليه من الخير والشر ، والشدّة والرخاء ، وما أصاب الأحرار فيه من ضراوة التعذيب والتنكيل ، ومرارة السجن والاعتقال على يد المحتلين والطغاة .

على أن لإبراهيم فودة عراقية أخرى عنوانها « بغداد » وقد أنشدها على أثر الأحداث التي دارت في العراق بعد ثورة ١٤ من يوليو عام ١٩٥٨ م ، وقد أبدى الشاعر فيه فزعه لتلك الأحداث الدامية ، بعد أن استبشر بتلك الثورة . ومطلع هذه القصيدة :

مهلاً بنى أُمّتي في أرض بغدادِ أرَى الفرات دماً يجري على الوادي
بغدادُ ، مالميـاه النهر قانيــةً حمراء أمْ ما أرى ليست ببغدادِ
هل خُضْتِ معركةً ضدّ الغزاة وما سمعتُ أنك في حربٍ مع العادي
ما للدّماء على الوادي مؤججة تفري أديمَ رُباك الطيبَ النادي

أما المغرب العربي فقد ظفرت الجزائر من شاعرنا بمطوَّلة حماسية ممتازة عدّة أبياتها مائة وأربعة وعشرون بيتا ، وعنوانها « حيّ الجزائر » [(١)] . وقد استهلّها بهذه التحية :

حيّ المجاهــد في الجزا ئر حيِّه حيِّ الجزائـرْ
فهنــاك شعب مؤمــنٌ حيُّ المشاعر والضمائـرْ
شعبٌ يشقّ طريقـــــه متدافعــاً فــوق المجازرْ
بشيوخـــــه وشبابــــه ونسائـه الغُـرِّ الحرائـرْ
شعبٌ يفكّ القيد مــن حـول المرافـق والمحاجـرْ
ويحطّـم الأغـلال عــن كــلّ الموارد والمصادرْ
ويمزّق الليـــل البهيــــ ـمَ ، أما لهذا الليل آخرْ
غضبـــانَ يهدر ثائـــراً متدفّقـا كالسيـل مائـرْ

وعلى هذا النحو من الإشادة بالشعب الجزائري يتدفق الشعر مترنماً بكفاحه البطولي في سبيل تحرير بلاده ، واستنقاذها من براثن الغزاة الفرنسيين بعد احتلالهم إياها أكثر من قرن من الزمان .

وقد أصرّ هذا الشعب الحرّ على تحرير وطنه مهما تكن قوة أعدائه ، وما يملكون من أسباب الفتك والتدمير بجيوشهم الجرارة ، ومقاتلاتهم النفاثة ،

---

(١) ص ٩٢ من ديوان (مجالات وأعماق) .

وقنابلهم الحارقة المدمرة التي صبّوها على هذا الشعب الأعزل الذي تسلّح بالصبر والبسالة ، والإيمان بحقه في الحياة الحرة الكريمة .. وقد آلى على نفسه أن يخوض هذه الحرب الطاحنة بشيوخه وشبانه ، وبنسائه وولدانه ، حتى تكتب له الشهادة أو يفوز بنصر الله .

وقد حقق الله آمال هذا الشعب البطل ، وأصبح مضرب الأمثال في العزة والإباء ، وأعجوبة الزمان في التضحية والفداء ، بتضحيته بمليون شهيد .

أومأ الشاعر إلى تلك الصفحات المشرقة في تاريخ الكفاح والتضحية ، وأنحى على المستعمرين بالتقريع ليكبحوا جماح أطماعهم في السيطرة على الشعوب الآمنة المؤمنة بحقّها في الحياة . وكذلك دعا الأمة العربية إلى أن يكون لها في تضحية هذا الشعب العربي الأبّي أسوة حسنة في الكفاح والتضحية في سبيل الحرية والكرامة .. ثم يختم الشاعر خريدته المطولة بهذه التحية الحارّة :

وإليك يـا شعب الجزا　　ئر خفقة من قلب شاعرْ
وإليك يـا شعب الجزا　　ئر خفقة من كلّ خاطرْ
ألهمتنـا معنـى الكفـا　　ح بما رسمتَ من المآثرْ
فتـجسّد المعنى الكريـ　　ـمُ لكلّ ناظرةٍ وناظـرْ
ومضى يردّد لحنه الإنـ　　سانُ من بادٍ وحـاضرْ
بشراك بالـنصر القريـ　　ـب وطبْتَ يا شعب الجزائرْ

أما شعر إبراهيم فودة في مصر والمصريين فإنه كثير ، ولا يكاد يخلو ديوان من دواوينه من الإشادة بأرضِ الكنانة وسكانها ، وقد قضى الشاعر شطراً من حياته في ربوع النيل ، وقد تركت تلك الفترة التي قضاها في مصر آثارا طيبة في نفسه ، كما تركت آثارها الظاهرة في شعره ، فقد أتاحت له فرصة التعرف على طبيعتها الجميلة ، ومعالم نهضتها ، ومظاهر الحياة الفكرية والحياة الأدبية فيها ، كما عرف كثيراً من أعلامها في الفكر والأدب والشعر عن كثب ، فأحبّهم وأحبوه ، وعبّر عن حبّه لهم ومشاعره نحوهم في كثير من قصائده الجياد التي أعرب فيها عن عواطفه نحو أشخاصهم ونحو بلدهم .

ولم تكن عودة إبراهيم إلى داره وأهله في البلد الحرام لتنسيه هذا الحب العميق الذي ملأ قلبه ، بل إنه ليرسل التحية إليها تلو التحية ، ويشيد بها في كل زمان وفي كل مكان . وحسبنا أن نقرأ قصيدته « تحية مصر »[1] وقد نظمها في عام ١٣٧٠ هـ وقال إنه ردّ بها على تكريمه . وفي أولها يقول :

منها وعنها ومن إلهام أهليها وفي رُبا نيلها الصافي وواديها
لمصر أزكى تحيات معطَّرةٍ حملتُها من جوار البيت أهديها
شوقاً من الحرم القدسيّ حنّ به إلى الكنانة جلّ الله باريها
كنانة الله صان الله جانبها بدائعُ اللهُ بُثّتْ في مغانيها
فحيثما كنت جناتٌ مضوّعةٌ أشذاؤهـا ومجلاّة مجاليها

ويستطرد إلى وصف ما فيها مما يجلب الأنس ، ويجلو صدأ النفس :

هي الديار ، ديار الأنس عامرة بما به النفسُ تنأى عن مآسيها
وحيثما كنت روضات العلوم ترى أشياخ فضل وفتيان العلا فيها
هي الرياضُ رياضُ الفنّ ناضرةً غنّاء تحفل بالحسنى نواديها
ولست أحصي بهذا كلّ ما اشتملت قد عمّها الله خيراً في نواحيها
لكنني جئت عن قومي أبلّغها خير التحيات بل أسمى معانيها

ومن ذلك قصيدته « أحبابنا في ربوع النيل » وقد حيّا بها جماعة من أصدقائه في مصر قال إنهم أحاطوه بعواطف كريمة وحفاوة بالغة ، وفيض من شعورهم النبيل في أثناء وجوده بمصر[2] .. ومنها :

إنّا وإنْ باعدتْ ما بيننا ونأتْ بنا الديارُ فما كنّا بناسينا
مهما تكن شِرَع الأيام قَاسيةً وللظروف بنا أحكامها فِينا
وإن تناسى دعيُّ الودّ موثقهُ كنّا على العهد حفاظا وَفِيِّينا
عهد الوداد الذي خطّته أفئدة بيضاء ناصعة طهراً وتبيينا

---

(١) ص ١٠١ من ديوان (مجالات وأعماق) .

(٢) ص ٢٥٢ من ديوان (مجالات وأعماق) .

وقد استوحى فيها كثيراً من معاني قصيدة ابن زيدون المشهورة « أضحى التنائي بديلاً عن تدانينا » التي خاطب بها « ولاَّدة » . وهي على وزنها ورويّها .

ويقصر القلم عن الإحاطة بما وفى به إبراهيم فودة لمصر بما تغنّى به في شعره وسجله في دواوينه مما وصف به أمجادها ومغانيها ومعالم الحضارة فيها ، وما وصف به الطبيعة الفاتنة فيها في لوحات فنية رائعة .. ومن أراد المزيد فليقرأ قصائده في الاسكندرية « على شاطىء البحر الأبيض المتوسط » وفي « الجامعة المصرية » وفي « الأهرام » وفي « النيل » ...

ولم يقتصر الشاعر في تلك القصائد وغيرها على الوصف المجرّد ، ولكنه عمد إلى مزج هذه الرؤى والمشاهد بمشاعره الصادقة ، وعواطفه الدافقة ، وذكرياته الباقية ، لتطل من وراء ذلك كلّه شخصية شاعر متميز موهوب .

وله عدا هذه التحيات الطيّبات التي تنبىء عن حبّ عميق لمصر والمصريين مشاركات وجدانية للشعب المصري فيما ألمّ به من أحداث ، وما وقع على بلده من عدوان ..

وقد نظم في هذه الأحداث عدداً من القصائد التي عبّر فيها عما يعتصر قلبه من الألم لهذا العدوان منها قصيدته « هدية متواضعة » (١٠٣/٢) ، وقد أهداها إلى مدينة « بور سعيد » الباسلة الصامدة في وجه العدوان الثلاثي على مصر . وفيها قوله :

وما « بور سعيد » على فضلها	بدنيا كفاح الشعوب المديـ
ـن ، وفيه مثيلاتها في « رشيدْ » [1]	سوى بقعةٍ من ربوع العَريـ
ـقَةِ ساحُ الكفاح ومهدُ الأسودْ	وأرضُ العروبة منذُ الخليـ

وقصيدته « مصر الشقيقة » (١٠٦/٢) ، وقد أنشدها في أثناء ذلك العدوان الأثيم على مصر سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) . وأولها قوله :

وقيت يا مصرُ النوائبَ فاسْلمي	يا مصرُ أنتِ لنا الرجاءُ الأوّلُ
نفديك بالمهج الغوالي والقنا	عطشَى ومن دم شانئيك ستنهلُ

---

(١) يشير إلى موقعة رشيد التي انتصر فيها المصريون على الفرنجة في زمن الحروب الصليبية .

وقصيدته « بني أمتي » (١٠٧/٢) التي نشرها في مجلة « المنهل » إبان ذلك العدوان . وهي من مطوّلاته ، وقد وجّهها إلى الأمة العربية لتخفّ إلى النجدة والفداء . وأوّلها قوله :

بني أمّتي حان الأوانُ لوثبة يعزّ بها حقٌّ ويَزْهق باطلُ
وما الزيفُ إلاّ كالغلائل خلْفها خبيءٌ سيبدو حين تمحى الغلائلُ
بني أمّتي إما حياةٌ كريمةٌ تريدونها حقّا وما بعدُ زائلُ
وإمّا مماتٌ في ظلال كرامةٍ أحبّ إلى الأحرار والظلم شاملُ
ومن رام أسبابَ الحياة عزيزةً ينلْها كِفاءً للذي هو باذلُ
بني أمّتي غُذّوا الخُطَا نحو غاية هي الهدف الأسمى ، وقد عزّ نائلُ

ذلك غيض من فيض المشاعر العربية التي امتلأ بها قلب إبراهيم فودة ، وفاضت على شعره فملأته قوة وحماسة ، لأنه عرف أنه واحد من أبناء هذا الشعب العربي الكبير الذي يعمر مساحات شاسعة من أرض الله في المشرق والمغرب وفيما وراء البحار ، ينبض قلبه بحبّه ، ويحس بإحساسه ، ويزهو بمآثره وأمجاده ، ويأسى لمآسيه ، ويهلل لما يصيب من خير ، وما يحرز من نصر .

وحنين الإنسان إلى قومه ، واعتداده بالجنس الذي ينتمي إليه سمة من سمات الأصالة ، وهو في الوقت نفسه خلق ركّب في طبيعة هذا الشعب العربي العريق .

* * *

على أن هذا الحبّ العارم والوفاء الصادق لم يكونا لينسيا شاعرنا وطنه الأصلي في المملكة العربية السعودية ، ولا مسقط رأسه ومرباه في البلد الحرام ، ولا قومه وعشيرته الذين ينتسب إليهم ، والذين عاش بين ظهرانيهم .

وقد عرفنا أنه عاش في مصر ، وقضى فيها شطراً من حياته ، وأنه لقي في ربوعها ما هو أهل له من الحفاوة والتقدير والتكريم ، مما جعله يحمد مقامه فيها ، وذلك مسجل مسطور في دواوينه ، وقد قرأنا شيئاً منه في بعض ما عرضناه من شعره ، فقد رأى في المصريين أهلا بأهل ، وجيرانا بجيران .

ولكن ذلك كله لم يفقده الشعور بالغربة ، والحنين إلى الأهل والديار ..

ونجد صدى هذا الشعور في مقطَّعته التي عنوانها « البُعد هو البُعد » [1] .. وفيها يقول :

أراني تذوّقت البعاد ولم أكـنْ شريداً ولكنْ كلّ حالاته بُعْـدُ
إذا أنت لم تلق الحبيب فذلكم فراقٌ وإن لم يقرن البُعد والصدُّ
رأيتُ فراقَ الموطن الأصلِ غُربةً وإنْ كنتُ عن رحْب العروبة لم أعدُ
حواليَّ صبياني وأهلي ومـعشري وصحبٌ كرامٌ ليس يُحصيهمُ عَدُّ
أحسُّ ديار العُرْب شرقاً ومغرباً دياري ، وحبِّيها إلى دارتي يحدُو
ترى الطير إلف الحيّ مادام عشُّه خلال مغانيه ، وإن أجدبتْ يغدُو
فإن هدمَ العشَّ الحبيبَ مقارفٌ أثاماً وجدت الطير من حوله يشدُو
حنانيك ! ما ماضي الفتى في دياره بمنفصل عنـه وإن قـويَ الشدُّ

فهو يشكو كما رأينا لوعة الاغتراب ، ولذعة الفراق ، والحنين الدائم إلى الوطن الأم برغم ما قرره من التفاف صبيانه وأهله حوله ، يملئون حياته ، وما كان له أن يسلو وطنه ، أو يستبدل به وطنا غيره ، وقد شرّفه الله بجيرة بيته الحرام كما يقول في قصيدة أخرى عنوانها « هوى الوطن » :

تمضى الليالي ثقالاً إذْ أعدّدهـا كأنما هي قد شدَّت إلى رَسَنِ
رفقا بمن ليس يلهو عن هوى وطنٍ وكيف يسلو أخو رُشد هوى الوطنِ
الله يعلـــم أني لا أُفارقُــــه مستبـدلاً بحصاه باهـظ الثمـــنِ
ما كنت مستبدلاً عن موطني وطناً وقد شَرُفتُ جوار البيت بالسكنِ

ونقرأ له أربعة أبيات عنوانها « زحمة غرام » فنرى قلبه وقد تنازعه هوى مصر التي أحبّها من أعماقه ، وهوى وطنه الذي لا يسلوه .

ولكن شاعرنا الصادق في قوله صدقه في عواطفه يصرح بأن هوى وطنه يغلب هوى مهاجره ، وأنه إذا ذكر ربوع بلده نسي ربوع مصر مع حنينه الموصول إليها ، وهذه هي « زحمة الغرام » :

---

(١) ص ٤٠ من ديوان (مجالات وأعماق) .

يا مصرُ كم أهواك إلاّ أنني أهوَى دياري فوق ما أهواكِ
أنا ما عشقتُ سواكِ بعد ربوعها فإذا ذكرت ربوعَها أنساكِ
لكنني وأنا جليسُ رُبيِّهـا كلّـي حنين دائـمٌ لرُبـاكِ
أستذكر الأيام وهي مريرةٌ فتطيب ذكراها لدى ذكَراكِ

وهكذا يصدق الشاعر مع نفسه ، ويصدق مع الناس في ذلك الشعر المطبوع الذي لا سَرَف فيه ولا غلوّ ، ولكنها الحقيقة التي لا ينكرها عليه إنسان .

وفي قصيدته « عودة » (٣١/٢) يصف مشاعره نحو قومه في بلده ، وهم العرب الخلّص في جزيرة العرب مهد العروبة التي طبعتهم بطابعها ، فهم سمر الوجوه ، وضّاحو الجبين ، وتلك سيماهم كما يقول ، كما أن من سيماهم الإيمان ومكارم الأخلاق ، تزينهم فضيلة الحياء ..

آمنت بالعَرب الأقحاح في بلدي مهدِ العروبة في سيمائها الأبدي
من كلّ أسمرَ وضّاح الجبين ترى على محيّاه سيمـاء مـن البلــدِ
سيمى الحياء ، وسِيمى النبل مشرقة فيها المعاني معاني المؤمن السَّنَدِ

ثم إنه يعود إلى وطنه كما يعود الطائر الغرّيد إلى وكره ، بعد أن راح يطوّف في الآفاق يطلب غذاء لروحه ، وريًّا لصداه ، وها هو ذا يعود إلى حماه ، حامداً مسراه :

طوّفتُ بالناس أرجو في عوالمهم غذاءَ روُح إلى العلياء جدُّ صَدِ
رجوتُ أن أجد الأمثال رائعـةً فتنعش الخير في نفسي وفي وَلدِي
وعدتُ بعد مطاف ما ندمتُ له للعشّ أحمد ما ضمّتْه ذاتُ يدِي

ويقول إنه ليس معنى ثنائه على بلده وعلى عشيرته في وطنه أنه يحاول انتقاص بني عمومته من العرب في كل مكان ، ولكنه يريد أن الحبّ درجات ، وأن الأبناء أقرب إلى القلب ، وأجدر بالتقدمة في الحبّ من بني الأعمام ، وتلك حقيقة لا ينكرها إلا واحد من المخادعين ، أو واحد من المدّعين :

وما أذمّ بني الأعمام من عرب في الشرق والغرب إذ أثني على بلدي
لا يعرفُ الحبَّ مَنْ قد يدّعي شَغفاً بالأقربين ولا يحنـو على الولــدِ

* * *

وإذا كان لكل حديث غاية ، ولكل عمل أمد ينتهي إليه ، فإن الكلام في شعر إبراهيم فودة لا يكاد ينتهي . وكلما ظن الناظر في هذا الشعر أنه استوفى الكلام فيه وجد أمامه ما لم يتحدث فيه مما هو جدير بالإشادة والتنويه . فإني مثلا لم أتحدث فيما أبدع فيه الشاعر من الأوصاف ، ولم أعرض لتأمّلاته وما ساقه من شعر الحكمة والزهد ، مع جدارة هذا وذاك بدراسة متأنية تكشف عن موهبة الشاعر ، وحظه من الفكر العميق ، وقدرته على الإجادة والإبداع .

وإذا كنت حريصاً على أن يقرأ الناس ما كتبت ، وأن يتدبروا ما قلت ، وإذ كنت أعرف أن الإطالة داعية السأم والملالة ، فإنني أتوقف عند هذا الحدّ من الدرس والتنويه .

وأخيراً أقول إنني كلما أوغلت في قراءة هذا الشعر العربيّ الجميل وجدتني لا أنتهي إلى قرار ، وكأني أسبح في خضمّ زاخر ، وعباب ثائر ، لا يتبيّن الطرف أطرافه ، ولا يهتدي السّابح إلى شطآنه .

وغاية ما يمكن أن يقال في هذا الشعر أنه يتميز بقوة البيان ، ونصاعة العبارة ، وسعة الخيال ، وشمول العاطفة ، ولا يعاني قارئه شيئاً من الغموض أو الالتواء أو التعقيد ، لأن معانيه نابعة من قلب الشاعر وذهنه ، والبيان طوع يمينه يصرفه حيث يشاء ..

وسبحان من تفرّد بالكمال ..

* * *

إبراهيم محمد الدامغ

في

شرارة الثأر

وهذه موهبة من مواهب الشعر في « القصيم » تمثلت في إبراهيم محمد الدامغ ، صاحب « شرارة الثأر » .

وقد انطلقت هذه الموهبة من « عنيزة » فشرّقت وغرّبت ، وسارت في كل اتجاه .. ولكنها في مسيرتها المشرّقة والمغرّبة لم تبرح الدائرة أو المجال الذي رسمته لنفسها ، أو رسمته لها طبيعتها .

وهي دائرة الوطنية ، التي تضيق وتتسع ، وقد تحدّ نفسها وتحصر حدودها ، فلا تكاد ترى فيها إلا « عُنيزة » التي أهلّ على ترابها ، وترعرع فوق أرضها .

وقد تتسع فتشمل « القصيم » ، ثم تعمّ « نجداً » ، ثم تتجه شرقاً ليضمّ محيطها « الأحساء » ، ثم تغرّب حتى تلمّ بفلسطين ، وتتجاوزها إلى أرض الجزائر ، أو إلى جبل « الأوراس » وشعبه المجاهد الذي ضحّى في سبيل حريته واستقلاله بمليون من الشهداء ، وقد جادت عليه بشعر جيد ، منه خمسة أبيات (٨٧) :

أوراس ، والبلد الأشمّ ، وموطن الأمل الكبير
ومنابت الزيتون في أرضي ، ومخبؤنا الصغير
ورحابنا الفيحاء ، والحصْن المروّق بالصخور
ومرابض الأبطال ، والركب الملوّح للمسير
والراية الخضراء شعرى والبواسل والنسور

وهذه على وجه التحديد هي الآفاق التي استطاعت شاعرية إبراهيم الدامغ أن تصل إليها في ديوانه بدرجات متفاوتة في رؤيتها .

ولا يستطيع أحد أن ينكر على الشاعر عشقه لبلده ، ولا وفاءه لعشيرته وأهله ، ولا أن تحظى « عنيزة » من نتاجه في هذا الديوان بالحظ الأوفى من شعره ، إذ كانت مسقط رأسه ، وأول أرض مسّ جلده ترابها .

وعنيزة في نظر شاعرنا أم الأسود ، ومنارة الأحلام ، ودرة الوجود ، وقبلة النور ، إلى كثير من تلك النعوت المتعاقبة أو المترادفة التي تتزاحم في « عُنيزياته » .

ومنها في مقطعته « فيحاء » (ص ١١٠) :

فيحاء ، يا أمّ الأسود — يا منبع الحلم الجميل
يا درّة فوق الوجود — رفّافة المجد الأصيل
تيهي على هام الخلود — بشبابك الحرّ النبيل
واروي له اللحن الشرود — يا موطن العزّ الأثيل
يا قبلة النور المذاب — بُشراك بالنصر المبين
فالملهمون على اقتراب — من ظلك الباني المكين
والمنجدون على الصعاب — زُفّوا إليك مهللين
يَفديك بالروح الشباب — يا موكب الفتح الأمين

ولم يفصح الشاعر عن المناسبة التي أنشد فيها هذه الأبيات ، وإن كان يبدو من سياق معانيها أن عنيزة كانت تخوض حرباً ضروساً ، وأن أبناءها خفّوا لنجدتها ، يدافعون عنها ، ويفتدونها بالمهج والأرواح !.

ولقد استبدّ بالدامغ حبّ عنيزة وهواها ، حتى غدت في نظره « أم الهوى والسّماح » كما سماها في إحدى عنيزياته التي وصف فيها أرضها المطرزة بالخضرة ، وسماءها الصافية ، وجبلها « الأبلق » الذي يناطح السحاب في لوحة فنية فاتنة ، تغري برؤيتها ، واستجلاء طلعتها ، والكشف عن مفاتنها . وهي على صغرها من أجود وصفياته . وفيها يقول (ص ٩٠) :

بلادي وأيّ هوى أعشقُ — أنورُك أم مجدُك المشرقُ
ذكرتك لما ذكرتُ الجلال — وشمتُك لما اجتلى الأبلقُ
منار لهذى السّراة منيف — محيط بمعصمها مورقُ
يلامسُه مِن عنان السَّماء — جَناح براحته مغدِقُ
يتيه كما تستحمّ المنارة — فوق السحاب فلا يغرَقُ
تراه على البَعد مستدنياً — خُطاك إليه فتستوثقُ
ويجذبك السحر في سفحه — فيرويك مورده الأسمقُ
على درة من نعيم الإله — تغازله العين مذْ تحدقُ
بلادٌ كما يستهلّ السنى — ويشرق في سحرها المشرقُ
عنيزةُ أمّ الهوى والسماح — وكلّ فؤاد لها يخفقُ

وليست تلك الطبيعة الزاهية الآسرة وحدها هي السرّ في هذا الهوى الذي رأيناه في عشق صاحبنا لبلده ، وهيامه بوطنه . ولكن يعضد هذا الهوى العارم مناقب مذكورة ، وأمجاد مأثورة لهذا البلد الذي شهد بسالة أهله ، وحسن بلائهم في الوقائع والحروب التي خاضوها بشجاعتهم ، وبسيوفهم البتارة التي جذّوا بها رءوس المغيرين عليهم ، والطامعين فيهم (ص ٦١) :

تلك الملاحم والبطولات التي — شهدت لهول بلائها الآثارُ
في كلّ نَهدٍ من رُبا فيحائنا — فلَكٌ قضى بمداره الأحرارُ
وبكلّ سيفٍ من سيوف رفاقنا — أجَلٌ تسيِّر حتفه الأقدارُ
ولكلّ بيت من بيوت فدائنا — وِرد يُسار لذكره .ويُشارُ

هذه « عنيزة » التي استأثرت بالحظ الأوفى من عاطفة الدامغ ، وبالنصيب الوافر من شعره ، ففُتن بجمالها الآسر ، ورؤاها السّاحرة ، وأشاد بأمجاد أهلها وبطولاتهم .

وهكذا أصبح الشاعر وكأنه لا يرى الحسن إلا معلّقا بها ، ولا السّعادة إلا في أكنافها ، ولا المجد إلا ما اختطه أبناؤها ، ولذلك أصبحت « عنيزة » مهبط وحيه ، ومجتلى إلهامه ، وكأنه لا يرى الدنيا في غيرها ، فلم يعد شيء ينسيه رباها الخضر ، ولا يأسره لحن يوقّع على غير أفنانها . بل إنه لا يرى ذلك اللحن الغريب إلا نواحاً ينذر بالوعيد ..

اقرأ ذلك في أبياته « على مشارف عنيزة » (ص ٥٨) :

ذُراك السّمر يا فيحاءُ تروى — رواء المجد والعزم الأكيدِ
وسحر رباك يستهوي فؤادي — ويلهمني فأغرق في نشيدي
وأمخر في عباب لستُ فيه — سوى دَنِفٍ وملهوف عميدِ
تدور بيَ المسالك في جنانٍ — فأبصرها ركاماً من حصيدِ
وأسمع كلّ أغنية لديها — نُواحاً بين أجراس الوعيدِ
فغير نداك يا وطني محال — ومحلّ يستغيث بلا مشيدِ

هذه عنيزة التي منحها الشاعر قلبه ، وصنع فيها الغالي من شعره الذي وصف

فيه طبيعتها الباهرة ، وتفاعلت رؤاها مع روحه الشاعرة ، وسجّل فيه بطولة أهلها ومآثرهم الباقية في ذاكرة التاريخ ، وهم أهله وعشيرته الأقربون .

والحديث عن عنيزيات الدامغ يتسع ويطول لولا الوقت المحدود ، والطاقات المقدّرة للمتابعة والإنصات ، ثم ما نحاول من الإحاطة السريعة أكثر ما يستطاع من الجوانب التي عني بها الشاعر وأجاد فيها .

* * *

على أننا نقع في خطأ جسيم ونظلم شاعرية إبراهيم الدامغ ظلما فادحاً إذا حسبنا أن عاطفته الوطنية ، أو أن شعوره بالانتماء قد توقف عند حدود وطنه الصغير في عنيزة التي منحها كثيراً من عاطفته ، وأنشد فيها كثيراً من أجود شعره .

ذلك أن لإبراهيم الدامغ أعمالاً شعرية رائعة يتجاوز بها ذلك التأثير الإقليمي الذي مهما تكن دلالته على خلق الوفاء للمنبت والأصل والأهل والمجتمع الأول الذي نشأ فيه وشبّ وترعرع ، فإن أقل ما يمكن أن توصف به تلك النزعة الإقليمية أنها نشأت عن إحساس قاصر أو نظرة محدودة إلى عالم صغير محدود . وذلك ما لم نعد نرضى عنه كلّ الرضا أو بعض الرضاء ، سواء أكنّا من القائلين بنظرية « روح الجنس » التي نادى بها الفيلسوف الألماني « وهلم شليجل » ، أم كنّا مؤمنين بتلك النظرية التي دعت إليها « مدام دي ستال » الفرنسية ، وأعني بها نظرية « روح العصر » .

ذلك أن هذا الجنس العربي يؤلف وحدة موصولة متماسكة ، وإن تعددت أقطاره ، أو تباعدت دياره . وقد تأثر هذا الجنس تأثراً ملحوظا بروح العصر لا يستطيع أحد أن ينكره ، وإن اختلفت درجات هذا التأثر من بلد عربي إلى بلد عربي آخر .

وإذا نحن قرأنا ذلك الشعر الذي صاغه إبراهيم الدامغ مما تجاوز فيه حدود إقليميته برزت أمامنا معالم روح عربية عالية تتأجج فيها نيران الغيرة على الأمة العربية وأوطانها ، والإشفاق على مصيرها .

كما نقرأ فيه إحساساً بالبشر والتفاؤل إذا لاحت أمامه بارقة أمل في الجهاد ، أو في العمل على استعادة الأمجاد .

وكذلك نقرأ فيه شعوراً باللوعة والأسى إذا رأى فرقة العرب وتمزّقهم وكيد بعضهم لبعض ، وأمامهم عدوّ غادر لئيم يغتصب أوطانهم ، ويعيث في مقدساتهم ، ويتربص بهم الدوائر ..

كل ذلك نراه رأي العين ونحن نطالع تلك القصائد الحماسية التي نظمها إبراهيم الدامغ ، وهي قصائد تفيض بالعاطفة الصادقة نحو أمته العربية ، وتفاعله مع ما يلمّ بها من أحداث الزمان ، واستنفاره شباب العرب للبذل والتضحية لاستنقاذ الوطن السليب في أرض فلسطين من براثن اليهود .

اقرأ قصيدته « موكب الفتح » (ص ٩٧) التي أنشأها في الحث على التبرع بالمال لنصرة قضية فلسطين ، وتشجيع « منظمة فتح » على مواصلة القتال ، والصمود في مقابلة الأعداء . وفيها يخاطب الشعب العربي بقوله :

أبا الفتوحات إنّا	قد ابتلينا القضيّه
فما وجدنا طريقاً	سوى طريق المنيّه
وما عرفنا كفاحاً	يصول غير الحميّه
وما حملنا نفوساً	إلا النفوسَ الأبيّه
فأصغ للثأر واضرب	بقبضة يعربيّه
إنا على الخط نبني	لك الحصون القويّه
فنحن قد أرضعْتنا	لمذّك الأريحيّه

وهذه الأبيات كما نرى سهلة التناول متوسطة النسج ، مع ما نراه فيها من المعاني الحماسية القوية التي لم تجد عديلها من متانة البناء ، وقوة الأداء .

ويبدو أن السبب في فقد هذا التعادل بين المبنى والمعنى يرجع إلى أن الشاعر كان يتجه بقصيدته إلى الجماهير يحثها على البذل والعطاء ، فتخير من العبارات ما رآه أكثر ملاءمة لها ، وأقدر على التأثير فيها ، فبدا في هذه الأبيات خطيباً أكثر مما بدا شاعراً .

ثم يتوجه بخطابه إلى « منظمة فتح » التي رأى فيها بارقة الأمل في استرداد وطنها السليب ، ومقدساتها المغتصبة . ويطمئنها على إمدادها بما يكفي من الأموال التي تستطيع بها أن تدحر اليهود المعتدين الدخلاء ، فيقول :

بالمال يا فتح إنّا سنخلق المستحيلا
فكلّ قرش سيمحو بالموت علجاً دخيلا
وكلّ بذل سيبقي للمِسْخ لعناً وبيلا
سنبذل المال حتى نراك حرّا أصيلا
ونهجر النَّوم حتى تعود عَوْدا جميلا

ولعل الشاعر نظر في البيتين الأولين إلى ما كان يكتبه الصهاينة في إعلاناتهم ليشجعوا يهود أميركا على التبرع لبناء دولتهم على أشلاءِ العرب في أرض فلسطين « أعطني دولاراً أقتل به عربيّا » فقال شعارنا إن كل قرش نقدمه لفتح ستقتل به واحداً من علوج بني إسرائيل !

ولم يشر الشاعر في هذا المعرض إلى شيء من وجوه المشاركة للإخوة المجاهدين الفلسطينيين في تصدّيهم للعدوان إلاّ ما يقَدَّم إليهم من الأموال .

ولعل مناسبة الدعوةَ إلى جمع التبرعات هي التي قصرت دعوته على بذل المال ، وإلاّ فهناك وجوه للبذل والعطاء ربما كانت أدلّ على المشاركة في الجهاد من التبرع بالمال ، وفي مقدمتها الجود بالمهج والأرواح .

ولكنها المناسبة فقط كما قدمنا ، مناسبة جمع المال ، وحث القادرين على البذل والعطاء .

وإلاّ فإننا نَقرأ في « شرارة الثأر » شعراً حماسياً قويّاً يلهب المشاعر ، ويوقظ النيام ، ويستنهض الهمم للثأر والانتقام ، وتطهير الأرض من رجس اليهود ، ويهيب بقادة العرب وزعمائهم الذين يجتمعون ثم يتفرقون ، ويأتمرون ثم ينفضون ، ويؤجلون ويسوّفون ، يهيب بهم أن يكفوا عن الصياح والعويل ، ورفع العقائر بالشجب أو الاحتجاج أو الشكوى ، وأن يضموا صفوفهم ، ويوحدوا كلمتهم ، لينقضّوا بجيوشهم على تلك الطغمة الكافرة التي دنّست أرض فلسطين ، واغتصبت مرابض العرب والمسلمين ، وعاثت في أوطانهم بالبغي والفساد .

استمع إلى قوله في اختتام قصيدته الثائرة التي سمّاها « وراء الحدود » (ص ٦٧) يعاتب ويستنفر ويدعو إلى الوحدة ونبذ الخلاف :

كفى احتجاجاً بلا عزم وثائرة   فالقول يفنَى ، وغير الفعل ينحسرُ
ثوروا خفافاً إلى التنين وانطلقوا   فما تربّع فوق النجم منتظرُ
وجدّدوها على التوحيد بارقة   خفّاقة بيمين الثأر تستعرُ
تجتاح هلكى بني الأقزام في سفر   وعزّ مِنّا مكانا للعدى سقرُ
فقد مللنا زحام البغي معتكراً   بسوء تيه البغاء النتن والوضرُ
لم يبق عزّ نرى فيه لنا أملا   إلاّ الوفاق الذي هامت به السيَّرُ
مذ كان فجر العلا غضّا ومكتملا   يحوطه من بني مخزوم منتصرُ

ونجتزىء من هذه القصيدة الحماسية بهذا القدر القليل الذي يكشف عما وراءه من المضمونات الوطنية ، وعن المشاعر العربية التي أملتها .

وفي « شرارة الثأر » كثير من القصائد الفاخرة التي تبرز فيها بجلاء معالم نزعة عربية أصيلة ، امتلأ بها قلب الشاعر ، وفاضت بها مشاعره نحو أمته العربية ونحو وطنه العربي الكبير .

واذكر من هذه القصائد قصيدته « سماء الشرق » (ص ٩١) وهو يعني بالشرق هنا البلاد العربية ، وهي من أجود قصائد الديوان ، وأولها :

سماء الشرق لابن العرب شرقُ   وليس لغاصب في الشرق حقُّ
معاذ الله أن نرضى لمسخٍ   من الأنذال أوتاداً تُدَقُّ
ولن نرضَى ولو سُفكتْ دماءٌ   ودُقّت دونه رأس وعنقُ
فنحن بنو الألى سادوا فكانت   لهم في العزّ مأثرة وسبْقُ
ونحن القائلون لكل خطب   مكانك نحن في الميدان شرقُ
فلا مستعمر أبداً ، ولكن   بلادٌ حرةٌ لا تسترقُّ
ولا غازٍ يعيث بنا فساداً   وفي أجسامنا للروح خفقُ

ويهيب ببني قومه ألا يخلدوا للدعة ، وألا يغتروا بما أفاء الله عليهم من نعمة ، فإن الدهر قلّب ، والنعم لا تدوم ، ولن يكتب لهم بقاء إلا إذا استأنفوا حياة

الكفاح والجهاد التي يكسرون بها شوكة أعدائهم المتربصين ، فيقول لهم :

ولا ترضوا برغد العيش حتى	تلين لكم قلوب لا ترقُّ
فما درب الحياة سوى كفاح	له في الخافقين لُغًى ونطقُ
وما عرش البقاء بكل خُلدٍ	سوى الأرواح تبذل وهي صِدقُ
فلا عاشت نفوس العزّ فينا	إذا لم يفدها بالروح خَلْقُ
ولا بقيتْ على الأجيال تروَى	بطولات لها في الشرق عتقُ
ملاحم خطها التاريخ مجدٌ	لها من نسمة الفاروق عبقُ
يجلجل في فضاء الشرق منها	على الأعداء إرعادٌ وبرقُ
كأنّ الموت وهو لها رسول	يدُ الأحرار ، ليس هناك فرقُ
يدٌ بالنور فاضت ، وهي نار	على الباغي وإحراقٌ وصَعْقُ
تجلّت للموارد ثوب فخرٍ	كأنّ الفخر للأحرار خُلْقُ

وهي من قصائده الطوال التي تفيض بالوطنية والحماسة ، وتبرز في معانيها النخوة العربية التي تأبى الضيم ، ولا تنام على ثأر .

* * *

وقد كان الفخر في مقدمة الفنون التي غنى بها شعراء العرب في كلّ زمان ، منذ جاهليتهم الأولى حتى هذا الزمان ، ويبرز هذا الغرض بروزاً واضحا في شعرهم المأثور ، وفي شعرهم الحماسي بخاصة .

وإذا كان الفخر فيما يرى الدامغ خلقا أو شيمة من شيم الأحرار فإن هذا الفخر يمكن أن يعدّ ظاهرة من أبرز الظواهر في شعره ، وقلّما خلتْ قصيدة أو مقطعة من شعره من الزهو بالشخصية المتميزة ، وبالمآثر الباقية ، وبالنسب العريق ، وبالمجد الأثيل ، وبالأريحية الفائقة ، وبالشجاعة الباسلة ، وبغير تلك من الخلائق المحمودة ، والمكارم المطبوعة ..

ولكن الحقيقة التي يجب علينا أن نذكرها وأن نقدرها وأن نشيد بها في هذا السياق هي أن الشاعر لم يخص بهذا الفخر ، ولا بتعداد تلك المناقب نفسه ، وإنما

آثر به جنسه ، ففخر بقومه ، وباهى بوطنه ، لأنه يعرف تماماً أن شرف النفس مستمدّ من شرف الجماعة التي ينتسب إليها ، والوطن الذي أظلته سماؤه .

وقد أشرنا إلى نماذج من شعره تؤكد هذه الحقيقة .

ونضيف إلى هذه النماذج قصيدة من أجود شعره ، وأحفله بالعاطفة الوطنية والحماسة العربية ، وهي قصيدته التي عنوانها « عربي » (ص ١١١) ، وقد بلغت عدة أبياتها ستين بيتاً .

وقد تحدث فيها بلسان العربي الأصيل الذي يزهو بانتمائه إلى هذا الجنس العريق الضارب بجذوره في أعماق التاريخ ، ويبدؤها بقوله :

شاقني الخلد فامْتطيْتُ الحماما	وعلى النجم قد عشقت المقاما
ومن العزّ قد نسجت إهابي	ولدى النور سوف أروي السّلاما
أنا للمجد كاهل سوف يبقى	في فم الدهر بسمة واحتشاما
أمة ترفع اللواء وتبني	عمد الحق نهضة وقياما
وترود النجوم للنصر تاجاً	فالق النور مشرقا بسّاما
تتراءى عقوده زاهياتٍ	كلما رف منتميه وحاما

وسائر القصيدة على هذا النحو من الفخر بأمّته العربية التي دانت لها الأمم ، وبأبنائها الذين يعترف لهم الناس جميعا بصلابة العود ، وبالحفاظ على الموروث من مآثر أسلافهم الأمجاد .

وأكثر فخره بشجاعة العرب ، وإبائهم الضيم ، وبقلوبهم التي تستعر فيها نيران الشوق إلى خوض غمار الحرب ، واقتحام ميادين الوغى التي يبلون فيها أحسن البلاء ، ويسترخصون المهج والأرواح .

ثم يعمد إلى استنفار قومه ، واستثارة حميتهم ، ليهبّو إلى النضال بعد أن برح الخفاء ، وصرّح الشر ، وأطلّت رءوس الأفاعي من جحورها ، تحاول أن تنفث سمومها ، وتهدم كيان العروبة الشامخ .

وله قصيدة أخرى عنوانها « وطني » (ص ٥٣) وقد طال نفسه فيها حتى بلغت عدّة أبياتها سبعين بيتاً .

وفي هذه القصيدة يبدو الشاعر شديد الاعتداد بقومه ووطنه الذي يرى أنه يرجع إليه كلّ ما حصل من مجد طريف ، وما ورث من مجد قديم ، ويتغنى بما يرى فيه من آيات الجلال والجمال التي فجرت ينابيع شعره الذي لا يفتأ يردّده ليَبقى مع الزمان . استمع إليه في هذا النشيد الذي يناجي فيه وطنه :

يا بلادي ، ويا سماء المعالي	أنتِ لي جلّ طارفي وتليدي
شاقني فيك ما أرى من جلال	فتغنّيت ، واستهام نشيـدي
كلّما قلتُ فيكِ لحناً مُرِنّا	صفق الدهر هاتفاً بالخلودِ
آيةٌ أنتِ في سماء المعـالي	توّج العزّ هامها بالعقـودِ
أشرقتْ فيكِ للنهى من قديم	ملهمات وأشرقت من جديدِ
يتهادى رؤاكِ في كل سفرٍ	فيهادي لذاتـه بالـورودِ
مستهيماً بما حباه به الآ	باءُ من كلّ رائع ومجيـدِ

وهذه المعاني كما ترى تفيض بالفخر بالوطن ، والولاء له ، والاعتداد به ، وقد تحملتها عبارات سمحة سهلة ، قريبة المأخذ ، تفصح كل الإفصاح عن تلك العواطف الوطنية ، لتصبح في متناول أوساط الناس .

ولعلها طبيعة الشاعر في يسرها ودماثتها هي التي جعلت شعره صدى لهذه الطبيعة في لينها وبساطتها ، فلا يعوزه شيء من الوضوح الذي يوضح المعاني ويكشف عنها ، والأسلوب هو الرجل في كل حال .

وقد نبّهت إلى هذا لأن هذه الظاهرة تطرد في شعر إبراهيم الدامغ بحيث تصبح البساطة والسهولة طابعاً تتسم به لغة شعره . وإن هذه السمة هي الغالبة أيضا على أكثر شعراء هذا العصر .

نعم ! قد يلجأ الشاعر في بعض الأحيان إلى الرمز في شعره ، ولكن تبقى له مع هذا الرمز نصاعة البيان ، وإشراقة الديباجة ، ولا يسلم إلى شيء من التعقيد الذي يقع فيه كثير من مؤلفي الشعر الجديد بخاصة الذين يفوّتون على المتلقي لأشعارهم الإحساس بحلاوة الشعر ، أو الاستمتاع أو الانتفاع بهذا الفن الجميل بما يعمدون إليه من التعمية أو الإلغاز التي تعيي المتلقي في التعرف على مضموناتها ، ثم لا يخرج بعد هذا الإرهاق بشيء ، أو يخرج بشيء لا قيمة له ،

يباعد بينه وبين المتلقي ويحول دون الاستجابة التي ينشدها كل شاعر وكل أديب ، ثم ينتهي هذا المتلقي أخيراً إلى القول المشهور « المعنى في بطن الشاعر » !

وذلك شيء نتردّد كثيرا في قبوله ، كما نتردّد أيضا في قبول « البرناسية » التي يوغل أصحابها في الكشف الذي يؤدّي في أغلب الأحوال إلى الابتذال .

ولكننا نقبل الوسط المحمود الذي خلا من تعمية الرمزيين ، ومن ابتذال البرناسيين .

وقد أثار هذه الخاطرة في ذهني ما رأيت في « شرارة الثأر » من آثار الرمزية البسيطة التي لا يحسّ قارئها بشيء من الإغلاق الذي يكدّ الأذهان ، ويفوّت عليه الاستمتاع بتذوّق الشعر ، وإدراك مراميه .

وتحت عنوان هذه القصيدة التي نحن بصددها « وطني » يكتب الشاعر هذه الكلمات « قراءة في صفحات المجهول من أسرار (كليلة ودمنة) في قصة الحمامة والثعلب » ثم يطالعنا بهذه الأبيات :

قيل ما قيل في سحيق العهود	من أساطير عازفات النشيدِ
قيل ما قيل غير أنا جمودٌ	لم نعِ القصد في بيوت القصيدِ
غمغماتٌ ولفّ شيء بشيءٍ	وانتحال وخلق معنى جديدِ
ورموز أرادها ملهموها	شفرات مليئةً بالوعيدِ
غير أنّا ويالعار التأنّي	أسلمتْنا أنّاتنا للرّقودِ
لم نفكر ولم نحلّل رموزاً	هنّ بالعقل كلُّ معنى سديدِ

أراد الشاعر أن يقول إن كتاب « كليلة ودمنة » الذي ألّفه بيدبا الفيلسوف الهندي للملك دبشليم مملوء بالعظات فيما سرده الفيلسوف من حكايات ساقها على ألسُن الطير والسباع ، وإن هذه القصص جديرة بالتأمل والاعتبار ، ولكننا نتلهى بها ، أو نمرّ بها مرّ الكرام ، ولا نبالي بتدبّرها ، أو التأمل فيها ، مع حاجتنا إلى الإفادة مما تضمنته من عِبَر نافعة ، وعظات بالغة .

وكذلك لم نفد من تاريخنا الحافل بالتجارب المثيرة ، والذكريات المفيدة ، وعشنا مختلفين متدابرين ، كسالى متواكلين ، ننتهب اللذات ، ونستسلم للنزوات .

ويبدو من هذا أن الشاعر ينبّه قومه من الغفلة ، ويدعوهم إلى اليقظة ، والعبرة والعظة بما يقرءون ، وإفادة الخلف من تجارب السلف . وذلك ما تشير إليه الكلمة التي قدم بها هذه القصيدة ، وصرح فيها بتطلعه إلى الكشف عن أسرار المجهول ، وما تشير إليه الأبيات التي بدأ بها القصيدة ، وقد سبقت .

وقد أوحت إلّي تلك المقدمة وهذه الأبيات أن الشاعر سيعمد إلى قصص « كليلة ودمنة » ليستخرج منها الدرس النافع لهذه الأمة في حاضرها ومستقبلها ، أو أنه سينظم هذه القصص نظماً جديداً يعارض به ما صنع أبان بن عبد الحميد اللاحقي في أوليات العصر العباسي ..

وربما حسبت أنه سيجعل من قصة الحمامة والثعلب التي نص عليها في المقدمة رمزاً للأمة العربية التي أشفقت من ملاقاة عدوّها ، وهي تملك أسباب هذه الملاقاة التي تمكنها من الفتك به وردّه على أعقابه .

وكما توقعت أن الشاعر سيحاول إبراز هذه الأسطورة الرمزية في تصوير درامي لا يقل عن ذلك التصوير البديع الذي صوره بيدبا وعبّر عنه في ترجمته عبد الله بن المقفع .

ولكني لم أجد شيئا مما حسبته أو توقعته ، وإنما وجدت هذه الخواطر المتفرقة في الفخر والوعظ والدعوة إلى الوحدة ونبذ الخلاف .

حتى قصة الحمامة والثعلب التي نصّ عليها في المقدمة لم يعرض منها إلا مقدمتها التي تتلخص في تهديد الثعلب للحمامة لتلقي إليه بأفراخها ، وفي استجابتها لهذا التهديد خوفا مما توعدها به من تسلّق الشجرة والصعود إليها ، وذلك كله في أربعة أبيات من هذه القصيدة ذات السبعين بيتا . وهي :

كانت الوُرْق تحتفي ببنيها ... فأتاها ملـوّحٌ بالوعيـدِ
ودهتها ثعالب المكر قسراً ... فاستلّجت وطوَّحت بالوليدِ
لم تمانـع ولم تحاول محالاً ... بل أراقت دم الفؤاد الشريدِ
أي سحرٍ وأيّ كيدٍ أليمٍ ... مرِّغْت فيه ذات طوق فريدِ

وهذه الأبيات كما نرى لا تفصح عن حقيقة ما جرى في أوليات القصة .

أما بقية أجزائها ، وهي أهم ما يتم به البناء الدرامي ، فقد توقفت دونها محاولة الشاعر .. ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها !

* * *

ولا يسعنا أن نكتفي بهذا القدر من الحديث عن شاعرية إبراهيم الدامغ ، وما منح أمته العربية والإسلامية من ذوب قلبه ونبضات حسّه في ذلك الشعر الحماسي الثائر الذي استنهض به الهمم ، وحفز العزائم لتتجمع وتنقض على عدوّها الذي انتهب أرضها ، وسطا على مقدساتها .. فقد ألهبت مأساة الشعب العربي في فلسطين مشاعر إبراهيم الدامغ ، كما ألهبت مشاعر العرب والمسلمين في كل مكان ، بما أثارت في نفوسهم نكبة الوطن السليب ، ومحنة أهله الذين شردتهم جحافل البغي والعدوان .

ويتناثر في ديوان الدامغ أثر الإحساس اللاذع بهول تلك المأساة ، فهو لا يفتأ يردد ذكرها في جلّ قصائده التي يصف فيها أهوال تلك الكارثة ، كما يصف غدر اليهود ومن يظاهرونهم من أعداء الإسلام ، واستخفافهم بمشاعر العرب والمسلمين ، وتنكّرهم لسائر القيم والأعراف الإنسانيّة ، وما روّعوا به الآمنين ، وما سفكوا من دماء المجاهدين ، وبما شردوا من الشيوخ والنساء والولدان الأبرياء الصابرين الذين أجلوهم عن ديارهم ، وأحالوهم إلى فلول من الغرباء واللاجئين .

ولقد أصلى الدامغ أولئك الشذاذ الأفاقين بشواظ من شعره . وفي كثير من هذا الشعر تشيع روح السخرية والاستهزاء بأحلام اليهود في السيادة والقرار في وطنهم المزعوم . كما قد تقرأ في قصيدته « أحلام الغزاة » (ص ٣٣) ، التي يستهزىء فيها باليهود ، وبمن مدّوا لهم في حبال الأمل ، في مثل قوله :

غرقوا بأحلام الغزاة المرجفين على المحيط
فبنت سليطة للزنا بيت الدعارة للسليط
وتعانق الشذّاذ بين العبد والذنَب الوسيط
فجنى سفاحُ العار أوضار اللقيطة للقيط
وتبسّمتْ بالفاتم العوراءُ شمطاء الخليط

ويبدو أن سخط الشاعر على اليهود بما ارتكبوا من الآثام في حرب العرب هو الذي هوى بمعانيه إلى مثل هذا المستوى من الهجاء الذي تراه في هذه الأبيات الساخرة .

وقد تشتد نقمته عليهم فتؤدّي به شدة الانفعال إلى الغلوّ في النيل منهم بمثل هذه المعاني ، كالذي تراه في قصيدته التي جعل عنوانها « حلفة المسخ » (ص ٣٠) ، وكتب تحتها هذه العبارة « هكذا كانت إسرائيل وهكذا تكون » . وفيها معان وألفاظ دون ما قرأناه في هذه الأبيات .

ومهما تكن ثورة الشاعر على اليهود الآثمين ، ومهما يكن انفعاله بالسخط على جناياتهم في حقّ العروبة والإسلام ، فإني لا أستحسن مثل قوله في مستهل قصيدته « ثورة الوجدان » (ص ١٦٦) :

أمْسَكَ الليل بأهداف الرذيله	وانتشى الحقد على كأس الدخيله
فاستلجَّت بالفجور المتهاوي	بنتُ زانٍ بين سلح وعميله
هكذا المِسخُ سِفاحٌ من سفاحْ	وفتات ينسب الغرب عليله
عصفتْ نُعرة سامٍ فاستحاضَتْ	بدم الفسق على أرض الفضيله

ثم يقول بعد أبيات :

كلّما أبلى إلى النيل استهامتْ	بؤرةُ الفسْق ولاذت بالوقاح
وتباكتْ ومن الذلّ ترامتْ	بين أحْضَان المرابي للسّفاح
فهي تبكي وهو يبكي نخب عُهْرٍ	شهد الخزيَ له عَرضُ السلاح
ومن الخزى إلى العار وصالٌ	رامه مطلولُ عِرض مستباح
وعلى الفرج من الفرج سلام	فهو أولَى وهي أجدى باللقاح

إن هذه المعاني وأشباهها ينفر منها الذوق كما ينفر منها فن الشعر الذي يوصف بأنه فن جميل أو فن رفيع . ولولا أنني رأيت هذا الصنيع يتردّد في ديوان« شرارة الثأر » لما أبهت به ، ولا عطفت عليه .

وقد يقال إن الهجاء فن من فنونِ الشعر قديم ، وإن من شعراء العربية القدامى والمحدثين ومن شعراء الغرب أيضا من أسرف في هذا السبيل إسرافاً دونه إسراف

شاعرنا بكثير . ومن أراد فليستقرىء شعر الفرزدق وجرير ، وشعر بشار وأبي نواس وحمّاد ومطيع بن إياس والحسين بن الضحاك . وشعر ابن حجاج وابن سكرّة وأبي الرقعمق ، ليرى في أشعارهم من المخازي ، ومن الكشف عن السّوءات ما لا يمكن أن يقاس به شعر إبراهيم الدامغ .

وكل ذلك صحيح لا شك في صحته ، ولكن هؤلاء الشعراء جميعا – باستثناء جرير – كانوا من المجان وأهل الخلاعة ، وكان أكثرهم من أهل البطالة ومن الذين أسرفوا على أنفسهم يقولون مثل هذا ، وما هو أكثر منه غلوّا وإسرافاً على سبيل الهزل والتملّح والتظرّف .

ولكن من قال إن خاصة أهل الأدب أو عامتهم كانوا يرضون ذلك ، ولا ينكرونه أشد الإنكار ، وإن ضحكوا منه ، أو أعجبوا بما يكون في بعضه من الافتنان في التصوير .

ثم أقول لإبراهيم الدامغ ما يعرفه ، وهو أن في التلميح ما يغني عن التصريح ، وفي كثير من الأحيان تبلغ الكناية ما لا يبلغ الكشف والإفصاح .

وقد أعجبني من الشاعر أنه في كل ما عبّر به عن كارثة فلسطين ، وعن محنة الشعب العربي فيها ، وعن عسف اليهود وطغيانهم ، ظل العربي الأصيل الذي لا تخونه شجاعته ، ولا تفارقه حميته ، مهما كشرت الأحداث عن نابها ، ومهما أظلم ليل الخطوب ، في إصرار على الثأر ، ويقين بالنصر . بالرغم مما قرره من الواقع المظلم الذي يبعث على الأسى واليأس فيما يراه من التقاعس عن الجهاد ، ومن التمزق في صفوف الأمة العربية ، وذلك في قوله (ص ١١٦) :

أرى في سمائي كلّ يوم هزيمة وحولي سلاحي يشتكي في تظلّمِ
فلا الأُسْد ثارت والأفاعي تسومها ولا الروح خفت بالهزبر المقلّمِ
كأنّا على التأبين قمنا لمأتمٍ يذيب الرّؤى في كل قلب منعّمِ

ولكنه في قصيدته « سنعود » (ص ١٥٠) يخلط الأسى لفظائع اليهود وجرائمهم بالأمل الكبير القريب في يقظة النيام ، وفي حشد القوى العربية والزحف بها إلى فلسطين التي يدّعى اليهود كذبا أنها أرض الميعاد لجمع أشتاتهم ، وإقامة دولتهم ، فيتوعدهم بالويل والثبور ، ويبشر العرب بأن نصر الله قريب ،

وأن يوم الخلاص آتٍ لا ريب فيه بعزم الرجال ، واستئناف القتال ، وليس بالتراخي والقعود والعويل :

يا ويلهم ! فدم الضحايا ثورة لا تستكينْ
سنحطم الأغلال في وجه الطغاة النازحينْ
ونشيد للفتح الكبير موارد الزحف الأمينْ
ونقول للقدَر الموكّل في قلوب لا تلينْ
حطِّمْ جيوش السّاغبين وفلّ جيش الطامعينْ
واضربْ بقبضتك الدُّمى واعصف ركام المارقينْ
سنخوضها حرب الجلاء ، ونطرق المستعمرين
فدمُ العروبة في قلوب الثائرين الصاعدينْ
لهب سيلتهم الطغاة ويحرق المتبجحينْ
سنخوضها ونعود للوطن السّليب مظفّرينْ
ونقبّل التربَ الزكيّ ونحضن الشوق السجينْ
ونَشيد في أرض القداسةِ أمنياتِ الفاتحينْ
ونردّد اللحنَ الطليق على روابي الخالدينْ
سنعودُ يا أمّاه رغم الضاربين التهائهينْ

ويسترسل الشاعر المتفائل في هذا الحلم اللذيذ بعودة الغريب إلى حماه السليب في هذه القصيدة المتفائلة ، التي برزت فيها حميته ، وطال فيها نفسه طولا ملحوظاً .

وفي أخريات « شرارة الثأر » قصيدة من أروع ما نظم إبراهيم الدامغ ، لأنها تمثل الشعر المطبوع الذي ينبض بالحياة ، ودفق الشعور ، وعنوانها « أطلقيها » (ص ١٧١) .

وهي أطول مطوّلاته على الإطلاق ، فقد ملأت ثلاث عشرة صفحة كاملة من الديوان ، وبلغت عدة أبياتها ثلاثة وأربعين ومائتي بيت .

وقد أعان الشاعر على إطالة النفس فيها موسيقاها العذبة ، وتنويع القافية وتغييرها بعد كل عشرة أبيات ، وختم كل قافية منها ببيت قافيته ، هي رَوِيّ

المقطوعة الأولى ، وكان هذا البيت وصلاً بين أجزاء القصيدة ، وسبباً من أسباب تماسكها ووحدتها ، كما كان أشبه بالقفل الذي يصنعه الشعراء فيما يعرف بالمسمّطات ، وفيما يعرف بالموشحات ، وإن لم يصل عدد أبيات ما نعرف من المسمّطات والموشحات إلى ما وصلت إليه كل مقطوعة من مقطوعات هذه القصيدة الغنيّة العامرة .

وتطالعنا في قصيدة « أطلقيها » روح التحدّي لعصابات اليهود الذين تهدّدوا وتوعدّوا هذه الأمة العربية والأمة الإسلامية بالويل والثبور بالانتقام بإطلاق قنبلة ذرية على ديار العرب والمسلمين ، تفتك بالملايين منهم ، وتأكل الأخضر واليابس في أرضهم .

ولا يبدي شاعرنا شيئاً من الهلع أو الجزع من هذا الوعيد . ولكنه يتقبل هذا التحدّي ، ويقابله بالهزء والسخرية من حماقات اليهود وأحلامهم ، ويعدّد ما عرفت الإنسانية من غدرهم ونفاقهم ، وما اقترفوه من الجرائم في كل موضع حلّوا فيه . ويهدّدهم بأنهم بما أوعدوا به إنما يسعون إلى حتوفهم بأظلافهم ، وأن الدائرة ستدور عليهم ، وأن أسود العروبة وأشبالها سيهبون لقتالهم ، واستئصال شأفتهم ، وقطع دابرهم .

والقصيدة بالغة الطول كما قدّمت ، ولكنها مع ذلك بلغت حدّا كبيراً من الإحكام يرتفع به الشاعر درجات ، ويحلّق في سموات الإجادة والإبداع ، بما أودعها من الأفكار والمعاني ، ومن إحسان الرصف ، وإجادة السبك ، بالإضافة إلى الروح العالية التي برزت معالمها في هذا العمل الشعري الكبير .

ولا أحسب أن المقام يتسع لتفصيل ما أوجزت ، وحسبي أن أجتزىء في هذا السيّاق بالاستشهاد بمقطوعة واحدة من مقطوعاتها التي بلغت اثنتين وعشرين مقطوعة ، وفيها يخاطب دولة اليهود المتهاوية ، فيقول :

كم ظننتِ اليومَ أني مثل أمسي في جراحي
ألثم التُّربَ الزكّي الحرَّ في عرضي المباحِ
لا أرى غير ارتعاشٍ هاضني فيه نُواحي
لا تظنّي ذاك يا بلهاءُ يا طرحَ السِّفاحِ

لا تظنّي أنني بالذلّ قدْ رَوَّقْتُ ساحي
سوف أمضِي صارخاً للثأر مرهوبَ الجَناحِ
سوف أمضي في إبائي مؤمناً ، رمزي سلاحي
تتنزّى في عروقي كبريائي وطِماحي
سوف أهوِي بعروش الظلم في رمس الوقاحِ
وأنادي : يا خفافيشَ الظلام المستباحِ
لن تلاقي في بلادي غير موتٍ فاقذفيها

والبيت الأخير هو البيت الذي يتكرر في آخر كل مقطوعة من مقطوعات القصيدة .

* * *

ولعلّ في هذا القدر الذي عرضنا له من شعر الوطنية الذي شغل فراغاً واسعاً من ديوان « شرارة الثأر » وكان مجالاً خصباً لشاعرية إبراهيم الدامغ ، لعلَّ فيه ما يكفي لكشف النقاب عن أبرز اتجاهات شاعريته وهو الاتجاه الوطني الذي دفعته إليه عاطفة جياشة بحبّ وطنه العربي الكبير ، وقلب مفعم بالغيرة على أهله وعشيرته ، ومصير أمته العربية المسلمة . وقد برزت في هذا الاتجاه حقيقة مشاعره ، وتبينت معالم شخصيته العربية التي تأبى الضيم ، ولا تنام على ثأر ، وقد ورثها عن أسلافه العرب الأمجاد الذين سجل التاريخ صفحات بطولتهم ، كما سجل تضحياتهم بالمهج والأرواح في سبيل حريتهم ، والحفاظ على كرامتهم .

ومن الطبيعي أن يكون سلاح الشاعر في هذا الكفاح هو شعره وبيانه الذي يذكي الهمم ، ويشحذ العزائم ، ويدفعها إلى آماله في النهوض بواجبها في حماية الأوطان ، وتحقيق كرامة الإنسان . وذلك عبء من أهم الأعباء التي تلقى على كاهل الأدباء والشعراء .

وقديماً قال أرسطو « إن شرف المواطن في صلته بالوطن ، وعراقة آبائه وأجداده في العمل على مجده » !

كما قال إن الفضائل التي تمتد منفعتها إلى الغير أجمل من الفضائل التي تكون

فائدتها مقصورة علينا .. كما أن عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم ، لأن مقابلة المثل بالمثل عدالة ، وكل عدل جميل ، والشجعان لا يرضون الهزيمة ، والانتصار وإحراز الشرف جميل ، ولو لم يعد علينا بفائدة مادية ، لأنه مظهر من المظاهر العالية للفضيلة ..

وقد رأينا كيف امتزجت هذه المعاني كلها في قلب إبراهيم الدامغ وفي عقله ، وكيف انعكست على شعره الوطني الذي يجسّد هذه المشاعر أعظم تجسيد ..

* * *

ويبقى بعد ذلك حديث إبراهيم الدامغ عن نفسه ، وتصوير شعره لأمانيه وآلامه ، ووصف معاناته وتجاربه الذاتية .

وكان من حق هذا الحديث أن يكون أولاً ، لأن الملكة الشعرية فيما أرى تبدأ عطاءها بالتعبير عن هموم صاحبها وأحلامه وعواطفه ، ثم تأخذ دائرة عطائها في الاتساع قليلاً قليلاً ، حتى تنضج وتستوى على سوقها فتتسع نظرتها ، وتمتد إلى ما تستطيع رؤيته من الآفاق .

ولكننا آثرنا تأخير الحديث عن شعره الذاتي إلى هذا الموضع من نهايات كلامنا في شعره ، لما رأيناه من تأجج مشاعره الوطنية ، وحميّته العربية ، ووفرة نتاجه في التعبير عن هذه المشاعر ، وسعة الآفاق التي امتدّت إليها .

وقد فتشت طويلاً عن المرأة في شعر الدامغ ، لعلمي أن فن الغزل أول أبواب الشعر التي يطرقها الشعراء عادةً ، لما ركب في النفوس من إلف النساء ، وتصرّف الهوى معهنّ .

وإذا كان الشعراء من أرقّ الناس عاطفة وأرهفهم إحساساً فقد كان فن الغزل في مقدمة الفنون الأثيرة عند عامّة الشعراء في العصور المتعاقبة ، وفي البيئات المختلفة ، حتى لا يكاد ديوان من دواوين الشعر في القديم والحديث يخلو من ذكر المرأة ، ووصف محاسنها ، وشرح أسباب الهيام بها ، واللهفة عليها ، وما تعاني قلوب المحبين من الشعراء من تباريح الهوى ، وحرارة الأشواق ، وآلام الفراق ، والأنس باللقاء ، ولوعة الصدّ والهجران ، وسائر ما تفعل عاطفة الحب بنفوس المحبّين .

غير أنني وجدت هذا الأثر ضئيلا واهناً في شعر الدامغ ، بَل إنني لأخشى أن أقول إنني لم أجد منه شيئاً مخافة أن يكون قد شذ عني شيء ممّا كتب الشاعر فيه !

وربما وقفت قليلاً عند عدد قليل من القطع الشعرية في ديوان « شرارة الثأر » ظننتها من شعر الغزل ، وأذكر منها قصيدته « زهرة » (ص ١٠٧) وقصيدته « قرأتها » (ص ٧٦) وأبياته « نجية القلب » (ص١٠٨) وفي أولاها يناجي الزهرة فيقول :

يا زهرة في معقلي	دبت عـليها أنملي
أسقيتها من دمعـة	حرّى وجرح مُوغلِ
هدهـدتها في حيرة	وضراعـة وتـوسّلِ
فبكتْ وأحرقها الأنـ	ـينُ بلوعة وتململِ
خاطـبتها فتأمّــلتْ	في نظـرتي وتـأمُّلي
ورَنَتْ إليَّ بنظـرةٍ	حيرى تكاد تسرّ لي
فـحضنتها مستنطقـاً	فيها منار الهيكـلِ
وسألتها في لهفــة	عن سحرها المتأصلِ
فتمايلتْ وروتْ إليّ	حديث سرّ مذهلِ
قالت حياتك يا صديـ	ـقي لحظة كتعلّلي
أزهو وأعبق بالشذى	والموت يعصر مخملي
فامنح حياتكَ مثل إلـ	ـهامي نديَّ المستقبلِ

أترانا نتكلف أو نتعسف إذا ظننّا أن الشاعر يرمز بهذه الزهرة إلى امرأة أو إلى فتاة ، أخذ يبادلها النظرات ، ثم يشكو إليها بثّه ، ويسألها عن سرّ فتنتها ، ويحاورها وتحاوره ، ثم تسيل دموعها ، وتبوح بما كانت تكتم من شجونها .. ثم هو يذكر أن هذه الزهرة كانت في معقله أي في بيته ، وأنه رواها بدمعه ، وسقاها من دمه .. ؟!

ولم لا تكون تلك الزهرة زهرة حقيقية ، أو زهرة طبيعية ، وأنها تكلمت

بلسان الحال ، أو بلسان المقال .. وليس ذلك بدعاً من القول ، فإن من خصائص الشعر أنه يحرك الجماد ، وينطق الحيوان ؟!

أما قصيدته « قرأتها » فقد كتب تحت هذا العنوان « الرسالة الأولى » وهذه العبارة توحي بأن هناك رسالة ثانية ورسالة ثالثة ، ولكنهما على كل حال في ضمير الغيب !

ثم .. أكان هو الذي بعث بهذه الرسالة الأولى إلى من يهوى ، أم كانت جوابا على أول رسالة كتبها حبيب إليه ؟!

وفي أول هذه الرسالة ، أو هذا الجواب يقول :

يا نفحة العبورِ ومِيعـة السّرورِ
رفّت على سمائي بومضة من نورِ
قـرأتها بقلبـي ومنتهى شعـوري
شرقتُ في نداها فهمتُ في مسيري
رأيتها تغنِّـي بلَحنها الفخـورِ
وتستميل شعري بحبّهـا الكبيـرِ
فتبسم الأمـاني بوهجهـا المنيـرِ
إني أراك حُلْماً يشعّ في سطوري
فهل لـديكِ سرٌّ ينزاح عن مصيري
قولي ففي فؤادي تساؤلُ الغريـرِ

وقد رأينا هنا ما رأيناه في القصيدة السابقة من التساؤل عن السرّ الذي في معرفته الشفاء .

ثم يختم القصيدة بهذه الأبيات التي تحملنا على ترجيح الرمز الشعري :

إنْ كان لي ولاءٌ مـروّقٌ بالنّـورِ
فأعلنـي لقلبـي بسرّك المجيـرِ
وتوِّجي حيـاتي بعِشّنا الحريـرِي
وروِّقي سمائي بقلـبكِ الكبيـرِ
وعانقـي فـؤادِي بحبّكِ الأثيـرِ

وإن لم يكن في هذا الشعر - فيما أرى - ما يجعله جديراً بالإيثار أو الاختيار ، للين لفظه وضعف معناه . وهو عندي أشبه بالمحاولات الأولى منه بنتاج الشاعر المتمكن ، وهو قريب مما جعله أبو هلال العسكري من السهل المردود الذي مثل له بقول الشاعر :

يا ربّ قد قلّ صبري   وضاق بالحبّ صدري
واشتدّ شوقي ووجدي   وسيّدي ليس يدري
مغفّل عن عذابي   وليس يرحم ضرّي
إن كان أُعطي اصطبارًا   فلست أملك صبري

وقد رأينا تجاوزه حدود العربية في تعديته الفعل « أعلن » بالباء في قوله :

فأعلني لقلبي   بسرّك المجيرِ

والفعل « أعلن » متعدٍّ بنفسه . ومن ذَلك في القصيدة السابقة قوله :

فتمايلتْ ورونْ إلـيّ   حديث سرٍّ مُذْهلِ

حيث عدّى الفعل « روى » بحرف الجرّ « إلى » والصواب تعديته باللام فيقال « رونْ لي » لا « رونْ إليّ » .

وقد يعمد إلى تعدية الفعل اللازم بنفسه في مواضع أخرى ، في مثل قوله في قصيدته « انتحار » (ص ٧٤) :

إن أويتُ البيت في   غِرّة أروي الغليلْ
لم أجد في ظلّه   لاحتضاني من سبيلْ

فقد عدّى الفعل « أوى » في البيت الأول بنفسه ، وهو يتعدى بحرف الجر « إلى » فيقال « أوى إليه » . وكذلك في قوله في قصيدة « ذئب وحمل » (ص ١٥) :

أراهم كالوحوش تضجّ حولي   فيختنق الرضا مني البكاءُ

فقد عدّى الفعل « اختنق » بنفسه ، وهو لازم ، يقال : خنَقْتُه فاختنق . وذلك من الأوهام اليسيرة في شعره على أي حال .

ونعود إلى ما كنا بصدده من الحديث عن المرأة في شعر إبراهيم الدامغ ، فنذكر قصيدته الثالثة من القصائد التي أشرنا إليها ، وهي مقطوعته التي سمّاها « نجية القلب » وفيها يقول :

أراكِ يا نفحة العطر ترسلين الرسُولا
وتستثيرين حبّي ، وكان صمتاً خجولا
ينساب في كلّ همسٍ تروين فيه الغليلا
فيعبَقُ العِطرُ فيه ندًى وحبّا أصيلا
نجيّة القلب إنّي أراك حلماً جميلا
هواكِ في النفس سرٌّ تخذتُ فيه الدليلا
سألتُ عنكِ الأماني فناشدتني الوصولاَ
وألهمتْني بغيبٍ نعمتُ فيه طويلا

وربما كانت هذه الأبيات أدلّ على المرأة مما سبق ، فهنا الرسول ، وهنا استثارة الحبّ بنفحة العطر ، وهنا الصمت الخجول ، ثم الهمس الذي يروي الغليل ، وهنا السعادة بالأمل المرتقب .

وقد ترددت « نفحة العطر » هنا وفيما سبق ، كما تكرر « السرّ الخفيّ » الذي لم يرد الشاعر أن يبوح به .

ومع ذلك لم أجد في هذه القطع الثلاث ما يكشف عن تجربة الحب الصادق الذي يعاني صاحبه لواعج الهوى وتبريح الصبابة ، كما نجد في أشعار العاشقين من التولّه وآثار الضنى .

وأستطيع أن أقولها ببساطة ، أو أقولها بصراحة إن المرأة الحبيبة قد ضلّت طريقها إلى قلب إبراهيم ، أو إلى شعر إبراهيم ، وإن كنت أستبعد الأولى ، وأميل إلى ترجيح الأخرى ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام كما يقول ابن قتيبة !

ولكننا إذا سلمنا بذلك أي بأن المرأة عرفت طريقها إلى قلبه ، فكيف خلا

شعره أو كاد يخلو من التعبير عن عاطفته نحوها مع إيماننا بالمبدأ النقدي الذي يقول إن الشعر هو الشاعر ؟!

قد يكون السبب في ضلال الحب سبيله إلى شعر إبراهيم عوامل بيئية أو اجتماعية ، وهي نشأته في بيئة محافظة ، قد ترى في الغزل خروجاً على ما ينبغي للرجل من العفّة ، وما ينبغي للمرأة من الصيانة ..

وقد تكون هموم العيش التي لازمته منذ فجر حياته هي التي باعدت بينه وبين الاستجابة لدواعي الهوى .

وأيّاما كان الأمر فقد استطاعت المرأة الأمّ أن تجد طريقها إلى قلبه وإلى شعره . ونجد مشاعر البنوّة الصادقة العميقة نحو الأم الرءوم الحانية في قصيدة من أجود شعره أنشدها في « عيد الأم » (ص ٩٥) ، وفي أولها يقول :

عيد يعود ببسمة وعناقِ	وطهارة ومحبّة وتلاقِ
فكأنما هو في القداسة موكب	للنور في ألَق وفي إشراقِ
فيه الهدى والحق من آلائه	وعليه يهفو خاطر الأشواقِ
تتعانق الآمال فيه كأنما	وردت لترسم قبلة المشتاقِ
فلكلّ أمٍّ في رحابة ظلّهِ	فيض من العطف الكريم الباقي

وقد يقال إن هذه القصيدة من شعر المناسبات ، وإنه أوحى بها ذلك التقليد الجديد الذي تسرّب منذ سنين إلى مجتمعاتنا ، وهو تخصيص يوم في كل عام للاحتفال بعيد الأم ، يتذكر فيه الأبناء أمهاتهم بعد أن شغلتهم زوجاتهم وذرّياتهم عن القيام بحق الأم ، فيعمدون إلى زيارتها في ذلك اليوم إن كانت بعيدة عنهم ، ويقدمون لها من الهدايا ما يسرّها ، اعترافا بما لها عليهم من حق وفضل بما عانت في سبيل تربيتهم وتنشئتهم حتى أصبحوا رجالا ..

ولا بأس أن تثير هذه المناسبة أو غيرها من المناسبات هذه العواطف الإنسانية . ولا بأس أيضا أن تبدأ هذه القصيدة بهذه المعاني العامة التي تشمل أم الشاعر وغيرها من الأمهات .

على أن الشعر الذي تثيره المناسبات ليس عندي بالشعر المعيب ، إذا استطاعت المناسبة أن تهيج ذكريات الشاعر وتجاربه ، وأن تفجر ينابيع شاعريته

بما تفاعلت مع عواطفه وانفعالاته ، إذا انبعثت من شعور صادق عميق بتلك التجربة الشعورية ، بحيث لا تذهب أدراج الرياح بذهاب تلك المناسبة .

ولا يضير الشاعر بحال أن يشاركه في مشاعره شاعر أو شعراء ، أو أن يلمّ كل شاعر بالمعاني العامة أو المعاني المشتركة التي لا يتفاضل فيها الشعراء ، ولكنهم يتفاضلون فيما يتوافر لبعضهم من معالم الفنّيّة ، أو معالم الخصوصية بتهذيب المعنى العام ، أو بالزيادة فيه بما يخرجه عن الشركة ، وذلك ما يمتاز به شاعر من غيره من الشعراء .

وذلك ما نراه في الأبيات التالية التي يناجي بها أمّه :

يا أمُّ أنتِ فمُ الزمان وقلبه	والمجدُ فيك معلّم الأطواقِ
كافحتِ في شرق الحياة وغربها	حتى طويتِ معالم الآفاقِ
تتعهدين بكلّ فضل سيرنا	موفورة الإيثار والإشفاقِ
للكِ في حنايا الصدر قلبٌ خافقٌ	لولا الضلوع لذاب في الأحداقِ
تطوين سرّ الليل في غصص كما	تطوين سحر نهاره البرّاقِ
لا الأنسُ يطْمسُ في نضارة زهوه	عنكِ الشحوبَ إذا بكتْ آماقي
تروين جسمي بالدموع وكلما	غلب البكاء غلوْتِ في الإغراقِ
لا تسألين الليل بلغة راحةٍ	حتى يغلّف شقوتي وفَواقي

وقد صاغها على غِرار قصيدة حافظ إبراهيم من حيث بحرها الكامل ، ومن حيث رويّها القاف المكسورة ، وأول قصيدة حافظ :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي	في حبّ مصر كثيرة العشاقِ

وقد عرض فيها حافظ للمرأة وتثقيفها ، وحجابها وسفورها .

* * *

وقد بقي جانب من أهم الجوانب التي ينبغي ألا يغفل عنها متعرض للحديث عن شاعرية إبراهيم الدامغ ، أو باحث عن العوامل الفعالة في تكوين شخصيته ، وفي توجيه شعره .

والحقيقة التي لابد من تقريرها أن شعر إبراهيم الدامغ يستطيع أن يضع أمامنا

صورة واضحة لمعالم هذه الشخصية ، نستغني بها عن محاولات التعرف عليها أو على مسيرتها في الحياة ، من غير أن نعنّي أنفسنا في السؤال الذي قد لا نجد من يجيبنا عليه الجواب الصادق الصحيح .

وقد عرفنا بمعاودة النظر في ديوانه ، واستقراء شعره أن هذا الشاعر قضى حياته الأولى أو حياته المبكرة في الأقل في صراع مرير مع الحياة التي كشرت له عن نابها ، وجرّعته كئوس الشقاء ، فذاق مرارة الفقر ، واصطلى بنار الحرمان . وترك هذا الشقاء آثاره الأليمة في أعماق نفسه ، حتى أصبح الناظر إليه يستدل على ما يكابد من الأسى بما يرى على قسمات وجهه الشاحب ، وفي جسده الهزيل الناحل .

وهو يصور ذلك تصويراً معبّرا في قصيدته « اعتذار » (ص ٦٤) التي يقول في أولها :

أعذراً وفي وجهي سماتٌ من العذرِ	ونعياً وفي جسمي نحول من الصبر
كفاني اعتذارا ما ترى بي من الأسى	وحسبي من الأقوال ما قال بي دهري
أنا ابن الرزايا بيد أني عدوّها	ولكن ! وما يجدي عدائيَ لما يزري

وفي آخرها يقول :

ترى هل سواد الليل إن لفّ مهجتي	نذير لشرٍّ أم حجابٌ عن الشرِّ ؟
وهل في أعاصير الرياحِ التي طفت	على مسمعي صوتٌ ينادي إلى يسري
أم الليل والإعصار خِلاَّن للأسى	ولابد للخلّ الوفي من الثأر ؟
أرى الدهر قد أخفى عن الحرّ سرَّه	وأفضى إلى ابن النذل بالسرّ والجهر !
ألا إنما الدنيا سفين تحكمتْ	بها قدرة الربان فاختار في الأمر

ويبدو أن ضيق الشاعر بما يجد من شظف العيش وخشونة الحياة ، وطغيان الألم على نفسيته هو الذي فوّت عليه الحرص على ما كان ينبغي أن يتحراه من سلامة العبارة التي تؤدّي إلى الوضوح المنشود في الفكرة أو في المعنى ، حتى لا يقع في مثل قوله في البيت الثاني « وحسبي من الأقوال ما قال بي دهري » ولعله أراد « ما قال لي » ثم حرفت الطباعة ما أراد . ومثل قوله في البيت الأخير

« فاختار في الأمر » فإن الاختيار يكون لأمر من أمرين أو أكثر ، ولعله أراد « احتار » ثم صحفتها المطبعة ، وإن كنت لا أرضى الحيرة هنا لأنها مسندة إلى ضمير « الربان » ومدبر الأمور ومصرفها هو الله جل جلاله ! ثم كيف تكون حيرة مع قوله إن قدرة الربان قد تحكمت ؟

وفي قوله « نذير لشر » والصواب « نذير بشر » أو « نذير له بالشر » لأنه لا نذير للشر ، ولكن هناك نذير بالشر .

وقد يقال إن مثل ذلك من الهنات الهينات ، وهو هين حقّا في لغة العامة ولغة أوساط الناس ، ولكنه خطير في لغة الأدب ، وأنا لا أخصّ شاعرنا بما أقول ، ولكن هذا تفشى في كثير من شعر المعاصرين حتى أصبح ظاهرة يؤسف لها ، وأهمل النقاد محاسبة الأدباء عليها ، مما ينذر بوخامة العاقبة ، وتفكك أوصال اللغة العربية ، مع أن الشعراء ينبغي لهم دائما أن يكونوا أعرف الناس باللغة وبأسرار التعبير بها .

وقديماً قال أرسطو إن الشاعر لا يعدو أن يكون مهندس ألفاظ ومنسق عبارات ! ولقد صاح في بعض مواقفه غاضباً يقول : أيها اليونانيون تعلموا اللغة اليونانية !

وأخشى أن أقول في هذا الزمان : أيها العرب تعلموا اللغة العربية !

* * *

والشعراء يشكون من قديم إقتارهم ، وينقمون من الجهال نعمتهم ويسارهم ، وقديما قال أبو الطيب المتنبى :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

وقال غيره :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا ... هلكنَ إذنْ من جهلهنَّ البهائمُ

وقال أبو العلاء :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل ... وترزق مجنونا وترزق أحمقا

فقد أبدى هؤلاء الشعراء تبرمهم من نكد حظوظهم وسعادة من هم دونهم

بالسّعة واليسار ، ووصفوهم بالجهالة والحمق ، ولكن لم يهبط أحدهم إلى وصف واحد من هؤلاء بما وصفه به شاعرنا في قوله :

أرى الدهر قد أخفى عن الحرّ سره وأفضى إلى ابن النذل بالسرّ والجهر

فإن لغة الشعر تأبى مثل هذا كل الإباء ، وتنفر منه أشد النفور .

وقد أشرنا إلى شيء من أمثال هذا مما تورّط فيه الشاعر فيما سبق .

ولكننا نقرأ في هذه القصيدة نفسها أبياتا جمعت إلى سلامة المبنى قوة المعنى في وصف ما يعاني من ألم الحرمان ، وهي :

أنا زورقٌ حُمِّلت بالبؤس والأسى فمدّتْ لي الأقدار كفّا من الشرِّ
أنا الشاعر المغمور في لجّ وهمه أنا الطائر المنبوذ من حيث لا أدري
أنا الصادح المرموس في وهم عشِّه أنا الكائن المقذوف في هوة البحرِ
كفى ما ألاقي من بلاء ومحنةٍ وحسبي من الآلام ما جاش في صدري
شربتُ الأسى علّي أرى البؤس راقياً لما كنت أخشاه من الظلم والقسرِ
ولكنني حُمِّلتُ ما لا أطيقه من العسف والإرهاق فاحترتُ في أمري

وفي قصيدته « حرمان » (ص ١٢٠) يقول إن كل شيء حوله يوحي بالحرمان ، فاليتم حرمان ، والعدم حرمان ، والعقل في بعض الأحيان حرمان إذا لم ينطلق بصاحبه في مسار الكمال والمشاركة واللذة المباحة . ثم يقول :

في كل درب أزرع الألما وبكل ريح أعصف الحلما
وعلى الشقاء لمهجتي صنم تعنو إليه ضلالة وعمى
لا أبصر الأيام تضحك لي كلاّ ولم أتحسس النعما

ثم يبكي حظّه الذي لا يرى فيه إلاّ الأسى واليأس ، فلا يبصر شيئاً من مباهج الحياة ، ويستعيد ذكرياته الغابرة فلا يراها إلا باعثة على تجديد الأسى ، فيومه مثل أمسه ، والأقدار تعبث به وهو صغير غض الإهاب ، فإذا كبر ردته إلى الماضي الذي لم يحصد فيه إلاّ الهموم والأحزان ، فحياته سلسلة متصلة الحلقات وكأنها ركبت من يأس وحرمان :

لاحظّ لي فيما أراه سوى يأسٍ رهيب يلحف الصّمما

فالزهر حولي نـادِبٌ قلـقٌ والنور يمطر خافقي حُمما
وشوارد الذكرى تجرّ أسًى من عاصف الأحلام منتقما
تتلاعب الأقدار في صلفٍ بإهابيَ الغضِّ الذي هرما
فتعيـدني لليـأس ملتفعـاً بمرارة الكأس الـذي ختما

وقد يجد البائسون المعدمون شيئاً من السّلوى إذا عبرت بمخيلاتهم أطياف الماضي ، فتحيي في نفوسهم الأمل إذا كان في ذلك الماضي ما تسعدهم ذكرياته ، إذ تداعبهم أحلام العودة . ولكن حياة صاحبنا منذ طفولته كانت كما قلت أو كما يقول سلسلة من الآلام ، فأنّى يجد هذه السّلوى إذا كان الماضي هو الحاضر في تعاسته وشقائه ؟

يحدّث الشاعر عن نفسه فيقول (ص ١٤٣) : « كنت وأنا صغير أقبع وحدي في أنقاض بيت مهدّم ، لا تسكنه غير العناكب والدبابير ، وخلف أبوابه الثلاثة – وإن شئت فقل ثقوبه الثلاثة – يحاصرني سراة الرّبا ، وزبانية الرهن والمكوس بمطالباتهم الملحّة بما لهم عليّ من ديون ثقيلة » !

ومن المرجح أن هذا البيت المهدّم الذي كانت تصحبه فيه العناكب والزنابير – أو الدبابير كما يقول – قد ورثه عن أبويه ، أو عن أحدهما .. ولكننا نسأل عن هؤلاء الغرماء المرابين الذين كانوا يحاصرون داره ملحّين في اقتضاء ما لهم عليه من دين في حين أنه كان إذ ذاك صغيراً ، وإن كنا لا ندري حدّ هذا الصغر ، لأنه إن كان طفلاً أو حدثاً فكيف يقرضه أولئك المرابون ؟ وكيف يأمنونه على أموالهم ؟

نقول إنه ربما ورث هذا الدين كما ورث ذلك البيت المتهدم ، وربما كان ذلك البيت مرهوناً في مقابل الديون التي آده حملها .

وقد عرفنا من قصيدته « العاطفة الممزقة » (ص ١٤٢) أنه تزوج وأنه أنجب بنين وبنات ، ولكنه لم يكن سعيداً بحياته الخاصة في عشّه الصغير مع زوجه وولده ، فلقد لقي من عقوق هؤلاء الأبناء مازاد في بلائه وتعاسته مما زاد في ثورته وسخطه على الحياة التي صارت بهم جحيماً لا يطاق .

ويعبّر الشاعر عما يلقى من هؤلاء الأبناء في شعر باكٍ حزين ، منه قوله في قصيدته « العاطفة الممزقة » :

كفرتُ بكلّ عاطفة وحبٍّ يمزّق فطرتي ويذيب عزمي
فلا ولدٌ ولا بنتٌ أراهم بعين الحقّ غير ظلام وهْمِ
همُ السيف الذي ينزو رهيباً على عنقي ليفصل منه عظمي
وهمْ في خَافِقيَّ من أساهمْ يذيب الروح في صف وحسْمِ
يَرونْ بيَ اعتلالاً من أساهمْ فيشتطون في ظلمي وهضمي
كأن لهمْ عليّ قديمَ ثأرٍ يطاردني فيحرقني بغرمي
فكلّ مكابر فيهم عَتِيٌّ يرى عطفي عليه خيال ظلمِ

إن هذا الأب البائس يبرّ أبناءه ، ويتواضع لهم ، ويتوددّ إلَيهم ، وهم سادرون في غيّهم وسفاهتهم وتمرّدهم . وهو في هذه الأبيات يرسم صورة رديئة لعقوق الأبناء ، وتنكّرهم لحقوق الآباء :

أمزق رفعتي وأذيب نفسي لألثم برّهم بشفاء حلمي
وأغضي عن سفاهتهم حفيّا لأنسى كلّ قاصرتي وعدمي
فأسمع ما يُذِيبُ وجيب قلبي على العلاّت من سبّ وشتمِ
وألمح في وجوهِهم اختناقا يراود فيهم استنزاف حلمي
يكيلون التمّرد كل يومٍ كأن الكلّ منهم بات خصمي
فأقتات الشقاوة في حياتي ويلتهم العذاب فتات لحمي
فما أدرى أيسلمني عذابي إلى مسّ وإضرار وسقمِ
أم الأيام تطويني سراعاً ويلتحف الثرى أطمار جسمي

ولم أقرأ في عقوق الأبناء لآبائهم – وما أكثر هذا العقوق ! – مثل هذه القصيدة وقصيدة أخرى قديمة لأمية بن أبي الصلت والفرق بين القصيدتين أن في قصيدة الدامغ ثورة عاتية ، وسخطاً عارماً ، وأن قصيدة أميّة يغلب عليها طابع العتاب ، والإحساس بالمرارة .

* * *

وهكذا وقع الشاعر الحسّاس المرهف العاطفة فريسة لهذه البلايا الثلاث التي استبدت به ، وأحكمت قبضتها عليه ، وقد صرّح بها في شعره . وهي : اليتم ،

والعُدْم ، وعقوق من كان يرتقب منهم العون والمساندة ، والنصرة على خطوب الزمان :

ولو كان همّا واحداً لاحتملته ولكنه همّ وثانٍ وثالثُ

ولقد كانت كل واحدة من تلك البلايا كفيلة بأن تهيض جناحه ، وتحطم آماله ، وتصبغ شعره بهذا اللون القاتم الحزين الذي يفيض بالشكوى والأنين ، ويكشف عن كوامن الأسى ولواعج الشجون .

وكان الشاعر على حق عندما خلع على نفسه لقب « شاعر البؤس » . وفي ديوانه (ص ١٣٧) قصيدة تحمل هذا العنوان ، وهي من قصائده الكثيرة الباكية . وقد وصف فيها آلام نفسه الحزينة ، فقد تنكّر له الزمان ، وأثخن فؤاده المعنى بالجراح ، يهفو إلى النعيم ، فيهوي في نار العذاب ، يعشق النور ، فيلقى في حالك الظلمات ، وهو يرهب الليل الذي يجدّد أحزانه ، ويجمّع أشجانه .. وهو شاعر البؤس الذي يقول :

شاعر قد قضى الحياة شقاء شاعر ينشد القريض عزاء
شاعر يسمع الغناء بكاءً شاعر يبصر الوجود فناء
شاعر إن دجا الظلام ترامتْ حوله أبلغ المصائب داء
شاعر حطّم الزمان قواهُ فارتمى يرشف النجيع دواء

حتى لقد تظلم الدنيا في وجهه ، وتضيق بآلامه سعتها ، حتى يستسلم لليأس ، فيتعجل الموت ، وقد تراوده الرغبة في الانتحار ، لكي يتخلص من هذه الأشباح الرهيبة التي ألمّت بساحته ، وأحكمت حصاره ، وضيقت خناقها عليه . وهو يعبر عن هذا الضيق واليأس في قصيدته « انتحار » (ص ٧٤) التي يبدؤها بقوله :

لـمَ لا أنتحرُ وحياتي سَقَرُ ؟
ورجائي شبحُ ونعيمي كدرُ !
وسلاحي قلمُ حائرٌ منعثر
لفّ روحي القدرُ لم لا أنتحرُ ؟

ويستطرد في تعداد مآسيه التي تسدّ في وجهه أبواب الأمل ، وأشدّ هذه المآسي وقعاً على نفسه ما يجد في بيته الذي لا يجد ملجأ إلا إليه من الهموم التي تطارده ، فلا يجد ممن فيه إلا الذل والهوان الذي يزيد في تعاسته ويأسه من الحياة :

إنْ (أَوَيت البيت ؟) في غـــرة أروي الغليـــلْ
لم أجـــدْ في ظلّـــهِ لاحـــتضاني مـــن سبيـــلْ
فهـــــو دائي والأسَى فيـــه مـــرسوم الدلَيـــلْ
لـــفّ روحـــي القـــدرُ لـــمَ لا أنتحـــرُ ؟

وبعد عدد من الأبيات يعود إلى بيته فيقول في حزن وأسى :

أيها البيت الذي شقّ طوعاً كفَني
لا تطاردْني بـلا منَّـة أو ثمنِ
فهواني لاهث السِّر جهمُ الفتنِ
لفّ روحي القدرُ لِمَ لا أنتحرُ

ثم يضرع إلى الله ليغفر له سورة غضبه ويأسه ، ولينقذه من البلاء الذي هو فيه :

سوف أطوي في حياتي مدار الألمِ
فاغفر اللهمَّ كلّ سَوْرتي في عدمي
وانتشلْني من جحيم اللّظى المحتدمِ
لفّ روحي القدَرُ لم لا أنتحرُ ؟

لقد بلغت به ثورة اليأس هذا المبلغ ، ولعله أحسّ أنه يقدم على عمل فظيع ، وهو اليأس من رحمة الله ، فثاب إلى رشده ، وأناب إلى ربّه .

* * *

إن هذه الثورات النفسية العاتية التي صوّرنا بعض جوانبها ترجع فيما أرى إلى حدة مزاج الشاعر وقوة عاطفته في مرحلة الشباب التي أعتقد أنه تجاوزها بسلام ، وأن الله جلّت قدرته تدارك هذه النفس الأبية فجعل من ضيقها فرجاً ،

وبدّلها بعسرها يسراً ، وأن مشاعر الشباب الثائر الساخط قد هدأت واستقرت ، وأن نفسه قد رضيت واطمأنّت .

وقد يكون من جملة الأسباب إيثاره العزلة ، وانقباضه عن الناس ، وانطواؤه على نفسه .

وأستطيع أن أضيف إلى ذلك استقامته ، واحترامه لنفسه . وقد برزت في شعره معالم العفّة والترفّع وصيانة نفسه عن الابتذال ، وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس .

وقد كان في وسع إبراهيم الدامغ ، وهو الشاعر الموهوب ، أن يستغل هذه الموهبة في جذب الأنظار إليه ، وفي الزلفى إلى ذوي اليسار . ولكنه ظلّ عفّا مترفعاً ، وإن قاسى عنت الفقر ، ومرارة الحرمان .

وقد يدفعه التبرّم والسخط إلى التعريض بأنداده من ذوي المواهب الذين استطاعوا بالزلفى والمصانعة والثناء الكاذب أن يبلغوا من الجاه والمنزلة والثراء بعد أن جمعوا من حطام الدنيا ما جاد به عليهم ذوو السعة واليسار ما بلغوا مما جعلهم يعيشون عيشة السَّراة المترفين بعد أن كانوا من ذوي الخصاصة المعدمين .

ولكنه يأبى أن يسلك سبيلهم ، وأن يَرِدَ النبع الذي عبّوا منه ونهلوا ، ويسائل نفسه :

ما ضرّ لو قبَّلْتُ كلَّ يدٍ   ومنحتُ كلّ سريّة علَما ؟
ولثمتُ أحلام الندى ثملاً   وبنيتُ في آفاقها حرَما ؟
فالموسرون بفضل ذلَّتهمْ   عرفوا اليسارَ وأترفوا النغما
سبقوكَ في الوِرْد الذي صدروا   عنه وذُبت ضحالةً وظما
هل كان ما عزفوا به وتْرا   من سلسبيل الوحي منتظما
أمْ كان رجساً من ضلالتهمْ   ضربوا له الأطنابَ والرسُما

* * *

وبعد ، فقد صحبت هذا الشاعر صحبة أحسبها قد طالت ، وأحسب أنها ألمّت بأكثر الجوانب التي ينبغي الإلمام بها ، ونبهت إلى أهم الظواهر التي ينبغي التعرف عليها قبل الحكم على الشاعر ، وتقويم شعره .

وخلاصة ما استبان لي من ذلك أنني رأيتني أمام شاعر من شعراء العربية الموهوبين ، تتجلى في شعره سماحة المطبوعين فكرة وتعبيراً ، لم أجد في شعره شيئاً من التعقيد ، أو شيئاً يدل على التكلف في طلب المعنى ، أو في التعبير عما يريد ، بل لقد تغلبه بساطته أو سماحته ، فلا يتفقَّد شعره ، أو يعيد النظر فيه ، لينفي عنه ما قد يكون قد علق بعبارته من الشوائب ، وربما ضنّ على ديوانه بمراجعة تجارب طباعته ، فتناثرت فيه آثار الخطأ ، أو التحريف ، أو التصحيف ، وغيرها مما قد يفسد المعنى ، أو يخلّ بسلامة الوزن .

وكأن الشاعر كان يكره أن يعود إلى ما بدأ بعد أن يُفرغ شحنة عاطفته ، وينفس عن حرارة وجدانه .

برزت في شعر إبراهيم الدامغ حماسة الشاعر المتوقد ، وحمية العربيّ الأصيل الذي لا تفارقه نخوته وإباؤه ، لم يمدح بشعره رجلاً إلا رجلاً أحبّه ووفى له . ولكنه أطرى أعمالا ، ومجدّ بطولات ، وبكى شهيداً لم يعرفه . ولم يمتهن فنه الشعري في المصانعة ، والفتل بين الذروة والغارب ، استدراراً لعطف ، أو جذباً لعطاء ، حتى ديوانه لم يسهم في نشره نادٍ في الرياض ، أو نادٍ في القصيم ، وإنما حمل مئونته ناشر من الناشرين !

لقد شُغل إبراهيم عن نفسه ، فذاق مرارة الحرمان ، وأغرق في التشاؤم ، وأحسّ إحساساً عميقاً بالانتماء ، فشغلته هموم وطنه ، وخطوب أمته ، التي منحها أنفس ما يملك من موهبته ، وأغرق في التفاؤل بمستقبلها ، الذي تلم فيه شعثها ، وتنقضّ على أعدائها والمتربصين بها ، لاستعادة أرضها السليبة ، وأمجادها التي ضيّعها التواني ومزقتها الفرقة والاختلاف .

أبرز من ذلك كله ما تجلّى في شعره من صدق التعبير عن صادق الشعور ، فأبرز شخصيّته ، وصوّر دخائل نفسه كما هي من غير تكلف أو تمويه أو تزييف ، وجلاّها كما هي بآلامها وبجراحها .

* * *

أحمد سالم باعطب

في ديوانين

- قلبٌ على الرّصيف
- عيون تعشق السّهر

قلبٌ على الرّصيفُ

قرأت هذه الطاقة الأنيقة من شعر أحمد سالم باعطب التي ضمّنها ديوانه الجديد « قلب على الرصيف » .

وكنت قد قرأت له منذ أربعة أعوام ديوانه الأول الذي نشره له النادي الأدبي في الرياض (١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م) تحت عنوان « الروض الملتهب » زاخراً بألوان من شعر الوطنية ، والشعر الاجتماعي ، وشعر العاطفة ، وبقصائد قليلة من شعر المناسبات ، وشعر الإخوانيات .

وأحسب أن من تمام الحديث عن هذا الشاعر وشاعريته وشعره أن أشير إلى أول لقاء لي بهذا الشاعر ، وتعرّفي على شاعريته في النّدوة الرفاعية التي ينتظم عقدها مساء كل خميس ، ويؤمّها جماعة من فضلاء أهل المعرفة ، وعشاق الأدب والشعر ، يلقاهم شيخها مرحّبا ، ويوسّع لهم في مجلسه ، ويطرفهم بآيات علمه ، وصحاف كرمه ، ويفتح لهم أبواب الحديث ، في كل قديم وحديث في مسائل العلم ، وقضايا من الأدب .

ويتفرع الكلام ويتشعب ، ويشرّق الحديث ويغرِّب ، وتبعد أطرافه وتقرب ، والشيخ يمسك بأطراف الحوار ، في حكمة ووقار ، فلا ينفلت زمام ، ولا يضيع صوت وسط الزحام ، في ذلك الحشد الفريد ، الذي اجتمع له الفضلاء من كل صعيد . حتى إذا انتصف الليل أو كاد ، وآن أن يصدُر الوُرّاد ، أومأ الشيخ إلى أرباب القريض ، فصدحوا كالبلابل في الروض الأريض ، بلحون من العذب الزلال ، وفنون من السحر الحلال ..

وفي أمسية من تلك الأمسيات الجميلة أطلّ على الندوة وجه جديد ، قدّمه صديقنا الأديب الأستاذ عبد الرحمن المعمر ، ذو الصمت الحكيم ، والنادرة الحلوة ، والنكتة البارعة ، والسخرية اللاذعة .

وأصغيت إلى الصوت الجديد ينشد الصحبَ شيئاً من شعره ، مع من ألف الصحب من المنشدين .. وسرعان ما ارتسمت آثار الإعجاب بما أنشد على قسمات الوجوه ، وفي تعليقات المجتمعين على اللحن الجديد . ولم أكن أقلّ منهم إعجاباً بما سمعت من آيات إبداعه .

كان الشعر الذي أنشده أحمد سالم باعطب في تلك الليلة يتحدث بما يتفاعل في أعماقه ، وكانت صوره الفنيّة هي التي تتتابع مصوّرة أخيلته ومعانيه ، ومعبِّرة أجمل تعبير عن تجاربه ومشاعره .. فأنت تسمعه كما تقرؤه ، بل ربما كان أثر قراءته أعمق من سماعك إياه !

والشعر هو الذي يهزّك عند سماعه ، كما يهزّك خالياً عند قراءته . وليس بشعر ما تبهرك روعة إلقائه ، وما تخدعك جودة إنشاده ، حتى إذا قرأته وحدك لم تجد فيه شيئا ذا بال .

وربما كان صاحبنا أحمد سالم باعطب من أقلّ الشعراء حظّا من فخامة الإلقاء ، وروعة الأداء ، وهما من غير شك من دواعي التأثير ، ولهما أثرهما الذي لا يجحد في إثارة انفعال المستمعين الذين يعوزهم التقدير الصحيح لفنّ الشعر ، والمعرفة بأسباب الإبداع فيه .

وقد عهدت أكثر الشعراء الذين ينشدون شعرهم في المحافل والمجتمعات لا يدَعُون شعرهم ينطق بعواطفهم ، ويقوم بنفسه بالتعبير عن مشاعرهم .. ولكنهم يضيفون إلى العبارة مقدّمات ، ويستعينون على التأثير بالحركات ، فتعلو الأصوات وإذا هي هدير ، وتخفت وكأنها همسات ، وتتمايل الأجساد كالذين يتخبّطهم الشيطان من المسّ ، وتهتزّ الأيدي ، وتشير الأصابع ، وتنتفض الرءوس وتتحرك ذات اليمين وذات الشمال .. لا يختلف في ذلك الشاعر أمام الناس والممثل على خشبة المسرح . وكأنّ العبارة الشعرية وحدها قاصرة عن تحقيق الغاية التي ينشدونها .

وكان القدماء يعدون ذلك عيباً ، وكان العلماء يسمّونه « استعانة » تكون بالألفاظ والعبارات الطفيليّة ، كما تكون بتلك الإشارات والحركات التمثيلية . وقد أخذوا مثل ذلك على شاعر من كبار شعراء العربية ، هو أبو عبادة البحتري .

وقد يحسُن في فنّ الخطابة ما لا يحسُن في فن الشعر ، لأن الخطيب يتجه بخطابته إلى جماهير تتباين نفسياتها ، وتتفاوت عقلياتها ، وتختلف ثقافاتها .. أما الشعر فإنه ما يزال في رأيي فنّ الخاصة من القادرين على تذوقه ، والإحساس بما فيه من مظاهر الإجادة والإبداع .

ولست أدري إن كان ذلك عرفانا من شاعرنا بقيمة الفن الشعري الذي يعبّر بنفسه عن خلجات صاحبه ، أم كان أثراً من آثار الحياء الذي يغلب على طبيعته ؟!

ومهما يكن الأمر فإن كليهما – العرفان والحياء – حسنة من حسنات الشاعر ، وفضيله من فضائله . ولعلها طبيعته التي لا يستطيع أن يعدّلها أو يجد لها بديلا !

* * *

وأيّا ما كان الأمر فقد أصغى الجمع في طرب ملحوظ لهذا الصوت الجديد ، ثم ردّدت ألسنتهم عبارات الرضا والإعجاب ، ولم أكن – كما قلت – أقل من أحدهم استحساناً لما سمعت من نفثات الشاعر المجيد أو الضيف الجديد .

ولم يسعني إلا أن أعبّر عن هذا الإحساس بكلمة واحدة هي كلمة « شاعر » !

* * *

أجل ! كان صاحبنا شاعراً بكلّ ما تعني كلمة « شاعر » من المعاني ، وبكلّ مفهوم من مفهومات الشعر التي ارتضاها عالم النقد في القديم والحديث . وذلك ما تؤكده مجموعة القصائد والمقطعات التي يحفل بها ديوانه الجديد « قلب على الرصيف » .

ولست أحبّ أن يفهم من هذا الكلام أن شعر أحمد سالم باعطب في مجموعه فوق مستوى النقد ، فما بلغ هذا المبلغ شعر شاعر من الشعراء القدامى أو المحدثين ، وإن كان في أذهان جمهور المتأدبين من طبقة الفحول ، أو من العمالقة الكبار في تاريخ أدبنا العربي ، أو في تاريخ الآداب الإنسانية بعامّة .

وقد تباينت الأذواق في تقدير الفن الشعري في زماننا تبايناً ملحوظاً ، فإن دعاة « الأدب الهادف » أو دعاة الالتزام بمفهومه المذهبي الجديد لا يتقبلون بسهولة هذا النسق الجميل الذي تأنق الشاعر في رسم لوحاته الفنية الرائعة ، مخافة أن ينصرف الناس بإحساسهم بالجمال في هذ الشعر الآسر عن الغايات التي يتطلعون إلى نشرها بين الناس .

والمتمرّدون على أنساق الشعر المعروفة التي تلتزم بنظام الأوزان والقوافي من دعاة « الشعر الجديد » لا يرحبون بهذا الشعر « العمودي » الذي صبّت مضموناته في القوالب التقليدية ، والأنماط الموروثة .

وأعتقد أن أحمد سالم باعطب ينبعث في شعره من مفهومه الخاص ، وأنه يرسل شاعريته على سجيتها ، وبما تجمع فيها من طاقات فنية . وليس يعنيه بعد ذلك أن يسخط عليه « المذهبيون » أو يتنكر لنتاجه « المجددون » . ولست أراه يستطيع مجاراة الأولين ، وإن كان ليس من البعيد أن ينضم إلى قافلة المجدّدين كما فعل ذلك كثير من الشعراء المجيدين من قبل .

وقد رأيت أحمد سالم باعطب ينضج شعره ، وتستحكم أداته يوماً بعد يوم ، فإن الشعر الذي أعجبت به حين سمعته للمرة الأولى كان دون ما سمعته وأعجبت به في المرة الثانية . وفي كل مرة كنت أرى من معالم الإجادة أكثر مما سمعت في سابقتها .

وما أرى ذلك التنقل في درجات الإجادة إلا دليلاً على التمرس بصناعة الشعر ، وإدامة القراءة فيما يعجبه من المأثور منه .

وذلك عامل من أهم العوامل في شحذ الملكة ، وتنمية الموهبة الفنية ، أو الاستعداد الفطري الذي يحتاج دائما إلى ما يرفده من معارف وثقافات تتصل بذلك الاستعداد .

ولعلّ استنشاد شاعرنا لكل جديد من نتاجه في ندوة كل خميس على ملأٍ من الأدباء والنقاد كان من الأسباب التي جعلته حريصاً على الإجادة والإتقان ، فلا ينشد أمام هذا الملأ إلا ما يرضى ، وما يرى أنه يرضي أذواق السامعين ، وبخاصة أنه كان يلقى أمامه في كل مرة عدداً من الشعراء ينازعهم أو ينازعونه قصب السبق في هذه الحلبة الفريدة القريبة الشبه بسوق عكاظ .

* * *

إن أول ما يلقاك في هذا الديوان – بعد المقدمة الضافية التي كتبها الأستاذ الجليل عبد العزيز الرفاعي – بيتان من الشعر تحدث فيهما الشاعر عن نفسه وفنّه ، وقال فيهما :

حروفي تضوع بحبِّ الوطنْ وقلبي شعاع من المعرفهْ
وأبيات شعري بهذا الزمنْ قلوب تذوب على الأرصفهْ

وأرجو ألا يستخفّنا الطرب ، وألا تشغلنا هذه الموسيقى الساحرة عن التأمل في هذين البيتين اللذين افتتح بهما الشاعر ديوانه ، وفخر في أولهما بشعره أو حروفه التي تزكو بحبّ الوطن ، وبقلبه الذي استضاء بقبس من المعرفة .

وليس من سبيل إلى أن ننكر على الشاعر ما أثنى به على شعره ، فإن ديوانه زاخر بآيات حبّه لوطنه ، بل إننا نضيف إلى هذا الحبّ حبّه لعقيدته ، وحبّه لأمته ، وفي الديوان ما لا يحصى من هذا الشعر الحماسي الصادق ، الذي يرفعه إلى شعراء الوطنية المجيدين .

ولا ننكر عليه أيضا المعرفة التي ملأت قلبه ، ولعلها المعرفة بحق الوطن ، وواجبه في تجنيد شعره لخدمته والإشادة به . ولعلّ المعرفة تعني عند الشاعر الإحساس والشعور ، أو أنه يريد أن يقول إن شعره لم ينبعث عن العاطفة وحدها ، وإنما اتصلت فيه العاطفة بالفكرة أو بالمعرفة ، فكان شعره مزاجاً منهما !

أما البيت الثاني فكان حسبنا منه أن يقول الشاعر إن أبيات شعره هى حبّات قلبه .. أما « هذا الزمن » فإنه حشو لا فائدة فيه ، ولا معنى له ، ولا مُوجب له إلا وصل موسيقاه « بحب الوطن » !

وأما القلوب التي « تذوب على الأرصفة » فما أعرف علاقة بين القلوب والأرصفة التي تذوب عليها ، اللهم إلا علاقة الوزن والقافية بين البيتين !

ثمّ ما هذه الأرصفة التي تذوب عليها القلوب ؟ والرصيف كما يعرفه الناس هو « الطَّوار » الذي تعرفه لغة العرب ، وهو أحد جانبي الطريق .

ولست أدري لماذا يؤثر الشاعر أن يذوب قلبه – أو قلوبه التي شبّه بها أبياته – على الرصيف ! ولِمَ يكون الرصيف أحق بذلك من جادّة الطريق ، أو من ملتقى الطرق ؟!

وربّما كان الاسم الذي تخيّره شاعرنا ليكون علماً على ديوانه ، وهو « قلب على الرصيف » أخفّ محملاً ، وأقرب إلى الفهم من القلوب التي تذوب على الأرصفة ، فيكون معناه كما يستطيع القارىء أن يتبيّنه : أن قلب الشاعر استقرّ

على طوار الطريق ، يديم التطلع إلى الرائحين والغادين ، أو إلى الغاديات الرائحات اللائي صِدْنَ قلبه بشباك الهوى ؟

ولست أحسب أن شاعرنا قد ضاق بقلبه ، فألقاه على الرصيف ، كما ضاق شاعرنا القديم بقلبه الذي رآه عدواً ثاوياً في أعماقه ، لا يستطيع منه خلاصاً أو احتراساً ، فقال :

قلبي إلى ما ضرّني داع   يكثر أحزاني وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوّي إذا   كان عدوّي بين أضلاعي

ومهما يكن الأمر فقد أصبح من سمات الشعراء المحدثين الافتنان في اختيار العنوانات الغريبة أو المثيرة ، يطلقونها على مجموعات أشعارهم . وإن كنت لا أرى القدماء قد قصّروا في حق أنفسهم أو حق شعرهم حينما كانوا يكتفون بإطلاق كلمة « الديوان » على مجموعات نتاجهم الشعري .

* * *

وندع القلب على « الرصيف » وندع القلوب التي « تذوب على الأرصفة » لنغوص قليلا في هذا الخضم الزاخر من شعر الديوان ، لنعود إلى ما قدّمناه في مطلع هذا الكلام ، وهو أن أحمد سالم باعطب شاعر بكل مفهومات الشعر قديمها وحديثها .

فإذا كان الشعر فيض الشعور ، ونبض الوجدان ، فإن هذا الديوان مرآة انعكست على صفحتها صورة شاعر مرهف الحسّ ، رقيق الحاشية ، مشبوب العاطفة ، تقرأ في شعره أنّات فؤاده ، وصرخات قلبه بين جوانحه :

وهنا يئنّ يراعه وصريره   غُصَصاً يترجمها مدادُ دواتِهِ
وهناك مكتبه جواد طموحه   يلوي عنان الفكر في صولاتِهِ

والشاعر هنا لا يترجم إلاّ عن نفسه ، وإن أجرى الحديث على لسان من يتحدث عنه من الذين يرى فيهم صورته ، ويرى أحاسيسهم صورة لأحاسيسه .

وهذه أبيات من قصيدته « صفعة على جبين الحاضر » صوّر فيها أحاسيسه ومشاعره ، وإن تكن الصورة ليست صورته وحده ، ولكنها صورة كثير من أبناء

هذه الأمة الذين يحيون حياة الغربة وهم بين أهليهم ، ويعانون تجارب اليأس والشقاء والقلق وهم آمنون في ديارهم :

أبيت أمضغ أحلامي وأعلكها — أخاف إن بُحْتُ يوماً سطوة العلنِ
قد جرّدتني يد الأيام من خلقي — وأسلمتني إلى الأحقاد والإحَنِ
تناثرت ذكرياتي في الدروب أسىً — مخثّراً من ذُرا فاسٍ إلى عدنِ
ولم تزلْ دمدمات الحزن أغنيتي — واليأس متكئي والقهقرى سكني
وأصبحت حانة الخذلان حاضنتي — رضعتُ واحسْرتا من ثديها لبني
وفي السراديب ضيّعتُ التقى عبثا — وبعتُ عزة آبائي بلا ثمنِ ..
وشوّه الجبنُ تاريخي وجرّعني — كأسَ المهانة من مستنقع عَفِنِ
تأججت عرصات الدار من كمدٍ — عليّ وانتفضتْ غضبى لتقتلني

إن الشاعر يصطنع في هذا الشعر الفحل أسلوب الرمز والإيماء الذي يكني به عن غرضه ..

وأسلوب الرمز من الأساليب التي يعتمد عليها صاحبنا في بث آلامه ، ووصف تجاربه .. ولكنه ليس من ذلك الرمز الذي تستعصي به المعاني على الإدراك ، ويؤدي إلى التعقيد الذي يستهلك المعاني ، ويذهب ببهاء الأدب ، ويكدّ الأذهان من غير ثمرة تلائم هذا الكد ، ويباعد بين العمل الأدبي وبين تأثر النفوس بعواطف الشاعر وتصويره وروعة بيانه .

وأنت ترى هذا الرمز في إشاراته إلى ما منيت به الأمة من التفرق والخذلان والإحجام عن التصدى لصلف الأعداء الذين استهانوا بها ، فامتهنوا كرامتها ، وعبثوا بمقدساتها ، كما تراه في مضغ الأحلام ، وفي الخوف من البوح بما تكنّ السرائر من « سطوة العلن » ، وفي إضاعة التقى في السراديب ، وفي غيرها من الإشارات التي يفطن القارىء إلى ما وراءها باليسير من الجهد ، والقليل من التأمل . كما سيفطن إلى أن الشاعر لا يخصّ بتلك العلل والآفات نفسَه ، وإنما يقصد أولئك الذين يتصدون لقيادة ركب الحياة في عالم العروبة بالدعاوى التي لا يؤيدها العمل المخلص الجادّ .

* * *

وهذه القصيدة « صفعة على جبين الحاضر » من عيون شعره الوطني الذي يستثير الحميّة ، ويشحذ العزائم ، بما بث فيها من آلام الحاضر الذي يبعث على الأسى ويثير الشجون على النحو الذي فصله في هذه الأبيات ، وبما ذكّر به من أمجاد السلف الذين عرفوا بالبذل والتضحية في سبيل الحفاظ على تلك الأمجاد ، كما نقرأ في هذه الأبيات :

سألتُ فاتنة الأمجاد في شغف	هل هام في حبّها الأبطال من وطني ؟
قالت أبوك سقاني الحبّ تضحيّة	وقاد في لجج العرفانِ لي سُفني
أما بنوك فقد ضلت قوافلهم	وخيّمت في قرى الموتى فلم ترني
من جهلهم نصبوا أحلامهم وثناً	وقدّموا العمر قرباناً إلى الوثنِ
عدتْ عليهم لياليهم معربدةً	وألبستهم ثياب الهمّ والحَزَنِ
أنا عشيقة مفتون بحاضره	يجود من أجله بالروح والبدنِ
فقلتُ : بالأمس أعلامي هنا خفقت	وطوّفت بالسّنى في موكب الزمنِ
والخيل تشهد أني قد كتبت بها	في جبهة المجد تاريخاً ولم أهُنِ
أزحتُ عن جنبات الأرض ظلمتها	ورحتُ أغمرها بالفضل والمننِ
وكنت نوراً لها أجلو جهالتها	فكيف تصبح لي ناراً لتحرقني ؟

ونجد في هذه القصيدة التي نجتزىء منها بما أوردناه خشية الإطالة ، كما نجد في غيرها من شعر أحمد سالم باعطب أن الشاعر كثيراً ما يعمد إلى أسلوب القصة ، وإلى إيراد مضموناته الشعرية في صيغة المحاورة ، أو صيغة السؤال والجواب .

ولعل السبب في إيثار الشاعر لهذا الأسلوب القصصي دون غيره من أساليب الأداء هو ما يضطرب بين جوانحه من آثار الانفعالات الحادة بالتجارب التي يعبّر عنها ، فإن الحوار الذي نقرؤه في شعره هو الصورة الماثلة لحديث النفس ، أو للحوار الداخلي الذي يتفاعل في أعماقه ، ويضطرم بين جوانحه في حال الاستغراق في تجاربه ، وهذا هو الدليل على الصدق الشعوري عند شاعرنا .

ولا شك أن هذا الأسلوب – أسلوب القصة والحوار – في مقدمة الأساليب التي تهشّ لها القلوب ، وتطرب لها النفس ، لولوعها منذ طفولتها بالقصص الذي

يثير انتباهها ، ويدعو إلى إصغائها ، وييسّر استجابتها لما يريد المتحدث أو الشاعر أن ينقله إليها من التجارب . كما أن لأسلوب القصة والحوار ما ليس لأسلوب السّرد والتقرير من التأثير وحسن الوقع على الأسماع والقلوب .

* * *

وفي الديوان كثير من النماذج الشعرية الممتازة من أمثال هذا النموذج الغنيّ بالعاطفة الوطنية ، وقد أنحى فيها الشاعر باللائمة على المتقاعسين الذين شغلتهم المتع الرخيصة عن العمل الجادّ المخلص في خدمة الأوطان ، والذود عن حياضها ، والحفاظ على تراثها وتقاليدها في بذل الأرواح في سبيل مقدساتها ، وفي سبيل المثل التي تؤمن بها ، واستنهاض الهمم للتخلص من أسباب الضعف والتخلف ، واللحاق بركب الحياة الناهضة ، والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية .

وقد صدّر الشاعر ديوانه بهذه القصائد الوطنية ، وعددها إحدى عشرة قصيدة ، يطول فيها نفس الشاعر طولاً ملحوظاً . وقد شغلت ما يقرب من ثلث الديوان ، ويغلب عليها الطابع الذي رأيناه في القصيدة التي تحدثنا عنها .

ومن أروع تلك القصائد قصيدته التي جعل عنوانها « أشجار تموت في الربيع » وقد عبرّ الشاعر فيها عن الشجون التي تعتلج في صدور العرب والمسلمين مما صارت إليه حالهم من الشتات والضياع الذي غشّى على أمجادهم ، وأطمع فيهم أعداءهم ، فعاشوا يومهم يتخبطون في الظلام ، بعد ماضيهم المشرق ، ثم لا يدرون ما يأتي لهم به الغد .

وتقع القصيدة في ثمانية وأربعين بيتاً متحدة الوزن ، قسّمها الشاعر إلى ستة أقسام متساوية ، ينفرد كل قسم منها بقافية .. وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى القسم الخامس من هذه الأقسام الذي تتحول فيه أحاسيس الشاعر إلى ثورة عارمة على أولئك الذين ضيعوا تراثهم ومآثرهم بين هتافات مفتعلة تتبدد أصداؤها وتتلاشى كلما أصابتها الريح ، ويشبههم بفقاقيع الهواء التي تعلو سطح الماء ، وبالأشباح العجاف التي تفتقد الطعام والشراب ، وبالسّوائم الشاردة في شعاب الأوهام ، فضيعت نور أمسها ، وخفيت عليها معالم غدها .. ويبحث عن

الفارس الحرّ ، والفدائي الذي يتقدم الصفوف ليحرر الأرض ، ويستنقذ القدس من أيدي الصهاينة المعتدين ، ويعيد للتاريخ سيرته ، وللمسجد الأقصى حرمته :

يا فقاقيع هتافات مـريضات الصّدَى
تتلاشى كلّما مدّتْ لها الريح اليدا ..
يا رؤى تشبع من جوع وتروى من صدَى
سائمات في شعاب الوهم ترعَى شُرَّدا
ضيّعتْ من أمسها النور ، وما تدري الغَدَا
أين لي في الغاب بالفارس ميمون الندى
يسكر الأيامَ إقداماً ، ويكسوها فِـدا
يستعيد القدس تاريخاً ، ويحمى المسجدا ..

وفي القسم السادس ، وهو آخر أقسام هذه القصيدة ، يردّد الشاعر ألحان اليأس ، لأنه لم يجد في الصفوف ذلك الفارس الذي كان ينشده لكشف الغمة ، ويشرح عوامل اليأس الذي أودى بالآمال ، ومنها الجهل الذي غشّى على العقول ، وخواء القلوب من الإيمان ، وفقد روح الإخلاص ، والانصراف إلى الإسفاف والعبث والمجون ، وكانت عاقبة ذلك كله الضياع ، والتخبط في أودية الضلال :

أنت يا من يعزف الجهل له شتَّى اللحونِ
يا مريضاً يزرع الأحلام في حقل الظنونِ
مفلسٌ أنت من الإخلاص معتلّ اليقين
سادرٌ في الغيّ مأسور بأثواب المجونِ
يا قذًى يجرح بالإسفاف أجفان القرونِ
يا غريقاً في دياجي الوهم والحقد الدفينِ
لا أحابيك فقد أفلست من دنيا ودينِ
وتناثرْتَ ضياعاً في متاهات السنيــنِ

وتستولي على هذه القصائد الوطنية مشاعر السخط وعدم الرضا بما هو

واقع من شئون العرب والمسلمين .

وشعور الأخوة وشعور الوطنية من أشرف العواطف الإنسانية وأسماها ، لأنها ليست عاطفة ذاتية ، أو عاطفة نحو الذات ، ولكنها عاطفة إنسانية ، تنشأ عن التفاعل بين الإنسان وبين وطنه وقومه وأهله وعشيرته .

* * *

وتجيء بعد هذه « الوطنيات » التي أبدع الشاعر فيها وأجاد طائفة من القصائد التي عالج فيها بعض الجوانب في حياة المجتمع الذي يعيش فيه .

وتلك القصائد يسميها الشاعر « جروح في جبين المجتمع » . وفيها يكثر حديث الشاعر عن نفسه ، وعن البيئة وأثرها في تنشئته ، والعوامل التي كان لها تأثير في تربيته ، وفي تكوين شخصيته ، ولكنها لا تصف من أدواء المجتمع إلا شيئاً يسيراً .. ولذلك كان في إطلاق عبارة « جروح في جبين المجتمع » على مجموعة تلك القصائد شيء من غلوّ الشعراء ، لأن هذه الأدواء اليسيرة لا تصل إلى درجة الجراح الدامية .

وفي بعض هذه القصائد – أو الجروح بحسب تعبير الشاعر – شيء من الموازنات الطريفة بين الماضي والحاضر ، وبين زوجة الأمس وزوجة اليوم . فزوجة الأمس كانت راضية قانعة ، عاملة ناصبة ، وزوجة اليوم تعنى بالشكليات وبمظاهر الزهو والترف أكثر مما تعنى بتدبير شئون بيتها ، وخدمة زوجها ، وتربية أبنائها .

والفرق واضح بين أسلوب هذه القصائد الاجتماعية وأسلوب تلك القصائد الوطنية التي سبق الحديث عنها ، فإن أسلوب الوطنيات جزل رصين ، وأسلوب هذه الاجتماعيات سهل رقيق ، وقد يهبط إلى ما دون الوصف بالسهولة أو الرقة !

ولا شك أن لاختلاف الغرض الشعري أثراً في اختيار الأسلوب الذي يراه الشاعر أكثر ملاءمة للغرض الذي يعالجه .

وذلك بالإضافة إلى روح السخرية التي تشيع في بعض القصائد الاجتماعية كقصيدة « زوجتي والخادم » وقصيدة « عقود وثعابين » وقصيدة « الوليمة

القاتلة » وقصيدة « زوجتي تغار من الكتب » فإن روح السخرية في هذه القصائد تملؤها بهجة وإمتاعا .

أما أسلوب القصص والحوار الذي أشرنا إليه فيما سبق فلا تزال له مكانته في هذه الاجتماعيات ، كما كانت في الوطنيات ، وهو الأسلوب الأثير عند الشاعر كما قدّمنا .

* * *

وإذا كانت للمرأة مكانة واضحة في الشعر الوطني والشعر الاجتماعي الذي تضمنه ديوان أحمد سالم باعطب الجديد ، إذ كانت المرأة في أغلب القصائد أحد ركني الحوار الذي يصطنعه الشاعر في سوق مضموناته الشعرية ، فإن المرأة تجد لها مكاناً مستقلاً متميزاً عن وطنيات الشاعر واجتماعياته . وذلك في شعر الهوى والحب الذي شغل مكاناً رحباً من الديوان ، كما شغل مكاناً رحباً من قلبه الذي ما يزال « على الرصيف » برغم بعد العهد بتجارب الحب العميق فرسم في ديوانه صورة حيّة لتلك التجارب العاطفية التي احتفظت بصورتها ذاكرته ، ورسبت في أعماق نفسه ، وأن كانت أصول تلك الصورة قد توارت خلف ستار السنين والأحداث .. ولكنه ما يزال يبحث عنها ، ويحاول أن يستعيد تجاربها بعد فوات الأوان :

أتيتُ أسأل عن ركن نصبتُ به ... رمزاً لحبّي وتمثالاً لميثاقي
أتيتُ أسأل عن أمسي وبهجته ... وجدول سلس الأحلام رقراقِ
كم في حناياه أورينا عواطفنا ... مشتاقة تسكب النجوى لمشتاقِ
ونحن نرفده من حبّنا عبقا ... من منبع عاطر الأموار دفَاقِ
أتيتُ دار صباباتي أسائلها ... عن جنتي ورؤى أمسي وإشراقي

وما يزال هذا العاشق المدنف برغم العوائق وبرغم السنين وبرغم أشواك الطريق يحنّ إلى الماضي البعيد ، ويتمنى أن تصبح أوهامه وأحلامه حقائق كتلك التي نعم بها زمانا من حياته . ولكن هيهات :

أبصرتني على الطريق أذوب ... نظرتي لهفة وهمسي وجيبُ

يصرخ الحزن في جبيني ويلهو ساخراً عابثاً بوجهي الشحوبُ
ما استبانت ملامحي إذ رأتني حسبتْ أنني نزيل غـريبُ
سألتْ من تكون ؟ قلت خيال نال منه السُّرى وقلب جديبُ

قلت : ما أشبه صاحبنا بالأعشى الذي عجب لإنكار صاحبته صلعه وشيبه فقال :

وأنكرتْنى وما كان الذي نكرتْ من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وأعجب من هذا قوله :

صدّت هريرة عنّا ما تكلمنا جهلاً بأم خُليد حبلَ من تصلُ
أأن رأت رجلا أعشى أضرّبه ريب الزمان ودهر خاتل خبلُ

فأي شيء أبغض عند النساء من العَشَا والضّر يَتَبَيَّنُهُ في الرجل .

وأعجب ما في هذا الكلام أنه قال : حبل من تصل هذه المرأة بعدى وأنا بهذه الصفة من العَشَا والفقر والشيب ؟

ولله درّ أبي هلال الذي قال :

فلا تعجبا أنْ يعبْنَ المشيب فما عِبْنَ من ذاك إلاّ معيبا
إذا كان شيبي بغيضاً إليّ فكيف يكون إليها حبيبا ؟

* * *

ولا أحب أن أنهي هذا الكلام قبل أن أشير إلى أن باعطب واحد من شعراء العربية الذين يقلّون في هذا الزمان من أولئك الذين نستطيع أن نسميهم « شعراء الصورة » فإن له قدرة فائقة على تأليف الخيال ، والإبداع في رسم الصور ، وإلباس المعاني ثوب الذوات ، والمعقولات ثوب المحسّات . حتى لقد يصبح شعره معرضاً أنيقا يزدان بلوحاته الفنية التي أبدع في تصويرها ، وتأنق في تلوينها فنان صناع ، وشاعر موهوب .

وما أجدر « الصورة الفنية في شعر أحمد سالم باعطب » بدراسة مستقلة مستوعبة ، لا يتسع لها هذا المجال .

* * *

عيون تعشق السَّهَر

قالوا : حسبُك من القلادة ما أحاط بالعنق !

وأقول : كان حسْبي من الحديث عن صاحبنا أحمد سالم باعطب ما تناولت به ديوانه الثاني « قلب على الرصيف » ، وفيما كتبت عنه في صحيفة « الجزيرة » كبرى صحف الرياض .

وليس يعدّ في المقصّرين من يكتفي بالنظر في ديوان كامل لشاعر واحد ، ودراسته ومحاولة تقويمه في كتاب نحاول فيه أن نلمّ بعدد معقول من شعراء المملكة العربية السعودية الذين كان لهم ذكر في عصرنا ، يعرفهم ويسمعهم ويقرأ لهم عامة أهل الأدب داخل الديار السعودية وخارجها .

وقد يكون في استطاعة الناقد أو الدارس أن يهتدي إلى معالم الشاعرية ، ويستدل على خصائصها أو اتجاهاتها بالنظر في عدد محدود من قصائد الشاعر . وقد تتحقق هذه الغاية بالنظر في قصيدة واحدة ، بل في عدد قليل من الأبيات .

وقديماً قال بشّار بن برد : مازال غلام من بني حنيفة يدخل نفسه فينا ، ويخرجها منا ، حتى قال هذين البيتين :

نزفَ البكاءُ دموعَ عينك فاستعِرْ ... عيناً لغيرك دمعُها مِدْرارُ

من ذا يُعيرُكَ عينهُ تبكي بها ... أرأيت عيناً للبكاءِ تُعارُ ؟!

وهو يقصد بهذا الغلام العباس بن الأحنف .

ومعنى كلام بشار أنه طالما سمع من العباس قبل أن يذيع صيته شعراً يدنيه تارة من الشعراء المطبوعين ، وشعراً يبعده عنهم تارة أخرى ، حتى أنشد هذين البيتين اللذين عَدَّه بهما من الشعراء المحسنين ، فقد وجد فيهما بشار ما راقه من عذوبة اللفظ ، وجودة النسج ، والرقة في النسيب ، والتصرف في المعنى الذي سبقه إليه شاعر قديم في قوله :

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيعُني بها كبداً ليستْ بذاتِ قُروحِ
أباها عَلَيَّ الناسُ لا يشترونها ومن يشتري ذا علَّة بصحيح ؟!

وإن كان تصرّف العباس بن الأحنف قد أبعد هذا المعنى عن دائرة الاتهام بالاحتذاء أو بالسرقة ، فقد أحسن التجريد ، وأبدل بالكبد العين ، واستبدل بالبيع الإعارة ، وأبرز المعنى في هذه الصورة البديعة الأنيقة .

* * *

تذكرت هذا عندما حمل إليّ البريد ديوان باعطب الجديد « عيون تعشق السهر » فسررت بمقدمه ، وهششت للقائه مثلما كنت أسرّ برؤية صاحبه أيام كنت في الرياض ، وهو يشنف آذان رواد الندوة التي كان يرعاها الأستاذ الجليل الشيخ عبدالعزيز الرفاعي كل خميس بدارته في حيّ « الملز » ثم في حيّ « الروضة » الذي انتقل إليه بعد حين .

ولقد كان لهذه الندوة الفضل الأكبر في نباهة هذا الشاعر وغيره من الشعراء الذين كانوا لا يجدون سوقاً لمواهبهم ، فتواروا عن الأنظار ، وضنَّت عليهم الصحف والمجلات بإذاعة نتاج هذه المواهب ، حتى اتسعت لهم تلك الندوة الرفاعية فكرروا الإنشاد ، حتى عرفهم الناس ، ونشرت أشعارهم الصحف والمجلات ، ثم ظهرت لهم الدواوين .

ومع اعتقادي أنني ذكرت في حديثي عن الديوان الثاني [1] لأحمد سالم باعطب « قلب على الرصيف » أهم ما وقفت عليه من ملامح شاعريته ومجالاتها ، مع هذا الاعتقاد وجدت نفسي مدفوعاً إلى شيء من الحديث عن ديوانه الجديد « عيون تعشق السهر » كمظهر من مظاهر عنايتي بشعره ، وتقديري لعواطفه الأخوية التي دفعته إلى أن يوقفني على أحدث ما وصلت إليه شاعريته من النضج والرسوخ بعد أن شهدت مولدها وطموحها وتدرجها وتطلعها نحو الكمال وهو قريب مني في الرياض .

---

(١) صدرت للشاعر ثلاثة دواوين ، أولها « الروض الملتهب » والثاني « قلب على الرصيف » والثالث هذا الديوان الجديد « عيون تعشق السهر » .

وقد درج المحدثون ومنهم أحمد سالم باعطب على الافتنان في تأليف عنوانات مجموعاتهم الشعرية كما يفتنّون في تأليف مضمونات هذه المجموعات ، وربما كان تأنّقهم في صياغة هذه العنوانات أظهر من تأنقهم في صياغة القصائد والمقطعات ، وفي بعض الأحيان يفتقد القارىء الصلة بين دلالة هذه العنوانات ومحتويات هذه المجموعات . وذلك على كل حال ضرب من ضروب التجديد التي كثرت وطفت على سطح الحياة في هذا العصر .

صنّف الشاعر شعر هذه المجموعة الجديدة من شعره أربعة أصناف أو أربعة أقسام ، جعل لكل قسم منها عنواناً يكشف عن التجارب الشعرية التي ينتظمها هذا القسم .

وعنوانات هذه الأقسام هي على الترتيب :

١ - بقايا عاصفة في الأفق .

٢ - تحيات قلبية للشمس .

٣ - بسمات على شفاه دامية .

٤ - قد يولد الحبّ من جديد .

ودلائل الافتنان واضحة في أسماء هذه الأبواب كما هي واضحة في سائر عنوانات القصائد والمقطعات .

وهذه الأقسام أو الأبواب - عدا القسم الثاني منها - يمكن أن يضمها عنوان واحد كبير هو « شعر الألم والأمل » لأن قصائدها جميعاً تصوّر أحاسيس الشاعر بتجارب أليمة أرّقته ، وأقضّت عليه مضجعه . وما يزال الأمل يداعبه في انقشاع تلك السحب التي حالت بينه وبين بهجة الحياة ومسرّاتها . كما سنرى في الكلمات التالية .

وقد توغلت هذه التجارب في أعماق الشاعر ، وتفاعلت مع حسّه المرهف ، وعواطفه المشبوبة ، فعزفت قيثارته ألحان الأمل التي كانت أصداء لأحداث قريبة من الشاعر ، وأحداث بعيدة عنه تفجرت في نفسه براكينها ، وغمره طوفانها ، وألهبت مشاعره نيرانها ، ونراه أحياناً يأبى الاستسلام لهذه العواصف المدمرة ، وهو يراها تدكّ صروح أمله الوثاب .

اقرأ قصيدته « حديث شيخ فلسطيني » (ص ٥١) لترى فيها صرخة الألم الممضّ ، وثورة البركان الهادر في أعماق هذا الشيخ الفلسطيني ، ثم يقذف حممه الثائرة المدمرة ، أو المتمردة على القيم الجوف الخاوية من مضموناتها ، وقد أصبحت ملاهي يتسلى بها الشعب الغارق في أحلامه ، وحوله الأمواج الصاخبة تتجاذبه من كل جانب . وما يزال يذكر الأمجاد التاريخية التي صنعها أسلافه ليتسلى باجترارها عما يرزح تحته من الهم المقيم ، فينشد على لسان هذا الشيخ لحن الضيق والمرارة بما سيسجّله التاريخ الجديد من المخازي في جبين أهله وعشيرته التي شوّهت صفحة ماضية العتيد :

مزِّقي في تاريخ يومي مزِّقي ... يا رُؤى أمسي المضيءِ المُشرِق
واغسلي بالنار من ذاكرتي ... شبحاً يمنه بإحساسي بَقي
تلعنُ الأيام لي سيرته ... وصمة تصفعُ وجه المشرقِ

ثم يشكو ما مني به من الضياع بما فقد من روح الجد والعمل ، وبما ضَيَّعَ من القيم الموروثة في الشرف والاستقامة والجهاد . فلقد ولد ليحيا ، ولكنّ قابلة قذرة كانت هي التي استقبلته من أول وقت استهل فيه الحياة ، فكانت نذيراً بما يستقبله من المآسي والضياع ، فيقول شاكياً يومه لأمسه :

أنا يا أمسِي وليدٌ تائهٌ ... ماجِنٌ ، لصٌّ ، وإنْ لم أَسْرِقِ
قمَّطتْني جارةٌ كانت لنا ... بخمار مُنْتنٍ مُخلولقِ
كحَّلتْ عيني شجوناً وشجىً ... وسقتْني بيديها أرَقي
ثمَّ ألقتْني لأحضان الأسى ... فأنا اليومَ ربيبُ القلقِ
أنا يا أمسِي بقايا حفنةٍ ... من نُفايات حَشاً محترقِ
أنا رجعٌ لترانيمَ ارتوتْ ... من فقاعات هوًى مختلقِ
أنا ليلٌ ضاعَ في لجّتهِ ... نشوةُ الفجر بسحر الألقِ
ورعَى اليأسُ على ساحلهِ ... ذِلّة النفس وحُمَّى الغَرَقِ

تلك هي صورة هذا الشيخ التي بدأ بها حياته ، وأطلّ بها على الوجود ، أو هي الصورة التي رسمها خيال الشاعر لذلك الشعب الفلسطيني ولتاريخه الجديد

المظلم الذي طوّحت به فيه الأقدار ، وهو تاريخ يفيض بالأسى ويثير الشجون .

وهو في رأي الشاعر تاريخ يتبرّأ منه تاريخ أمسه المشرق ، أو ماضيه الحافل بأسباب العزة والكرامة ، فقد أصبح اليوم صورة حائلة ممسوخة تثير سخرية الأمم والشعوب ، واستهزاءها بهذا الشعب الغارق في بحار الوهم والهوان ، وغشّت جبينه سحابة من الهمّ والكآبة ، وقد وهنت عزيمته ، وتداعت أسباب قوته :

أنا رسمٌ سَخِر الناسُ به   غارقٌ بين دموع الشفَقِ
في جبيني سمةٌ شاحبةٌ   لضياعي ظلّها في مفرقي
ساعدي شاخت به قوّتُهُ   وفمي يلعق زيفَ المنطقِ
بِعتُ للسفّاح أمجادَ أبي   وتنازلتُ له عن بُندُقي
ليس لي في الروض طيرٌ صادحٌ   يُطربُ النفسَ ولا ظلٌّ يقي

والقصيدة كلّها في تجربة فلسطين ، أو مأساة الشعب العربي في فلسطين ، وما حاق بهذا الشعب من محن وتشريد على يد شذّاذ الآفاق من بني إسرائيل .

وقد تقمص الشاعر فيها روح هذا الشعب البائس ، وسار فيها على هذا النهج الذي بسط فيه حديث النفس الحائرة ، وصوّر فيها ذلك الحوار الداخلي الذي يتردّد في أعماق هذا الشعب المنكوب الذي أصبح لا يجد لنفسه مستقرّاً ولا مقاماً تحت الشمس ، أو في عالم النور :

سألَتْني الشمسُ يوماً عندما   أبصرتْ شرخَ البِلَى في فَيْلقي
ما لأعلامكَ لم تشرقْ سنًى   ما لها في جبهتي لَم تخفقِ
قلتُ : سيلٌ جارفٌ مغتربٌ   داهمَ القريةَ عند الغسَقِ
أشعلَ الأحزانَ في أحداقنا   فإذا أهلي سبايا الغَرَقِ
وإذا أحلامُنا مذبوحةٌ   بين جدران الهوان المطبِقِ
وغَدَونا قصةً تعصِرنا   فرحةُ القالي ورُحمى المشفِقِ
أترى المجدَ غداً يجمعُنا   وخطانا في الهدى لم تلتقِ ؟
ورؤانا في سِجِلّاتِ المدى   داميات بسهام الفرَقِ ؟

ضَجَّت الأرض وقد روّعها في جلابيبي صديدُ الملـقِ
حطّمتْ كأسي على ناصيتي ثم صاحتْ : ويلَهُ من أحمقِ !
أنا لم أنجبْ فتىً في صدْرِهِ حشرجاتُ اليائس المختنـقِ
تنضحُ الأدرانُ من أثوابـهِ غُصَّة الناظـر والمستـنشقِ
يكـتسي حلّتَـهُ مسكنـةً يستقي مشربه من نـزقِ !

ويمضي الشاعر في استكمال جوانب هذه الصورة القاتمة لحياة الشقاء التي يحياها الشعب المنكوب ..

ويصف ملامح هذه الحياة وملاحمها ، ويتحدّث عن عللها كما تبدو له ، لأن الشاعر لا يصوّر في الحقيقة نفسه ، وإنما يتحدث بلسان واحد من أبناء فلسطين الذين حطمتهم المأساة ، وقد جعله شيخاً ، وسرد على لسانه ما ألمّ به من سلسلة النكبات الموصولة في مراحل حياته ، ويصف الشباك التي أوقعته في ذلك المعترك أو في ذلك المستنقع الذي يحاول الخلاص منه .

ويرجع الشاعر تلك العلل والأوصاب إلى تقاعس هذا الشعب عن العمل الجادّ للثأر لكرامته ، واستئناف حياته الحرّة الكريمة على تراب وطنه السليب ، وإلى تمزّق صفوفه ، وفقده القدرة على تبيّن الهدف ، وعلى وحدة العمل .

وقد يشارك الشاعر في هذا التعليل كثيرون من أبناء الأمة العربية ، وقد يخالفه فيما ذهب إليه كثيرون ، ومنهم أبناء الشعب العربي في فلسطين الذين يأبون أو يرفضون أن يتحملوا وحدهم تبعة هذا المصير !

* * *

هذه واحدة من تلك القصائد الكثيرة التي تفاعلت فيها شاعرية أحمد سالم باعطب بالتجارب المثيرة والأحداث التي وقعت في ساحة الوطن العربي ، وفتكت بجماعات من أبناء الأمة العربية التي يشتدّ إحساسه بالانتماء إليها ، وتتجاوب في أعماقه أصداؤها المروّعة ، وإن تجاوزت أهله وعشيرته .

ولكنها وحدة المشاعر بين أبناء هذه الأمة تلك الوحدة التي تجد لها مجالاً رحباً فسيحاً في وجدان الشاعر .

وقد رأينا كيف اتّسعتْ هذه القصيدة لاستيعاب الخواطر المتفرقة والمؤثرات التاريخية ، وقد طالت حتى بلغت عدة أبياتها تسعة وأربعين بيتاً احتشدت فيها أحاسيسه الملتاعة ، وعواطفه الجياشة .

ولم تكن فلسطين وحدها مستوحى إلهام الشاعر ، بل إن شاعرية باعطب تطوّف بغيرها من آفاق العروبة وديار الإسلام . وفي تلك الآفاق ما ارتحل إليه ، وفيها ما لم يره في حياته ، ولكنّه أحسّ بآلامه ، وعانى ما يعانيه أهله من الرزايا والهموم .

ومن ذلك ما نقرؤه في قصيدته « شموع على مشانق بيروت » (ص ٨٩) .

وفي هذه القصيدة نرى الشاعر ينهج المنهج الذي رأيناه في قصيدته الفلسطينية السّابقة ، أي أنه يسوق الحديث عن المحنة التي يعيشها لبنان على لسان واحد من أهل بيروت شهد تحطم مدينته الجميلة التي كانت تلهم الشعراء أبدع أشعارهم في وصف طبيعتها الخلابة التي كانت مسارح للأنس تأسر الأبصار ، وتسبي القلوب . وكيف أصبحت أطلالاً وخرائب ينعق فوق أدواحها البوم والغربان ، لأن أهلها كفروا بنعمة الله ، وتساقطوا في حمأة الرذيلة والفساد ، ففقدت بهاءها ، وصوّحت رياضها ، وهبطت في مهاوي الضلال والشقاء :

فتّشتُ عن قيثارةٍ بـدرُوبها	كانتْ تردّدُ للوجود قصيدتي
وظلِلْتُ أبحث عن جماجم أحرفٍ	نُسجتْ بكفّ ضيائها أنشودتي
فوجَدْتُ مصباحَ الكرامة زَيْتُهُ	خَمرٌ ، وشمعته قميصُ رذيلةِ
ورأيتُ ربّاتِ الحجالِ يَبِعْنَ في	سوق النِّخاسةِ بالمزاد مُروءَتي
وسمعتُ فارسها الشجَاعَ مضرّجاً	يهذي ويصرخُ أين أين بُطولتي

ثم يستطرد إلى وصف رُؤى لبنان الفاتنة ، ومغانيها السّاحرة ، ومعالم الجمال الآسر في ربوعها ، وما ألمّ بها من كوارث وويلات ، حتى أصبحت خراباً ، تقذى بها العيون :

حتى النوافيرِ التي رسمتْ على	وَجَنات هذا الجيل أجمل صورةِ
عاث الزمانُ بها وضمّ رُفاتها	ما بين فَرْث نعاجه المذبوحةِ

ومآذنُ الفجر المموّجةُ السّنى طُعنَتْ بحافر بغلـةٍ مجنونــةِ
والزهرةُ العذراءُ حالمة الرّؤى نُزعتْ جوانحها بغير جريرةِ
يا للبراءةِ في عيون مدينتي أضحتْ مطيّة غارة موبوءةِ
في كلّ زاويةٍ مخاضٌ قاتلٌ وبكلّ منتجع زفافُ جريمةِ

وكذلك تقرأ في قصيدته « بقية ليلة في غرناطة » (ص ٤٣) وفي قصيدته « ليلة عرس في طنجة » (ص ٦٢) وفي قصيدته « طير من أفغانستان » (ص ٧٠) . وهي قصائد أنشدها معبّراً عن مشاعره وإحساسه بما تثير تلك المواطن في نفسه ، وما تبعث في خاطره من ذكريات .

ولكن الظاهرة الواضحة أن أكثر ما تثيره هذه المواطن من ذكريات في نفس الشاعر أنها كلّها أو جُلّها ذكريات مآس وأحزان ، وقلّما تجد فيها ما يبعث على البهجة والأنس .

وأنا لم أقل « قلّما » إلا على سبيل الاحتياط أو الاحتراس مخافة أن يكون قد ندّ عني شيء من ذلك ، وليس على سبيل الندرة أو التقليل .

تلك الظاهرة العامة ، ظاهرة الحزن والأسى والشجون التي تسود شعر أحمد سالم باعطب ، تمثل انعكاساً لما يعتلج في صدره من الآلام الكامنة في أعماق نفسه ، التي لا يستطيع الفكاك منها .

أعتقد أن هنالك سرّا خفياً يكمن في أعماق هذا الرجل الطيّب الذي يغلب عليه الصمت ، فإذا نطق لا تسمع منه إلاّ ما يشبه الهمس وإذا استنشد شيئاً من شعره تردّد طويلاً ، وحاول الاعتذار ، حتى يضطر أمام إلحاح الحاضرين فينشد على استحياء ، وفي نبرة مكتومة ، وفي لحن خافت حزين .

و لم أر مثله في ذلك من شعراء العصر الذين عهدنا أكثرهم ينشدون ويترنحون ويرفعون عقيرتهم ، ويفتنّون في إلقائهم ، وكأنهم في ميدان وغى ، أو حلبة قتال ، أو كَأنهم خطباء محافل يستندون الأكفّ للتصفيق ، والحناجر للهتاف !

حتى في تلك القصائد التي تدل عنواناتها أو مناسباتها على ما يبعث البهجة ، ويشيع روح الأنس والسرور في نفسه نراه يسرع إلى كسوتها بتلك الأفكار القاتمة ، والذكريات المريرة التي ملأت قلبه .

على سبيل المثال نعرض لقصيدته « ليلة عرس في طنجة » (ص ٦٢) التي يشعر عنوانها بالبهجة والمرح ، سواء أكان هذا العنوان يعني حقيقة شهدها الشاعر وطرب لها ، أم يدلُّ على ليلة قضاها في هذا الثغر المغربي الجميل ، تجده ينشد في أولها يصف قدومه إليها :

أتيتُ طنجةَ مشبوبَ الخُطَا أشِرَا أتيتُ أقرأ في أحداقها العبرَا
أتيتُ ألثمُ منها جبهةً ولَمىً وتستقي مهجتي من ثغرها الصُّوَرَا
أتيتُ أرسمُ شوقي في محاجرها وأسكبُ الليلَ في أجفانها سهرَا
أتيتُ أنقش في شُطّآنها حُلمُي وأحتسِي من شذا ريحانها سَكَرَا

ثم يأخذ في مناجاتها ووصف محاسنها في أبيات قليلة ، ينتقل بعدها إلى تمجيد وطنه الذي هبط فيه الوحي ، وشّع منه نور الإسلام ، والإشادة بأمته التي كرّمها الله ، وتعلقت بحبال المجد ، وعرفت بمآثرها التي جعلت لها ذاكرا في العالمين ، فيقول :

أتيتُ من مهبط القرآن من بلدٍ على رُباه تهادَى النورُ وانتشرَا
أتيتُ في فتيةٍ من أمّةٍ كرُمتْ تقاطرتْ تبتغي شُمَّ الذُّرا زُمَرَا
تصوغُ من جهدها للمجد أسورَةً وتزرع العمرَ بِرًّا قلّ أو كثُرا

وندع ما افتّن فيه الشاعر من ضروب التصوير في هذه الأبيات ، وما تأنّق في تأليفه من الاستعارات المتلاحقة المتزاحمة فيها من مثل : الخُطا المشبوبة ، وقراءة العبر في الأحداق ، ولثم جبهة طنجة ولماها ، واستسقاء مهجته الصور من ثغرها ، ورسم أشواقه في محاجرها ، وانسكاب الليل سهراً في أجفانها ، ونقش الأحلام على الشّطآن ، واحتساء الخمرِ من شذا الريحان ، وزراعة العمر برّا ...

وإن كنت لا أرضى وصفه البرّ بأنه قليل أو كثير ، لأن مقام الفخر والمباهاة لا يرضى بالقليل من البّر أو الإحسان !

أَدَعُ ذلك كلّه ، لأن الإغراق في المعاني ، والإبعاد في الاستعارات والإغراب فيها ظاهرة واضحة ، وسمة من السمات البارزة في شعر أحمد سالم باعطب كُلّه .

ندع ذلك لنرى كيف انتقل الشاعر من هذه المعاني الباسمة المتفائلة التي عبّر

عنها في أوليات القصيدة إلى استثارة ذكريات أليمة ، وشجون قديمة ، وكأن هذه الذكريات والآلام لا تزايل خاطره ، بل إنها تلحّ عليه ، وتلاحقه وتطارده ، وتضرب حوله نطاقاً من الحصار في كل مناسبة من المناسبات ، حتى لو كانت مناسبة مسّرة أو مدعاة تفاؤل ، فتراه يقول بعدما تقدَّم :

يا طنجةَ الحبِّ هل تدرين ما صنعتْ ... بنا اللّيالي ؟ تداعَى الصرحُ واندثَرا
وضيَّعَ الفارسُ المعتوهُ عُدَّتَهُ ... وباع معطفَه ، وانهارَ فاندحَرا
وطفلُه مُقْعَد يجترُّ نكْبَتَه ... على الرصيف صريعَ الوهم مُحْتَضَرَا
تغلغل الداءُ في الأحشاءِ يقرضُها ... يختالُ يغتالُ منّا السمعَ والبصرَا

إلى أن يقول بعد عرض شيء من تاريخ المغرب وذكر بعض أعلامه القدامى من الموحِّدين الذين دانت لهم الأقطار ، وخضعت لسلطانهم رقاب العصاة والمتمردين :

ما بالُ وحدتنا الكبرى ممرغةً ... في الوحْل يرضِعُها أبناؤها الوضرَا
يرمون في غرف الموتى غلائلها ... ويسرقون الضُّحا من عينها سحرَا
هذى حقائبُ دعوانا محنّطةٌ ... وتملأ الزيفُ في أهدافنا أخرَا
كئوسُنا بخمور الذلّ مترعةٌ ... متى سنملؤها من عزمنا ظفَرا ؟
متى سينتفض الطوفان ملتهباً ... رُعباً ويفرق عصراً فاسداً قذِرَا ؟
بِعْنا المباديء في الحانات وانطفأتْ ... فينا البطولةُ واعتلّتْ بنا خَورَا
وَضلَّ في لُجَّةِ الصحراءِ موكبنا ... وعاد مضطربَ الإحساس منفطرَا
حتّى مآذننا جفّ الأذانُ بها ... وصاحت القدسُ من يُهدِي لها عُمَرا ؟

ويستمر الشاعر في استعادة هذه الصّور المثيرة في المناسبة السعيدة ، حتى ينهي « ليلة العرس في طنجة » مصدّقا قول من قال « وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ » !

وليس لنا أن نعترض على شيء من ذلك ، فإن الشعر هو الشاعر ، وتلك طبيعة شاعرنا ، ومزاجه الشخصي على كل حال .

ومع ذلك لا يكلّف الشاعر قارىء شعره مئونة البحث عن هذه الآلام التي طبعته بطابعها ، وصبغت شعره بصبغتها ، لأنه لا يحاول أن يخفيَ هذه الحقيقة من أمره ، بل نراه يصف الأعباء الثقال التي ينوء بحملها ، ويصرّح بالهموم التي يصلَى نارها ، فتراه يشرح هذه الهموم ، وما يلقى في حياته من الخطوب ، في مثل قوله [1] :

وحملت أمتعة الغروبْ ورحلتُ تمضغني الدروبْ
ونُخطايَ مثْخنةٌ ممزّقةُ الجوانح والكعوبْ
حيران أنزفُ حسرةً في كلّ منعطَفٍ أذوبْ
والليلُ يرسمُ ساخراً في جبْهتي عبث الخطوبْ
ووجوه أحلامي من الصَّفَعاتِ باديةُ الشحوبْ
أحرقتُ تاريخ الحضارةِ في الممالك والشعوبْ
بيد مضرَّجَةٍ أسًى محمومةِ الشكوى غضوبْ

وظاهر من هذه الأبيات والأبيات التي تليها أن المأساة ليست مأساة الشاعر في ذاته فقط ، وإنما هي مأساته في أمته التي نسيت ماضيها ، وتنكّرتْ لتاريخها ، حتى طمع فيها شذّاذ الآفاق ، وسماسرة الحروب ، مع أن في استطاعة هذه الأمة أن تقهر الغزاة ، وتردع الطغاة ، وتردّ المعتدين على أعقابهم :

أنا لستُ منهوكَ القوى أنا لستُ منحبِسَ الطيوبْ
في قبضتي وَأدَ الرّدَى أعناقَ عشّاقِ الحروبْ

ويعود الشاعر مرة أخرى إلى آلامه ، وإلى وصف ما فعل الأعداء بالأوطان ، وما اعتدوا به على الحرمات ، وما بدّدوا من القيم والشعارات التي كانت الأمة تباهي بها ، حتى هوَوْا بها إلى الحضيض ، فيقول :

وتسلّل القلبُ الحقودُ واجتاز أسوارَ الحدودْ
فإذا شعاراتي وقد هرِمتْ تمضمض بالوعودْ
والغولُ ينسجُ من شرايين النساءِ له البنودْ

---

(١) من قصيدته « فقاقيع تلهث من الصمت » (ص ٥٧) .

ويقيمُ من أشلاءِ أطفالي الولائـــمَ للقـــرودْ
وُعروبتي في الكوخ واجمةٌ ممرّغـــةُ العهـــودْ
سكبتْ كئـوسَ وداعهـا جزَعاً مخافةَ أن أعـودْ

وإذا كانت ظاهرة الألم تلازم هذا الشاعر ، وتغشّي صفحة شاعريته ، وتطبعها بطابع الحسرة والأسى ، فإننا نقع في خطأ كبير إذا حسبنّا أن انعكاس هذه المشاعر على أكثر نتاجه يجعل الشاعر من دعاة الهزيمة أو من دعاة اليأس ، والإشفاق على مستقبل هذه الأمة التي قطعت صلتها بكل مأثور من خلائق الأسلاف ، فإننا نراه في كثير من الأحيان لا يتوقف عند الهزيمة ، أو عند الواقع الأليم الذي تعيش فيه أمته ، بل نراه يذكي همم الشباب ، ويبعث الحميّة في قلوبهم ، ويفتح باب الأمل أمامهم ، لاستعادة المجد الذاهب ، واسترداد حقوقهم المضيّعة .

كما نراه في كثير من الأحيان يذكّرهم بالأسلاف وأمجادهم وبطولاتهم ، ليكونوا أسوة لخلفائهم في البسالة والتضحية في سبيل الأوطان ، وفي سبيل الحفاظ على القيم التي يؤمنون بها ، والحقوق التي يحرصون عليها . ويحذّرهم من التفرق والاختلاف والتخاذل فإنها من أمضى أسلحة الأعداء في طعن أمانيّهم في الصميم ، وما أروع قوله :

وخناجر الخذلان في كبدي لأعدائي جنودْ

ثم يتبع هذه الآلام المبّرحة ، بما يشحذ همم الشباب ، ويحيي آمالهم في النصر القريب ، فيقول :

أنا قد تركتُ بطاقةً تزهو على صدر الصُّمودْ
ونزعتُ عن وطني الممزّقِ كلّ أقنعة الجمودْ
وصنعْتُ من أضلاع أبنائي مصاعدَ للخلودْ
رقصتْ لها صورُ الكرامة في سجلاّت الجدودْ
أنا لستُ مأسوراً وإنْ وسمتْ خرائطَنا القيودْ
مزّقتُ أجنحةَ السقوط ودُسْتُ حامية السّدودْ

وتركتُ عاشقةَ الكلام تئِنُّ منهكة الجهودْ

أمّا قصيدته « فجر الغد المبتسم » (ص ٣٦) فإنها تتألف من ثماني مقطوعات متحدة الوزن مختلفة القوافي . وقد جمعت بين الفخر بالمجد الموروث ، والشكوى مما لا يرضاه من العثرات ، والآمال الباسمة التي تملأ قلب الشاعر ، والتي اشتق منها عنوان القصيدة ، وهي آمال في غد سعيد ، يعيد إلى الأمة شبابها ، ويردّ عليها ما ذهب من بهائها وما ذوى من نضرتها ، وتقوى هذه الآمال بمقدار ما تتضاءل زفرات الألم الحبيس في صدره ، وأولها في الفخر :

لا تسلْ عن نسَبي إني حفيدُ الشهداءِ
عربيٌّ ، مسْلمٌ ، يخفق بالنُّور لوائي
قد حملتُ الحبّ إخلاصاً إلى كلِّ سَماءِ
أرضعتْني الشمس إصراري وعزمي وإبائي
عانقتني في شمـوخ وارتوتْ من كبريائي
قبّلتْ جبهة نصري وتغنَّتْ بمضائي

ومنها في الشكوى :

يا أخي إن لفّنا ليلُ السنينَ القاحلهْ
والنّهى بين السّراديب زهور ذابلـهْ
وارتمينا نَعزِف الشكوى ظنوناً باطلهْ
وحَنَايانــا جــراحٌ داميــاتٌ قاتلــهْ
لا تخفْ قد يبعثُ الشوق رحيلُ القافلهْ
ويزورُ الغيثُ أحضان الحقول الماحلهْ

ومنها في الأمل المنشود ، أو في « فجر الغد المبتسم » :

إنْ يكنْ يَوْمِي جراحاً في جبين المجد يُزْرِي
فغَدِي ينقشُ أحلامي على صفحة عُمرْي
والرُّؤى الخضراءُ تختالُ على شطآنِ فَجْري
تتهادَى عطرَها الأجيالُ من نصرٍ لنَصْرِ

سوف أمضِي وأناشيدي إلى الأعماق تسْرِي
أنِفاً أحملُ عن أمسِي بُطولاتي وطُهْرِي

* * *

وإذا كانت ظاهرة الألم ، أو ظاهرة الإحساس بالألم ، تستوقفنا في أكثر قصائد القسم الأول من ديوان « عيون تعشق السّهر » تلك القصائد التي اختار لها الشاعر عنوان « بقايا عاصفة في الأفق » فإن هذه الظاهرة تعمّ قصائد القسم الثالث التي جمعها الشاعر تحت عنوان « بسمات على شفاه دامية » وقصائد القسم الرابع التي ينتظمها عنوان « قد يولد الحبّ من جديد » !

وأعتقد أن هذه التسميات لم تجيء عفو الخاطر ، وأن الشاعر إنما كان يعني ما يدلّ عليه العنوان الذي اختاره لكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة .

وفي رأيي الذي أحسب أنه رأي الشاعر أو قريب منه أن هنالك رباطاً قوياً يصل هذه العنوانات أو هذه التسميات بعضها ببعض :

العاصفة التي تبدو في الأفق ..

والشفاه الدامية ..

والحبّ الذي يولد من جديد ..

وقد أوشكت العاصفة على السكون ، وبقيت منها بقية ..

والشفاه الدامية كادت تندمل جراحها ، لتعروها البسمات ..

والحب الذي يولد من جديد إنما هو الحبّ الذي يجيء في أعقاب حبّ قديم عصفت به الريح ، وأصابه البِلى ، وعدتْ عليه عوادي الزمان .

إن مرجل الألم ، أو مرجل الغضب ، وهو يغلي ويضطرب ويموج بين جوانح الشاعر ، يحاول أن يجد له متنفّساً في الفضاء الرحيب ، خارج هذه النفس القلقة الحائرة ..

يحاول الشاعر في الأولى أن يتخلص من آثار عاصفة هوجاء ، أحسّ بلفحها ، وهي تلوح في الأفق البعيد عن عالمه القريب ، ولكن تصله بهذا العالم البعيد وشائج

التاريخ ، وروابط العقيدة والجنس ، نشأ عنها الشعور بالأخوّة ، والإحساس بوحدة الآلام والآمال ، وبوحدة المصير .

ومن الطبيعي أن يتأثر المرهف الحسّ ، المشبوب العاطفة بالأحداث الخطيرة التي أصابت أمّته في مواطنها القريبة منه والبعيدة عنه .

وهو في هذا القسم الأول من قصائد الديوان يصف إحساسه بهذه الأحداث المروّعة وتفاعلها مع مشاعره ، ويصوّر آثارها تصويراً دقيقاً ، لا ترى فيه أثراً لتكلّف أو افتعال ، مما يدلّ على صدق الشعور وعمق الإحساس بتلك النوازل والنكبات التي أصابت الشعب العربي في غير وطنه القريب . وكأن تلك الأوطان هي التي نمّته ، وأمتعته بنعمائها ، وجرّعته مرارة بأسائها ، وشهد بعينيه ضراوة النكبات التي نزلت بساحتها .

* * *

أما قصائد القسم الثاني التي جمعها الشاعر تحت عنوان « تحية قلبيّة للشمس » فإنها تختلف عن قصائد القسم الأول اختلافاً كبيراً .

فإذا كانت قصائد القسم الأول تفيض بالشكوى وتنبض بالألم كما رأينا فإن قصائد هذا القسم الثاني تتسم بالرضا ، وتسري فيها روح الاستبشار والتفاؤل ..

وإذا كانت قصائد القسم الأول تنعكس على صفحتها هموم أمّته خارج حدود بلاده فإن أكثر قصائد هذا القسم الثاني ترسم لوحات مضيئة لوطنه في المملكة العربية السّعودية ، يستلهم فيها أمجاد العروبة والإسلام في تاريخها العريق ، ويشيد بما أفاء الله عليها من النعيم والخيرات في هذه الحقبة الماثلة من حياتها ، ويصف مظاهر العمران والثقافة وسائر المظاهر الحضارية التي عَمّت سائر مناحي الحياة في عصره هذه النهضة الشاملة .

وأول ما يلقاك من شعر هذا القسم الثاني أنشودة عنوانها « صباح الخير يا بلدي » (ص ١٠١) يترنم فيها بذكر بلده الذي هام بحبّه ، ويصف صباحه الجميل الذي يشرق بنور الأمل ، ونسيمه النديّ العاطر الذي يفوح بمكرمات أهله ، ويطوف بروابيه ، ويهبط على مغانيه ، فيخلع عليها حسنه ، ويهبها فتنته وسحره :

صباحَ الخير يا بلدِي صباحاً بالمنى غَردَا
صباحُك عاطرٌ ونَدِ يفوحُ شهامة ونَدَى
يطوفُ على روابيكِ ويسكبُ حسْنَه فيها
ويسرحُ في مغانيكِ يذوق السّحر من فيها
نسائمُ صبحك النشوَى تعانق جنّة خضْرَا
وتسفحُ شوقها نجوَى وتنشر همسَها عطْرَا

ويشير بعد ذلك إلى النور الذي انبثق من تلك البقاع ، فأضاء الدنيا ، وأفاض على أرجائها خيراً وبرّا مما خصّها به الله تعالى .

ويشير كذلك إلى معالم الحياة الجديدة التي أعادت إلى الأذهان صورة الخصب والنماء والازدهار مما كانت تنعم به في سالف عهدها :

صباحُك باسمٌ نادِ يشعُّ على الدُّنا نِعَمَا
يترجم حبّ أولادِي فيصبح في فمي نغَمَا
صباحك مُنْيةُ المشتاقْ يعيدُ مفاتنَ الأمسِ
يكحِّل بالمنَى الأحداقْ يروي غُلَّة النفسِ

وفي هذه الأبيات سلاسة وعذوبة تبدو واضحة في ألفاظها ومبانيها ، كما تبدو في معانيها التي يتذوّقها ويعيها الشّداة في يسر وسهولة ، بالإضافة إلى جمال الصنعة وحلاوة التجنيس في بعض المواضع ، لولا هذا الشطر الغريب :

* يترجمُ حبّ أولادي *

الذي يصعب إدراك ما أراد به الشاعر ، وأراه كالمقحم في غير موضعه ، وكالمبتور عما قبله وما بعده من الشطور والأبيات !

ويخيّل إليّ أن الشاعر بما عمد إليه من الرقة والسهولة قد صاغ هذه الأبيات لتكون ترنيمة الصباح يردّدها الولدان والفتيان وينشدونها في مدارسهم ، ويستقبلون بها نهار كل يوم من أيام دراستهم ، لتبعثهم على التغنّي بأمجاد وطنهم ، وشكر الله على ما أفاء عليهم من النعم ، ليكون ذلك نشيدهم المفضّل ..

وفي هذا القسم مقطّعة من ثمانية أبيات عنوانها « فديتك أرضي » (ص ١٢٠) وأولها :

فديتُك أرْضي ملاذَ الأمـمْ   تغنّى بك المجدُ منذ القدمْ
أقَمْتِ على الشمَس أعلَى علَمْ   تحدّى الزمـانَ بعـزم أشمْ

وقد عمد الشاعر إلى تقفية جميع أشطرها بالميم الساكنة على هذا النحو .. وكلّها في الفخر ببلده ، والإشادة بقومه وأمجادهم العريقة التي ثبتوا بها دعائم المجد . وقد ألّفها لتكون أنشودة حماسيّة يشدو بها أحد المطربين في المناسبات الوطنية .

وفيه أيضاً أنشودة طويلة عنوانها « صوت الحرس » (ص ١٢١) ألّفها الشاعر على صورة يتوزّع إنشادها واحد من المطربين وعدد من المردّدين ، وحدّد للمطرب ما ينشده ، وللمجموعة ما تردّده .

وهي أيضاً من الشعر الحماسي الذي كان يقصد به أن يردّده رجال الحرس الوطني وجنوده ، كما يبدو من عنوانها ، وقد بدأها بالإشادة بهذا الحرس ، ثم يحصي رسالته في خدمة الوطن وحمايته .

وتتنّوع فيها الموسيقى ، كما تتنّوع القوافي من بيت إلى بيت ، وقد تتكرر القافية الواحدة داخل البيت الواحد إيغالاً في طلب الموسيقية التي يتطلبها الإنشاد ، مثل قوله على لسان المجموعة :

نحن بنوه المخلصونْ ... ونهجَه السّامـي نصُونْ
من سيرة الشهم البطلْ – عبد العزيز في الأوَلْ – لنا مثلْ
على خُطاه نقهرُ الصّعابْ ... ونمتطي بعزمنا السّحابْ
ونحنُ للدِّينِ حُماهْ .. شعارُنا مدَى الحياهْ : الله الله
ثمّ المليكُ والوطنْ
نحنُ بنُـوه الأوفيـاءْ .. ونحنُ ينبـوعُ الضيـاءْ
على أسنّة الأسَلْ .. نسْعى إلى ذُرا الأملْ .. بلا وَجلْ
سماؤنا صقورُنا تصونُها .. وأرضنا صدورُنا حصونُها

سلاحُنا الإيمانْ .. وعِزُّنا مُصَانْ .. دستورُنا القرآنْ
لا نرْتضِي سِواهْ

* * *

و « مسيرة الخير » (ص١٢٩) واحدة من تلك القصائد الوطنية الكثيرة التي اشتمل عليها هذا القسم الثاني .

وقد ألفها الشاعر ليبارك بها ذلك الجهد الكبير الذي بذله قادة الدول العربية المشرفة على خليج العرب ، وقيام المملكة العربية السّعودية ودول الكويت وقطر وعُمان والبحرين ودولة الإمارات العربية المتحدة بإنشاء « مجلس التعاون الخليجي » ليكون خطوة في سبيل وحدتها الكبرى ، ودعم قوتها وأمنها ، وتنمية مواردها ، ودعم اقتصادها ، وتوحيد سياستها لتحقيق أهدافها ، والنهوض بشعوبها إلى مستوى الأمم المتحضّرة والمتقدمة في سائر جوانب الحياة .

وقد نظم الشاعر هذه القصيدة لتكون مسرحية شعرية بسيطة « أوبريت » يمثلها طلاب المدارس على خشبات المسارح في مدارسهم ، ولبثّها في إذاعات تلك البلاد .

ولذلك عمد إلى توزيع الحوار الشعري فيها بين أفراد يمثل كل واحد منهم بلداً من بلدان « مجلس التعاون الخليجي » فيتبادل هذا الحوار سعوديّ وكويتيّ وقطريّ وعُمانيّ وبحرينيّ وواحد من أبناء دولة الإمارات العربية المتحدة ، فيلقي كل واحد منهم الشعر الذي أجراه الشاعر على لسانه ، مفاخراً ببلده وبأمجاده السّابقة واللاحقة ، ويشترك الجميع في إلقاء مقاطع من الشعر يشيدون فيها بأمجاد هذه البلدان مجتمعة ، بل إن خليج العرب وأرض الخليج يشاركان في الإعراب عن الفرحة الكبرى بتحقيق هذا الأمل في بناء هذا الصرح العظيم ، وحفز الهمم لصيانته والحرص عليه بالعزم والتصميم على بعث أمتهم ، والنهوض بها إلى مدارج العلياء ، لتكون درّة في جبين الدهر كما كانت منذ أقدم العصور .

ولا تفقد هذه القصيدة مع ذلك الطول الملحوظ فيها – فقد ملأت إحدى عشرة صفحة من صفحات الديوان (١٢٩ – ١٣٩) شيئاً من موسيقيتها بالرغم

من أن الشاعر لم يحافظ على الوحدة العروضية التي تقتضيها الأوزان المعروفة ، ولا على نظام القافية الموحدة التي تنتظم القصيدة كلها ..

بل إن هذه القصيدة تتعدّد فيها الأوزان ، وتجتمع فيها بحور مختلفة ..

فإذا كانت عدّة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً ، فإن الشاعر قد نسّق أبياتها على هذا الترتيب :

١ - ستة أبيات من مجزوء الرَّجَز .
٢ - ثلاثة أبيات من كامل الرّجَز .
٣ - ثلاثة أبيات من مجزوء الرَّمَل.
٤ - خمسة أبيات من وزن الهَزَج .
٥ - تسعة أبيات من مشطور الهزَج .
٦ - ثمانية أبيات من وزن المتقارب .
٧ - ثمانية عشرَ بيتاً من بحر الرَّمَل .
٨ - أربعة أبيات من مجزوء الرّمَل .
٩ - ستة عشر بيتاً من بحر السَّريع .
١٠ - ثمانية أبيات على تفعيلة الوافر « مُفاعَلَتُنْ » .
١١ - ثلاثة وعشرون بيتاً على تفعيلة الرّمَل ، مختلفة في عدد التفعيلات .
١٢ - ستة أبيات من مجزوء الهزَج .
١٣ - أربعة أبيات على وزن الرّمَل .

ولست أرى سبباً نفسيّاً أو ضرورة فنّية تقتضي هذه التغييرات المتلاحقة في موسيقى الشعر على هذا النحو ، فإن ظروف المتحاورين واحدة ، وموضوع الحوار واحد .

أقول ذلك وأنا واثق تماماً بقدرة الشاعر على توحيد الوزن وتوحيد القافية في القصيدة الواحدة .

والأمر فيما يخصّ القافية جدّ يسير ، فقد كان في استطاعة الشاعر أن يتنقّل بها من رَويّ إلى رَويّ بعد عدد محدود من الأبيات يوحّد فيها حرف الرَوِيّ وحركته ، ثم يعقبها بالعدد نفسه من الأبيات بقافية جديدة ، وهكذا ..

وليس ما قلت أو ما اقترحت شيئاً جديداً ، فإن الشاعر نفسه يصطنع في أكثر شعره هذا الصنيع فيما سمعت منه ، وفيما قرأته في دواوينه المطبوعة ، وفي هذا الديوان بالذات ، أي أنه يعمد كثيراً إلى أن يستبدل بالقافية التي بدأ قافية جديدة ، وهكذا حتى تألف أذن القارىء أو المتلقّي هذا النسق ، ولا ينكر على الشاعر ما يفتعله من التغيير ، فإن الشعر موسيقى ، ولا بُدَّ في الموسيقى من نسق يلتزم ، أو نظام يحتذى ، حتى تتحقق الألفة ، والألفة من أهم الأسباب في تحقيق الاستجابة المنشودة .

واقرأ معي ما أنشده الشاعر وأجراهُ على لسان الشخصية العُمانية في هذه القصيدة :

تعاوَنَّا فسارت تَعزِفُ البُشَرى قَوافِلُنا وترفـــعُ رايـــةَ الإشراقْ
تعاوَنَّا فزَفّتْ موكب النشْوَى سَواحلُنا وطــافتْ بالمُنَــى الأحــداقْ

وما أجراه على لسان الشخصية القَطَرِيّةِ في قوله :

تعاوَنَّا وفاضتْ سلْسَلاً عذْباً مناهلُنا وأرْوَتْ لهفــةَ الأعمــاقْ
تعاوَنَّا وثارتْ وثبةً كبْرى معاقلُنا وهــامتْ بالعُــلا الأعنــاقْ
تعاوَنَّا وطافتْ بالسَّنَى الهادي مشاعلُنا وطــرّز نُورهــا الآفــاقْ

ولستُ أشكّ في أنك واجدٌ في هذه الأبيات ما وجدته فيها من سمات نضج الملكة واستواء الشاعرية الذي يتجلّى في قوة المعاني ، وصفاء الديباجة ، وسلامة اللغة ، وحلاوة الجرس ووحدة النغم في موسيقى الأبيات المتماسكة التي لا يفرّقها اختلاف منشديها .

إن هذا يؤكد ما أسلفناه من قولنا إنه لا توجد عوامل نفسيّة أو مقتضيات فنّية تدعو إلى ما عمد إليه الشاعر من كثرة تغيير الوزن أو اختلاف حروف الرَّوِيّ وحركاتها .

ولقَد نظم الشاعر هذه الأبيات على وزن « الهَزج » وهو في صورته الكاملة مبني من ستة أجزاء أو ست تفعيلات على هذه الصورة :

مَفاعيلُــنْ مَفاعيلُــنْ مَفاعيلــنْ مَفاعيلــنْ مَفاعيلــنْ مَفاعيلــنْ

وهذه الأبيات كذلك ، أي أن كلّ بيت منها يتألف من هذه التفعيلات الستّ الكاملة .

ولكن الشاعر أبى إلا أن يغيّر الوضع المعهود ، فجعل الشطر الأول في كل بيت أربع تفعيلات ، وجعل الشطر الثاني من كل بيت تفعيلتين فقط . وهو في أصل العروض ثلاث تفعيلات في كل شطر .

ولا أرى مسوّغاً يحمل الشاعر على هذا النسق ، ويدفعه إلى الخروج عن النسق المألوف في نظم الشعر ، وفي كتابته أيضاً إلا أن يكون هذا المسوّغ الإلحاح في مجاراة أصحاب الشعر الجديد في نظم الشعر وفي كتابته ، فكثيراً ما نراهم يؤلفون البيت من تفعيلة واحدة ثم يتبعونه بتفعيلات تكثر وتقلّ ، وقد يعكسون ذلك فيبدءون بما هو أكثر ويتبعونه بما يقلّ ، ويكملون السطور بالنقط . هذا إذا كانوا يبنون قصائدهم على التفعيلة ، وإلا فإننى قرأت كثيراً من هذا الشعر (الجديد) الذي لا يخضع لأيّ وزن كامل أو مشطور أو مجزوء أو منهوك . وما أكثر البدع في زماننا !

وكان شاعرنا أحمد سالم باعطب في غِنًى عن هذا التقليد ، فقد اكتملت لديه آلة الشعر والقدرة على التصرّف فيه ، ليحتفظ بأصالته التي أعرفها تمام المعرفة .

* * *

و « رحلة الهدى » واحدة من قصائد هذا الباب (ص ١٤٠) وهي قصيدة تفيض بالروحية ، ويضوع فيها عبير الإيمان .

وهي مجموعة من الأناشيد أجراها الشاعر على لسان حجاج بيت الله الحرام معبرة عما يشعرون به من البهجة بتحقق أملهم في الظفر بإتمام دينهم بأداء الفريضة التي هي ركن من أركان الإسلام ، وقد خفّوا إلى البلد الحرام من كل فج عميق زرافات ووحداناً عامرة قلوبهم بالإيمان ، ليذكروا الله ، وليطرقوا أبواب رحمته ومغفرته ، تائبين من ذنوبهم ، منيبين إلى ربهم .

ويبدؤها بلهفة المشتاق على لسان منشد في هذا الركب المغذّ إلى رحاب الله :

يا قاصدي رَوْض السّلام خذوني　　أُكحِّلْ بأنوار اليقين عُيوني
وأنشقْ عبير الطّهر من أزهاره　　وأغسِلْ بأطياب الهناء شجوني

ثم ينشد على لسان المجموعة :

يا طالبَ النجاحْ　　حيَّ على الفلاَحْ
مواكب الحجيج　　سالتْ بها البطاحْ
أقبِلْ بلا تَوانِ　　معطَّرَ اللسانِ
بتوبة نصوحٍ　　مطهَّرَ الجنَانِ

ويهتف المنشد :

شددْتُ المطايا لأرض الحرمْ　　وأترعتُ كأسي بمرّ الندمْ
وجئت أمرِّغُ في ترْبِها　　جبيني ، وأسكبُ أسمى نغمْ

ويهتف بالتلبية صوت من الرَّكب :

ربّاهُ جئتُكَ طائعاً　　لا زادَ لي إلاّ الخضوعْ
متضرّعاً لك خاشعاً　　تنسابُ من قلبي الدموعْ

وعلى هذا النحو تتوالى أصوات الحداة والمنشدين ، وأصوات المردّدين التي تجهر بالدعاء والابتهال ، وإعلان التوبة والاستغفار ، وتسأل ربها حسن القبول ، وأوفى الثواب .

وقد استلهم الشاعر معاني هذه القصيدة مما كان يراه ويسمعه في الأرض المباركة التي درج عليها ، والبيئة التي عاش فيها ، وهي تعّج بحياة التقوى والورع ، وتؤمها جموع الحجاج والمعتمرين ، والتائبين والمستغفرين .

* * *

ولا شك في أن العاطفة الوطنية ، والعاطفة الدينية أيضاً – لأن حبّ الوطن من الإيمان – هي التي فجّرت تلك المشاعر التي عبّر عنها الشاعر في هذا الباب الثاني من الديوان « تحية قلبية للشمس » ، وفيما عرضنا له من قصائده فيما سبق .

وفي رأينا أن الشاعر يرمز بالشمس التي يرسل إليها تحيّتهُ القلبية إلى الوطن الذي تقلّه أرضه ، وتظلّه سماؤه ، ويعيش في خيره وبرّه ، في المملكة العربية التي واكب نهضتها وازدهار الحياة فيها ، ورأى بنفسه حضارتها التي عمت ربوعها ، وجعلتها كعبة للقاصدين ، ومناراً للمهتدين ، مما بهره وأسر لبّه ، وهو يوازن بين حاضرها الذي أصبحت فيه جنّة من جنان الدنيا ، وما كانت عليه قبل نصف قرن من الزمان .

ونستطيع أن نقول إن الشاعر قد أخلص هذا الباب كله للإشادة بالمملكة العربية السعودية ، وإحصاء مفاخرها ، فهى الشمس أنارت الظلماء ، وشعّت منها الأضواء ، وهي التي جمعت شمل جاراتها العربيات من دول الخليج العربي ، ووحدت كلمتهم ، وهي منارة الهدى والعرفان ، ومشرق شمس الإسلام ، وقبلة المسلمين في صلاتهم ، وإليها يحجّون ، وفيها يعتمرون ، فقد جمعت خير الدنيا والآخرة .

ولكن الشاعر لا يكتفي بما أشاد فيه بأمجاد المملكة العربية السّعودية ، ونهضتها الشاملة في سائر أرجائها ، وفي مظاهر الحياة فيها ، بل إنه يعمد إلى أن يخصّ بعض أمصارها بقصائد مستقلة ، يشيد في كل منها بتاريخ كل بلد منها ، وما قدّم أهله من عطاء ، أو ما أمتعه الله من جمال الطبيعة وسحرها ، وما تبعث في نفوس روّادها من المتعة والأنس والبهجة .

فله في مكة المكرمة قصيدة عنوانها « أم القرى » (١٠٤) ، وفيها يتحدث بلسانها ، فيصف منزلتها الرفيعة بين بلاد الله ، وما خصّها الله تعالى به من المنازل والمناسك والمشاعر :

في قَصِيٍّ من البلاد ودَانِ	أينعتْ رحمةً رياضُ حَناني
زَمزمٌ والمقامُ صِنوانِ عندي	هذه مهجتي وهذا لسَانِـي
وحِـرَاءٌ لـه إلـيَّ انـتسَابٌ	وَلِـداتي الحطيـمُ والمَرْوَتــانِ
مَنْ جَفاني عداوةً وعقوقاً	جرَّعتْه الحياةُ كأسَ الهوانِ
إنّ في الأفْق لي مع النجم ذِكرى	يومَ سارتْ مواكبُ الخير تَتْرَى

وُلِدَ الفخرُ باسماً في يميني   فتهادَى السلامُ يختال بِشْرَا
رَايتي في السماءِ تخفق نوراً   ونجومي تُطرّزُ الأرض طُهْرَا
والبطولاتُ ضمَّختْها فِـداءً   خلَجاتِي ، سلُوا حُنيناً وَبدْرَا

وكلها على هذا النحو من العذوبة والرقة ، والفخر الصادق بما شرف الله به بلده الحرام ، وهي تتألف من عشرين بيتاً قسّمها الشاعر إلى خمس مقطوعات متحدة الوزن مختلفة القافية .

وتليها قصيدته « أنا الرياض » (ص ١٠٧) ، وظاهر من عنوانها أن الشاعر يتحدث على لسانها كما فعل في « أم القرى » . وأولها :

أنا الرياضُ على هام العُلا علمي   يقصّ تاريخ أمجادي على الأممِ
حملتُ راية دين الله عاليةً   وصُنْتُها حرّةً بالسَّيفِ والقلمِ
أنا كِتَابٌ قلوب الشعب أحرُفُه   أنا نشيدٌ تهادَى فوق كلّ فمِ
إن قيل : مَنْ أنتِ ؟ قال المجدُ سيّدتي   أبناؤها الصامدون الحافظو الذّمم
تألقتْ جنَباتي من سواعدهمْ   وعلمتني خُطاهم وثبة الهِمَمِ

وهي طويلة عدة أبياتها ثلاثة وثلاثون بيتاً متحدة الوزن والقافية ، وقد أشاد فيها ببطولة الملك عبد العزيز وخلفائه الذين انطلقوا من الرياض ، وجاهدوا حتى كلّل جهادهم بالنصر ، فوحّدوا جزيرة العرب ، وأسسوا المملكة العربية السعودية ونهضوا بها في مدارج العلياء ، واتخذوا من مدينة « الرياض » قاعدة لملكهم .

وبعدها قصيدة يصف فيها جمال مدينة « الطائف » وطبيعتها الفاتنة ، وعنوانها « الطائف المليحة الفاتنة » (ص ١١١) ومنها قوله :

وعانقْتُ ملهوفاً شغوفاً متيمَّـاً   منـازل كانتْ للعواطـفِ معبـدا
ويمّمتُ والأشواق غَضْبَى إلى الشَّفا   ففي ثغره نبعٌ أَبُلُّ به الصّدَى
يترجم للعشّاق هـمْسَ جفـونهم   ويكتبُ في الأحداق نجواه مَوْعدا
هناك صبايا الورد ريّانة اللمَـى   يدغدغُ في الأسحار أعطافَها النَّدى
هناك الرُّبا الأبكارُ يخطرنَ فتنةً   معطّـرةَ الأذيـال يمرحْـنَ خـرَّدا
وفي حِضْنه كمْ أَفرغَ الحسْنُ دَنَّه   وكمْ سار في أفيائه الطهرُ مُنْشِدا

لنا في حنايـاه الملاح مسارحٌ نَعِمنا بها مرعى ومعنًى وموردَا

وهذه القصيدة تمثل في رأينا إحدى روائع الشاعر أحمد سالم باعطب ، وأدلّها على نضج شاعريته ، واستواء ملكته ، بما أبدع فيها من التعبير ، وما افتنّ فيها من التصوير إلى درجة ترقى به إلى درجة كبار شعراء الوصف المجيدين ، على قلّتهم في تاريخ الشعر العربي .

ومثلها في هذه الجودة قصيدته « شاعر في أحضان أَبْها – رسالة من عاشق مدنف إلى عروس الجنوب » (ص ١١٣) ومطلعها :

أَبْهـا جمالك سحـريّ وفَتَّـانُ وثوبُ عُرسك بالأطياب ريّـانُ
على رُباكِ تهادى النورُ مؤتلقـاً فالأرض بـاسمةٌ والأفـق جـذلانُ
اللهُ أكبرُ ، أبْها جنّة خلـدتْ عطرٌ ، وسحرٌ ، وأحلامٌ ، وألحانُ
تقبّل الشمس في تيهٍ ضفائرهـا والبدرُ من ثغرها الخمريّ نشوانُ
وترتـدي الهضباتُ الغُرُّ فتـنتها عين مكحّلـةٌ نَـعْسَى وأجفـانُ
وتسكر الديمة العذراء من يدها وترتـوي رقّـةً والصبحُ وسنـانُ

وبعد أن يحصي الشاعر ما سحر لبّه من مفاتن أبهَا ، وما وشّتها به الطبيعة من آيات الروعة والجمال ، وبعد أن يصف ذكرياتها الباقية في نفسه ، يأخذ في الثناء على أهلها ، ويعدّد فضائلهم التي أبقت لهم ذكراً طيبا في تاريخ البلاد .

ويتبع الشاعر قصيدته في « أَبْها » بقصيدته في « جازان » التي ينعتها بأنها « فاتنة الجنوب » ويقول في أولها :

« جازان » يا ثغر الجنوب الساحرِ يا صفحة الماضي المجيد الزاهـرِ
يا بسْمـة التـاريخ في خطواتـه تزهو وتشرقُ في جبين الحاضرِ
يا واحـة الأحـلام فاتنـة الـرّؤى تختـال في شمم لـعين الناظـرِ
يا روضةً سكن البلابل حضنها ألهبْتِ بالنفحـات قـلب الشاعـرِ
مدّتْ لكِ الأيام كفّ عَطائهـا وسقتْكِ من نبع الحياة الزاخـرِ

وأعتقد أنّ من اليسير على الناقدِ البصير أن يفطن إلى التفاوت الواضح ، وإلى الفرق الكبير بين هذه القصيدة في « جازان » والقصيدتين السابقتين اللتين

أبدع الشاعر فيهما في « الطائف » وفي « أبها » ، وإلى أن يحكم بأنّ التعبير عن الإحساس بالجمال في هاتين القصيدتين – قصيدة الطائف ، وقصيدة أبها – كان صادقاً ، لأنه صدر عن شعور صادق !

وفي ختام هذه القصائد التي حيّا فيها تلك الربوع ، وأبرز مالها من موقع آسر ، وما تزدان به من آيات الجمال الساحر ، ومالها من قيم وأمجاد تاريخية يعتدّ بها ، تأتي قصيدته « رسالة حب إلى فرسان » (ص ١١٨) .

وقد وصف فيها إحساسه بجمالها ، وحسن موقعها ، والموج الذي يداعب شاطئها .

ويدل شعره في « فرسان » أو رسالة حبّه إليها على أن له تعلّقاً شديداً بها ، وعلى أن له تاريخاً فيها ، لأنه يقول إنها كانت موطنه في دنيا العروبة ، وإنه أبصر في عينيها نور طفولته ، وإنه لا يفتر عن حبّها ، وعن الحنين إليها :

فرسانُ في دنيا العروبة موطني ... في صدْرها حلمي الجميلُ وداري
تتفتّح الخلجاتُ في جنَباتها ... تحسُو رحيقَ الحبّ في الأسحارِ
وتصّفق الأحلامُ في أحْداقِها ... زهرٌ تَراقَصُ في الرُّبا وَدَرارِي
ما استسلمتْ للحادثاتِ وما انحنتْ ... هلعاً أمامَ ضَراوة التيَّارِ
في كلِّ منعطَفٍ منارٌ ناطقٌ ... حلوُ الرُّؤى من عسْجدٍ ونُضارِ
أنا جئتُ يا فرسانُ أركضُ لهفةً ... ليلِي يعانقُ في هواكِ نهاري
أبصرتُ في عينيَكِ نورَ طفولتي ... وحفظتُ عنكِ قصيدةَ الإصرارِ
وعلى رمالكِ مهرجانٌ للصِّبا ... عذب المنى عن يمنتي ويسَارِيَ

* * *

ذلك هو الباب الثاني من الديوان الجديد لأبي عطب خصصه الشاعر كما ذكرنا للمملكة العربية السّعودية ، والفخر بها ، والإشادة بأمجادها القديمة والحديثة ، وخص بعض ربوعها وأمصارها بتلك العناية الفائقة في قصائد مستقلة انعكست على صفحتها عواطفه الصّادقة نحو مواضع أحبّها ، وتعلّق بها هواه في ذلك الوطن العزيز .

ولعَلّ معترضاً يقول : إن في هذا الباب ما لم يخلُص لما ذكرتَ وما ذكر الشاعر نفسه في عنوانه وهو « تحية قلبية للشمس » ، وما يتعارض مع قولك إنه رمز بالشمس إلى المملكة العربية السعودية ، وإن قصائد هذا الباب كلها لا تتجاوز هذا الإطار ، مع أن في هذا الباب قصيدة كبيرة تخرج عن ذلك المسار الذي حدّدته ، وهي القصيدة التي كتب الشاعر في عنوانها بالخط الكبير « إلى الشاعر الكبير سعادة الأستاذ محمد حسن فقي ، أهدي هذه القصيدة – تحية حبّ ووفاء » (ص ١٢٤) !!

ونسرع فنقول إن هذا المعترض على حقّ فيما اعترض به علينا أو على الشاعر !!

وكان أيسر ما يمكن أن نقول : إنها قصيدة واحدة ، أقحمت في هذا الباب ، ووضعت في غير موضعها الصحيح !

وذلك إذا أخذنا بظواهر الأمور ، وغرّنا ذلك العنوان الواضح الصريح !

ولكن من ينعم النظر في هذه القصيدة ويتدبر معانيها سيهتدي من غير شك إلى أن الشاعر لم يبعد بها عن موضعها الصحيح ، إذ أن أكثر أبياتها يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا الباب .

وحسبنا أن نسوق هذه الأبيات المتتابعة لنؤكد ذلك الاتصال الوثيق بالغرض الذي نتحدث عنه :

بالحبّ تهتف أطيارُ الحياة هنا ... روضٌ ضَحوكٌ فلا شيبٌ ولا هَرَمُ
في موطنٍ يلثم التاريخُ جبهتَهُ ... وترتوي من ندى آلائه الدّيَمُ
في موطنٍ تنسجُ العلياءُ حُلّتَهُ ... وتستقي طهرَها من نبعه القيَمُ
في موطنٍ أنبتتْ للمجد تربتُهُ ... جيلَ البطولات جيلاً كلُّه قِمَمُ
جيلٌ ترعرعَ إخلاصاً وتضحيةً ... سمحُ العريكة إلاّ حين ينتقمُ
في راحتيه شموعُ النصر دافقةً ... بالنور تركضُ في هالاتها الهممُ
سُمْر الجباهِ لهم في كلّ معتركٍ ... صوتٌ يجلجلُ يجتازُ المدى يسِمُ
مضى إلى العزّة القعساءِ موكبهم ... يقودُهمْ للعُلا رُوح زكتْ ودمُ
قد أورق العمر من إيمانهم شرفاً ... وأنعش الكونَ من أيْمانهمْ كرمُ

هل يجد القارىء في هذه الأبيات الكثيرة المتتابعة ذِكراً أو اسماً للشاعر الكبير محمد حسن فقي أو صفة تدلّ عليه ؟

بل إني أقول إنه لولا أن القارىء رأى اسم هذا الشاعر الكبير في عنوان القصيدة لما استطاع أن يستدلّ عليه ، ولما عرف أنه المَعْنِيّ بها ، إذ أن هذا القارىء لا يجد اسما ولا ذكراً له في أيّ موضع من هذه القصيدة الطويلة ، ولا يرى شيئاً من سماته البارزة ، أو من الخصائص المميزة لفنّه الشعري .

ولكنه يجد في أخريات القصيدة تحية وتمجيداً لشاعر كبير يصلح أن يكون من شعراء المملكة العربية السعودية ، كما يصلح أن يكون من غيرهم ، ويمكن أن يوصف بأنه رائد للشعر ، أو « إمام » للشعراء .

وهذا الوصف يصدق على عدد من شعراء العرب المجيدين المعروفين . ولا يعدو الشاعر الكبير محمد حسن فقي أن يكون واحداً من أعلامهم !

ونحن نؤثر دائماً أن نقرأ الشعر المعبّر بنفسه ، المستغني عّما سواه !

* * *

وفي القسم الثالث من العيون التي تعشق السّهر « بسمات على شفاه دامية » ، وهي حقّاً مزاج من الخواطر الباكية ، والآمال الباسمة .

وتلك حقيقة الحياة التي تجتمع فيها المتناقضات ، ففيها الخير والشر ، والحسْن والقبح ، والسعادة والشقاء ، واللذة والألم ، والحق والباطل ..

وكثير من الناس يعانون من صروف الحياة وهمومها أكثر مما يتمتعون بزينتها وخيراتها ، فهم يعيشون بين الناس ، ويضطربون فيما يضطربون فيه ، ولكن تفيض قلوبهم بالمآسي والشجون التي تحاول أن تجد لها متنَفّساً ، يخمد ثورتها ، أو يخفّف من لوعتها .

والشعراء أرقّ الناس عاطفة ، وأرهفهم إحساساً ، تضطرم في نفوسهم هذه الأحساسيس ، ولا يجدون لأنفسهم مخلصاً ، ولا لكرباتهم متنفساً إلا في شعرهم الذي يحمّلونه طاقات من الشجون الحبيسة في صدورهم .

وليس بغريب أن تتنازع نفس شاعرنا عوامل السخط ودواعي الرضا ، فهو إنسان أولاً ، وشاعر ثانياً ، فلتنطلق شاعريته لتعبّر عن هذا وذاك .

وقد رأينا أن الباب الأول « بقايا عاصفة في الأفق » قد غلبت على قصائده مشاعر الألم حتى أصبحت ظاهرة واضحة تشمل قصائد ذلك الباب .

ورأينا أن الباب الثاني « تحية قلبية للشمس » الذي تغنّى فيه الشاعر بأمجاد الماضي والحاضر في بلده وعند قومه قد برزت فيه ظاهرة الاستبشار والتفاؤل .

أما هذا الباب ، باب البسمات على الشِّفاه الدامية ، فإنه يثير في نفس القارىء سؤالاً عن هذه البسمات ، وهل استطاعت أن تبدّد تلك الغيوم ، وتأسوَ تلك الجراح ؟ وهل تغلَّبت دواعي التفاؤل والاستبشار على مشاعر التشاؤم والاكتئاب ؟ أم أن تلك الشّفاه ظلّت تنزف دماً أو ألماً برغم تلك البسمات المفتعلة أو المجتلبة التي يحاول بها الشاعر تضميد الجراح ، أو وقف نزيف الدماء ؟

والذي يبدو من استقراء قصائد هذا الباب أن الصراع بينهما ما يزال قائماً ، وأن مشاعر القلق والحيرة ما تزال تستبدّ بجنان الشاعر .

نقرأ معاً أولى القصائد في هذا الباب ، وعنوانها « خواطر مجنّحة » (ص ١٤٩) لنجدها تفيض ألماً ، وتنضح حزناً ، ونجد فيها العلّة التي كنا نبحث عنها في سحابة الألم التي تعرو شعره ، وتلوّنه بذلك اللون القاتم الحزين .

نجد فيها مرارة الشكوى مما رآه من غدر الناس ، وتنكّرهم للقيم والمبادىء الأخلاقية ، لأن مبادىء الطمع والجشع هي التي توجّههم ، ومما ألحقوه به من الأذى والجور ، ظلماً وعدواناً ، حتى فقد الثقة في الناس :

يا غارقاً في دجى الفوضى بمن تثقُ	والكونُ حولك بالأطماع يحترقُ ؟
والناسُ مسرفةٌ في الظلم باغيـةٌ	إن لم تجدْ سبباً للظلم تختلـقُ
والعمـرُ أمواجُـه هوجـاءُ عاتيـةٌ	ويستبـدّ بنـا في شطّـه القلــقُ
أعيش في زمن يلهو بعاطفتــي	أكاد من حِدّة الأحداثِ أختنقُ
حملتُ بين جفوني الأمنياتِ قذًى	فكيــف تهدأ أجفــاني وتعتنــقُ
تقاذفَتْنى خُطا الشكوى معربـدةً	لا النومُ أثلج لي صدري ولا الأرقُ

ويظل يركض وراء قافلة الأحلام ، وإذا الركب يسخر منه ، ويولي ظهره له . ويصحو من غفلته ، فلا يجد إلا الحقيقة المؤلمة ، فيدرك أن أحلامه قد تبدّدتْ ، وذهبت مع الريح :

أبيتُ أركضُ والأحلامُ تهزأُ بي ... ويجمع الصحوُ أحلامي وينطلقُ
كتَبْتُ في صفحات الموت أغنيتي ... وزمجر الشؤم في الأحشاءِ والفَرَقُ
تحطمتْ في زوايا الطيش مركبتي ... فطوّحتْ بِي في رمضائها الطرقُ

ودبّت في قلبه مشاعر اليأس من الحياة بعد أن فقد ثقته في الناس ، وأضاع زهرة شبابه في أوهام كاذبة . أما أحلامه الغضّة فقد عدت عليها عوادي الزمان :

تناثرتْ في صحاري الحزْن شاحبة ... يلوكُها البؤس في زنزانة الشّجَنِ
أسيرٌ في طرقات العمر مغترباً ... والهمّ والضيمُ يقتاتانِ من بدَنِي
أبيت أسكبُ في سمع الدُّجى ألَمي ... ويسكبُ الليل لحن اليأس في أذُني

ولا يجهدنا الشاعر في التنقيب عن أسرار معاناته واكتئابه وانطوائه على نفسه ، وصمته الطويل الذي كنت ألحظه في مجتمع الشعر والأدب في الندوة الرفاعية التي عرفته فيها ، أو في محاولة الكشف عن العوامل والأسباب التي لوَّنت شعره بهذا اللون القاتم الحزين .

فلقد أعرب شعره في هذ القصيدة عن هذا كلّه في فصاحة ووضوح :

عناكب الشكّ في صدري مخيّمة ... تحوك بين حنايا مهجتي كفني
تلبّدت في سماء اليأس أخيلتي ... ودمدمَ الخوفُ في قلبي فهدْهدني
أنا القيتلُ بسفْح المغريات جوىً ... وقاتلي شبحُ الحرمانِ في زمني
دفنتُ بين سراديب الأسى ندمي ... فدَبَّ في الجوف مسْعوراً فمزّقَني
على شواطىء نهر القهْقَرى جنحتْ ... محطمَّات القوى من سَيرِها سُفُني

هذه أهم الأسباب التي أفصح عنها شعره : الإحساس بمرارة الغربة ، وما يلقى فيها من ضيم ، وما يكابد من همّ ، وفقد الأمن ، والشعور من الخوف من المستقبل ، ثم آلام الحرمان مما يرى نفسه أهلاً له من المنازل والدرجات في دنيا الناس ، حتى انهارت قواه ، وتحطمت سفينة أمانيه .

وفي قصيدته « مناجاة شاعر » (ص ١٥٢) تختلط الأماني العِذاب التي تداعب خياله بكئوس العذاب التي يحتسيها وما يزال يتجرّعها ، وتتنازعه بوارق الأمل في صفو الحياة وابتسامتها ، وبواعث اليأس التي تغالبه ، فيقول مناجياً النجوم التي يظل يتطلع إليها ، وهي تتراقص في أجواز الفضاء ، وتحلّق في كبد السّماء ، وهي نبع تستقَى منه شاعريته ، ويستوحى خياله :

أنت يا نجمةُ يا نبعَ ابتهالات خيالي
يا منىً ترقص نشوَى عن يمين وشمالِ
يا رؤىً باسمة تسحبُ أذيال الجمالِ
قلِّدي الأرضَ من الفتنة عقداً من لآلِ
واسْكبي السّحر أناشيد تغنّيها اللَيالي

ويستمر في مناجاتها ، ليسألها أن تسمو به إلى عليائها ، وتملأ قلبه من ضيائها ، وتنتشله من دنيا الناس ، دنيا الكذب والخداع ، لتحلّق به في عالمها ، عالم الطهر والصفاء .

ثم يقول :

أنتِ يا نجمةُ طوفي بالعناقيد الجميلهْ
وازرعي في كل دَربٍ منك روضا ونجيلهْ
واتركي الدنيا لِعُشّاق الرياحين خميلهْ
وخذيني ، لملمي الأشواكَ عن نَفسي العليلهْ

وإذا هو يعود مرة أخرى من هذه الرُّؤى الفاتنة ، والأحلام الجميلة ، والسموات التي حلّق فيها إلى واقعه الأليم ، وإلى شجونه المحزنة ، وإلى يأسه القاتل ، فيقول :

لا تلوميني إذا أبصرْتِ أحلامي تنوحُ
وطيورَ اليأس بين الناس تَغْدو وَتروحُ
فإذا الإحساسُ أعمى والأمانيُّ جُروحُ

والأسى المجنونُ للقلب غَبوقٌ وصَبُوحُ
ليس لي في عالم الشكِّ شموخٌ وطُمُوحُ

ويستمرّ هذا التيار الشعري في انسيابه وتدفقه في قوة وروعة تأخذ بالألباب ، وتحمل على الاعتراف للشاعر بالمنزلة الرفيعة بين صنّاع القريض ، بمعانيه البارعة ، وخياله الساحر ، وأدائه البديع .

فيقول في مناجاة تلك النجمة ، شارحاً همومه الماضية والحاضرة التي لا يكلّ من ترديدها :

لا تلوميني إذا مزّقتُ من حُزني إهابي
وتناثرتُ ضياعاً بين أكوام الترابِ
حاضري يجْأر مشنوقاً على صدر كتابي
وخُطا أمسي ركامٌ بين أشلاء شبابي
فخذيني وارحميني من تباريح عذابي

وما يزال يردد زفرات الأسى واليأس الذي كاد يصوّح بلابله ، ويحطم براعة قلمه ، حتى يصبح مواتاً لا حياة فيه أمام ما يرى من نظرات الحقد التي كادت ترديه ، وقذفت به في بحار الظلمات ، لا يعرف له مصيراً :

لا تلوميني إذا دَمْدمَ باليأس شعوري
وجَفتْني خيفةً من نظرة الحقد طيوري
ورأيت القلمَ البارعَ مذبوح الضميرِ
يتهادَى جثةً هامدةً بين السّطورِ
فأنا في مركبٍ يغرقُ مجهول المصيرِ

* * *

والشاعر الإنسان المرهف الحس الذي يتمثل في أحمد سالم باعطب لابدّ أن تهيجه البلايا والأرزاء التي تحلُّ ببني الإنسان في كل مكان ، وتهزّه هزّاً عنيفاً ، وتستثير شاعريته لتعبّر عن إحساسه ، وعن مشاركته الوجدانية في البأساء والضرّاء

لإخوته في الإنسانية الذين تفزعه كوارثهم ، وتفجعه الخطوب التي تحلّ بديارهم ، والأدواء التي تفتك بهم .

ولقد سمع أحمد سالم باعطب بما أصاب بلدانا من أفريقية ضنّت عليهم السماء بغيثها ، وأصابها (الجفاف) الذي حلّ بربوعها ، فسادها الجدب والقحط ، فأهلك الحرث والنسل .

وشارك بشعره في إثارة المشاعر وشحذ الهمم ، ليهبّ القادرون لنجدة أولئك المنكوبين ، وتخفيف العذاب النازل بهم ، فصاغ في ذلك قصيدة تفيض أسىً وحسرة ، وأجراها على لسان طفل من أبناء أفريقيا الجياع العراة المنكوبين .

وعنوان تلك القصيدة « نديمي من الحضارة جوعي » صوت طفل من أفريقيا - (ص ١٨٤) وعدة أبياتها ثمانية وعشرون بيتاً ، وزّعها على سبع مقطعات ، متحدة الوزن ، مختلفة القوافي ، ونجتزىء بالمقطع الأول منها على لسان ذلك الطفل البائس الشريد :

يا أخي ، والحياةُ حربٌ ضَرُوسُ   وغَدِي قاتمٌ ، ويومي عَبُوسُ
والأعاصير في سمائي تدوّي   تتهاوَى على رحاها الشموسُ
لا تذرْني على الرصيف وحيداً   يَرْكُلُ الوهنُ جبهتي ويدوسُ
فلقد شاخت النفوس من الصبـ   ـرِ وذابتْ من الحنين النفوسُ

* * *

وفي هذا الباب عدد من القصائد التي نحا فيها الشاعر منحىً خاصّا ، ونتوقف قليلاً عندها ، ولا ينبغي أن نمرّ بها ونغفل الإشارة إليها . ومنها :

١ - قصيدته « صديق البؤساء » (ص ١٥٦) .
٢ - وقصيدته « زوج يعلن العصيان » (ص ١٦١) .
٣ - وقصيدته « احتجاج زوجة » (ص ١٧٦) .
٤ - وقصيدته « أحلامي بين المطرقة والسّندان » (ص ١٧٩) .
٥ - وقصيدته « ذبيح بين الشّفاه » (ص ١٧١) .

وقد صاغ الشاعر هذه القصائد في أسلوب قصصي بديع فيه طرافة

وسخرية . فقد أدار فيها الحوار بينه وبين زوجته ، وأبرز في هذا الحوار طرفاً من خلائق النساء وطبائعهن منها الغيرة ، وحبّ التقليد ، والحرص الشديد ، والثرثرة ، والأثرة ، أو حب الاستئثار بالرجل وماله ووقته وقلبه لا يشاركها في شيء من ذلك مشارك ، ولا ينازعها في ذلك منازع ، ولا ينال أحد من ذلك كثيراً أو قليلا .

وقد يضاف إلى ذلك الجهل والحماقة التي تستبدّ ببعض الزوجات ، ولذلك يظلّ الزوجان في صراع لا ينتهي .

وكنت أرجو أن أهيىء للقارىء سبيل الاستمتاع بذلك القصص البديع ، وهذا الحوار الطريف . ولكني رأيت أن تحقيق هذه الغاية لا يتسنّى إلا بعرض نصوص الشعر كاملة ، وذلك ما تنوء به هذه الدراسة التي تجتزىء بالإشارات الدالة على ما لابدّ منه ، والتمثيل بأقلّ ما يمكن من النصوص فليرجع إلى الديوان من يطلب المزيد ، وقد ذكرت له عنوانات القصائد وصفحاتها .

* * *

ثم يأتي شعر الحب في القسم الأخير من الديوان ، وقد جعل الشاعر عنوان ذلك القسم « قد يولد الحبّ من جديد » .

وقد قلت في أوليات هذه الدراسة إن حبًّاً يوصف بأنه جديد لابدّ أن يعقب حبّا قديما أصابه البلى ، وعدت عليه عوادي الزمان ، فإن معنى ولادته من جديد ، أنه يولد ولادة أخرى بعد ولادته الأولى !

وتلك هي الحقيقة التي يفصح عنها ما نقرأ من شعر في هذا الباب ، بمعنى أنه ليس هناك حبّ يبدأ من جديد ، وإنما هنالك حبّ يراد له أن يتجدّد ، أو يبعث مرة أخرى ، أو يُستأنف ، بعد أن تقطعت أسبابه ، أو كادت تتقطع ، لتعود له بعد ذبول نضارته ، أو تعود له بعد برود حرارته !

أو هو حبّ قد هرم يتمنى الشاعر أن ترجع إليه فتوّة الشباب الراحل !

نقرأ هذا في قصيدته « تاريخ ميلادي » (ص ٢١٩) وهي آخر قصائد الديوان ، وفيها يقول :

جدِّدي صفحة عمري جدِّدي واجعلي تاريخَ ميلادي غَدِي
أرضعيني الحبَّ يا فاتنتي من فمٍ عذب الترانيم نَدِ
واحمليني بذراعيكِ إلى جنَّة أشهدُ فيها مولِدِي
أنتِ ما أبقيتِ لِي من عُمُري غير أطلالٍ ووجدانٍ صَدِ

ثم يقول :

لا تقولي نحن في فصل الخريفْ بثّ فينا الرعبَ إعصارٌ مخيفْ
وطوانا اليأسُ في جلبابِهِ فإذا الصمتُ لنا نعم الأليفْ
لا تقولي بليتْ أيامُنا ليس في الحبِّ تليدٌ وطريفْ
فتعاليْ نجعل العمرَ صِباً باسِمَ الوجنة عذريّ الطيوفْ

أليس في هذا كلّه ما يؤكد حلم الشاعر بأن يتجدد هذا الحب وتعود إليه البهجة والرواء ، في عبارات : جدِّدي ، ما أبقيت غير الأطلال . وفي ذكر خريف العمر الذي يؤذن بانقضاء عصر الشباب الذي هو ربيع الحياة ، لا تقولي بليت أيامنا ، الحلم باستعادة الصِّبا ؟!

وتقرأ في قصيدته « الشعيرات البيض » قوله :

أنا الذي أيقظتْ ذكراكِ آهاتي
وترجمتْ للعذارَى نبض أبياتي
أتيتُ أحملُ في صدري حكاياتي
دخلتُ دنياكِ في ليل الصباباتِ !
دخلتُ أبحث عن عمري وعن ذاتي
فأنتِ أَمْسِي ويومي والغدُ الآتي !

ولنا أن نسأل : هل كان أحمد سالم باعطب محبّا حقّا ؟ وهل وقع في شراك الغرام ؟ ومتى كان هذا الحبّ ؟ وهل يعدّ الشاعر واحداً من الشعراء العشاق ؟

لا يعنينا أن يكون شعر الحبّ في نتاج الشاعر كثيراً أو قليلا ، فقد يستدلّ على الحب الصادق بالقليل من الأبيات الدالة على هذا الحب بما يظهر فيها من

فرط الصبابة ، وتباريح الجوى ، وفرحة اللقاء ، ولوعة الفراق ، وعذاب الصدّ ، وألم الهجرِ ، ولذة الوصال .

ويخيّل إلينا أن ما نقرأ من شعرِ الحبّ ، أو شعر النسيب أو الغزل في هذا الديوان لا يعدو أن يكون تسجيلا لذكريات قديمة بقيت في نفس الشاعر آثار منها بعد أن انمحت معالمها وأصبح كالطلل الذي يدل على الأثر ، وجاء هذا التسجيل أو التعبير بعد فوات الأوان ، بعد أن خمدت الريح ، وانطفأت الشعلة التي كانت تؤجج نيران العاطفة .

بالإضافة إلى أن جانب الفكرة في هذا الشعر يطغى على جانب العاطفة التي نعدّها المقياس الأول في هذا السبيل .

* * *

وخلاصة القول أن شعر أحمد سالم باعطب جدير بأن يحتل منزلة رفيعة في عالم الشعر العربي الحديث .

وقد احتفظ للشعر العربي بخصائصه الأسلوبية ، تبدو فيه قوة البناء ، وسلامة الأداء ، وصفاء الديباجة في إيثار للعذب الرقيق من الألفاظ ، وبعد عن التكلف في طلب الغريب ، لتكون المعاني قريبة المنال ، مع الترفع عن الابتذال .

وللشاعر قدرة بارعة على التصوير ، وعلى تجسيد المعاني .

وفي شعره كثير من سمات الرومانسية تظهر في نزعة التشاؤم والانقباض ، والهروب من الواقع ، وسعة الخيال ، ورهافة الشعور ، وبروز العاطفة ، واحتفظ هذا الشعر باحتذاء القوالب الموسيقية الموروثة مع تصرّف في الالتزام بوحدة القافية في العمل الشعري الواحد .

والتزم الشاعر بالأنماط التقليدية لعروض الشعر العربي وأوزَانه ، ولم يخرج عليها إلاّ في عدد قليل من أعماله الشعرية في هذا الديوان ، وأبرز هذه الأعمال :

١ – قصيدته « طير من أفغانستان » (ص ٧٠) .

٢ – وقصيدته « لو سمع قابيل » (ص ٧٩) .

٣ – قصيدته « الزَّبَّاء تبيع برقُعها » (ص ٨٤) .

وفي رأينا أنه لم تكن هناك ضرورة تلجىء الشاعر إلى هذا الخروج ، لأننا نعرف مدى ما يتمتع به من قدرة على الإجادة ، واعتقادنا أنه لا تعجزه إطالة الوصف أو القصة مع الاحتفاظ بالقوالب أو الأوزان المأثورة ، فإن له في هذا المجال كثيرا من القصائد الطوال الجياد التي احتفظ فيها بوحدة الأوزان ، ووحدة القوافي أيضاً .

وربما دفع الشاعر إلى الخروج عن المألوف رغبته في أن يبرز قدرته على مجاراة ركب المجددين ، حتى لا يفوته القطار ، وحتى لا يوسم بالرجعية والجمود ، وهي تهمة يحرص دعاة التجديد على إلصاقها بالشعراء الملتزمين ، وأهل الحفاظ على تقاليد الشعر العربي وأنماطه المأثورة .



أحمد صالح الصالح

الشاعر المسافر

أردت أن أصل أحمد صالح الصالح بمدرسة من مدارس الشعر العربي ، أو بواحد من شعراء العربية الذين عرفتهم أو الذين قرأت شعرهم ، وإذا هو ينفر من ذلك نفوراً شديداً ، لا يريد أن ينتظم مع جماعة أو مع واحد منهم في سلك واحد ، ويأبى أن يكون حلقة في سلسلة متشابهة الحلقات ، أو حبّة في عقد متناسق الخرزات .

ولكنه يريد أن يكون نسيج وحده في عالم الشعر والشعراء ، أو عقداً واحداً منظوماً من حبات قلبه ، وذوب مشاعره .

هكذا بدت لي صورة أحمد صالح الصالح بعد أن قرأت شعره في دواوينه الثلاثة التي نشرها ، وفي المجموعة الجديدة التي قدّمها إليّ مما لم ينشر من شعره .

نعم ! قد يبدو هذا الشاعر واحداً من المحافظين الذين ينظمون أشعارهم على النسق المألوف عند الأقدمين ، وقد يبدو واحداً من المجددين الذين يعملون في إصرار على تحطيم الموروث من تلك الأنساق .

وإذا كان أولئك المحافظون يوصفون عادة بأنهم مقلدون ، فإن أكثر المجددين مقلدون أيضاً للأوربيين أو لمن سبقهم من شعراء العربيّة إلى هذا التجديد ، أو إلى هذا التقليد !

وإذا كان أحمد الصالح في بعض شعره من المحافظين فإنه لم يتجاوز في تقليدهم الأشكال والقوالب المعروفة ، وإذا كان معدوداً في بعض شعره من المجددين فإنه لم يسلك سبيلهم إلا في نسق الشعر وشكله ، إن كان هنالك شكل معروف لهذا الشعر ، أو نسق معترف به عند أصحابه ، أو عند أنصاره .

ثم يبقى بعد ذلك الاشتراك بينه وبين هؤلاء وأولئك في أداة المحاكاة الشعرية ، وهي اللغة العربية .

ولا يتصور أحد أن أحمد الصالح أو غيره من المجددين كان في استطاعته أن يصطنع أداة جديدة ، أو لغة جديدة لشعر يمكن أن يوصف بأنه شعر عربي !

أما محتويات هذه القوالب بنوعيها فتتمثل فيها معاناة الشاعر وتجاربه الشعورية ، وهي تجارب مستقلة تماماً عن تجارب الآخرين ، وفيها تنساب

أحاسيسه الملتهبة ، وانفعالاته الثائرة التي تمتزج بما ينسج من الأخيلة التي تلتفّ حول الرموز التي يصطنعها ، ثم تتفاعل معها ، ليتألف من هذا الخيال الرمزي المشحون بتلك الرؤى والأحاسيس وحدة شعورية مؤتلفة الأجزاء ، مكتملة الجوانب ، ثم يصبّ ذلك في صورة بيانية تشهد له بالإبداع في التصوير ، كما تشهد له بتلك الخصوصية التي أشرنا إليها في صدر هذا الكلام .

هذه الصور الشعرية التي تطالعنا في أعمال أحمد الصالح أشبه بالمرآة التي انعكست عليها تموجات حسّه الشعوري ، ونفسه الحائرة في صعودها وهبوطها ، وفي حركتها وسكونها .

وذلك ما يدل على نفس قلقةٍ تعاني من رهافة الحسّ ، وتنوء بما تحمله من هموم المنى التي تبرق حيناً فتملأ حياته سعادة وأملاً ، وتحتجب حيناً فتغمر قلبه وحشة ويأساً .

ومن أمارات هذا القلق أنك تراه في بعض شعره مكتئباً باكياً حزيناً ، وتراه في بعضه مستغرقاً في بحار النشوة والطرب .

وقد يخيل إليك أنه يشكو في الأولى مما يعاني من حرارة الوجد ، ومرارة الصدّ ، وأنه في الأخرى يعبّ من كئوس الهوى المترعة بالسّعادة والبهجة .

وليس هذا أو ذاك بمستغرب من شعراء الحبّ والهوى ، إذ أن شعرهم يصوّر الحالين حال المتعة بإقبال الحبيب ووصاله ، وحال التبرم بجفائه وصدّه وإعراضه ..

ولكنك عندما تقرأ مثل قول أحمد الصالح في أبياته التي جعل عنوانها « كلمات على شفتى جرح » [1] ويقول فيها :

وحملت ذكرانا ..
وجئتُ إليكِ – كالعصفور
مقصوصَ القوادم .. والجناحْ
جمَّعتُ .. أوراق الهوى
لا تسألي عنها .. !!

---

(١) ص ١٣ من ديوان (عندما يسقط العراف) .

ففي طيّاتها .. مشتِ الجراحْ
وغسلتُ في عينيّ
آثامَ العذاب .. ولوعتي
وبكيتُ .. ؟؟
حتّى ابتلّ عمرى بالنُّواحْ
أوّاه .. !!
لو تدْرين .. !!
عن عول الفجيعة
في عيونٍ .. مات في أحداقها
طعم الصباح .
عن شهوة الطين الذي احتنك ..
الجذور ..
وساخ في أوحاله
شَرف الرماحْ
أوّاه .. !!
« يا » .... !!
لا تنكئي .. جُرحي
أنا جُرح .. ؟!
« يئنّ »
فلا تزيديني جراحْ

ليس يعنيني هنا أن أقول إن الشاعر عمد إلى كتابة هذه الأبيات على هذا النحو من التقطيع أو التمزيق ، فليس ذلك شيئاً جديداً ابتدعه شاعرنا الصالح ، وإنما هي شِنْشِنة نعرفها من أخزَم !

و « أخْزَم » هنا هو الذي ورّث أتباعه الانقضاض على تراث جدّهم الخليل يمزّقوه ويبدّدوه ، كما انقضّ أبناء « أخْزَم » القديم على جدّهم حتى أدموه ، أو سربلوه بالدم فيما يقال ..

وقد ادّعى شرف هذه « الأخزميّة » أو الإمامة كثيرون منهم نازك الملائكة في العراق ، ومنهم محمد حسن العوّاد الذي ظهر في أرض الحجاز . ثم توالد بعد ذلك « الأخزميون » وتكاثروا في أرض العروبة كلّها من فرغانة إلى غانة ، وزحفت جحافلهم على قواعد الخليل فدمَّروها ، أو كادوا يفعلون !

وليس يعنيني أيضاً أن أقرر هنا أن هذه الأبيات وإن كتبت على هذه الصورة ، أو ألقيت على أية صورة ، ليست من الشعر الجديد أو الشعر الحرّ في كثير ولا قليل . وإنما هي قصيدة خليلية في قالبها ، وفي موسيقاها ، بل وفي قافيتها أيضاً ! أي أنها موزونة مقفاة ، وهي من بحر « الكامل » بتفعيلاته الستّ « متفاعِلُنْ » في كل شطر ثلاث ! ورويُّها الحاء الساكنة ..

وتشيع هذه الظاهرة في كتابة كثير من قصائد الصالح ومقطعاته التي نحا فيها هذا المنحى الجديد في التقطيع والتمزيق ، وإن كانت سليمة المبنى ، متماسكة المعنى ، خليلية الوزن ، موحدّة القافية .

وأجتزىء من ذلك بمثال واحد أؤكد به ما أسلفت من أن تجديده العروضي في بعض شعره لم يتجاوز ما أستطيع أن أسميه « التجديد الكتابي » أو الخروج على الطابع المألوف في كتابة الشعر العربي .

وهذا المثال هو قصيدته « أغنية من قلبي » وهي تلي القصيدة السابقة من حيث موضعها في ديوانه الأول « عندما يسقط العراف » ، وفي أوّلها يقول :

أيها الليلُ .. !!
يا رفيق ارتحالي ..
يا سميري على دروب اغترابي .. !!
زورقي .. ؟!
كان في ثناياك – يمضي ..
لا يخاف المسير .. بين الشعاب
كنت ألقَى « أحبتي » في حماهُ
أين مني أحبّتي .. ؟!
– يا شبابي –

بدّد البعد منهمُ كلّ شملِ
واحتوى زورقي .. خضمٌّ العباب
رحمةً .. يا مرافىء الحَبّ ..
بحرى
غاضبُ الموج .. مستثارُ الحباب
سِرْتُ .. يا ليلُ .. في طريق الأماني
أزرع الصبح .. فوق سحر الروابي
كنت في رحلتي أداري عذابي
ألثم الجرح .. بعد نزع الحراب
يعصر الحزن - في تجنّيه - قلبي
ثم أخفى مرارتي .. واكتئابي
يُشرق الحبّ .. في حياتي .. فأسلو
ما بقلبي من الأسى ..
- من عذابي -
يكبُر الشوق .. في العيون .. وقلبي .
يشرب الحسنَ .. من شفاه عِذابِ
زورقي .. !!
- عن أحّبتي - .. لا تسلْني
ضمّهمْ خافقي .. احتواهم إهابي
إن قلبي .. بحبّهم قد تغنّى
سكنوا أضلعي .. وزانوا رحابي
يا دموعي .. !!
هل بعدهم .. من دموع
ملّ جفني الدموع .. ملّ انتحابي
يا طريق الأحباب .. !!
فجري .. قريب

فلتغنّ الربوع .. لحن الإياب
فغداً ..
يدفىء الحنانُ .. وجودي
وعيون الحبيب ..
تطوي .. غيابي

هكذا أراد الشاعر أن يكتب هذه « الأغنية » في أربعين سطراً ، باعد بين كلماتها بالنقط ، حتى بين المبتدأ وخبره ، وبين الفاعل والمفعول ، إلى جانب علامات التعجب وعلامات الاستفهام . وقد لا يكون هنالك ما يدعو إلى العجب ، أو إلى طلب الفهم .

وبقليل من التأمل يستطيع القارىء أن يفطن إلى أن هذا الشعر من أنساق الشعر العربي المألوفة منذ الجاهلية ، وعاشت في عالم الشعر العربي إلى هذه الأيام . ويستطيع في يسر أن يعيد كتابة هذه القصيدة على ذلك النسق المألوف في كتابة الشعر في خمسة عشر بيتا لا زيادة فيها ولا نقصان منها . كما يستطيع أن يردّ هذا الشعر إلى أصله العروضي وقافيته الموحدة من غير جهد يبذله في إعادته إلى أصله ، فالقصيدة كلها من بحر (الخفيف) ووزنها « فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن » .

ولا يخفى أن هذا ضرب من الإسراف غير المعقول فيما لا جدوى منه ، لأنه يؤدي إلى مضاعفة ثمن الورق أضعافا كثيرة ، وبخاصة إذا كان من مثل هذا الورق السميك الملوّن الفاخر .. ثم إلى مضاعفة أجور الطباعة .

ثم لا يدفع الثمن الباهظ لهذه المضاعفات إلا القارىء المسكين .

ولا غرابة مع هذا فيما تجأر به الأصوات من الشكوى من غلاء أثمان الكتب التي هي المصادر الأولى للثقافة الدينية والفكرية والفنيّة .

ولا غرابة كذلك فيما نرى وفيما نقرأ ونسمع من عزوف الناس في مجتمعاتنا الفقيرة في القراءة التي تكلفهم ما لا يطيقون .

وفي رأيي أن كتابة الشعر بهذه الطريقة الغريبة ضرب من الإيهام يفتعله بعض المتشبثين بأذيال التجديد ، ليوهموا الناس أن هذا الشعر الملتزم بالأوزان الخليلية

شعر جديد ، خارج عن بحوره المعروفة ، ليس لاختلاف في الأوزان ونظم القوافي ، ولكنه خروج في الكتابة ، وفي الكتابة فقط .

وفي رأيي أيضاً أن هذا الصنيع يعظم من شأن الشعر الملتزم ، لأن أصحابه يؤمنون في قرارة أنفسهم بأنه الشعر الذي لا تتردّد في قبوله الأذواق ، بل إنها تؤثره على غيره من سائر الأنماط .

وقد عمدت نازك الملائكة – ومنزلتها في عالم التجديد معروفة – إلى حشد طائفة كبيرة من أشعارها الموزونة المقفّاة في ديوان دواوينها ، ولكنها أخرجتها في هذا الثوب الجديد من التقطيع والتمزيق .

ومن الطريف المضحك أن فريقاً من النقاد هلّلوا لهذا الديوان ، وأشادوا بالتجديد العروضي فيه ، وسخرت نازك منهم بهذه العثرة ، وسجلت سخريتها أو معابثتها في الديوان الذي تلا هذا الديوان !

ويبدو أن الناس في زماننا ينظرون ولا يقرءون ، وإن قرءوا فإنهم لا يدركون أو لا يتأمّلون !

ليس معنى ذلك أن أحمد الصالح قد صنع هذا الصنيع في كتابة شعره الملتزم كلّه . وقد قدّمنا أن شعره من حيث القوالب الشعرية مختلف بين التقليد والتجديد ، وأن منه الجديد ، ومنه العموديّ الملتزم ، فإن في بعض هذا الملتزم ما يعمد إلى كتابته على النحو الذي رأيناه في القصيدتين السّالفتين ، وفيه ما كتبه على النحو المألوف في كتابة الشعر العربي .

ولكن أهمّ ما يعنينا ، وهو ما شرعنا القول فيه في أول هذا الحديث ، هو أننا إذ نقرأ شعر أحمد الصالح نجد أنفسنا أمام شعر جديد حقّا ، نجد له طعما مغايراً لما نقرؤه في أشعار المعاصرين ، سواء أكانوا من الملتزمين أم كانوا من المجددين .

ونعود إلى قصيدته الأولى « كلمات على شفتي جرح » لنرى أن قراءتها الأولى توحي بأنها قصيدة من قصائد الحبّ والغرام ؛ فقد ذكر الشاعر فيها أنه يعود إلى حبيبته مثقلا بذكريات هذا الحب العاتي الذي كان يخفي مرارته ، ويأبى

أن يفضي لحبيبته بأسرار هذه الذكريات ، لأنه يخشى من البوح بها أن تنكأ جراحه ، بعد أن قاسى من ويلاتها ما جعل حياته كلها بكاءً ونواحاً ، ويوالي أنينه من فجيعته التي ألقت به في وحشة الظلام المقيم الذي لا يرى فيه بصيصاً من النور .

إلا أننا لا نرى فيها شيئا من آثار الحب ، ولا نرى الحبيبة إلاّ في توجيه خطابه إليها :

« جئتُ إليكِ – لا تسألي عنها – لو تدرين – لا تنكئي جرحي –لا تزيديني جراح » .

ثم إن هذه الذكريات لو كانت ذكريات حبّ لا يمكن أن تخفى على المحبوب الذي قاسمه حلوها ومرّها ، فكيف تسأله حبيبته عنها ؟ وكيف يخفى عنها ما يعلم أنها تعرفه كما يعرفه ؟

وقد تكون تلك الحبيبة أمّه التي غاب عنها طويلا ، ثم عاد إليها بعد رحلة الحياة ، أو رحلة العذاب صفر اليدين بعد أن فجع بأمانيه التي ذهبت مع الرياح .

وقد يكون حديث الشاعر في هذه القصيدة إلى نفسه على سبيل « التجريد » ، يذكّرها بمعاناته في رحلة العذاب التي طال ليلها ، وضَلّ صباحُه الطريق إليها ..

وخلاصة ذلك أن في هذا الشعر شيئاً من الخفاء ، أو شيئاً من الإبهام أدت إليه تجربة الألم التي خاضها واستغرق فيها ، ثم عبّر عنها وهو مستغرق في عالم فقد الوعي ، أو عالم اللاشعور .

وذلك الإبهام الذي يزول بعد قليل من التأمل محمود في فن الأدب ، وفي فن الشعر بخاصة ، لأنه ينشط الفكر ، ويبعث المتلقي على البحث والتدبر ، فإذا ظفر بالمراد أحسّ بكثير من المتعة التي لا يجدها في المعاني الصريحة ، أو في المعاني المكشوفة ..

وذلك كله مشروط بألاّ يُسْلم الإخفاء إلى التعقيد الذي يكدّ الأذهان ثم لا يخرج المتلقي منه بعد هذا العناء بطائل ..

وقد أضفى الشاعر على معانيه حلة جديدة نسجها خياله ، فهو في وهنِه وعجزه عصفور مقصوص القوادم والجناح ، والذكريات أوراق نزفت جراحُها ، وأورثته نظراته لوعة ، وحملته آثاماً ، فهو يطهّرها بغسل عينيه ، ونحيبه موصول حتى بللت عمرَه العبرات ، والعيون لا تبصر النور ، ولا تميزه من الظلام ، فقد مات في أحداقها طعم الصباح .. !

وقد رأينا كيف استطاع الشاعر أن يركّب هذه الصور المغرقة في الخيال ، وكيف استطاع هذا الخيال تجسيد تلك المعاني ، وكيف خلع على المعاني والمعقولات أوصاف المحسوسات ، وكيف تتراسل الحواس فما يرى بالعين يذاق ، وكأنه طعام أو شراب ، وكيف ينطق الجماد ..

ورأينا كيف تمشي الجراح ، وكيف تغسل الآثام ، وكيف يبتلّ العمر بالدموع ، وكيف كان للصباح أو للنور طعم أو مذاق ، وكيف يموت هذا المذاق ، وكيف كانت للطين شهوة ، وكيف تسوخ الرماح في الأوحال ، وكيف تكون للجرح شفتان !

وكذلك رأينا هذه الانفعالات الحادة المتلاحقة التي تبدأ من أول القصيدة وتصحبها حتى نهايتها ، ولا تفتر في أي جزء من أجزائها .

وأنا بعد ذلك أشعر شعوراً صادقاً بأنني كنت على صواب حين قلت إنني أقرأ في شعر أحمد الصالح شعراً جديداً حقّاً ، وإن هذه الجدّة ليست في مبنى هذا الشعر ولا في موسيقاه ، ولكنها تبدو في محتواه ، وفي قدرة الشاعر على التخيل ، وعلى الإبداع في التصوير .

وما قلته في تعبير الشاعر عن تجربته الشعورية في هذه القصيدة « كلمات على شفتي جرح » ينطبق على أكثر شعره الذي تضمنته دواوينه الثلاثة التي نشرت ، وما تضمنه ديوانه الرابع الذي هو في سبيله إلى النشر .

إن ما وجدناه في هذه القصيدة هو ما نجده في قصيدته الأخرى التي أثبتنا نصّها ، وفيها يتجلى حواره الداخلي في أبدع صوره..

ولا تفارق الشاعر ، أو لا تفارق شعره تلك السِّمات المميزة التي أضفت

عليه معالم الجدّة ، حتى في شعره الوطني ، وشعره العاطفي أو الغزلي الذي تزخر به دواوينه كلّها .

ومنه هذه القصيدة من ديوانه الثاني « قصائد في زمن السفر » (ص ٢٧) ، وهي من شعره الحر أو شعره المتحرر ، وعنوانها « يا قَدَري » وفيها يقول :

« مَدَرِي » .. ؟! تأخذني في درب .. ينسرب الطيب به ..
– في خطوات الأحباب .. يتناغم فيه الشوق .. ويحلو الهمس ..
على شفتين .. يدغدغ بوحهما الليل الهاجع في الأهداب ..
يتعانق .. ثغران طريّان ... وترتعش الرغبة .. في لحظة صمت ..
يحتضر الهمس .. وتومض في الأحداق رغاب .. خُذني ..
– يا قَدري – بين ذراعيها .. أرسل بين ذراعيّ .. ؟! سنابل ..
هـذا الليـل المنسـاب !

واقرأ هذه التعبيرات :

يتناغم الشوق ، يحلو الهمس ، الليل الهاجع في الأهداب ، ترتعش الرغبة ، يحتضر الهمس ، تومض الرغاب ..

ولعلك رأيت فيها ما رأيته في القصيدتين الوجدانيتين السّابقتين .

* * *

بين يديّ ثلاثة دواوين من شعر أحمد صالح الصالح نشرها فيما بين سنة ١٣٩٨ هـ وسنة ١٤٠٣ هـ .

وهذه الدواوين هي :

١ – (عندما يسقط العرّاف) : طبع بمطابع انترناشونال بالقاهرة سنة ١٣٩٨ هـ .

٢ – (قصائد في زمن السفر) : نشره النادي الأدبي في الرياض سنة ١٤٠١ هـ .

٣ – (انتفضي أيتها المليحة) : نشرته مؤسسة دار العلوم في الرياض سنة ١٤٠٣ هـ .

وبين يديّ مجموعة جديدة من شعره الذي لم ينشر في ديوان إلى الآن .

وهذه الغزارة في الإنتاج تدل على ملكته المواتية ، وعلى شاعريته التي سرعان ما تستجيب للتعبير عن تلك التجارب التي تستثيرها . وهو كأكثر الشعراء الذين يتميزون برهافة الحسّ ، وتدفق الشعور .

وفي هذه الدواوين الأربعة تختلط القصائد العمودية المحتفظة بوحدة وزنها ووحدة قافيتها ، بالقصائد التي تحرّرت من أنساق الشعر العربي المعروفة ، أو تمرّدت عليها .

بل إن في ديوانه الثاني [1] قصيدة صاغها الشاعر باللغة الدارجة ، أي باللغة العامية ، وعنوانها « المسافرة العنيدة » وهي من قصائد غرامه المشبوب !

ولا أستطيع أن أتصوّر أن اللغة العربية الفصيحة قد عجزت عن استيعاب معاني هذه القصيدة أو خطراتها .

ولا أستطيع أيضا أن أتصوّر أن الشاعر الذي صاغ عشرات من أمثال هذه القصيدة الغرامية باللغة الفصيحة عجز عن الوفاء بمضموناتها إذا أداها في قالب عربي صحيح أو فصيح !

وأكبر الظن أن الذي دعاه إلى إيثار هذه اللغة الدارجة ، أو اللغة العامية أن هذه الحبيبة ، أو هذه المسافرة العنيدة كانت من طبقة العوام الذين لا يتذوقون جمال الشعر في لغة العرب ، وأن الشاعر عمد إلى تأديتها باللغة التي تعرفها ، لييّسر لها سبيل الفهم والإدراك .

ولعله أراد أن ينازع شعراء الشعر النبطي أو الشعر الشعبي اختصاصهم به ، ليريهم أنه قادر على أن يصنع مثل صنيعهم !

ونورد من هذه القصيدة شيئاً للذكرى :

« عنيدة » ..؟! شلّْت .. مدري .. ؟؟

يرد بها الزمن .. باكر .

« عنيدة » .. والقمر يشهد .. وياما – قالت :

أتحدا .. – أجل – .. من هو على تفريقنا قادر

---

(١) ديوان (قصائد في زمن السفر) ص ٣٩ .

مسير الليل .. والقمرا .. تْجمَّعنا .. ؟!
على رملات « درب خريص » .. وتجمعنا .. ؟!
سواليف الهوى ... باكر
« عنيدة » .. ؟! .. بيَّحتْ سَدِّي .. وياما .. ؟!
عن عيون الناس .. أداري حظي العاثر
تقول : .. اقعد .. ولا تغادر
- ترى « التنهات » صوّحْ نبتها ..
واللي على بالَكْ .. ؟! .. غدا غادر

في هذه القصيدة عبارات استطعت أن أقرأها ، وأن أعرف دلالتها . وفيها عبارات صعبتْ عليّ قراءتها ، وعزّ عليّ فهمها .

ومن المؤكد أن أهل القصيم وأهل نجد قادرون على فهمها ، وقادرون على تذوّقها ، وعلى الاستمتاع بها ..

ولكنّ القارىء العربيّ فيما وراء هذه البلاد يجد كثيرا من العنت في إدراك تجربة الشاعر والتأثر بها قبل أن يهتدي إلى دلالات هذه التعبيرات .

ولست إخال الشاعر المسافر يعنّي ملكته في صوغ قصيدة يخص بها أهل القصيم وأهل نجد أو سكان المملكة العربية السعودية كلهم ، ولكني إخاله يريد أن يسافر شعره إلى كل مكان ، وأن يرتاد معه أجواز الفضاء .

وفي رأيي أن الشاعر العربي في أيّ موضع من أرض العروبة يجب أن يخرج من حدود إقليميته ، وأن ينطلق بشاعريته ليحلق بها في سماء العروبة ، حتى يعرفه الناس ، ويستمتعوا بشعره العربي الذي يؤديه بالبيان العربي الصحيح الفصيح الذي يلذ لهم إدراكه ، وتصوّر ما فيه من معالم الجدّة ، أو الإتقان ، أو الإبداع .

* * *

أمّا شعره العمودي الذي التزم فيه بالوزن والقافية ، فإنه يختلف عن شعره المتحرّر منهما اختلافاً كبيراً ..

وليس هذا الاختلاف في شكل البناء فحسب ، ولكنه اختلاف في طبيعة

الشعر وجوهره وفي مدى استطاعة المتلقي متابعة الشاعر في تدفقه وفي انسياب تياره الشعوري .

ذلك أن أحمد الصالح يستطيع دائما في شعره العمودي أن يحمل المتلقي على متابعته ، ويجعله يحسّ إحساساً طبيعيا بنبضات قلبه ، وخلجات نفسه ، ويسبح معه في تيار وعيه الشعوري ، وفي حال استغراقه في الأحلام أو في عالم اللاشعور أيضاً . فهو يحلق معه في أبعد الآفاق التي يمكن أن يصل إليها خياله ، في ذلك النسق الموسيقي المطرب الذي ألفته الأذن العربية ، وسهل عليه نقل مضموناته إلى قرارات النفوس ، وإلى أعماق القلوب ، لأن ذلك النسق أصبح الوسيلة المعترف بها لدى الحسّ العربي ، أو الذوق العربي ، أي أنه موصّل جيّد بلغة علوم الطبيعة .

وكلّما كان الموصّل جيّداً كثرت عند المتلقى أسباب التوقّع ودوافعه . ولهذا التوقّع أثر كبير في تحقيق الاستجابة في نفس المتلقي ، وتلك الاستجابة هي أعزّ ما يحرص عليه كلّ شاعَر وكلّ فنّان ..

إنك تستطيع أن ترى هذه السمات واضحة في أكثر ما صاغ أحمد الصالح من شعره العمودي ، وتستطيع أن تنظر في أية قصيدة من هذا الشعر لتؤكد لك ما سلف .

خذ مثلا قصيدة من ديوانه الذي لم ينشر ، وعنوانها « عينان » وقد أوحى بها إليه بيتان أنشدهما الشاعر عبد الرحمن إسماعيل ، وهما :

عيناكِ .. ما قالتا .. لكنّ سحرهما	أفشى إلى خافقي المشتاق سرّهما
بُحيرتان .. من الأحلام .. تحملني	أهواءُ عمري إلى أبعاد أفقهما

فقال أحمد الصالح ، وكأنه يتم ما بدأ :

يحار ليل الهوى .. في صمت ليلهما	وينتهي تعبي في ليل هُدبهما
رفيف رمشيهما .. يقتادني نزقا	فأشتهي كل ما يؤتيه إثمهما
تنبّهان بعينيّ الهوى قلقاً	فيستريح شقائي في ضلالهما
يا كلَّ من دخلوا عمري هنا سكني	في مقلتيها يناديني الهوى نَهِما

هربتُ من كلّ أحبابي ومن غضبي   إليكِ طفلا فعُدتُ اليومَ متَّهما
ألقيتُ ما في فؤادي من تدلُّلِهِ   إلى رضاك ، فماذا بعدُ إنّهمـا
عيناكِ .. كم يتسبيح الصمتَ عشقُهما   وأحرفُ الشعر كم غنّتْ لصحوهما
هواكِ يا أنتِ يُغويني وأتبعُه   وهــذه شفتـــاي أنهدّ صبرهما
يا شاعري حكمها يقتصّ من بدني   ياللزمان .. ويالي من جنونهما
عينان تستأسران القلب أجمعه   ياشاعري أيُّ ظلم بعد ظلمهما

ونورد نموذجاً آخر من شعره الجديد لتستبين الفروق بينه وبين هذا الشعر الملتزم . وهذا النموذج من قصيدة غزلية أيضا ، عنوانها « تقولين .. ماذا .. ؟؟ » [١] :

تنادين .. ؟؟
– في لحظة العشق –
من أين .. يأتي الخريف .. ؟!
– وأنّى له أن يجيء –
لقلب .. يريد ..
وحبّ له أن يشاء
تعيدين .. بعض الحكايا ؟
وتلقين في وجه هذا المساء .. همومك
لا تعلمين .. ؟!
متى يتبدى .. زمن الشعر
يعبر في كل نسغ ...
ينبّه خوف العيون النواعس
كالنبض .. يسرى بكلّ الدماء
وتبدأ .. كلّ حروف الهوى
تستعيد حديثك

(١) ص ٦٥ من ديوان (انتفضى أيتها المليحة) .

تدخل كالنور .. عبر النوافذ
عبر المسافات
تنفذ في كلّ شلاّل ماء
بعينيك .. ؟!
ألقيتُ هذا العناء
ومسَّحتُ .. من تعبي في الرموش
ومارستُ فكّ قيودي
فما كان .. ؟!
غيرُك قيدي
وما كان .. غيرك لي كبرياء

وأكتفي بهذا الجزء الذي يناهز نصف القصيدة ، لأنني وجدت المحطّ الذي أستطيع أن أتوقف عنده .

ومن اليسير على القارىء أن يوازن بين هذه القصيدة وسابقتها العمودية وأن يفطن إلى الفروق الواضحة بينهما ، فقد وجدنا في هذه القصيدة الحرّة مجموعة من الخطرات ، ربما مزّقتها هذه التقطيعات ، وربما داخلتها بعض العبارات التي يشعر القارىء أنها عبارات مقحمة على الفكرة أو على التجربة .

وأنا أعترف أن هذا الشعر يفوق في وضوحه وبهائه كثيراً من الشعر الذي نقرؤه لكبار المجدّدين ، ومن دونهم من التابعين أو المقلدين .

* * *

إن لحن الحبّ هو اللحن الأثير عند الشاعر أحمد الصالح .

وهو كذلك اللحن المفضل عند الشعراء في مختلف العصور ، وفي مختلف البيئات ، وفي جميع الأجناس .

وهو كذلك معين لا ينضب ، ينهل منه كتّاب القصص والروايات ، ومؤلفو المسرحيات أبدع ما يفتنّون في تصويره مما يمتع القلوب ويسرّي عن النفوس ما تجد في متاعب الواقع وآلامه ، لأن الناس يجدون أنفسهم وتجاربهم ، كما يرون آمالهم

فيما يقرءون ، وفيما يشاهدون ، حتى أصبح الأدب وكثير من الفنون الإنسانية أشبه بالوعاء الذي تنصب فيه آثار تلك العاطفة .

ولقد شقَّت عاطفة الحب لنفسِها دروباً ومسالك شتى ، بحسب ما طبعت عليه نفوس الأخيار ونفوس الأشرار ، وبقدر ما ألهم أصحابها من التقوى أو الفجور ، فكانت العواطف السامية في حبّ الله ورسوله ودينه ، والتشبث بالمثل العليا في التضحية بالنفس والمال في سبيل العقيدة ، وفي الذود عن الأوطان ، وفي سبيل المبادىء التي يؤمن بها الإنسان ، ويعتقد أنها الحق الذي لا شبهة فيه ، وفي جملة الفضائل النفسية التي تعارف عليها الناس أجمعون .

وهنالك انحدارات هابطة في بعض دروب تلك العاطفة ، تتمثل في الاستسلام لمنازع الأهواء ، والانقياد لما توسوس به النفس الأمارة بالسوء ، والاستجابة لغرائز التسلّط والاستعلاء والاقتناء ، ثم لدواعي الشهوات الدنيا التي لا تفرّق بين حقّ وباطل ، ولا بين حلال وحرام .

وللشعراء الحظ الأكبر من التعبير عن هذه المرتفعات وتلك المنحدرات في مسالك تلك العاطفة ، فقد أكثروا من وصفها في أشعارهم ، وعبّروا فيها عن عواطفهم وتجاربهم التي اختلفت بين التسامي والاتضاع ، وتباينت بين المثل العليا ، والنوازع الدنيا .

ومن يقرأ شعر أحمد الصالح في دواوينه الأربعة لابدّ أن يشدّه ذلك السيل الهادر من الرؤى والأحاسيس العاطفية التي جعلت من هذه الدواوين معرضاً لشعر الهوى والغرام الذي تبدو فيه صورة الشباب الفتى المستسلم لسلطان الهوى ، الذي تسلّط على مشاعره ، ولم يبرح شبح الحب مخيلته حيثما أقام ، وحيثما ارتحل في ليل أو نهار ، في نومه وهو مستغرق في أحلامه ، أو في صحوه وأمامه شبح الرقيب ..

ولست أشكّ في أن التجارب التي عبّر عنها الشاعر في هذه القصائد العاطفية إنما هي تجارب حبّ حقيقية ليس فيها شيء من آثار الافتعال ، أو أثر من تنميق الخيال . ومن هنا اتصف هذا الشعر بالصدق ، وسرت فيه حرارة الوجدان .

ويحار الدارس في تخيّر شاهد من بين تلك الشواهد التي تنطق بصدق الشعور وحرارة الوجدان ، فإن كل قصيدة من قصائده ، وكل مقطعة من مقطعاته شاهد على ذلك .. ونجتزىء بهذا المثال الذي يتمثل في مقطعته الموزونة المقفاة . وإن كتبها الشاعر بطريقته التي يكتب بها الشعر الحرّ وعنوانها « تتساءلين »[1] .

تتساءلين عن الهوى في أحرفي وعن احتراق « الآه » بين ضلوعي
عن جرح قلبي ، عن جنون زوابعي عن رحلة الأحزان عبْرَ دموعي
تتساءلين ، وأنتِ بين جوانحي قلبٌ يضجّ بثورتي وولوعي
ليلايَ ! ترشح بالعذاب مفاصلي يطوي الزمان قصائدي وربيعي
أغرقتُ في بحر الضياع زوارقي وخنقتُ في ليل الظنون شموعي
إني أخاف عليكِ سوء مطالعي وضلال حبّي وانتفاضة جوعي

ثم بقصيدته الحرّة « لأنّ الحب »[2] ..

عيناك .. ولا أحْلَى ... ؟! ليلةُ صيف .. بَحْرِيٌّ
دافئة السّاعات .. مبلّلة بحديث السُّمّار ..
لا أرهبُ وحشيّة عينيكِ ..؟ لأنّ الوحشة في عينيكِ
ستزرعُ في عينيّ .. ملايين الأقمار ..
يحملني .. دربٌ لا يقوَى .. أن يكتم لوعة قلبي
أن يسرقَ في عينيّ .. براءة طفل .. أو نشوة بحّار ..
يحملني .. حبّ لا يرهب .. ؟ .. غدْرَ الأيام ..
لأن الحبّ – بأعماقي – .. منزرعٌ كالإيمان .. ومنطلقٌ كالتيّار

أرأيت كيف أن الوحشة التي يراها في عيني حبيبته تزرع في عينيه ملايين الأقمار ؟

وكيف أصبح لا يعبأ بصروف الزمان ، ولا غدر الأيام التي كثيراً ما تغتال الحب ، وتعصف بالمحبين ؟

---

(١) ص ٥١ من ديوان (قصائد في زمن السفر) .

وكيف رسخ الحب في قلبه رسوخ الإيمان في أعماقه ؟

إن هذه التهويمات كلها إنما هي من آثار استغراقه في تجربة حبّه الصادق العنيف !

والظاهر أن الشاعر قد خاض تجربة الحبّ أو معركة الحبّ في وقت مبكر من حياته قد يرجع إلى عهد الطفولة في براءتها ، منذ علق قلبه بحبال الهوى ، وشغف بليلاه الصغيرة التي بادلته هذا الهوى ، أو قاسمته إياه ، ثم أخذ هذا الهوى ينمو ويترعرع ، حتى رسخ في قلبه وقلبها رسوخ الإيمان كما يقول ، وكبر معهما .

ومازال هذا الحبّ حبا فتيّا ، وما يزال يستجيب لندائه ، وما يزال أنشودته التي يترنم بها في شعره الذي ألهمه إياه هذا الحبّ العميق .

إنه يذكر في كثير من شعره طفولتها ، وغرامه المبكر بها ، كما يذكر دائما « أوراق الهوى » وفي طياتها ذكرياته التي يعتّد بها ، ويحرص أشد الحرص عليها ، لأنها أغلى وأحلى ما يملك في الحياة .

يقول في أول قصيدته « كلمات على شفتي جرح »[1] :

وحملتُ ذكرانا
وجئت إليك « كالعصفور »
مقصوص القوادم ... والجناحْ
جمعتُ أوراق الهوى
لا تسألي عنها
ففي طياتها .. مشت الجراحْ

وفي قصيدته « ثلاث مرثيات للحبّ » ٣٨ يقول :

حبيبتي .. !!
لا تسألي .. عن أحرفي
مزّقتُ أرحام الحروف
في بلاهةٍ ..

---

(١) ديوان (عندما يسقط العراف) ١٣ .

وافتقدتْ إيمانَها ..

بالأحرف السطور ..

وفي قصيدته « حيرة الهوى » ٧٤ يقول :

يـا ثـورة الأشواق هدهـده	سحر اللمى .. وحلاوة الشهدِ
وعذوبـة الثغـر الخجـول على	لثم المحبّ .. وصادق الـوُدّ
لازال طفـلا لم تـلامسه	شفـةٌ .. معربـدة مـن الوجـدِ
طهـرُ البراءة فـيكِ يأخـذني	أحبـبت فـيكِ أمانـة العهْـدِ
فـأذبتُ روحـي همسَ قافيـةٍ	تشجي ربوعَ الحبّ من بعدي
أنتِ التـي لازلتِ أغنيتـي	يا قصّتـي في القـرب والبُعـدِ

وعن ذكريات الصبا يقول في قصيدته « همسات اللقاء » ٨٧ :

الذكرياتُ .. عن الصّبا .. عادتْ

وعاد حنينها

فتحطمْت .. بحرارة الأحضانِ ..

كلّ ظنونها ..

وأظلّها .. بوفائه

فإذا الحنان .. نعيمها ومعينها

رفضتْ مواسمُها .. الجفاف

وغرَّدَتْ لربيعها ..

فإذا الربيع يزينها

وإذا الحياةُ ..

ضحوكة .. كجبينها ..

وإذ الدلالُ .. دلالها

والسحرُ .. بعض فتونها ..

ويهيب بها أن تغتنم فرصة الصبا ، وتدع المماطلة والتسويف ، والوعود التي تمنيه بها ، قبل أن تذهب نضرة الحياة ، وتذبل زهرة الشباب ، فيقول لها في قصيدته « حزني العاشق » ٨٩ :

غداً .. ؟! لا تتركين غدًا
ونهدك بعـدُ لم يسكـرْ
ويجتـاحُ الهوى قلبـاً
يعـجّ بشوقـه الأحمرْ
تعالي .. !! حطِّمي قيدي
فقيدي بعـدُ لم يُـكسَرْ
وجرحي .. ؟! لم يزلْ يبكي
فضمِّي الجرحَ .. لا أكثرْ

ويضنيه الوجد والوله ، وتستبدّ به الأشواق ، وتستعر لهفته على اللقاء ، فيقول لها :

أتيتُ إليك مقتـولاً
بلاسهـم ولا خنجـرْ
أتيتُ وفي فمي ولهي
وفي شفتي المنى تعْبرْ
وأحملُ حبَّ عُشّاق
وحزني العاشقُ الأكبْر

ويضنيه الوجد والوله ، وتستبدّ به الأشواق ، وتستعربين جوانحه نار اللهفة على اللقاء ، ويهيب بحبيبته ألا تمزق أوراق حبّه بهجرها ودلالها ، فإنه لم يعد يبصر طريقه إلاّ بها ، وينصحها ألا تسرف في الصدّ ، فقد كاد صبره ينفد بعد أن جدّ في طلبها ، وطال به المسير ، وما يزال حبّه بكراً ، وما يزال قلبه طفلا ، وما يزال يرى أنها أقدر الناس على شفائه ، وعلى مداواة جراحه :

فـلا تلقـي بـأوراقي ففـي طيّـاتها أبصرْ
ولا تستأمني .. صَمتـي فصَمتي ضاقَ أن يصبْـر
إلـيكِ ركضتُ أعوامـاً وزوقُ رحلتـي أبحَـرْ
تعالـْي .. أنصفي حبّـي فحبّـي لم يـزلْ أكبـرْ

وقلبي لم يزلْ طفلاً وأنتِ بضمّه أقدرْ
وجرحي ثورةٌ غضبَى ويومَ يثورُ لنْ يغفِرْ

وخلاصة ما نريد أن نقول هو أن أحمد الصالح قد عانى تجربة حبّ عاتية ، وأن هذه التجربة هي ألهمته هذا الحشد الهائل من شعر الهوى الذي تتابع قصائده تتابع السيل فتغمر دواوينه الأربعة ، حتى ليكاد المتصفح لهذه الدواوين يجزم بأن صاحبها في طليعة الشعراء العشاق الغزلين الذين عرفهم تاريخ الشعر العربي الذين وقعوا في شراك الحب ، واستبدَّ بهم الهوى ، فوصفوا آثار الوجد وتباريح الصبابة ..

ولكن قارىء هذا الشعر يخامره شيء من الحيرة ، وهو يحاول تحديد موضع أحمد الصالح بين شعراء الحبّ ، أو شعراء الغزل .

فقد يراه أحيانا من شعراء العفة الذين يحيون في لذة الأحلام ، ويمنّون أنفسهم باللقاء ، فإذا حرموا هذا الأمل تحوّلت حياتهم إلى شقاء ، وهم في أكثر الأحيان يكتفون بشرح عواطفهم تجاه حبيباتهم . كما نقرأ ذلك في قوله « ذات مساء » (١) :

تفرّق السُّمارُ .. لم يبق .. سوى عينيك ..
يغزل الضياءَ في رمشيهما القمرْ .
وفرحةٍ في أضلعي .. كالنبض في قلبي ..
كرقصة الأعراس .. في السّمرْ ..
ويوم جئتِ في دلال - أيقظ الأشياء ..
كانسراب النور .. كانطلاقة السّحرْ .
شربتُ .. من جداول الضياء - يا عنيدتي -
ثرثرْتُ كالأطفالِ .. واستسلمتُ .. ؟
- في شرود العاشقين -
مثلما النعاس .. يغشى أعيناً
أمضّ ليلها السهرْ .

(١) من ديوان (قصائد في زمن السفر) ص ٦٤ .

لم يزد الشاعر في هذ الأبيات على أن وصف مشاعره ذات مساء بعد أن انفضّ السّامر وتفرَّق السمّار ، وبقيت في خاطره صورة عيني صاحبته ينبعث من رمشيهما ضياء نسجه حولهما نور البدر ، ونبض قلبه بفرحة اللقيا يوم جاءت في بهجتها ودلالها ، ثم ودّعته ، وتركته في ذهول وشرود .

وإن يكن الذوق الشعري يأبى قوله « أيقظ الأشياء » فإن كلمة « الأشياء » ليست من لغة الشعر ، ولا تدلّ هنا على أيّ « شيء » .

وقد جانبه الصواب في كتابة الفعل « أيقظ » بالضاد « أيقض » . وكنت أحسبها هنة من هنوات الطباعة التي لا يكاد يخلو منها أثر مطبوع ، لولا أنها تردّدت في مواضع أخرى منها :

في صفحة ٦٨ من ديوانه « عندما يسقط العراف » :

« وأيقضت في شفنيك الغرورا » .

وفي صفحة ١٠٣ من ديوانه « انتفضي أيتها المليحة » :

« لا أكتم غيض رفيقي » .

وفي صفحة ٤٦ من الديوان نفسه « وبنو قُريضَة » !

ونعود بعد هذه الوقفة الهامشية إلى ما كنا بصدده من الحديث عن العفّة أو العذريّة في غزل أحمد الصالح لنقرر أننا قد نجد في بعض الأحيان شيئا من شعره الذي يصوّر ثورة جامحة لا تقنع بمثل ما كان يقنع به فيما سلف ، ولكنها لا تقف في تصوير ما يشتهي الشاعر من نظرة إلى المحبوب ، أو لقاء به .. ولكنها تتطلب المزيد والمزيد ، بل إنها لتطمع في تحقيق ما هو مستحيل ، ولا يعدّ الشاعر حبّه حبّا إلا إذا ظفر بهذا المستحيل الذي لا سبيل إلى إدراكه ، وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد ما يريد الشاعر بهذا المستحيل !!

اقرأ قوله في قصيدته « أريدكِ » (١) :

إذا الحبّ لم يبلغ المستحيلا

فلا كان حبّا يمنّي الصدورا

---

(١) ديوان (عندما يسقط العرّاف) ٩٨ .

ولا كان بحرًا عتيّ الرياح
ولا كان حسنا يثير الغرورا

أين هذا من تلك البساطة التي نقرؤها في شعر إمام العذريين جميل بن معمر الذى يرضى من بثينة بأدنى ما يمكن أن يكون منها ، حتى لو كان وعداً يوقن أنه مكذوب بكلمة أو لقاء ، في قوله :

وإنّي لأرضَى من بثينة بالـذي لو أبصره الواشي لقرّت بلابلُه
بلا، وبألا أستطيع ، وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آملُه
وبالنظرة العَجْلَى وبالحول ينقضي أواخـره لا نلتقـي وأوائلـه

ولعل السرّ في تلك البساطة التي نجدها أو نحسّ بها في أشعار القدماء بعامة ما قرّره الشاعر الناقد الإنجليزي « الكسندر بوب » في قوله « إن القدماء من الشعراء كانوا على وفاق مع الطبيعة ، ولذلك كان شعرهم أقرب إلى الطبيعة » !

* * *

وأيا ما كان الأمر فإن أحمد الصالح فيما أرى واحد من كبار شعراء الحبّ الذين عرفهم تاريخ الشعر العربي الحديث ، فقد صدر في هذا الشعر عن عاطفة قوية صادقة ، فاحتلت المرأة في شعره مكانتها في قلبه ، وكان شعره فيها معبّرا عن مشاعره الصادقة نحوها في سخطه وفي رضاه ، أى في حالتى الاستجابة والمواتاة ، وحال المكابرة والعناد ، وهما حالان لا تخلو منهما حياة أجد من المحبين .

وقد تؤدي النظرة العاجلة إلى القول بأن الشاعر قد عمد إلى أسلوب القصة في تصوير تجاربه العاطفية .. وفي رأيي أن ذلك ليس قصصا شعريا بالمعنى المفهوم الذي يعمد فيه المؤلف إلى سرد وقائع المواقف وحركات الشخصيات ..

ولكننا هنا أمام حركات عاطفية ، ومشاعر ثائرة ، يجلوها الشاعر ، أو يحاكي بها ما في نفسه في حال انبساطها ، وفي حال انقباضها ، وفي لذتها وألمها .

والشخصيات التي أمامنا شخصية واحدة ، هي شخصية الشاعر وحده ، بمشاعره التي تضطرب بها جوانحه ، وأحاسيسه التي تتفاعل في أعماقه .

وقد نجح الشاعر إلى حدّ كبير في تصوير هذا الحوار النفسي ، أو الحوار الداخلي الذي رسم فيه هذه الصور الحية الموحية لمشاعره وأحاسيسه ، وأبدع في تصويرها هذا التصوير الذي يتصف بالجدّة ، ويحملنا على الاعتراف لصاحبه بالإبداع ..

فقد تسلطت ليلى على الشاعر تسلّطا غريباً ، بل تسلّطا رهيباً ، فصاغ أجمل شعره وأكثره وأحفله بالعاطفة ، فقد رأى فيها سعادته إذا أقبلت ، وشقوته إذا هي أدبرت ، ورأى فيها ضلاله وهداه ، بل رأى فيها حياته . أنا لا أقول هذا ، ولكن الشاعر هو الذي يقوله ويصرّ عليه ، فلم يكن ولوعه بها سحابة صيف ، أو نزوة شباب ، ولكنه عاش معه ، ولازمه حتى آخر تجربة من تجاربه التي عبّر عنها في آخر قصيدة من القصائد التي اشتمل عليها ديوانه الرابع الذي لم يطبع ، وعنوانها « وأكاد أعرف مصرعي » وفيها يقول لها :

تدرين أنك في الفؤاد أميرةٌ	وبغير حبِّك لم يكن مشغولا
إن شئتِ كان صَباً ترقّ عذوبةً	أو شئتِ كان مُدَمّرا ومهولا
أرسلْتِ شَعركِ في يدي متدفّقاً	فضممتُ شلال الحرير طويلا
في مقلتيكِ أكاد أعرفُ مصرعي	وتكاد تأخذني العيون قتيلا
وعلى لماكِ تفيق فتنة عاشق	وبدفئها كنتُ الفتى الضلّيلا
ثغرٌ وجدْتُ به الشفاه شهيةً	فكأنّ ثغرّكِ علَّم التقبيلا
فإذا تلامست الشفاهُ وأشفقتْ	خوف العِناق سألتها التعجيلا
وتحدثتْ تلك الرموشُ عن الهوى	وعن الهوى كان الحديث جميلا
تأتي به الذكرى خيالاً ساحراً	وتفيق أحلام المساء ذهولا

وفي هذه الأبيات كما رأينا تختلط نشوة الحسّ بعذاب النفس . وإذا كان الشاعر يقول إن فؤاده لم يكن مشغولاً بغير حبّها فذلك من مبالغات الشعراء إلا إذا كان يريد أن فؤاده لم تشغله حبيبة سواها . والشاعر الذي وصفناه بأنه « شاعر الحب » لابدّ أن تتسع دائرة حبّه ، وتتجاوز ليلى التي ظفرت بالحظ الأوفر من قلبه وشعره ، لأن هذا الحب يضفي مسحة من الجمال الذي يفتن الشعراء على كل ما يتصل به ، مما يقع عليه بصره ، أو يدور بخلده .

وقد رأينا من مسالك هذا الحب ودروبه التي أنسابت فيها عاطفة الشاعر حبّه لأبويه ، ولطائفة من خلصائه .

وأوّل قصيدة في ديوانه الأول « عندما يسقط العراف » وعنوانها « إلى أبي » [1] وفيها يمجد أباه ، ويذكر جهاده ، وأن مدينته « عنيزة » تشهد له بالاستقامة والكفاح ، وينتهي إلى وصفه بأنه « الإنسان » :

حبيبنا ..
مدينتي .. تقرأ في عينيكَ
قصة الحروف البيض .. والسّهَرْ
رائحةَ الإنسان ـــ عندما يعركه الجهاد ـــ
عندما يزرع في الحياة قلبَهُ
ويطلعُ الصباحُ .. قبل مولد السّحَرْ
حبيبنا .. !!
ومثلما آمالنا .. أتيتَ .. وافترشْتَ
آلاماً تسرّبت حتى العظام .. في جذورنا ..
فلم يمتصّك الزمانُ والضجر
مدينتي .. ؟
تحفظ دربَك الطويلَ
في مساحة السنين .. في صحائف الكتاب
نخيلها صفّقن ألف مرّة
قنوانهنّ اسّاقطتْ .. جنًى طريا
مثلما منحتَ للشباب زهرة الشباب
وعشتَ في الأحداق حبّا .. لن يزول ..
يا حبيبَنا ..
ستبقى .. عمرَك المديدَ .. في الحنايا
في حكايا الصيف في دفاتر الصحاب ..

---

(١) ديوان (عندما يسقط العراف) ٧ .

ويبدو أن الشاعر أنشد أباه هذه القصيدة وهو في شيخوخته ، وقد أقعده المرض ، فناجاه بهذه النغمات العذبة الشجية .

ولما قضى الشيخ نحبه بكاه ابنه البار بقصيدة من شعره العموديّ ، عبّر فيها عن أصدق مشاعر الحزن والأسى ، وعنوانها « حبي الكبير »[1] وفي أولها يقول :

حبّي الكبيرَ .. استوحشتك الدارُ والأهلُ ، والأصحابُ ، والسُّمارُ
ومدينتي تبكي رفيقَ كفاحها وشبابُها ، وشيوخُها الأبرارُ
ومرابعٌ ضوّعت طيبَ أريجها والنخلُ بعدُ .. دموعهنّ غزارَ
من أين أبدأ ؟ والفقيد فجيعةٌ من قال مات الحبّ والأخيارَ
من أين أبدأ ؟ والحبيب تيتمتْ أفعالـه وتناثـر النـوّارُ
ماذا أحدّث ؟ والكلام مهاجر مـلّتْ مخارج أحرف أشعارُ

ثم يقول :

حبّي الكبير .. وفي الفؤاد من الرّدى أسفٌ له بين الضلوع أوارُ
يا سيّدي .. عفواً .. فحزنك لم يزلْ في كلّ جارحةٍ أساه يثارُ

أما أمه فإنه يحتفظ لها في حنايا ضلوعه بقسط من الحبّ ، وإن كان أثر هذا الحب يبدو في شعره ضئيلا ..

وفي قصيدته « حديث الغربة » [2] يناجي زوجته وأولاده في عشرين بيتاً ، يخصّ أمّه منها ببيتين ، فيقول في أولها ، والخطاب لزوجته :

رفيقةَ العمر تدنيني وتبعدني أحلى الأماني وقلبٌ هدّه السفرُ
رفيقة العمر .. أمِّي من يخبّرني عن حالها ؟ كم إليها تسرعُ الفِكرُ
كأنها في مصلاّها إذا ابتهلت لربّها صيِّبٌ بالخير ينهمرُ

ويبقى بعد ذلك لليلاه القدح المعلّى من حبِّه وشعره !

* * *

(١) ديوان (انتفضي أيتها المليحة) ٨١ .

(٢) من ديوانه الرابع الذي لم ينشره .

وينبغي ألا تفوتنا الإشارة إلى منطلق فسيح صال فيه الشاعر وجال ، ووهبه كثيراً من نتاج شاعريته الخصبة ، وأعني به الشعر الذي تحدث فيه عن هموم أمته العربية ، وتناول فيه أهم القضايا التي تؤرقها ، وتشغل بالها ، وتعوق مسيرتها .

وفي مقدمة هذه القضايا قضية فلسطين التي احتلّ اليهود أرضها ، وسفكوا دماء أبنائها ، وشتتوا شمل شعبها .

ومنها قضية السلام مع اليهود التي صبّ الشاعر فيها جام غضبه على أنور السادات الذي وقع معاهدة سلام مع بني إسرائيل .

ومنها مأساة لبنان التي مزقتها الفتن والدسائس ، وجرت على أرضها الدماء أنهاراً ..

ولم يكن أحمد الصالح أول أو آخر شاعر عربي أحسّ بهول تلك المآسي ، وانفعل بأحداثها ، وقال فيها أجود ما واتتهُ ملكته الفنية .

ولكن أحمد الصالح أبدع في شعره القومي الذي تناول فيه تلك القضايا إبداعاً منقطع النظير بما عمد إليه من التهكم والسخرية بأبطال هذه المآسي ، ليس هذا فحسب ، ولكنه عمد إلى توظيف الموروث التاريخي للأمة العربية وغيرها من الأمم ، وتوظيف الشخصيات التاريخية ، ليتخذ من هذا الموروث التاريخي رموزاً للأحداث الجارية على أرض العروبة ، ومن الشخصيات القديمة رموزاً للشخصيات المعاصرة ، ليسخر كيف شاء بما شاء وبمن شاء ، وينال من الرجال الذين يشتهي النيل منهم ، والحطّ من أقدارهم ، من غير أن يؤخذ عليه شيء يوجب المؤاخذة أو العتاب أو العقاب !

ولا شك أن هذه براعة في الوصول إلى ما يريد تتطلب حذقاً ومهارة في توظيف تلك الموروثات ووصلها بالأحداث والنكبات المعاصرة .

وقد أطال الشاعر أو طال نفسه في تلك القصائد الرمزية طولاً ملحوظاً ، حتى تتمّ الفكرة ، وتتضح الموازنة بين الحاضر والغابر .

وأعتقد أن هذه القصائد الطوال في حاجة إلى دراسة خاصة مفصلة ، لا يتسع المقام لتجليتها ، ومنحها ما تستحق من عناية .

* * *

ولابد من كلمة عن لغة أحمد الصالح في شعره ، واللغة هي أداة المحاكاة في الفن الشعري . ومن المؤسف أن النقد المعاصر قد أهملها إهمالا شنيعاً ، إمّا جهلا ، وإمّا محاباة أو مجاملة ، وإما استخفافاً بأثرها في تقويم فن الأدب وتقديره !

وما أريد أن أذهب مذهب الجاحظ فأقول إن المعاني مطروحة في الطريق ، وإن المدار على تخير اللفظ وحسن الرصف وجودة السّبك .

ولكني أقول إنه ينبغي أن يكون هنالك تعادل بين القوى العقلية والقوى البيانية ، وإلا اختل الميزان .

والأدب في أخصر تعريفاته فن العبارة يحتاج إلى خصوصية في التفكير وخصوصية في التعبير .

ودعوى الأدب الهادف التي تقدر الأدب بمضموناته وحدها دعوى باطلة ابتدعها الشيوعيون ليصرفوا الناس عن الاستمتاع بجمال الأعمال الأدبية ، لأن الإحساس بهذا الجمال في نظرهم يصرف الناس عن قضاياهم المادية ، أو مشكلاتهم الجماهيرية .

ونحن هنا لا ننشد صحة العبارة ، لأن من المفروض أن تتوافر هذه الصحة في كل كلام . ولكننا ننشد ما فوق هذه الصحة ، ننشد الخصوصية التي نعدّ بها الكلام أدباً ، ونلحق به صاحبه إلى طبقة متميزة من طبقات المجتمع ، هي طبقة الأدباء !

وقد رأيتم كيف فشا اللحن والخطأ في لغة الصحافة ، وفي لغة الإذاعة ، بل وفي معاهد التعليم ، حتى بدا الخطأ وكأنه الأصل وأن تحرّي الصواب هو الشذوذ ، وأصبح ذلك كما يقول الأصوليون وكما يقول الفقهاء من المسائل التي تعمّ بها البلوى !

وإذا كان أوساط الناس الذين لا يرقون إلى درجة الفصاحة ، ولا ينحطون إلى درجة الفهاهة – إذا كان هؤلاء مطالبين بتحري الصواب في اللغة والإعراب ، فما بالنا بالأدباء الذين يقال إنهم أمراء الكلام ، أو أمراء البيان .

وربما كان شاعرنا أحمد الصالح من أقل الشعراء تجاوزاً لحدود اللغة وأصولها ،

وإن كانت هذه القلّة لا تعفية من التبعَة ، وهو شاعر أصيل ، اجتاز بنجاح مراحل التعليم ، وأتم دراسته الجامعية .

ومن أظهر ما وقفت عليه من أوهامه اللغوية والنحوية :

١ - في صفحة ٣٩ من ديوان « انتفضي أيتها المليحة » أربعة أبيات غزلية جميلة ، عنوانها « حديث الهوى » يقول فيها :

يحدّثني قبل أن ألتقيك هوًى بين جنبّي لا ينضبُ
وشوقٌ تمرّد في أضلعي وقلبٌ بحبّك لا يكذبُ
فلمّا التقينا وعانقِتني ودلَّلت ثغراً كما يرغبُ
تعلّمت كيف تجيء المنى وكيف أمور الهوى تغلِبُ

هذه أبيات بديعة حقّا ، لعلّ أبدع ما فيها أنه جعل التقبيل تدليلا للثغر ، أو تدليلا للشفاه ، وهو معنى جديد لم أقرأه من قبل في شعر الغزليين .

ولم يكن من العسير على الشاعر أن يستبدل بالفعل « ألْتقيك » في البيت الأول فعلا آخر بمعناه ، حتى لا يخالف لغة العرب من أن الفعل « التقى » من الأفعال اللازمة التي لا تتعدّى بنفسها ، وإنما تتعدّى بحرف الجر ، فإنهم يقولون « التقى به » ولا يقولون « التقاه » ! ..

٢ - وفي صفحة ٣٨ من ديوانه « قصائد في زمن السفر » يقول لليلاه :

أنتِ يا نقطتا غروري وضعفي أيّ شيء جهلتِه من شئوني ؟

الصواب « يا نقطتي غروري وضعفي » لأن المنادى حكمه النصب إذا أضيف !

٣ - وفي أول بيت من قصيدته « وداع » - صفحة ٢٣ من هذا الديوان - يقول لها :

افرحي ما شئتِ ، هذا قَدَري وامنحي قلبَك من شئْتيه ذُخرا

الصواب « شئته » بكسر تاء الفاعل ، والياء أو إشباع حركة الكسر من استعمالات العامة .

٤ – والبيت الثالث من القصيدة نفسها :

يوم أن كنا كعصفورين ، لا نعرف الدنيا سوى حبًّا وشِعْرا

الصواب « سوى حبٍّ وشعرٍ » . والاسم بعد سِوَى مجرور بالإضافة دائما .

٥ – وفي صفحة ٤٩ من هذا الديوان مقطعة عنوانها « عيناكِ » . وأول بيت فيها :

من قبل أن تأتينَ .. كان قلبي مرهَقاً .. وكان حبّي باهت العينين ..

٦ – ومن قصيدة عنوانها « لا .. » صفحة ٥٦ يقول لها :

أبحرْت .. في زوارق الضياع – قبل أن تأتينَ –
موجع الأنفاس .. منهك الضلوع ..

٧ – وفي قصيدته « غربة الأهداب » صفحة ٧٥ يقول لها :

فلا توقفي نبض الحنان بأضلعي فمن قبل أن تأتين لم ترتعش حبّا

يريد الشاعر أن يقول في هذه المواضع الثلاثة إنه لم يعرف الحبّ من قبل أن يلقاها ..

وقد جانب الصواب في المواضع الثلاثة بإثباته نون الرفع في فعل منصوب من الأفعال الخمسة !

٨ – وفي قصيدته « مَدَرِي » صفحة ٦٨ يحذّر ليلى ، فيقول لها :

إياكِ أن تستأصلي شبَقي أو تنزعي ذكراكِ من فِكْرِي

لم أكن أحبّ أن أقرأ كلمة « الشبَق » بلفظها ولا بمعناها في هذا السّياق الشعري الجميل .

* * *

وبعد ، فإن أحمد صالح الصالح يحرص دائماً على أن يلحق باسمه كلمة « مسافر » ، يكتبها تحت اسمه في عنوانات دواوينه ، وفيما ينشر من شعره في الصحف والمجلات ، حتى كأنه يريد أن يكون « المسافر » لقباً له ، أو علماً عليه ..

وقد يدل إيثاره هذا اللقب على إحساسه بالغربة ، ونفوره من الحياة التي يحياها ، ومن المجتمع الذي يعيش فيه ، كما يدل على شعور بالقلق وعدم الاستقرار ، وتطلع إلى حياة جديدة يحسّ فيها بالحرية والانطلاق من عالم السّدود والقيود إلى مجالات أوسع ، وآفاق أرحب ..

وتلك حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها ، فقد عبّر في شعره كثيراً عن إحساسه بالغربة ، ومكابدته آلامها ووحشتها ومرارتها حتى في تلك القصائد الوجدانية التي ملأ بها صفحات دواوينه ، وفي عدد من قصائده التي أفردها لبث آلامه في هذه الغربة ..

وذلك معلَم من معالم « الرومانسية » التي تمثّل ثورة على الأعراف والتقاليد السائدة ، وقد برزت معالمها في الآداب الأوربية منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي .

وقد ظهرت هذه المعالم في أدبنا العربي وفي الشعر بخاصة في هذا القرن العشرين ، وأصبحنا نصف بها عدداً من شعرائنا الذين برزت في أشعارهم معالم التجديد من أمثال عَلي محمود طه ، ومحمود حسن إسماعيل ، وإبراهيم ناجي ، وصالح جودت ، ونزار قباني ، وأبي القاسم الشابي ، وغيرهم من الشعراء في المشرق العربي ، وفي المغرب العربي ، وفي المهاجر الأمريكية أيضاً .

وليس معنى ذلك بالضرورة أن هؤلاء الشعراء جميعا قد قرءوا الآداب الأجنبية ، أو تأثروا بالشعراء الرومانسيين في الغرب ، فإن من شعراء العربية « الرومانسيين » من كانت رومانسيته نتيجة لظروف حياته ، ولمزاجه الشخصي ، ولطابعه الخاص ، بل إننا نصف بعض قدامى الشعراء بالرومانسية ، مع أنهم عاشوا وماتوا قبل أن تظهر كلمة « الرومانسية » بقرون كثيرة .

وأبو القاسم الشابي مثلا ، وهو معدود في طليعة الرومانسيين من شعراء العرب ، عرفنا من تاريخ حياته أنه لم يقرأ أي أدب من الآداب الأوربية ، ولم يتعلم أية لغة أجنبية ، وعرفنا أيضاً أنه تخرج في جامع الزيتونة في تونس ، ثم التحق بكلية الحقوق التونسية ، وتخرج فيها سنة ١٩٣٠ م . ومثله محمود حسن إسماعيل الذي لم يتعلم لغة من اللغات الأوربية .

وأعتقد أن رومانسية أحمد الصالح تشبه إلى حدّ كبير رومانسية أبي القاسم الشابي من حيث أنها لم تستمد من رافد من الروافد الأجنبية ، وإنما اعتمدت الاعتماد كله على طبيعته ، وعلى مزاجه النفسيّ ، وعلى الظروف التي عاش فيها ، وعلى التجارب التي خاضها ، وإن كنت لا أعرف من هذه التجارب شيئا ، ولكني أستدل عليها من طغيان آثارها الملحوظ على شعره .

ولا تكاد تخلو قصيدة من نتاجه الشعري الغزير من آثار هذه النزعة الرومانسية ، فإن شعره يفيض بالشكوى والأنين ، والتبرّم بالحياة ، ووصف آثار الهوى من الوله والهيام ، وتبريح الصبابة ، ولذة الوصل ، ولذعة الصدّ ، ونار الشوق ، وغير ذلك من آثار الحبّ العنيف ، والعاطفة المشبوبة ، والانفعالات الحادة . كما نجد في معانيه وفي أسلوبه آثار الإغراق في الخيال ..

وذلك جل ما نراه في شعره من معالم الرومانسية ، التي نفتقد من معالمها في شعره الهيام بالطبيعة ، ووصف مشاهدها ، والانطواء على النفس ، والعزوف عن المجتمعات ، والإسراف في الرقة ، والنظرات الفلسفية ، والنزعة الصوفية ، وغير ذلك من آثار الصدمات النفسية التي تنشأ عن الإحساس بالوحدة ، والشعور بالاضطهاد ، أو الإسراف في الطموح ، والإخفاق في تحقيق الآمال . وغير ذلك مما يؤثر في النفس ، ويرهف الحس ، ويثير مكامن الشعور ، فينطلق العقل الباطن ، ويحيا بصاحبه في عالم الأحلام ، أو عالم اللاشعور .

* * *

أحمد صلاح قنديل

في

ملحمة الزهراء

وحديثنا في هذه الكلمات عن عمل من الأعمال الشعرية التي صنعها الشاعر العربي الكبير المرحوم أحمد قنديل ، وهو مطوّلته التي سمّاها « الزهراء » ووصفها بأنها « ملحمة إسلامية » . وقد أنشدها في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي أقامته جامعة الملك عبد العزيز .

وما أحسب أن القنديل – يرحمه الله – في حاجة إلى التعريف ، فقد كان علما من أعلام الصحافة المتقدمين في هذه البلاد ، منذ كان كاتبا يدبِّج المقالات ، ويرأس تحرير جريدة « صوت الحجاز » ، ومن رجال العلم والتعليم منذ تخرج في مدرسة الفلاح ، وكان واحداً من مدرسيها ، وتدرّج في سلّم الوظائف الحكومية ، حتى عين مديراً عاماً لإدارة الحج .. وودّع حياة الوظائف ليزاول بعض الأعمال الحرّة .

ثم هو قبل كل ذلك وبعده شاعر موهوب ، أمدّ مكتبة الشعر الحديث بعدد من الدواوين ، منها « الأغاريد » و « الأصداء » و « الأبراج » ، و « النار » .. بالإضافة إلى ما كان ينشده من الشعر باللغة العامية ، يداعب به أحبابه ، أو يعالج فيه داءً من أدواء المجتمع ، ويعكس على صفحته صورة روحه المرحة ، وسخريته اللاذعة .

أما « الزهراء » فإنها إحدى الروائع الجياد التي أنشدت في ذلك المهرجان ، وقد تعمد الشاعر فيها الإطالة والإغزار ، ليدل على امتلاكه ناصية الشعر ، وقدرته الفائقة على إطالة النفس ، وعلى التدفق والانثيال في غير ضعف أو استرخاء .

ولعل القنديل أراد أن يعيد بذلك ذكريات الفحولة عند المتقدمين من شعراء العربية ممن يسمّون أصحاب « المعلقات » أو أصحاب « المذهبات » ومن وصفت بعض قصائدهم بالسّبع الطوال ، وإن لم تبلغ أطول طويلة فيها عُشْر ما بلغت مطولة أحمد قنديل « الزهراء » .

ولقد حاول مثل ذلك شاعران كبيران من المعاصرين ، وهما الشيخ محمد عبد المطلب في قصيدته « العَلَوية » وحافظ إبراهيم في قصيدته « العُمرية » وقد

أبدع كل منهما وأجاد ، وإن لم يبلغ واحد منهما ما بلغ أحمد قنديل في « الزهراء » من حيث السّعة وطول النفَس .

وحسبك أن تقرأ في « الزهراء » عملا شعريا واحداً ، أو قصيدة غنائية واحدة ، تبلغ عدَّة أبياتها ألفا ومائتين وخمسة وستين بيتا في غرض واحد ، وفي وزن واحد ، وعلى رويّ واحد ، ثم لا تحس إلا بمظاهر القوة والتمكّن ، وآثار سلامة الطبع ، في قصيدة ملأت أبياتها وهوامشها أكثر من مائة وثلاثين صفحة من القطع الكبير وبالحرف الصغير .

وكان من الممكن أن يستقلّ بهذه القصيدة الواحدة ديوان أو أكثر في حجم الدواوين والمجموعات الشعرية التي نشهدها في هذا الزمان .

وليس ذلك إلا دليلا على نضح الشاعرية ، واستواء الملكة ، والثقافة اللغوية الواسعة التي أفادها الشاعر بطول القراءة ، وإدامة النظر والتحصيل .

وماذا يراد من الأديب أو الشاعر سوى مواتاة الطبع ، وصدق التجربة ، والأداة الطيعة في التعبير عن تلك التجربة أو تصويرها ، وهي تلك اللغة التي تعين الشاعر على إجادة المحاكاة ، وتمدّه باللفظ المختار ، وبالتعبير الأنيق .

ولم يستطع الوزن الواحد ، ولا القافية الواحدة . وقد التزمهما الشاعر – أن يقفا عثرة في سبيل بلوغ الشاعر ما أراد من الإجادة والإتقان .

ولعل في مثل صنيع أحمد قنديل في مطولته « الزهراء » أبلغ ردّ على أولئك الذين يرون ضرورة التجديد العروضي ، وضرورة التخلص من النظام الموروث في الأوزان والقوافي في الشعر العمودي ، ويتذرّعون بدعوى أن الالتزام بذلك النسق المعهود يحدّ من قدرة الشاعر على الابتكار ، وعلى الوفاء بما يتطلبه تصوير التجربة الشعورية ، ويرجعون إلى ذلك الالتزام حرمان الشعر العربي من القصص والملاحم .

وقد ظهر أن العيب أو القصور ليس مردّه إلى طبيعة الأوزان ، ولا إلى نظام القوافي ، إذا وُجد الشاعر المجيد الذي استملك عدّة الأدب ، وأداة البيان ، لأنه هو الذي يستطيع أن ينهل من معين اللغة ، وأن يفيد من كنوزها المخزونة في خلايا ذاكرته ، ويجد فيها ما ينشد من العون على ما أراد .

وفنّ الأدب كغيره من الفنون مظهر لقدرات خاصة لا تتهيأ لكل إنسان ، ولكنها بطبيعتها وقف على طائفة من الموهوبين في كل أمة ممن توافرت لديهم الملكات والثقافات التي تعينهم على الافتنان ، وتقسر غيرهم على الاعتراف بهم ، واستحقّوا بذلك أن يسلكوا مع أرباب الفنون الرفيعة .

وليس في استطاعة كل إنسان أن يكون أديباً أو شاعراً ، كما أنه ليس في مقدور كلّ إنسان أن يكون رسّاماً ، أو مثّالاً ، أو موسيقيا . بمحض الإرادة ، أو بمحض التمنّي !

* * *

تلك بعض الخواطر التي تثيرها قراءة مطوّلة أحمد قنديل التي سماها « الزهراء » وقد التزم فيها بحراً واحداً من بحور الخليل المعروفة ، وهو بحر « الخفيف » كما التزم فيها قافية موحّدة ورويّا واحدا هو الألف الموصولة بالهاء . وقد وصفها الشاعر بأنها « ملحمة إسلامية » .

وتلتقي الزهراء من حيث الشكل بالنسق المعروف للملاحم في الآداب الإنسانية ، وفي مقدمتها « الإلياذة » و « الأوديسة » اللتان تنسبان إلى الشاعر الإغريقي الكبير هوميروس . وذلك من حيث السَّعة والطول اللذين تمتاز بهما « الزهراء » ولا نكاد نجد لها نظيراً فيهما في الشعر العربي في تاريخه الطويل ، في موضوع واحد .

وقد توافرت السعة والطول في ملحمتي هوميروس ، فإن الإلياذة تتألف من أكثر من خمسة عشر ألف بيت موزعة على أربعة وعشرين نشيداً ، أما الأوديسّة فإنها تتألف من اثنى عشر ألف بيت يقسمها النقاد كالإلياذة إلى أربعة وعشرين نشيدا .

ويصف أرسطو الملحمة بأنها حكاية مسرفة في الطول ، وإن كان لم يحدّد لها طولاً معلوماً .

وكذلك قسم أحمد قنديل زهراءَه إلى سبعة أقسام ، أو سبعة أناشيد وتلتزم الملاحم بالصياغة على الوزن المعروف عندهم بالوزن السّداسي ، وهو وزن يتألف

عندهم من ستّ تفعيلات ، وهو وزن رحب يساعد الشعراء على استيفاء المعاني التي تتألف منّها كل ملحة .

وكذلك التزم أحمد قنديل في « الزهراء » بحرف الخفيف بتفعيلاته الستّ « فاعلاتن ، مستفعلن ، فاعلاتن » في كل ضرب من الضربين كما قدمنا . وتلك هي أهم الخصائص الفنيّة التي تتصل بالأشكال والقوالب في تأليف الملاحم ، وقد توافرت في مطوّلة أحمد قنديل على النحو الذي فصلناه .

أما من ناحية المضمونات الشعرية فإن ملحمة أحمد قنديل تختلف اختلافا جوهريا عن ملحمتي هوميروس بحسب الاختلاف الجوهري في الزمان والمكان وفي العقائد وطبيعة الأمم والشعوب .

ذلك أن ملحمتي هوميروس تعتمدان على سيرة أبطال خرافيين ، وسرْد مغامرات أسطورية يعتقدها الإغريق في عصور الوثنية والضلال ، في حين أن ملحمة « الزهراء » تستمدّ أحداثها ووقائعها وسيرة أبطالها من أضواء عقيدة التوحيد والإيمان ، ومن وقائع التاريخ الثابت الصحيح .

* * *

قسّم القنديل ملحمته إلى سبعة أقسام أو سبعة أناشيد كما قدمنا ، وتخير لكل قسم منها عنوانا على هذا الترتيب :

١ – فواتح ومعابر .
٢ – الفجر الجديد .
٣ – المحمدان والدعوة .
٤ – الكيان .
٥ – الدرب الطويل .
٦ – وتكلّم التاريخ .
٧ – أصداف ... وشواطىء .

ولا تستطيع النظرة العابرة أن تلمّ بأطراف هذا الخضم الزاخر بالأحاسيس والرؤى والعواطف التي تحتاج إلى كثير من التأمل ، وإنعام النظر في سبيل التعرّف على أبعادها ، وسبر أغوارها ، واستخلاص القيم الروحية والجمالية المتوافرة فيها .

مع النشيد الأول في « الزهـراء »

لا تستطيع الكلمات الموجزة أن تنهض بالتعريف الكافي بهذا العمل الفني الكبير الذي يتمثل في ملحمة أحمد قنديل التي سماها « الزهراء » وأنشدها في المؤتمر الأول للأدباء السّعوديين ، وقد أشرنا إلى أناشيدها السبعة في حديث سابق .

وقد تكون المئونة أخفّ من هذه المئونة في دراسة ديوان كامل تكثر فيه القصائد وتتعدد الأغراض ، لأن في القليل مما يحويه ما يكفي الناقد للتعرف على معالم شخصية الشاعر ، والوقوف على مذهبه ، والمدرسة التي ينتمي إليها في صناعة القريض .

أما القسم الأول من أقسام « الزهراء » فقد جعل الشاعر عنوانه « فواتح ومعابر » .

ونحن لا نجد في هذه الفواتح أو المعابر ما كنّا نجده في المقدمات المعهودة التي تعدّ تمهيدات ومداخل إلى الموضوعات التي يراد علاجها ، ويغلب عليها طابع الإيجاز الذي ينبِّه إلى جوهر الموضوع .

ولكننا سنقرأ في هذه الفواتح والمعابر مائة بيت وخمسة وخمسين بيتا ، أي ما يساوي خمس قصائد كاملة معتدلة الطول .

ويبدأ الشاعر بتوجيه الحديث إلى عابر السبيل في تلك الرّبا والبطاح التي تخفي أسرارها على بنيها ، وهو ييمّم طيبة مدينة الرسول ﷺ ، ودار هجرته ، فيقول :

أيّها العابرُ السبيلَ إلى الدّو   حة الكبرى محفوفةً برضاها
ومُغذّ المسير للقبَس الأنــ   ـور رؤحاً ما مثلُها في ضياها
غُضَّ طرف الجلال تاقَ إلى السَّد   رة يسمو عن لحظه منتهاها
إنما أنت في المراقي أضاءتْ   بالسّنا ، بالسناءِ في مَرْقاها
في مماشى الجمال وسْط ورِيف   من ظلالٍ تفيّأتْ ممشاهـا

فلدى المفْرَق البهيِّ إلى المطَّـ ـلع من دربها المنير حماها
قفْ على هامة الطريق وكبِّره في الرَّوابي الخضراءِ من مغناها

ويأخذ الشاعر في تلك المناجاة الروحية الآسرة ، فيشرح خواطره ، ويصف ذكرياته ، وهي ذكريات التاريخ الذي أشرق من تلك البقاع ، فملأ الدنيا هداية ونورا وحكمة وعلما .

ويجردّ الشاعر من نفسه مخاطبا يوجه إليه الحديث ، وهو يسلك الطريق إلى أشرف المنازل التي كرمها الله بنبوَّة محمد ، وجعلها مِهبط وحيه الآمين فهى أجدر المنازل بالشخوص إليها ، والمقام في حماها .

أيها السّالكُ الدّروب من الكو نِ ترامت أشتاتُها أشباهـا
عدِّ عن غيرها ، ولُذْ بهواها واهْنَ بالذكريات فاحَ شذاها
وتنسّمْ عطر النبوّة وحيـاً سرمديا يضُوعُ ملءْ رُباها
إنها طيبةٌ ، وحسْبك منها أنها طيبةٌ ، ومهجرُ طاهـا
أيها القلبُ قد أظلّك والشو قُ مُلِحّ ما لاح من أفياها
أتبع الطرفَ في المسالك بالطر فِ حنينا متابعاً مسراهـا
وتحسّس ما شئت ما كان فالكو نُ خضمٌّ موشحٌ بضياهـا

ولا يسع كاتبا يحبّ الشعر ، ويتذوق حلاوة الإبداع فيه ، ويأسِره صدق التعبير عن أصدق المشاعر ، والاستغراق في مثل هذه الرحلة الروحية إلا أن يقف أمام هذه الأبيات التي استطاع الشاعر فيها أن يستولي على لبّ القارىء ، ويصله بخلجات نفسه ، ونبضات قلبه ، وهو يدنو رويداً رويداً من مشرق النور الذي شعّ فغمر الدنيا شرقا وغربا ، فيرفّ فؤاده بين جوانحه ، وتثور أروع الأحاسيس وأعذب الذكريات في أعماق نفسه ، إذ أنه ييمم طيبة مهاجر الرسول ومقامه ومثواه الأخير في هذه الحياة الدنيا ، وهي موئل البطولات التي تمَّ بها نصر الله والفتح ، ودخول الناس أفواجاً في دين الله ، وانبعثت منها مفاخر الإسلام ، وانتشرت فضائله التي أزاحت كابوس الفوضى والبغي والظلام :

خفقةً ، خفقةً ، وذكرَى ، فذكرَى ما درَى نعمة الهوى مَن سلاها

إنّ ما يعمرُ القلوبَ من الحبّ   بحبِّ النبـيّ لـيس يُضاهــى
إنها طيبـــةٌ يلاحـــق مَـــرْآ   كَ على الدرب سابقاً مرْآها
في شتيتٍ من المفاتن قد ذهّـ   ـبَ سحرَ الجلال سحرُ رؤاها
مِلؤُها الحبّ والهدى وسنا الحُسْـ   ـن مطلاً في أرضها وسماها
والبطـولاتُ والمفاخـرُ والتـا   ريخ صرحـاً مشيّدا كعلاهـا
وحياة النبيّ ترفل في الخلـ   ـد حياةً طابت لدى مولاها

وتتوالى الأبيات بعد ذلك في تيار دافق ، وفي وحدة متماسكة ، ويتصل الحديث عن المصطفى وسيرته الزكية ، وأخلاق النبوّة التي جمله الله بها ، ثم اصطفاه وأرسله رحمة للعالمين .

وينتقل الشاعر من ذلك إلى شرح عواطفه نحو تلك البقاع الطاهرة ، وهيامه بربوعها ، وما أصابه من قسوة الزمان ، وشعوره بالضياع في تلك الفترة التي قضاها بعيداً عن تلك الربوع :

باعدتْني الأيامُ عنها على غفـ   ـلةِ نفسٍ شيطانُها أغواهـا
وأرتني الأعوام طالت مدى الفقـ   ـدِ مدى جدبها وطولِ شقاها
قد توالتْ عسْراءَ بالشظف الشا   حبِ أضنتْ وجداننا لأواها

وسرعانَ ما يطوي الشاعر صفحة تلك الذكريات الأليمة ، إذا ما تبدّت لعينيه معالم طيبة ، فتهدأ ثائرته ، وتغمره فرحة الوجدان ، ونفحة الإيمان بعودته إلى تلك المرابع الحبيبة .

وهكذا عبّر أحمد قنديل عن مشاعر الشوق والحنين ، وعن رحلة الروح إلى العالم الذي ينشد فيه الشعور بالأمن وحلاوة الإيمان ..

حتى إذا تم له ما أراد من الوصف الرائع للمشاعر الصادقة انتقل بخواطره وذكرياته إلى عصور الجاهلية والظلام ، ليصف حياة الفوضى في جزيرة العرب ، وما كان يعاني سكانها من شظف العيش ، وخشونة الحياة ، وما جرّت إليه العصبيات المصطرعة ، والحروب المدمرة ، وحياة السلب والنهب ، والفخر الكاذب .. حتى يقف عند مظهر من مظاهر القسوة ، وهو وأد البنات مخافة الفقر أو العار ، ليستنكر هذه الوحشية التي يأباها الحيوان الأعجم :

ما ارتضتْه العجماءُ أمّا غيورًا وأباً مدّ .. والبناتِ الشفاها
لارتشاف الحياة حقّا لحيّ طالما جاء راغما وأتاها
أفكانت رؤيا البهائم أصفى من رُؤًى الناس لم يروْا رُؤياها ؟
كم قلوبٍ تحجّرتْ ونفوسٍ نامَ فيها ضميرُها وحِجاها !

ويطوّف الشاعر بخياله ، ويعود بذاكرته إلى التاريخ البعيد ، فيعيش مع الجاهليين في صحرائهم وخيامهم ومراعيهم ، وفي بأسائهم ونعمائهم ، ويشير إلى حكمائهم وإلى سفهائهم ، وإلى الشعراء في لهوهم وزهوهم .

ويسير مع العرب في كل مكان ، مع المناذرة في الحيرة ، ومع الغساسنة في الشام ، وقد ضيّع كل منهما معالم الأصالة ، وضل طريق المجد ، فشغلوا أنفسهم بالمباذل والملاهي وبحياة الترف ، ورضوا لأنفسهم الهوان ، يرفع هؤلاء أعلام سيادة الفرس ويحمون حدودهم ، ويرفع أولئك بنود العزّ للروم ، ويحمون حماهم ، وهم غافلون عن أمجادهم ، وعن كرامة قومهم ، فكانوا أشبه بالقطيع الذي ترعاه الذئاب .

ولم ينس القنديل رحمه الله أن يذكر بالفخار مجداً من أمجاد الأسلاف ، ويوما من أيامهم المشهودة في الجاهلية قبيل بزوغ شمس الدعوة المحمدية ، وهو يوم ذي قار الذي تجمع فيه عرب الجزيرة ، وألحقوا الهزيمة النكراء بجيوش كسرى :

ومع الليل والظلام كثيفـ ـنِ أطلّتْ إشراقةٌ ببهاها
فألاحتْ بها الجزيرة تختا لُ ملبّاً بيومها أزهاها

حتى يقول مفاخراً بذلك اليوم المشهود ، الذي يعد العرب انتصارهم فيه إرهاصاً بمشرق الفجر الجديد ، مؤذنا بوحدتهم ، ومبشراً بسيادتهم :

فالتقت عنده العروبة ، ذوداً عن حياض عزّتْ بها مغناها
يومَ ذي قار أنت رمزٌ لفخرٍ خلّدته الأيامُ في ذكراها
فلقد كنتَ للجزيرة إيما ضَ حياة تختال في مَحْياها
مثلما أنت للنبوّة إرها صُ نبيٍّ أهداك عطر ثناها

ثم ينهي الشاعر نشيده الأول بالأمل الجديد الذي يجيء بعد اليأس ، كما يبشر الفجر بالنور بعد الظلام الدامس والليل الطويل :

ربّما .. ربّما .. فيا رُب يأسٍ   كان درباً إلى الأماني ارتجاها
حكمةٌ للسماء أن يصبح الليـ   ـلُ طريقاً للفجر حين تناهَى

رحم الله القنديل وأكرم مثواه ، فقد كان مِن حقّه وحق أدبه وشعره أن يظفر بالحظ الأوفى من الدراسة المفصلة المستفيضة التي هو جدير بها ، لولا أن أعوزتنا مصادر أدبه وشعره ؛ فاضطررنا إلى هذه اللمحة التي نرجو أن يكون لها حظّ من الدلالة على مواهبه ، وعلى علّو كعبه في صناعة القريض . وقد يكون من التوفيق أن تكون هذه القصيدة « الزهراء » هي التي أتيح لنا النظر فيها ، وهي أثر من آثاره التقية المباركة . فقد كنا حراصاً على ألا يخلو كتابنا هذا من ذكر للقنديل ولو بمثل هذه الإشارة السريعة ، حتى يجعل الله من بعد عسر يسراً .

والحمد لله رب العالمين ...

* * *

حسن عبد الله القرشي

في

النغم الأزرق

« النغم الأزرق » واحد من تلك الدواوين الكثيرة التي جمع فيها الشاعر حسن عبد الله القرشي بعض نتاجه الأدبي المنظوم . وقد أصدر القرشي قبل هذا الديوان عدداً من الدواوين ، وتابع بعده مسيرته في الشوط فأصدر عدداً آخر من الدواوين فيها ثمرات شاعريته الخصبة الدفاقة .

و « النغم الأزرق » هو الديوان السّابع بين تلك الدواوين التي بلغ عددها ثلاثة عشر ديوانا فيما أعلم .

وفي هذه الكثرة الكثيرة من الدواوين والمجموعات الشعرية دلالات متعددة .

وأولى هذه الدلالات عناية القرشي بفنه الشعري الذي تمرّس به ، وبلغ فيه شأوًا بعيداً من الإجادة والإتقان ، فلم تشغله عن اتصال العناية بفنّه تلك الأسفار البعيدة إلى شتى البلدان ، ولا مقتضيات الأعمال الرسمية التي كان يقوم بها في خدمة بلاده داخل المملكة وخارجها .

وثانية تلك الدلالات هي ولوع هذا الجنس العربي ، وهيامه بفن الشعر ، واتصال العناية به منذ عصور البداوة الأولى حتى هذا الزمان الزاخر بآثار الحضارة . وكأن الهيام بهذا الفن يجري في أبناء هذه الأمة العربية مجرى الحياة في الأجساد ، ومجرى الدماء في العروق ، فلم يشغلهم عنه شاغل ، ولم يبعدهم عنه تعاقب الزمان ، ولا تعدّد الأوطان .

ودلالة ثالثة على أن صناعة الشعر وسائر الفنون بعامة ليست عملا من أعمال اللهو وتزجيه أوقات الفراغ ، كما يحسب كثير من الناس ، ومنهم حكماء وفلاسفة ومفكرون ، ولكنها الفطرة التي فطر عليها ذوو المواهب وأرباب الفنون .

وإذا كنت لا تستطيع أن تحول بين الزهرة وبين إبداء فتنتها في وريقاتها المتّسقة ، وفي ألوانها المنمقة ، وفي عطرها الفَوّاح ..

وإذا كنت لا تستطيع أن تحرم النحلة التطواف في الرياض ، والتنقل بين الزهور ، لتمتصّ رحيقها ، وتخرجه عسلا شهيا ، فيه شفاء للناس .. فأنت كذلك غير مستطيع أن تحول بين هذه النفوس الحالمة ، والأرواح الهائمة ، والعبقريات

المتوقدة ، وبين البوح بمكنوناتها من عميق الإحساس ، ورقيق المشاعر ، بما تحذق من سحر البيان .

* * *

ونعود إلى شاعرنا حسن عبد الله القرشي ، وإلى ديوانه « النغم الأزرق » .

وقد خصصت هذا الديوان بالحديث ، وهو واحد من ثلاثة عشر ديوانا أصدرها شاعرنا القرشي كما ذكرت .. وليس « النغم الأزرق » أول هذه الدواوين ، وليس آخرها ، ولكنه يتوسطها جميعاً .

وإنما يحتفي الدارسون عادة بالديوان الأول للشاعر لأنهم يرون فيه باكورة حياته الفنية التي يستدلون بها على مستقبله الشعري ، فإن الديوان الأول أشبه بشهادة الميلاد التي تحدّد خط مسيرته في حياته الأدبية على وجه التقريب .

ويحتفون أيضاً بديوانه الأخير لأنهم يرون فيه صورة مكتملة لمعالم شخصيته الفنيَّة ، بعد أن اتضحت الرؤية وتحدّد الاتجاه .

ولكني آثرت الحديث عن « النغم الأزرق » لأنه الديوان الذي أهدانيه صاحبه منذ عهد قريب ، يوم التقينا في مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في بغداد في ربيع عام ١٩٦٩ م . وتاريخ الإهداء كما سجله المؤلف في عبارة الإهداء الرقيقة ١٩٦٩/٤/٢٣ م . وقد احتفظت به بين أعزّ ما أحرص عليه من هدايا الأصدقاء الذين ينتمون إلى أهل المعرفة أو صنّاع الأدب .

وخلاصة القول في هذا الديوان الذي نشر قبل ست وعشرين سنة (١٩٦٦ م) أنه صورة لحياة الشباب التي كان يحياها الشاعر في تلك المرحلة أو قبلها ، وقد صدق فيه التعبير عن حياته العاطفية ، وتصوير شيء من تجاربه الذاتية . وكذلك يمكن القول بأن الرومانسية تتجسّد بخصائصها في تلك المجموعة من الشعر الغنائي الذي لم يستوح الشاعر فيه غير عواطفه وأحلامه .

وإذا نحن استقرأنا شعر « النغم الأزرق » فلن نجد فيه شعراً خارجاً عن ذات الشاعر غير قصيدة واحدة عبّر فيها عن مأساة فلسطين ، ونشيد آخر ألّفه لفلسطين ، وإن كان ذلك لا يعني الخروج على الذات بمعناه الصحيح ، فإن مأساة

فلسطين قد التحمت بنفوس العرب أجمعين ، وتفاعلت مع مشاعر الشعراء في مواطن العروبة في كل مكان ، حتى أصبحت إحدى التجارب المؤثرة المثيرة لانفعالاتهم وعواطفهم .

وعنوان القصيدة الأولى « كفاح فلسطين » وهي من أجود شعره ، وفيها حثّ على الجهاد ، وتفاؤل بالنصر القريب ، ومنها :

القدسُ تدعوك فلا تنْثنِ
إلاّ وللنصر رؤًى ظافرهْ
واحشدْ له من صولة المؤمنِ
ما يتحدّى الفئةَ الكافرهْ
فإنما النصر قريبٌ ، قريبْ
إذا مضينا أمةً واحدَهْ
وكلنا ليثُ حمًى غضوب
يأنفُ ذلَّ العيشةِ الرّاكدهْ

ويستطرد الشاعر إلى مدن فلسطين ومغانيها الجميلة ، وما أصاب أوديتها من الدمار ، وأهلها من العسف والضياع :

يافا وحيفا ومغاني الصبّا
عادتْ حمًى من وطني مستباحْ
ومشرق النور غدا مغرباً
أين الحفاظ المرّ ؟ أين الطماحْ
هناك في عكّا وفي المجدلِ
لي إخوةٌ ، لي ولدٌ ، لي أبُ
كم طعِنوا في الخلف في مقتلِ
وكم أهينُوا قبل أو عُذِّبوا

وقد التزم الشاعر في هذه القصيدة الشكل الذي يسمّونه (المربع) وهو ذلك الشعر الذي يقسم فيه الشاعر قصيدته إلى أقسام يتكون كل قسم منها من

أربعة أشطر . ويراعي الشاعر في هذه الأشطر الأربعة نظاما يلتزمه في القوافي . والنظام الذي احتذاه الشاعر في كل أربعة أشطر من هذه القصيدة أن يشترك الشطر الأول والثالث في قافية ، ويشترك الشطر الثاني والرابع في قافية أخرى .

ويجد الشعراء المحدثون في هذا النسق تيسيراً لا يجدونه في التزام القافية الموحّدة في القصيدة كلها كما يرون فيه تجديداً لنشاط القارىء أو السّامع ، ينشأ من تنوّع الموسيقى بتنوُّع أجراس الحروف .

ويعمد الشاعر في هذه القصيدة الفلسطينية إلى ذكر فتوح المسلمين ، فيستوحي صور البطولات المجيدة في تاريخهم ، فيذكر خالد بن الوليد ، والمثنَّى ، وعبد الرحمن الغافقي ، وصلاح الدين الأيوبي ، وغيرهم من الأبطال الذين بنوا لأمتهم أمجاداً لا يبليها الزمان ، ويدعو الخلف إلى ترسم خطاهم ليسترجعوا كرامتهم ، ويستردوا أوطانهم ومقدساتهم من أيدي الغاصبين .

وكان حريّا بالقرشي ألا يخلو هذا الديوان من ذكر لقضية فلسطين ومأساتها التي لا يكاد يخلو من وصفها ديوان من دواوين الشعر المعاصر .

أما الأداء فتبدو فيه سلاسة العبارة ، وسهولة اللفظ ، حتى ليكاد يدنو من متعارف الأوساط . ولعل الشاعر عمد إلى ذلك لينشد قصيدته في حفل عام ، تستثار فيه حمية الجماهير بما تستطيع أن تعي وأن تفهم .

أو لعلّ ما طبع عليه الشاعر من رقة الحسّ ، وسماحة النفس ، انعكست صورته على صفحة شعره .

والأسلوب هو الرجل على كل حال .

* * *

قلت إن « النغم الأزرق » هو الديوان السّابع من دواوين حسن عبد الله القرشي التي بلغ عددها فيما أعلم ثلاثة عشر ديوانا ، لأني لم أقف له على ديوان جديد بعد صدور مجموعة شعره الكاملة التي ضمت هذه الدواوين ، وطبعت في بيروت سنة ١٩٨٣ م .

ولا تهولنا تلك الأعداد الكبيرة التي نراها لأكثر الشعراء المحدثين بعامة ، وللمجددين منهم بخاصة ، لأنها دواوين صغيرة الحجم ، يضمّ كل ديوان منها قليلا من القصائد ، وعدداً من المقطعات القليلة الأبيات إذا كانت موحّدة الوزن والقافية ، أو كانت من المزدوجات ، أو من المربعات ، أو من المخمسات .

أما إذا كانت من الشعر الحر فإن كلماتها تستهلك صفحات كثيرة ، في كل صفحة منها عدد قليل من الأبيات في عدد محدود من السطور ، تتراواح الكلمات فيها بين كلمة واحدة ، أو تفعيلة واحدة ، وخمس كلمات أو تفعيلات ، إذا كان هناك التزام بالتفعيلة !

وأنا لا أخص بهذا شاعرنا القرشي ، ولكني أشير إلى ظاهرة عامة في دواوين شعرائنا المحدثين ، ودواوين شعرائنا المجددين .

وقد تحدثت عن هذه الظاهرة من قبل في كتاب من كتبي ، وأشرت إلى ديوان لشاعرة من الشواعر المعروفات يقع في مائة وعشرين صفحة من القطع الصغير ، وقلت إنه كان من الممكن أن يطبع هذا (الديوان) كله في عشر صفحات ، لأن أكثر سطوره يتكون من كلمة واحدة أو كلمتين .. وقلت إن هذا ضرب من الترف الجديد في فن الطباعة ، بل هو ضرب من الإسراف عند من يملكون الورق أو ثمن هذا الورق الفاخر الذي لا تجد نفائس الكتب ما تطبع على مثله .

وأشرت إلى قصيدة موزونة مقفاة في هذا الديوان عدة أبياتها عشرة أبيات . وقد استطاعت الشاعرة بمهارتها أو بعبثها أن توزع كلمات هذه الأبيات العشرة على ثماني صفحات من ديوانها الجميل الأنيق ، حتى يحسب ذوو النظرة العاجلة أنه من الشعر الجديد ، أو من الشعر الحر ..!!

ولست أحسب هذا خداعاً أو تمويها بقدر ما أراه دليلا على نضوب القرائح ، وإقفار الملكات ، وقصورها عن القدرة على موالاة العطاء . وهو على كل حال صورة لتلك الدعاوي والمغالطات التي تكدر صفو حياتنا الأدبية .

* * *

ونعود إلى « النغم الأزرق » الذي سمّى به الشاعر ديوانه ، وهو عنوان لواحدة من مقطعاته تقع في تسعة أبيات من الشعر الموزون المقفى . وليس شعر الديوان كله من هذا الموزون المقفى ، ولكن نصفه تقريباً منه ، ونصفه الآخر من الشعر الجديد ، أو من « الشعر الحر » .

ولا يخفي القرشي إعجابه ببعض النماذج الشعريّة التي قرأها لبدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة ، وعبد الوهاب البياتي ، وفدوى طوقان ، وصلاح عبد الصبور ، ونزار قباني ، ومحمد الفيتوري ، وبلند الحيدري الذين يعدهم روّاداً لحركة الشعر الحرّ .. ولعل هذا الإعجاب كان في مقدمة العوامل التي دفعته أو شجعته على خوض هذا الغمار ، ليلحق بالركب قبل أن يفوته القطار .

وكان القرشي قبل ذلك واحداً من المجيدين في « الشعر العصري » الملتزم بنظام الأوزان والقوافي ، وأقصد بالشعر العصري الشعر الذي ينبع من ذات الشاعر ، ويعرب فيه عن أحاسيسه هو ، وعن انفعاله بتجاربه الشعورية ، ويعبر بلغة العصر السلسة الصافية التي لا تحسّ فيها بأثر لتكلف أو تعمل في الصياغة ، ولكنك تقرأ فيها نغما صافياً عذباً مما يتميز به شعر البيئة الحجازية من زمن قديم وشعر الغزليين منهم بالرقة والسلاسة . مع حسن الرصف ، وجودة السّبك ، وصفاء الموسيقى .

وقد يطول نفس الشاعر في بعض هذا الشعر الذي يلتزم فيه بوحدة الوزن ووحدة القافية طولا ملحوظا يشعر بقدرته على التدفق ، وتمكنه من اللغة التي يصب فيها أحاسيسه وعواطفه . وإذا بحثنا عن مسالك العاطفة في « النغم الأزرق » ألفيناها تنحدر لتصب نبعها في عدد من الجداول .

وأهم هذه الجداول الطبيعة بجمالها الساحر ، ومجاليها الفاتنة ، يقف الشاعر أمامها متأملاً بهجتها ، مأخوذاً بروعتها ، يستوحي منها لوحات فنية أنيقة ، ثم يرسمها بألوان من السلسل العذب الذي يفتنّ في تخير ألفاظه ، وإحكام نسجه .

وأول ما يطالعك من ذلك في أول الديوان قصيدته الحافلة « في ظلال البسفور » وقد أجاد فيها وصف محاسن الطبيعة ومفاتنها كما رآها بعينه وانعكست إيقاعاتها على صفحة شعره ، وفي أولها يقول :

مَن عذيري ، وكم يلجّ العذيرُ
خاطري آسرٌ ، وقلبي أسيـرُ
رنّحَته الرؤى ، وكم رجّع الطَر
ف إليها فارتدّ وهو حسيـرُ
ما أراه ، أتلك أطياف حلم
أم تـراءى لناظـري البسفـورُ
عالـمٌ يفتـن الخيـال فيهفُـو
لسناه الهوى ، ويصبو الشعورُ
أىّ وادٍ أديمه ثبـجُ المـا
ءِ ، وفيـه الضيـاء والـديجورُ
بَهجٌ كالسّمـاء تحلو بها الأنـ
ـجُمِ ، وسْنى ويستفيض الحبورُ
حفّـه نـاضرٌ مـن النـبت زاهٍ
وربيـعٌ على الزمـان خضيـرُ

إلى أن يقول في وصف السفائن وهى تمخر عباب البسفور رائحة وغادية بين الجزر السندسية الخضر ، والجبال الرواسي وهى تكاد تناطح السحاب :

وترى فوقه السفائن نشوَى
ماخراتٍ تختال فيها البدورُ
كبروج من الغمـائم تـنسَا
بُ ، وفيها السعير والزمهريرُ
غادياتٌ ، روائحٌ ، ذاهباتٌ
آيبات ما نال منها المسيرُ

ثم نقرأ هذه الصورة الشعرية لنرى بأعيننا تلك الرؤى والمشاهد المختلفة بين روعة السكون ، وحيوية الحركة التي تستدعي المتابعة للفحص عن جزئيات الصورة التي تكونت منها تلك اللوحة الفنية التي أبدعتها ريشة فنان صناع :

قمم تنطح السحاب رواس لم تخضّد أشواكهن العصورُ
ضفرتْ فوقها الثلوج عقوداً زاهياتٍ وتوجتها النسورُ
زُمر من مواكب الخلق تهفو نحوها ، لفها الندى والنورُ
شاقها الدردنيل تشدو به النفـ ـس ، وأغرى أحلامها البسفورُ

وهذه القصيدة إحدى روائع القرشي ، وتدل على براعته في الوصف واستقصاء الأوصاف ، وتوليد الصور في قدرة فائقة يرتقي بها إلى مستوى الشعراء الوصافين المبدعين الذين عرفهم تاريخ الشعر العربي على مر العصور .

* * *

وتجد شاعرية القرشي في هذا الديوان جدولاً آخر تنساب فيه أحاسيسه ، وتتفجر فيه مشاعر الأبوّة الحانية على فلذ الأكباد من الأبناء والولْدان ، وهم أغلى الأشياء في حياة الآباء .

ونقرأ له ، وهو يصف ابنته الصغرى ، وقد جاءت إليه تشكو أخاها الذي وطىء دميتها ، وعبث بها (٤٩) :

أتتنى ، فيا زهرة الأقحوان ترفّ بآمال روحي الحسيره
لها اسم الحبيبة ، أمّى الرءوم وفي جرسها نغمات أثيره
وفي خطوها ، أىّ خطو صغير دلالٌ كأن فتاتى أميره
فقلت لها : يا ابتسام الربيع ويا ضوء هذى الحياة الضريره

وينطلق الشاعر في هذا الحوار القصصي الذي ترفرف في أجوائه أحر العواطف الإنسانية وأصدقها ، حتى يتحول ذلك الحوار إلى مناجاة بين روحين ، روح الأب الحاني ، وروح صغيرته المتأبية ، وهما تحلقان في أجواء الحبّ الصادق ، والدلال الآسر .

ونقرأ له ، وهو يصف ضحكات أطفاله ومرحهم ، ويشرح آثار هذه الضحكات في أعماق مشاعره ، في هذا النسق من « الشعر الحر » (٨٣) .

« بسمة أطفالي .. هي الربيع .. هي ارتعاشة الندى .. وزهوة الورود ..

وموجة الدفء إذا .. عرانى الصقيع .. تبدد الظلام لي .. كهمسة الشموع .. لنبضة القلب إذا .. هدهده الولوع .. ضحكة أطفالي .. نشيد الطير في الحقول .. تلمّ موسيقى الوجود .. تخصب السهول .. تدغدع العمر .. تخضب الأصيل بالذهب .. ترجّع الذكرى حديثا .. مورق اللهب .. تملأ قلبي اخضراراً .. تزرع العنب .. تحملني في زورق .. مجدافه الأثير .. لعالم صيغ .. من الصفاء والعبير .. ومدرج الأطفال .. حين يلعبون .. روضة زهر مونق .. تميس بالغصون ..

« تلك تصيح .. ذلك يثغو كثغاء الشاء .. يدحرج الألعاب في غباء .. وألف شيء .. ثم يطلبون .. وألف شيء .. ثم يكسرون .. صياحهم ضجيجهم .. يملؤنى فتون .. والدهم يقتلع النجوم .. في رأيهم حين يشاء .. ينسج الغيوم .. فيهم صدى طفولتي .. وثورة الحنين .. مرآة ماض غابر .. في خاطري دفين .. حياة أطفالي .. هى امتداد العمر في الحياة .. عاشوا مرفّهين .. عاشوا رافعي الجباه .. تحوطهم رعاية .. من كنف الإله .. في عالم يغمره .. الضياء والسلام ..

وهكذا تحتشد صور الطفولة البريئة في هذه القصيدة مصوّرة عبث الصغار ولعبهم وضجيجهم ، وصراخهم وعويلهم ، يحطمون كل شيء ، ويطلبون البديل لكل شيء ، لأنهم يزعمون أن أباهم على كل شيء قدير « يقتلع النجوم » و « ينسج الغيوم » !

وإلى جانب هذه الصور المتحركة الواصفة لحركات أولئك الولدان صور أخرى متحركة أيضاً لحركات نفسه التي تتابع حركات حسّه . وإلى جانب هذه وتلك بعض المعاني الذهنية التي تثيرها تلك الرؤى والمشاهد .

وأعتقد أنه كان في وسع القرشي بأسلوبه السمح وببيانه المشرق أن يصب هذه الرؤى الحسّية والأبعاد النفسية في القوالب الموسيقية التي يألفها ويجيدها في مثل ما رأيناه في قصيدته السابقة « ابنتي الصغرى » التي اجتزأنا بأربعة أبيات منها .

وأعتقد أيضاً أنه كان سيبذل جهداً أقلّ من الجهد الذى بذله في هذا « التوزيع » الموسيقى الجديد الذي لا أتحرج في وصفه بأنه يحتاج إلى « تجميع » جديد ، حتى يحسّ المتلقى تلقائيا بإيقاع الشعر وموسيقاه ، والتئام معناه الذي مزقته الصياغة الجديدة إربا .

ولا يحسبنَّ أحد أنني أصدر في هذه الكلمات عن عداوة لمحاولات التجديد في قوالب الشعر العربي ، أو سخط على أصحابها ، فإن التطور سنة الحياة . وقد يكون في هذا الجديد ما يزلفه إلى القلوب ، وما يحبّبه إلى النفوس ، من جودة المعاني ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، والإبداع في التخييل .

وهذه الخصائص لوازم ومقومات لكل عمل أدبي جدير بالاعتبار . ونحن نفحص عنها في جميع الأنساق المعروفة أو المبتدعة على السّواء .

وللقرشي إجادات في هذا النهج الجديد ، وفي هذا الديوان الذي نخصّه بالحديث بالذات قصائد حرّة نعدّها من النماذج الجيدة التي تختار من الشعر الجديد ، بما تثير في نفوس المتلقين من مشاعر الرضا والإعجاب ، وبما توافر فيها من حرارة الانفعال ، والصدق في العبارة عن تجاربه الشعورية ، وإتقان الصورة ، والإبداع في الأداء .

ومن هذه القصائد التي تختار لما توافر فيها مما ذكرت قصيدته التي عنوانها « ألم » (٩٥) . وهى تمثل موقفا من مواقف سخط الشاعر وتبرّمه بالحياة في تجربة من تجارب الألم ، والثورة على الحياة .

وفي أولها يقول :

إن نهلتُ من عصارة الألمْ
نهلتُ حتى عقّنى الندمْ
ثملتُ حتى لم أَعُدْ
أستشعر الوجودْ
ولفّني في ركبه الفراغ والعدمْ
وجفّ في قيثارتي

اللحنُ والنشيدْ
فلا تقولوا : أين أنت ؟
إنني شهيدْ !
لا تسألوا ضحية الألمْ !

ولا يتسع المجال للاستشهاد بأكثر من هذا القدر الذي يمثل المقطع الأول من هذه القصيدة المحكمة في مبناها ، الغنية بمحتواها ، المطربة بموسيقاها ، التي لم تفقد شيئا من خصائص الشعر الممتاز .

وأكثر قصائده الحرة من هذا الطراز الجيد الممتاز الذي لا أراه يقل شيئا عن أشعار أولئك المجددين الذين يذكرهم الناس في زماننا ، ولا أرى في شيئا من الإسفاف أو الابتذال الذي يقع فيه كثير من شعرائهم .

* * *

والمطّلع على « النغم الأزرق » لابد أن يستوقفه ذلك الحشد الهائل من شعر الهوى والشباب الذي برزت فيه عاطفة الشاعر المشبوبة بروزاً واضحاً .

ويبدو أن القرشي قد ألّف هذا الشعر في مرحلة شبابه حين استيقظت فيه الفتوة ودواعي الهوى . وإن كنت لا أعرف السنّ التي ألّف فيها هذه الشعْر لأن الشاعر لم يذكر فيما كتب عن تاريخ حياته سنة ولادته ، ولكن تاريخ نشر هذا الديوان (١٩٦٦) يدل على أنه نظم شعره منذ ست وعشرين سنة ، ولا أدري كم كانت سنّه قبل ذلك .

ولقد طغى هذا الشعر العاطفي على سائر الأغراض التي عبّر عنها الشاعر في هذا الديوان مما سبقت الإشارة إليه ، فإن في الديوان من شعر الهوى والحب أربع عشرة قصيدة أو مقطعة من اثنتين وعشرين من القصائد والمقطعات هي كل ما حواه الديوان .

وأولها قصيدته « سرّ المنى » (٢٥) وفيها يرى حبيبته كالموجة الهادرة ، والنسمة العابرة التي يسكر شذاها ، ويزهر هواها بأشواقه الحارة ، ونعيم حبّه ، ولحنه الفريد ، وجدوله المنساب ، ومنهله الفياض .

ولعل هذه القصيدة كانت من أوليات قصائده التي عبر فيها عن عاطفة الحب ، بل لعَلّها كانت من أوليات شعره على الإطلاق ، لأن فيها معالم البهجة والإشراق والتفاؤل كما تصورها أحلام الشباب . ثم قصيدة « النغم الأزرق » التي سمى بها الديوان كله ، وأولها :

اقتربي كالظن ، لا تقلقي
مصباحنا من طلعة المشرق
ومن عطايا الفجر أيامنا
وهينمات الحلم الزئبقي
وكالعصافير إذا غرّدت
من سكرة في روضها زقزقي
وعرّشي كالزهر ياواحتي
فخيمتي في المنحنَى الضيق

ونكتفي بهذه الأبيات الأربعة من مقطعة أبياتها تسعة . ولا يتسع المجال بعد ذلك للإشارة إلى عشرين قصيدة أو للاستشهاد بشيء منها ، ولكننا مع ذلك نقول إنها جميعا تشترك في وصف اللهفة والشوق والحنين .

والقرشي من أمهر الشعراء في استخدام الرمز الذي تراه في كل قصيدة من تلك القصائد ، وهو رمز يخفى على من يكتفون بالنظرة السريعة ، ولكن اليسير من التأمل يهدي إلى حقيقة ما يريد الشاعر مما يحب ألا يكشف عنه أو يصرّح به من الأوصاف أو المشاعر .

وفي كل ما نقرأ للقرشي نرى أمامنا شاعراً موهوباً ، مرهف الحسّ ، مشبوب العاطفة ، يعبر عن أصدق المشاعر باللفظ الأنيق والبيان المشرق الذي يدل على صفاء النفس ، وسلامة الطبع .

* * *

طاهر زمخشري
في
الخيام

هذه عبقرية من عبقريات الشعر العربي في هذه البلاد ، وأعني بهذه البلاد المملكة العربية السّعودية ، لأن الشاعر عاش ونبغ في فنّ الشعر فيها .. وإلا فإن طاهر زمخشري شاعر على مستوى الأمة العربية كلّها ، كما ينبغي أن يكون الشاعر على مستوى أمته ، ولا ينفصل عن عالم الشعر الإنساني إلا بمقدار ما ينفصل اللسان عن اللسان ، وبما تختلف عبقرية اللغات ، وبراعة الأداء في كل لغة من اللغات الإنسانية التي لها أدب مأثور .

والذين يبلغون ذلك المستوى الإنساني الرفيع أو يقاربونه في هذه البلاد ، وفي غيرها من بيئات الأدب العربي عدد قليل من الأدباء ، وعدد أقلّ منه من الشعراء !

ولسنا نشكو من القلّة في عدد الذين يزاولون صناعة الشعر ، وينشرون نتاجهم على صفحات الصحف والمجلات ، أو يجمعون شعرهم في دواوين ومجموعات ، فإنهم هنا ، وفي سائر بلاد العَربية يكثرون ، ويعدّون بالعشرات ، بل قد يجاوز عددهم المئات ...

ولكن نهضة الشعر لا تقاس بتلك الأعداد الكبيرة في بلد من البلاد ، أو في لغة من اللغات . كما لا تقاس بموالاة النشر والإذاعة ، ولا بجمع الدواوين الكبيرة أو الصغيرة ، التي يتألق ناشروها في اختيار عنواناتها ، ويفتنُّون في تخيّر الصور والرسوم والزخارف والألوان على أغلفتها .

بل إننا نستطيع أن نستدل على عظمة الشاعر وعبقريته بالقليل الذي أبدع فيه من القصائد والمقطعات ، بل بالقليل من الأبيات .

وقديماً قال بشار : مازال غلام من جحظة – وهو يعني به العباس بن الأحنف – يُدْخل نفسه فينا ، ويخرجها منّا ، حتى قال هذين البيتين :

نزفَ البكاءُ دموعَ عينك فاستَعِرْ   عيناً لِغيرك دمعُها مدْرارُ
من ذا يُعيرك عينَه تبكي بها ؟   أرأيتَ عيناً للبكاء تُعارُ ؟

فأدخلناه فينا ، وعددْناه منّا .. أي أن العباس بن الأحنف استحقّ أن يعدّ

في الشعراء المطبوعين ، بما أبدع في هذين البيتين اللذين يعبّران عن عاطفة صادقة ، وأصالة مطبوعة .

* * *

وليس من العسير في عالم الأدب والنقد أن يكتب أدباء أو نقّاد عن أدباء وشعراء ، أو يقدّموا نتاجهم أو دواوينهم ، مشيدين بهذه الأعمال وبأصحابها ما وسعتهم الإشادة ، ويثنون عليها وعليهم ما وسعهم الثناء .

وكثيراً ما يكون وراء هذه الإشادة عوامل وعوامل ، ليس من بينها الأصالة ، أو سمات العبقرية ، أو القدرة الفائقة على الإبداع .

وعلى العكس من ذلك قد يكون هنالك المجيدون المبدعون من الذين لم تتهيّأ لهم أسباب الظهور ، ولم يتح لهم أن يرتقوا أعواد المنابر ، ولم يُدْعَوْا إلى المَحافل ، ولم تفسح لهم الصحف صفحاتها ، ولم يجدوا من يتطوّع بالأخذ بأيديهم إلى العالم الفسيح ، الذي تتلألأ فيه الأسماء ، ويذيع فيه الصيت ، فعاشوا مغمورين ، وماتوا مجهولين ، ورحم الله مواهبهم التي ذهبت مع الريح إلى عالم النسيان ، أو عالم الظلام .

* * *

لا أحبّ أن يتسرّب إلى الوهم أني أقصد أن أقول إن طاهر زمخشري واحد من أولئك المغمورين ، فإني من أعرف الناس بمكانة طاهر زمخشري في عالم الشعر ، وباسمه الذي يملأ الأسماع ، وبشاعريته التي تتجاوز هذه الآفاق القريبة ، وتتردّد أصداؤها في آفاق أخرى بعيدة ، بما نشر من آثارها في الدواوين والمجموعات ، وفي الصحف والمجلات ، في شتى أرجاء الوطن العربي ، واستمتع بها الحريصون على متابعة الروائع الممتازة من عيون الشعر العربي الحديث ، بما اجتمع لها من أسباب الجودة وغزارة العطاء ، لأنها نتاج شاعرية خصبة ، وقريحة مواتية ..

وقد أصدر طاهر زمخشري من نتاج شاعريته عدداً من الدواوين ، أذكر منها : أغاريد الصحراء ، والمهرجان ، وأحلام الربيع ، والهمسات ، وأنفاس

الربيع ، وأصداء الرابية ، والرباعيات ، و « حبيبتي على القمر » ، و « في الخيام » .

وقد حظي بعض هذا النتاج الضخم ببعض الكتابات . ولكنني أعتقد أنه لم يظفر بما كان جديراً به من الدراسة والتقويم الذي يشرح مظاهر الإبداع فيه ، ويضعه موضعه من ديوان الشعر العربي الحديث .

وسأقتصر في هذا المجال على تناول مجموعة واحدة من هذه المجموعات المنشورة ، وهى ديوانه الذي سمّاه « في الخيام » .

وقد آثرت الحديث عن هذا الديوان ، لأنه مجتمع أحاسيس الشاعر نحو عقيدته ونحو وطنه وأمّته . فانعكست على صفحاته عواطف العقيدة الصافية ، والوطنية الصادقة .

ذلك أن طاهر زمخشري صوّر بأكثر الشعر الذي سجّله في هذا الديوان خلاصة مشاعر الإنسان العربي والمسلم تجاه الأحداث التاريخية التي ألمّتْ بالوطن العربي ، وهزّت كيان الأمة في مرحلة من مرا حل التاريخ الأسود القريب التي مازال الإنسان العربي يعاني مرارتها ، ويصطلي بنارها .

ولعلها أحرّ نار اكتوى بسعرها العرب والمسلمون في هذا القرن ، ولعلّ تاريخهم لم يشهد مثل هذه الكارثة منذ الحرب الصليبية .

ولقد عبّر الشاعر في حرارة وأسى عن لذعات الألم التي أثارتها تلك الأحداث ، وما جرّت من الخزي والعار والدمار على أمته العربية المسلمة .

ومن ذلك قول الشاعر في إحدى قصائد الديوان :

فيا ليالي الأسَى ضاق النهار بنا ... وقد رمانا إلى بَلْوائه الضجرُ
ممَّا نعانيه ، بل ممّا نكابدُهُ ... يَرْثي الزمان لنا والصخر والبشَرُ
ونحن في تيهنا ، والخطب يقذفنا ... إلى جحيم لظاهُ الغمّ والكدَرُ
فإن سكتنا فوخزٌ من ضمائرنا ... بِلَذْعِهِ صوتُنا المخنوق ينفجرُ
فلا يُبينُ لأن الذل كبّلهُ ... بالقيد واضعهُ في جيدنا القدرُ
فصوتُنا بحّةٌ ، والرجعُ كارثةٌ ... في مسمع الدهر من أصدائها عِبَرُ

ولا تزال بما نلْقَـى تجولُ بها فينا البصائـرُ والأقـوالُ والفِكـرُ

وإذا كان للنقد من كلمة في هذا السَّياق ، فهى أن حرارة الانفعال بالتجربة استطاعت أن تغشّى على القوة البيانية التي أعتقد أن الشاعر ذو حظ عظيم منها .

وأنا لا أقول إن في هذا الشعر أخطاء لغوية ، ولكنني أرى أن مستوى العبارة دون مستوى التجربة والانفعال بها بكثير . وذلك شيء نتردد في قبوله وبخاصة من شاعر كبير مثل طاهر زمخشري .

ومن الواجب دائما في الأعمال الشعرية أن تتعادل فيها الكفّتان ، فإن التجارب القوية الجادّة تتطلّب ما يعادلها من جودة القالب ، وقوة العبارة ، وتلك ظاهرة ملحوظة في أعمال كبار الشعراء الذين اجتمعت في أعمالهم خصوصية المادّة ، وجودة الصورة ، وهما عنصران لا ينفصلان .

اقرأ معى هذه العبارات في هذا القليل من الأبيات :

« رمانا إلى بلوائه الضجر » .

« صوتنا المخنوق » .

« صوتنا بحّة » .

« القيد واضعه في جيدنا القدر » .

ألست ترى فيها ما أراه من هلهلة النسج ، وضعف الاختيار ، وقرب هذه الألفاظ والأوصاف مما يبتذل على ألسنة العامة ، وبُعدها عن محاذاة لغة الخاصة من الشعراء المجّودين ؟

ولعلّ الشاعر لو استبدل بقوله « القيد واضعه في جيدنا القدر » ما نقترحه من وضع كلمة « أَحْكَمه » أو ماثلها موضع كلمته « واضعُه » ليصْبح هكذا « القيد أحكمه في جيدنا القدر » .. لعلّه بذلك يكون أقرب إلى ما يتوقع منه بمثل هذا التصويب الطفيف !

ثم اقرأ البيت الثاني من هذه الأبيات لترى فيه :

« ممّا نعانيه ، بل مما نكابده » ولا معنى فيه للإضراب الذي يلغي ما قبله ، فإن المعاناة هى المكابدة ، وهذا تكرار لا فائدة فيه .

والشطر الثاني من هذا البيت « يرثي الزمان لنا والصخر والبشر » .

وفي البيت الأخير « البصائر والأقوال والفكر » .

فقد رُصّت الألفاظ وتعاطفت في هذين الموضعين على هذا النحو لغير كبير فائدة إلا إقامة الوزن ، وما تقتضيه القافية ! ولو أن الشاعر نسب إلى كل واحد من هذه المتعاطفات ما يناسبه على انفراد لبانت قيمة كل لفظ من هذه الألفاظ ، ولا تّضح المعنى المقصود من إيراده ، حتى يكون ذلك المعنى هو الذي استدعى اللفظ ، ولم يستدْعِه وزن ولا قافية !

* * *

ثم اقرأ معي أبياتاً أخرى للشاعر في الديوان نفسه ، وفي الغرض نفسه ، أو فيما هو قريب منه ، لترى الفرق واضحا ، والبون شاسعاً بين قوّة التعبير في هذه الأبيات والأبيات السّابقة ، وتلمح بذوقك سلاسة العبارة هنا ، وانقيادها لمعانيها وسياقها طوعاً ، وترى التلاحم الملحوظ بين المادّة وصورتها ، في كل بيت من أبياتها :

قد سحبْنا من المذلة أذيالاً ، وصرْنا مسبَّةً للأنامِ
كلّنا أغمض الجفون من العار ، وقد كمّه الأسى بلجامِ
كان للعُرْب يومَ كانوا بطولاتٌ ، فماتت في غمرة الأيامِ
فإذا نحن في الكريهة أشْلاءٌ ، وفي السّلم بؤرة للخصامِ
نتضاغَى مثل الذئَاب على البعضِ ، ونقضي أيامنا في الصِّدامِ
فاللجاجاتُ ، والخصومةُ والإسفافُ لَفَّتْ جموعَنا بالقتامِ
فإذا نحنُ للكوارث والأحداث طُعْمٌ ، ومُضغة للطَّغامِ
لم نعدْ نحملُ الحَمِيَّة درعاً بل حملنا بقيةً من حُطامِ
وانتفضنا فسابقتْنا عوادٍ موّهتْ من طريقنا في الزِّحَامِ

ولقد أحسن الشاعر في هذه اللَّفتة إلى ذلك الداء الوبيل الذي فتّ في عضد الأمة ، وفرّق صفوفها ، وحطم وحدتها ، وأغرى بها أعداءها ، وهو اختلاف الرأي بين قادتها ، ونيل بعضهم من بعض ، والإسفاف في الخصومات ، فضيّعوا

بذلك أمجاد العروبة والإسلام ، وصاروا في الحرب أشلاءً ممزقة ، وفي السّلم ذئاباً ينهش بعضهم لحم أخيه .

ويبلغ السخط مداه في نفس الشاعر ، فيثور على أمّته التي فقدت وعيها ، ولم تنفعها كثرتها :

أمّةٌ كالرُّغاء يلفظه البحـ ـرُ ، تُباهِي بكثرة الأرقامِ
هل تساوي مع الهزيمة مثقا لاً ، ومازال حقّها في الرَّغامِ
المِئونَ المليونَ ضاع صداها في خِضَمٍّ يمورُ بالأوهـامِ
ما درتْ أنّ صوتها لم يجاوزْ بَحَّةَ الداءِ من قلوب دوامِ
والصّدَى لا يزال يحمل أنّا تِ جراحٍ ، ذبيحةِ الأنعامِ
وبأرواح من تباكوْا تهاوتْ والدبيبُ المبحوحُ في الأجسامِ
وانتحاب الثكلى ينافسُه الند بَ بكاءُ الفطيم بين الخيامِ
قد دعاه الفداءُ يطلبُ ثأراً فإذا الرجعُ صيحة في النيامِ

ولا ينسى الشاعر تلك الهموم التي تؤرّقه ، وتقضّ عليه مضجعه ، وهي في الحقيقة هموم أمّته التي تجرعت غصص الهزيمة ، ببعض ذنوبها ، وبتفرق كلمتها .

ليس ينسى الشاعر هذه الذكريات الأليمة التي تطارده في كل مكان ، وفي كل زمان ، حتى في ذلك اليوم المشهود يوم عرفة ، وهو واقف يبتهل إلى الله :

يا روابي الهدى .. ذنوبٌ جِسامٌ كبّلتْنا ، وعرقلتْ مسعانا
وإلى الله مذنبين التجأنـا واعْترفنا بما اقترفنا وكانا
فلقد مزّق التصدع شملا ولقينا من العدا عدوانا
وانتبهنا على الكوارث ترمي بشُواظ لهيبه قد كوانا
فإذا نحن للحوادث طعمٌ وإذا الهول كاشراً يلقانا
وارتشفنا من الهزيمة كأساً عاد كلّ بِمُرِّها غَصّانا
وارتمى في الطريق يطلب نصراً بعد أن حطم العثار قوانا

ويعبّر عن تلك المشاعر الآسية التي آدت كل مسلم ، فلم ينس أهل عرفة

مناجاة ربهم في ذلك اليوم المشهود الذي اجتمع له المسلمون من كل فجّ عميق ، يستغيثون ربهم ، ليكشف الغمّة ، ويهزم جحافل الكفر والعدوان ، حتى لقد شاركت الأرض والسّماء في هذا التضرّع إلى الله :

فالرّوابي الوضاءُ ياربّ ضجّتْ   بالملبيّـن أسلمـوك العِنانـا
تطلب النصر ، تبتغيه نوالاً   فلقد كبّل الهوانُ خطَانـا

* * *

وإذا كانت للقدس منزلتها العظمى في قلوب المسلمين ، بما تحمل من ذكرياتهم في أول عهد الدنيا بإشراقة الإسلام ، إذ كان فيها المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ، وأسْرِى بنبيّنا محمد ﷺ إليه ، وكان القبلة الأولى التي ولّى المسلمون وجوههم شطرها في صلاتهم ... وإذا كان اليهود البغاة قد دنّسوا تلك المعالم الطاهرة المباركة ببغيهم ... فإن القدس لقيت عناية واضحة من الشاعر في هذا الديوان ، فذكر محنتها ، وردّد الأمل في استنقاذها ، وتطهيرها من رجس العدوان في أكثر من موضع من شعره .

وفي هذا الشعر تحسّ وخزات الأسى لما حلّ بتلك الربوع من هوان ، كما تقرأ استنفار الشاعر لأمته ، حتى تستردّ مقدساتها ، وتذود عن حماها ، في مثل قوله :

يا دعاة السّلام .. أين السلامُ ؟!   وعن القُدس قد أُميط اللثـامُ
فـإذا بالبغـاة فيـه استباحــوا   حُرُمات عن قُدسها قد تعامُوا
دَنَّسُوا طُهرها ، ودكّوا المحاريـ   ـبَ ، وأنتم عمـا أتوه نيـامُ
ولقـد طـال بالدَّعِــيّ التمادِي   ومـن الثـأر في دمانـا ضِرامُ

وربّما كانت حدّة الانفعال بالتجربة أو بالمأساة والاستغراق فيها سببا في ارتكابه تلك الضرورة التي لا تسوّغها مقاييس العربية ، بضمّه الميم في لفظ القافية « تعامُوا » في البيت الثاني ، على حسب ما تقتضيه حركة الروِيّ في القصيدة ، وهو يعرف أن الصواب فتحها ، لأن الفعل « تعامَى » معتلّ بالألف ، وهي تحذف عند الإسناد إلى واو الجماعة ، ويفتح ما قبلها . وما أظنّ أن مثل ذلك مما يخفى على الشاعر الكبير .

ويعبّر الشاعر في قصيدة أخرى عن الآمال التي تراود قلوب المسلمين والعرب في استخلاص القدس وغيرها من الأرض العربية التي أغار عليها بغي الصهاينة ، ولا ينسى « القدس » بالذات بين تلك البقاع العزيزة على كل قلب يرفُّ بحبّ دينه ووطنه ، فيقول في إحساس عميق ، وفي شعر رقيق :

يا ذُكاءً من سماءِ المغربِ ولها الإسفارُ من أرض النّبِي
والتقاءُ الشمل في إشعاعِها يحملُ النصر لدنيا العربِ
فالبطولاتُ التي قد وثبتْ تتحدّى الخَطْب لا بالخُطبِ
بل بإقرار سلامٍ دائمٍ واستلامُ القدس بعضُ النَّشبِ

والواضح من سياق هذه الأبيات وما سبقها من أبيات أن هذه الرباعية أملتها تحية اقتضتها إحدى المناسبات .

ولعلّ تلك المناسبة كانت عقد أحد المؤتمرات الكبرى في المغرب ، للبحث في قضايا العروبة ، وفي مقدمتها قضية فلسطين .

وقد أحسن الشاعر في قوله إن شمس المغرب تستمد إشعاعها من أرض النبي والمقصود هو نور الإسلام الذي شرّق وغرّب ، حتى ملأ الآفاق هداية ونوراً .

وعندي أن هذا المعنى القريب أقرب من قول مهيار في بعض مدائحه :

لمْ تألف الأبصارُ من قبلِها أن تطلعَ الشمس من المغربِ

فإن مهياراً قد بالغ في تصويره حتى جعل الشمس تطلع من المغرب ، وإن كان مثل ذلك التخيل مما يستحبُّ في دنيا الشعرِ ، لاسيّما بعد هذا التقديم الرائع في قوله إن الأبصار لم تألف مثل ذلك من قبل .

وقد تسمَّح شاعرنا في قوله « واستلام القدس بعض النشِب » فجارى العرف الشائع في استعمال « الاستلام » في معنى الأخذ والاستيلاء . والعربية لا تعرف « الاستلام » إلاّ بمعنى اللمس ، يقولون : استلم الحاجّ الحجر الأسود بالكعبة ، إذا لمسَه بالقبلة أو باليد . ولست أظن الشاعر يريد مثل هذا المعنى في عبارته إلاّ بتأوّل بعيد ، لأنه لا يريد إلاّ أخذ القدس ، واستخلاصها من أيدي الأعداء الغاصبين .

ولقد تعلّقت أماني العرب بما يسمّى « مجلس الأمن » وظنوا أنه الملاذ الذي يعيد الحق إلى نصابه ، ويردّ لهم ما ذهب من أرضهم وكرامتهم ، ونادوا بالحق المغصوب ، فلم تجْد صيحات المنابر ، ولا استعطاف الأقوياء ، وذهبت آمالهم أدراج الرياح . ويعجب الشاعر لهذا المجلس ، ويتهكم به في مرارة ، حيث يقول :

يا مجلس الأمن ، يا من لا قرار له ... إلاّ متى انفجرتْ في الأرض طَخْياءُ
أين المواثيق ؟ هل أغفت مقاطعها ... على القراطيس ؟ أم قد خطّها الماءُ ؟!
يا وعدُ .. يا عهدُ .. يا آمال مرتقب ... عما أصابكُمُ لم تسْرِ أنباءُ !
سل الضمائر مَن بالموت داهمها ... في مجلس الأمن ، والحرّاس أعضاءُ ؟!

وبعد هذا التهكم اللاذع بمجلس الأمن الذي يجمع اليسار واليمين ، يقول الشاعر ما لم يتبيَّنه أكثر العرب إلا بعد سنين ، وهو اشتراك الطرفين في المأساة التي زلزلت كيان العرب :

ضِدّان كانا سَوِيّا في مؤامرة ... قد أنجزاها ، وبعض الغُنم سَيّئاء !

ولا تعجبني مجاراة الشاعر لما درج عليه الناس من استعمال « سَوِيًّا » في معنى الصحبة أو المعيّة ، فإن « السَّوِيّ » في لغة العرب هو التامّ الكامل و لم أسمعها بمعنى الصحبة أو المعيّة في كلام عربيّ صحيح يُعتدّ به !

وهذه ملاحظة هامشية ندعها لنعود إلى الشاعر الذي يشرح لأمته الطريق الحقيقي لبلوغ آمالهم . ولا طريق إلا طريق التضحية والفداء ، الذي يعرفه الأباة الأحرار ، وهو طريق وعر حقّا ، ولكن الأحرار يأبون الدنيّة ، ولا يرضون بالهوان ، ويرخصُون أرواحهم في سبيل كرامتهم :

أين الفدائيّ منها كلّما زحفَتْ ... به التخومُ انجلَى عنها الأذلاّءُ
وأينَ ؟ لا أينَ ! فالدنيا بما رحُبتْ ... إن أرهفَ العزمَ ضاقت فهو مضّاءُ
قد أرهفتْه العوادي فهي تنكؤُهُ ... وحركتْهُ الأعادي فهو مشّاءُ !
يشقّ في الليل من أكبادها طرقاً ... وفي مقاتلها قد طاب إسْراءُ
في صدره لهبٌ ، في كفّه لهبٌ ... ضجَّتْ بلافحِهِ المشبوبِ صحراءُ
وكلّ كهف له في جوفه سكنٌ ... وفي التلال منـاراتٌ وأفيـاءُ

باتتْ تُريه دروباً سدّها عبثٌ أدار فيها الرّحَى ، والعينُ عمياءُ
فأسفر الصبح مشبوبَ الضياء بما ضوَّى بِه الثأرُ لما استَفحل الداءُ

إنّ صدق الإحساس بالكارثة هو الذي أوحَى بهذه المعاني الحماسية القوية التي طلبت ما يناسبها من الألفاظ الجزلة ، والعبارة القوية ، والصور الدقيقة .

والشاعر هنا لا يبدو ناظم ألفاظ ، ولا مهندس تراكيب . ولكن حدّة الانفعال وصدق الشعور هما اللذان استحضرا هذه المعاني ؟ ومعها العبارة عنها .

* * *

تلك هي الروح السائدة في أكثر شعر هذا الديوان الذي يكاد يختص بكارثة فلسطين وهزيمة العرب بكل ما يلازمها من مقدمات وأحداث ونتائج ، حتى لقد يحار الكاتب فيما يتخير من هذا الشعر الذي يفيض بالعاطفة الوطنية ، والتفاعل مع الأحداث التي ألمّت بالمسلمين والعرب في كل مكان .

ولكنّه لم يقف عند وصف تلك الأحداث ، وسفح الدموع من أهوالها ، بل إنه دعا في هذا الشعر الحماسي الملتهب إلى الجهاد في سبيل العقيدة والوطن ، وعاش مع كل قلب من القلوب المؤمنة بحقها ، الثائرة لكرامتها . ولذلك كانت ثورته مصحوبة دائماً ببريق الأمل في النصر ، إذا صدق العرب العزم ، واسترخصوا المهج والأرواح .

إنها عاطفة الوطنية ، وهي من أشرف العواطف ، وأنبل الفضائل ، إذ أن منفعتها تمتدّ إلى الغير ، ولا ينال صاحبها أكثر مما ينال غيره ، وفي أكثر الأحيان لا ينال هو شيئا . ولكن الفضيلة في الغضب للحق ، وفي الثأر من العدوّ .. وقديما قال أرسطو إن عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم ، لأن مقابلة المثل بالمثل عدالة ، وكل عدل جميل . وقال إن الشجعان لا يرضون الهزيمة ، وإن الانتصار وإحراز الشرف جميل ، ولو لم يعد علينا بفائدة مادّية لأنه مظهر من المظاهر العالية للفضيلة ... ولهذا رأينا شاعرنا داعية للجهاد ، وغسل العار . استمع إليه في قصيدته التي يوجّهها إلى « بني الضاد » لترى هذه المعاني الحماسية التي تنبض بالحركة والحياة ، وترفض الخزي والاستسلام :

يا بني الضاد ، يا حُماة الذمارِ اغسلوا بالدماء ذلّ العــارِ
قد شربنا مع الهزيمة هُوناً فاحملوا النصر فوق خطّ النارِ
أوَ مـا آن للبطولـة فيكــم أن تُرينا انتفاضة الجبّـار ؟
فمتى نسمع البطولة تدعو صانعي مجدها لخوض الغمارِ ؟
وتُرينا عند اللقاء التحـدّي لغُـزاةٍ توغّـلوا في الديــارِ
يا بني الضاد صولة الحق حانت بعد أن جال باطل الفُجّارِ

* * *

وقد استطاع شاعرنا أن يكشف عن العوامل الفعالة في شخصيته وخلقه ومشاعره ، والموجهة لشاعريته وفنّه . وهى خلاصة تلك المآثر العربية ، وآداب الإسلام ، وبيان القرآن .

لقد سجّل كل ذلك في أول قصيدة من قصائد هذا الديوان ، وقد سمّاها « في ظلال الإسلام » .. وقال إنها مرفوعة من أطيافه الجميلة إلى راعيها الفيصل المحبوب ، أكرم الله مثواه ... وأوّلها :

المواثيق سطور مـن دمانــا والبراهين حقول في حمانــا
أخصبت من يده وازدهرتْ ثم أعطتنا فجاشت بهوانــا
وانطلقنا نحصد الخير ، وقد هتف الداعي ونادى فشجانا
فارتوينا مـن تـرانيم الهوى وانتعشنا فسكبنا من دمانا
أغنياتٍ كلّما الرجع سرَى يتحدّى الدهر أن يقفو خُطانا

ثم يقول :

عربٌ ، لا نعجم القول ، ولا نُلْبِسُ الأشياء زيفاً ودِهانــا
أو نماري إن أردنا حُجَّةً أو نمدّ الغدر سهما وسنانا
جارُنـا الأكـرمُ في جيرتــه وجِوارُ البيت أعلانا مكانا
والقداساتُ التي في أرضنا من معانيها انتهلْنا من صبانا
فعرفنـا كيـف نرعـى ذمماً وتَطَهّرنَـا نفـوسًا ولسانــا

وإنك لتقرأ هذا الشعر المطبوع الذي يتدفق من شاعرية أصيلة ، يمدّها نبع

ثرٌ من الألفاظ المختارة ، والقوافي المحكمة ، والمعاني الجياد .

وإذا كان هذا الفيض من الشعر العذب الجميل يدخل في باب المديح ، كما يبدو من مقدمته ، فقد رأيت أنه لم يقف عنده ، وأنه ليس من ذلك المديح المتكلّف المصنوع الذي تمليه الرغبة ، أو تدفع إليه الرهبة .

ولكنه مديح أملته مشاعر الحب الصادقة لتلك الشخصية الفذة في التاريخ المعاصر للمسلمين والعرب . وقد اجتمعت في تلك الشخصية - شخصية الملك فيصل رحمه الله - مآثر العرب النبيلة ، وفضائلهم النفسية التي تتجلّى في المروءة والشجاعة والنجدة ، وفي الحفاظ على المثل الرفيعة التي ورثوها عن أسلافهم الأمجاد ، ثم أشرقت عليها شمس الإسلام فصقلتها وهذبتها ، وزادت جوهرها وميضاً وإشراقاً ، وسارت بها في مجراها الإنساني ، لتثبت لأصحابها بها العزة والمجد والكرامة ، وتملأ الدنيا حكمة ونوراً يفيض على البشرية في كلّ زمان ومكان .

* * *

عبد الله بن محمد بن خميس

في ديوان

على ربا اليمامة

أصداء من قلب جزيرة العرب

عبد الله بن محمد بن خميس واحد من رجال العلم والفكر ، وشاعر من أقطاب الشعر ، وحملة الأقلام في المملكة العربية السعودية .

سمعت اسمه وأنا في بلدي يتردّد بين شعراء العربية في المملكة قبل أن أفد عليها . وتفضّل عليّ في الرياض بنسخة من موسوعته الشعرية التي سمّاها « الشوارد » وأصدرها في مجلدين كبيرين جمع فيهما خلاصة ما استحسن من تراث الشعر العربي ، حمّلها واحداً من تلامذتي في الدراسات العليا ، وحمّلته شكري للشيخ ابن خميس على هديته الثمينة .

ثم قرأت لابن خميس في صدر إحدى صحف الرياض مقالاً شجاعاً ينتصر فيه لشعب الكنانة ، ويشيد بجهده وجهاده في خدمة العرب والمسلمين ، ويتصدّى فيه لحملات ضارية ظالمة شنّتها عليه بعض الأقلام التي ركب أصحابها موجة التجديف في حق مصر وشعبها .

ولست أخفي أن هذا المقال قد وقعت كلماته المنطقية الهادئة أجمل موقع من نفسي ومن نفوس أبناء الكنانة ، ومن نفوس المنصفين من أبناء الأمة العربية . ولم يستطع واحد من أولئك المجدّفين أن ينقض لابن خميس قولا ، أو ينكر عليه رأيا ، على كثرة من كانوا يتصدّون للمنصفين من أمثال ابن خميس الذين كانت كلماتهم أشبه بالعزاء في مواكب الشهداء !

ولقيت عبد الله بن خميس على غير موعد في مكان حبيب إلى قلبي وحبيب إلى قلبه ، في القاهرة في دار العقاد في مصر الجديدة . وكان قد ذهب إلى القاهرة لشهود المؤتمر الذي يعقده مؤتمر اللغة العربية لأعضائه في كل عام .

وسعدت بذلك اللقاء المفاجىء ، ولم يسعني في وقته القصير إلا أن أعبّر للرجل عن شيء من مشاعري نحوه ، وصدى مقاله المذكور في نفسي .

وفي الرياض تفضل ابن خميس فأهدى إليّ نسخة من ديوان شعره « على

رُبا اليمامة – أصداء من قلب جزيرة العرب » .. ثم تفضل الصديق الأديب الأستاذ محمد بن عبد الله الحمدان بأن أتاح لي ولصديقي العلامة الأستاذ عبد العزيز الرفاعي الفرصة لزيارة الشيخ ابن خميس في مزرعته القريبة من « الدرعية » فألفيناه في مجلسه العربي أمام داره في جماعة من أصحابه . وأحسست بكثير من السّعادة في تلك السّاعة التي قضيناها معه في وقت الأصيل ، ووددت لو أن تلك الساعة طالت واتسعت للحديث في الأدب والشعر . ولكن حال دون ذلك دنوّ الشمس من المغيب ، واضطرارنا للعودة إلى الرياض .

ولقيته بعد ذلك مرّات قليلة في بعض المناسبات ، ومنها الحفل الكبير الذي أقيم لتكريمه وتكريم صاحبيه الشيخ حمد الجاسر والمرحوم الشيخ أحمد السباعي يوم حصولهم على أول جائزة تقديرية تمنحها الدولة للروّاد الذين أسهموا في بعث الحياة الأدبية في المملكة العربية السعودية .. ومنها بعض المحاضرات أو الندوات التي كان يشارك فيها ، وكان أكثرها يدور حول الشعر الشعبي الذي يسمونه « الشعر النبطي » .. واستمعت إلى بعض أحاديثه الإذاعية التي كان يجيب فيها على أسئلة أدبية يتوجه بها إليه بعض السائلين .

* * *

تلك هي الفرص التي سنحت لي للقاء الشيخ الأديب العالم الشاعر عبد الله ابن خميس طوال المدة التي قضيتها في الرياض ، وهي كما ترى فرص قليلة لم تسمح لي بالرؤية الكافية للتعرّف على جوانب تلك الشخصية التي أتاحت له تلك المنزلة في عالم الشعر أو في عالم الفكر في المملكة العربية السّعودية .

ولا يتسع المجال للعتب أو الاعتذار عن هذا القصور أو التقصير الذي أرانا معاً نتقاسم المسئولية عنه .

ولا شك في أن التعرف على الجوانب الشخصية للمفكر أو الأديب أو الشاعر والوقوف على سيرته الذاتية من أهم ما يعين الكاتب أو الناقد على بلوغ ما يريد من الحكم الصحيح ، ويمنحه القدرة على التحليل والتعليل للظواهر البارزة

التي يقف عندها في شعر الشاعر أو أدب الكاتب ، ويمكنه من رسم صورة صحيحة له ، أو أقرب ما يستطاع من الصحة والصواب .

ومع ذلك قد يكون الخير في أن تستخلص معالم الشخصية من نتاج صاحبها ، وأن ندع الشعر يتحدث عن الشاعر ، فإنه السِّجلُّ الذي سيبقى مع الأيام ، وسيظلّ يحكي تجارب الشاعر ، ويصف آلامه وأحلامه في حياته وبعد مماته . بالإضافة إلى « التجرد » المنشود في عملية النقد والتقويم . وهذا « التجرّد » يفرضه على الناقد بُعده عن عوامل الرضا أو أسباب السّخط التي قد تؤثر عن قصد أو عن غير قصد في نزاهة الأحكام .

* * *

ومن الأقوال التي تتردد في كتابات علماء الأدب ونقّاده أن الأسلوب هو الرجل ، أو هو الكاتب ، وأن الشعر هو الشاعر .

ولست من الذين يؤمنون بهذا القول على إطلاقه ، ولست أقبله على علاّته ، فإني رأيت كثيراً من حملة الأقلام لا يكتبون ما يعتقدون ، ورأيت كثيراً من الشعراء – وبخاصة في هذا الزمان – لا يصدقون فيما يعبّرون به عن أنفسهم ، فتتوارى شخصياتهم الحقيقية وراء الضباب الذي يحجب عنهم رؤية أنفسهم ، ويحول بينهم وبين التعبير الصادق الأمين عن تجاربهم ومشاعرهم ، ومن ثَمَّ يحجبون عن قرائهم معالم هذه التجارب أوَ المشاعر كما عانوها ، وكما أحسّوا بها .

وتلك هي الثنائية أو ازدواج الشخصية التي تنفر منها روح الفن الأدبي ، لأن الأديب يتقمص شخصية إنسان آخر ، وتلحق فن الأدب بفن التمثيل الذي يلبس فيه الممثلون لكل مسرحية لبوسها ، ويشكلون وجوههم وحركاتهم ونبرات أصواتهم بما يلائم الأدوار التي اختارهم لها المخرجون .

والعوامل التي يفقد بها الأدب والشعر ما ينبغي أن يتوافر فيهما من التعبير عن حقيقة الرأي ، أو حقيقة الاعتقاد ، أو الصدق الشعوري ، كثيرة في مقدمتها ما يمكن أن نسميه « النفاق الاجتماعي » الذي يتمثل في محاولة الكاتب أو الشاعر

أن يرضي بكتابته أو شعره من ينفعه رضاهم ، أو يؤذيه سخطهم ، سواء كانوا أفراداً أو جماعات .

ومنها الإدلال على جمهرة المتأدبين من قومه باصطناع ما يرى أنه غريب لا عهد لهم به ، وأنه متفرّد بمعرفة ما لا يعرفون . وليس المقصود بالإغراب هنا إغراب اللفظ ، أو إغراب التركيب . ولكن المقصود غرابة المعاني ، وغرابة الأحاسيس والمشاعر . وليست غرابة الاختراع أو الابتداع ، ولكنها غرابة السطو ، وغرابة المحاكاة .

ألست ترى شعراء في زماننا ينشدون ألحاناً غريبة عليهم قبل أن تكون غريبة على غيرهم . إنهم في هذا يشبهون الببّغاوات التي تردّد أصواتاً لا تعنيها ، أو يشبهون – كما شبّههم سقراط قديما – راقصات « باخوس » اللائي يتثنّين ويترنّحن ويهذين بكلمات لا يفهمن معناها ؟!

وقد أصبح كثير من شعرائنا يرددون أسماء لا يعرفونها ، ولا ينتسبون إليها ، ويصفون تجارب لم يخوضوها ولم يتأثروا بها ، ويلوكون أساطير وخرافات ليست من أساطيرهم ، ولا تمتّ إلى تراثهم بسبب من الأسباب ، بدعوى التجديد ، أو بدعوى « الحداثة » .

وأنا أفهم « الحداثة » على أنها تعبير الأديب عن نفسه ، وعن الحياة التي يحياها ، وعن المشاعر التي يحسّ بها ، وعن الجديد الذي رآه أو عرفه إذا انفعل به أو تفاعل معه ، وأصبح تجربة من تجاربه الذاتية ، أو تجاربه الشعورية .

ولا أستطيع أن أتصوّر « الحداثة » التي أصبحت « موضة » بعض الألسنة وبعض الأقلام في هذه الأيام على أنها خروج الشاعر عن طبيعته ، أو استبدال تجارب الآخرين وعواطفهم وأفكارهم بأفكاره وعواطفه وتجاربه ، لأن ذلك شبيه بتعرّيه عن ثيابه ، وخروجه من إهابه ، يشبه خروج الثعابين عن جلودها ، أو أنه خروج من عالمه ودنياه إلى عالم آخر غير عالمه ، وإلى دنيا جديدة لا عهد له بالحياة فيها ..

وكيف يحتفظ الغصن برونقه ونضارته ؟ وكيف يزدهر ويثمر إذا بُتر من شجرته ؟ وكيف تبقى للشجرة حياة إذا استؤصلت من جذورها ؟

* * *

هذه مقدمة لا أراها تتسع لبسط هذه الخواطر التي يثيرها الحديث عن شخصية الشيخ عبد الله بن خميس كما تبيّنت لي ملامحها التي صوّرها في مجموعة شعره التي نشرها في ديوانه « على رُبا اليمامة » .

وأهم ملامح هذه الشخصية كما تفصح عنها تلك الصورة أنها شخصية الإنسان العربي الذي يعيش في قلب الجزيرة العربية ، ويتنقل بين ربوعها ، ويرحل من بواديها إلى قراها ، ويسرح بطرفه في جبالها ووهادها ، ويرعى شيحها وقيصومها ، ويشمّ عرارها ، ويلقى عشائرها ، ويتحدث إلى شيوخها ..

وهي شخصية الإنسان العربي بملامحه وبمشاعره وأحاسيسه نحو وطنه في ذرا نجد ، وفي المملكة العربية السعودية ، ونحو أمته العربية في كل مكان ، يعدّد مآثرها ، ويباهي بأمجادها ، ويتحسّس آلامها ، ويبكي لما وصلت إليه من هوان وتمزّق وشتات ، ويستثير نخوة أبنائها لينهضوا من عثارهم ، ويستعيدوا أمجادهم ، ليلحقوا بأسلافهم عزّة وكرامة ..

وهي شخصية المثقف العربي الذي يعي تاريخ أمته ، ويجيد لغتها ، ويحفظ شعرها وأدبها وتاريخها ، ويستمسك بالموروث من قيمها ، وآثار فكرها ومعرفتها .

ثم هي أخيراً شخصية الشاعر العربي الذي أودع شعره ثمرة تلك الثقافات وعناصر هذه القيم والمقومات ، وخلاصة تجاربه ومعاناته في الحياة ، وصوّر فيه عواطفه وأخيلته تصويراً يتصف بالبساطة ، ويبعد عن التكلّف والتعقيد والالتواء ، ولم تستهوه بدعة « التحديث » أو « الحداثة » في قوالب الشعر ، أو في مضموناته .

والذي أريد أن أخلص إليه من هذا أن أؤكد انتماءه العربي ، واعتداد الرجل بهذا الانتماء الذي حاول كثير من شعراء العصر في بيئاته المختلفة ، بل وفي المملكة

العربية السّعودية ذاتها مواراته بدعوى التجديد ، وهو في حقيقته ليس تجديداً تدفع إليه مواهب ذاتية ، وإنما هو « اجتلاب » أو استيحاء أصداء بعيدة عن عوالم أولئك الشعراء ، وعن واقعهم الذي يحيون فيه !

ولم أجد في صحبتي لديوان ابن خميس إلا ما يؤكد هذا الانتماء الذي أشرت إليه . ويطالعك أثره في العنوان الذي تخيّره لهذا الديوان ، فترى فيه « الرُّبا » التي أشرف منها على تلك الربوع المترامية الأطراف . وترى فيه « اليمامة » التي عاش فيها ابن خميس ، ومايزال يعيش على أرضها ، ويستظل بسمائها . وقد ألَّف « معجم اليمامة » الذي أحصى فيه عامرها وغامرها ، وبواديها وأوديتها وقراها ، وأحياءها ومرابعها .

وتجد كل بقة من بقاع الجزيرة موضعاً لها في قلبه ، ومنزلة في ذهنه ، وبخاصّة ما زاره من تلك البقاع ، أو كانت له حياة فيه ، أو ذكريات بعيدة أو قريبة عزيزة عليه .

اقرأ قصيدته « في وادي ابن عمار »[1] التي يقول في أوّلها :

في منحنَى العرض من وادي ابن عمّارِ ... أوقفتُ في ربعه المأنوس تَسْياري
حيثُ الصِّبا عشتُه غضًّا بسَاحتِهِ ... وحيث عُمَّارُ هذا الربع سُمَّاري
وحيثُ أهلي وجيراني وناشئةٌ ... نازعتهمْ فيه أطواري وأوطاري
وانشق من رَملِه مهدي وألهمني ... حُبًّا تمسّك أعماقي وأفكاري
إنّي وإن شطَّ بي عنه النوى زمناً ... وناءَ بي عنهُ ترحالي وأسفاري
لأفتديه وما أبغي به بدلاً ... من شِعْب بَوّانَ أو من رَبْع سنجارِ

لترى آثار ذكريات غالية انبعث عنها هذا الحنين الذي تراه إلى عهده الأول بين لداته وأهله في ربوع ذلك الوادي .

ولا ينسى الشاعر معالم ذلك الوادي ، ومنها « جبل طُوَيق » الذي عاشت ظلاله قبائل شتى وبطون من العرب . ومنها « وادي حنيفة » الذي تفيض مياهه ، فتحيي موات أرضه ، وتسقي زروعه وأشجاره ورياضه:

أحببْ بسفح « طويق » إنه جبلٌ ... ممراعُ مجدٍ لمعتامٍ ومشتارِ

(١) على ربا اليمامة ٢٩٣ .

تفيَّأتــه « تميــمٌ » في فتَوَّتِهــا | واستقدَّحتْ من ذراه زَنْدَهَا الوارى
و « عامرٌ » و « قُشيرٌ » والألى سلفوا | من «جَعْدةٍ» في رُبا «كرز» و « هدّار »
ومن « حنيفة » حيث العِرْضُ مرتفقاً | يفيض في عُدْوتيه ماؤه الجاري
يسقى به كل عمّاء وباسقـة | وروضة بضّةِ الأردانِ مِعْطــارِ
مِعْطـاء جـودٍ لمرتـادٍ ومُرتبـعٌ | لِمُمْحِـلٍ وميـازيبٌ لمتــارِ

وإذا كان أثر الانفعال بالتجربة التي تثيرها الذكريات يبدو واضحاً قويّا في الأبيات الأولى فإن أثر هذا الانفعال تخفّ حدّته في هذه الأبيات التي اقتصر الشاعر فيها على الوصف المجرّد لما يقع تحت حسّهِ من الماء والشجر والنبات ، وعلى سرْد أسماء بعض القبائل التي كانت لها حياة في تلك الربوع .

ولعل السبب في خفة أثر الانفعال بهذه المشاهد هو أن معالمها مألوفة عند الشاعر ، وليست غريبة عليه ، لأنها لم تغب عن ناظره .

وإنما تستعر لواعج الأشواق ، ويضطرم الحنين إلى المعاهد عندما تغيب عن الحسّ ، وعندما تسترجع الذاكرة عهدها الذي تولّى .. وما أجمل وأصدق ما عبّر به الشريف الرضي عن هذه المعاني في قوله :

ولقد وقفتُ على ديارهــمُ | وطلولُها بيد البلَى نَـهْبُ
وتلفتتْ عيني فمذْ خفيتْ | عنّي الطلولُ تلَفَّت القلبُ

والحقيقة أن شاعرنا ابن خميس لا يصف في قصيدته طلولاً ولا دِمناً رحل عنها أهلوها ، وعفت آثارهم ، ولكنه يصف وادياً خصباً شاركَ الشاعر بنفسه وجهده في عمارته ، فقد اتخذ في أحد المنعطفات في وادي العمارية الذي يلفّه « جبل طويق » مزرعة له يتعهدها بالزرع والسّقي ، ويتفيّأ ظلالها ، ويجني ثمراتها ، ويمتع طرفه بمشاهدها .

ويتغنى ابن خميس بجبل طويق الذي تحتضن سفوحه مزرعته ، فيقول :

ألهمْتَني يا طُويَقٌ كـلَّ شاردة | تضيـقُ عنها ترانيمـي وأشعـاري
وكـنتُ أبـعثُ ألحاني مُوَلَّهــةً | واليومَ حطمتُ إلا فيك قيثاري
واخترتُ من حِضْنكَ المِمْراع وادعةً | في ربـوة ذاتِ أسْرارٍ وآثــارِ

ثم يأخذ في وصف مزرعته التي سمّاها « بهجة » فيقول :

مَرْجاً تغضّنَ فيه النبتُ واتشحتْ ... أفنانُــهُ بأفاويــهِ وأزهــارِ
لفَّاء لا يَهتدي للجوِّ طائرُهـا ... قد أُزِّرَتْ من حواشيها بأستارَ
إذا الثريّــا تمطّتْ في مسيرتها ... واستوسقتْ هامةُ الشِّعْرى من السَّارِيَ
ألفيتها تنفحُ الجاديَّ من شَبِـم ... معطّر النفْح من أنفاسِ أيّارِ
اخترتُها من أديم العرض مُنتقرًا ... لكيْ يكون على طول المَدى جارِي

وفي الديوان قصيدة أخرى خَصّصها الشاعر لمناجاة جبل طويق [1] ، وما شهدته اليمامة التي يرمز إليها بهذ الجبل من أحداث وخطوب منذ الجاهلية الأولى ، وهي أحداث وخطوب ذكر التاريخ منها شيئا وأغفل أشياء ، وقد أشار الشاعر فيها إلى شيء مما وعت ذاكرته من ذلك التاريخ . وفي أولها يخاطب جبل طويق بقوله :

يــا جــاثماً بالكبريــاءِ تَسَرْبــلا ... هلاّ ابتغَيْتَ مدى الزمان تحوُّلا
شاب الغرابُ وأنت جَلْدٌ يافعٌ ... ما ضعضعتْ منك الحوادثُ كاهِلا
ترنُو إلى الأجيال حولكَ لاتنِي ... تَتْرَى على مَرِّ العصور تـداوُلا
مثـل الضيـوف المعْتَفيـنَ فقــادمٌ ... ألقَـى بكَلْكَلـه وذاك تحمّــلا
تنتابهُـم سُودُ الخطـوب عواتيـاً ... وتمرّ أحقـابُ السنيـنَ جوافـلا
وأراك معتـدلَ المنـاكب سامقـاً ... تبدو بكَ الشُّمُّ الرِّعانُ مواثـلا
وكأنّ عمرًا خالها إذا أُعْرِضَتْ ... مثلَ السّيوف المصْلَتاتِ نواحِـلا
بالأمس لم تمضِ القرونُ ولم تُبدْ ... في سَفحهـا للقاطنين جحَافـلا

ويمثّل ما نقرأ في هذه الأبيات نَمطاً عالياً من الشعر العربي في عظمه أَدائه ، وفي فخامة معانيه ، فالشاعر يسأل الجبل ، ويستنطق الجماد ، ويرسم صورته راسياً شامخاً ، لم تنل منه عوادي الزمان ، تنتابه القوافل ، لتقيم في حماه ، أو تمضي في سبيلها إلى غايتها ، وهذا شأنه على مرّ العصور لا يريم ولا يتحول ، فهو باق

---

(١) على ربا اليمامة ٢٧٧ .

على حاله تتضاءل أمامه الشّم الرواسي . وكأن عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلي يعنيه بقوله في معلقته :

وأعرضَت اليمامةُ واشمخرَّتْ كأسيافٍ بأيدي مُصْلتينا

يقول عمرو : لما جدّت الظُّعنُ في المسير نحو غايتها بعد أن غادرت اليمامة ، وحال دونها السراب ، تراءت لهم مرتفعة ، تلوح كالسيوف المسلولة من غمادها ، وإنما خيّلها لهم السراب كذلك .

وهكذا يصل شاعرنا حاضر بيئته بماضيها ، وشعره بالشعر العربي الأصيل .

وتطوف بالشاعر أطياف من ذكريات الماضي البعيد التي ذكر التاريخ أطرافاً منها ، ويطلب إلى الجبل أن يزيده معرفة بحقائقها ، وبالقبائل التي عمرت سفوحه ووهاده ، وما كان لها من بأس ، وما كان بينها من عداوة وصراع . ويشير إلى « طسْم » وطغيانها ، وإلى « جَدِيس » وثأرها ، وإلى « ربيعة » وحروبها ، وإلى شخصيات يذكرها تاريخ اليمامة ، كزرقاء اليمامة التي عرفت بحدّة البصر ، والأعشى ، وهوذَة الحنفي ، وأخيراً يشير من طرف خفـيّ إلى دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب إلى تطهير العقيدة من شوائب البدع والضلالات :

ياأيّها العملاقُ زِدْنا خبرةً عمّن أقاموا في ذرَاك معاقلا
واقصُصْ علينا اليومَ من أخبارهمْ ما ثمَّ من أحدٍ يجيب السّائلا
عن « طَسْمَ » حدِّثنا وعن جَبَرُوتها لمّا استباحتْ من « جَديسَ » عقائلا
و « جَديسَ » إذهبَّتْ لتثأر منهمُ تخفي لهم تحت الرّغَام مناصلا
واذكرْ عن « الزرقاء » ما فاهتْ بهِ عن نظرةٍ تَطوي الحزونَ مراحلا
وعن الحمائم إذ مررْنَ خواطفاً هل كان ذاك الحكمُ منها باطلا
واذكر حديثاً عن « حنيفةَ » مسْهباً واذكر « ربيعةَ » في حماك و « وائلا »
واقصصْ عن «الأعشَى» و «هَوْذَةَ» والألى من بعدهمْ ملئوا الحياة فضائلا
حيث انبَرى وادى « حنيفة » صارخاً في أمّة تدعو القبورَ وسائلا
زدْنا حديثاً عن أولئك شائقاً أضحتْ بطونُ الكتْب منه عواطلا

وهذه إشارات عالم بوطنه ، وبتاريخ أمّته ، لم يشأ أن يشرح هذه

الإشارات ، ولا أن يفصّل تلك الأحداث ، لأن الشعر كما قيل « لمحة دالَّة » . ولذلك اكتفى الشاعر بما ترى من اللمحات ، لئلا يتحوَّل الشعر إلى سرد تاريخي يبعده عن روح الشعر .

وهذه القصيدة « على رُبا اليمامة ، أو جبل طُوَيق » في مِقدمة القصائد الجياد التي اشتمل عليها الديوان ، وفيها تتمثل جوانب الشخصية الفنيّة لعبد الله بن خميس ، أو هي مفتاح هذه الشخصية إذا صحّ هذا التعبير ، كما سنفصّل ذلك فيما بعد .

وبعد هذه الإشارات يدع الشاعر هذا القديم بأحداثه وأعلامه ليتحدث عن الحاضر ، وما استحدث العلم من العجائب التي جعلت « جبل طويق » يتضاءل أو يتآكل ، ويطأطىء هامته ، ويتنازل عن شموخه أو كبريائه .

وإذا كان « طويق » يشغل من قلب ابن خميس وذكرياته هذا المحلّ الكبير فإنه يشغل في ديوانه أكثر من محل وأكثر من قصيدة . فلابن خميس في الديوان قصيدة أخرى عنوانها « اليمامة ، والزرقاء ، وطويق » [1] . وقد أنشدها في حفل افتتاح مبنى « مؤسسة اليمامة » .

ولا شك أن تسمية « المؤسسة » ومناسبة الإنشاد كان لهما أثر واضح في استثارة هذه الخواطِرِ عن أرض اليمامة وتاريخها ، وعن زرقاء اليمامة ، وعن جبل طويق . وهي تتحدث عن هذه المعالم التي التصقت بحسّه ، واستقرّت في سويدائه . ثم يأتي دور « مؤسسة اليمامة الصحفية » التي من أجلها ألّفت القصيدة في أبيات قليلة في آخر القصيدة ، يقول فيها على لسانها :

وإذا دعَوى الخصومَ اشتجرتْ ... كان وزن الحرف عندى أَمْنَا
منبر الإصلاح مسموع النِّدا ... جَهْوَرى الصوت وهّاج السَّنى
سَمَقَتْ في قلب حَجْرٍ دُورُهُ ... معرضّاتٍ تستريضُ الأعْيُنَا
تستحثّ الحَرْفَ مسنونَ الشَّبا ... عبقريَّ الفكر معسُول الجنى
فتسامَيْ يا « يمام » واسْلمى ... واستزيدي من أبي فهد المُنى

* * *

---

(١) على ربا اليمامة ٣٠٩ .

ولا تنحصر رؤية الشاعر عند حدود اليمامة التي عاش ويعيش فيها ، أو عند معالمها التي يطالعها كل صباح ، أو عند ذكرياته عما سلف من أخبارها وأحداثها وأعلامها ، بل إن آفاق هذه الرؤية لتتّسع أمامه ، حتى يحلّق بشاعريته في أقاليم شتى من أقاليم الجزيرة العربية ، فيرسم لها صوراً رائعة الحسْن والجمال ، تبهر النواظر ، وتأسر الخواطر .

وأنت إذ تطالع هذه الصور التي تنمقها يراعة عبد الله بن خميس ترى نفسك أمام شاعر في مقدمة شعراء الوصف المجيدين الذين عرفهم تاريخ الشعر العربي ، وهم قلّة معدودة بين ألوف الشعراء في مختلف البيئات ، وعلى مرّ العصور .

وشعر الوصف عندي في مقدمة الفنون الشعرية التي يستدل بها على نضج الشاعر واستواء ملكته الفنّية ، واكتمال أدواتها ، لما تحتاج إليه الصورة الشعرية من استكمال عناصرها ، وعلى وصل الحقائق المدركة بالحواس بما تختزنه مخيلة الشاعر من صور لا تدرك بالحواس ، أو بما تستثيره من التجارب أو الذكريات التي تتفاعل مع ما يرى وما يحسّ من الواقع الذي يعبّر عنه .

ثم إن الشاعر لا يرى الأشياء كما يراها الناس ، أو كما هي في الواقع ، ولكنه يضيف إلى هذا الواقع ما يصل به إلى الكمال كما يتصوّره ، أو ما يتمّم به النقص الذي يلحظه في هذا الواقع إيجاباً عند إرادة التحسين ، أو سلباً عند إرادة التهجين .

وربما كان فن الوصف من أهمّ ما يستدلّ به كذلك على تمكّن الشاعر من لغته ، وقدرته على التصرّف فيها للتعبير عما يريد استقصاءه من عناصر الموصوف ، بالإضافة إلى ما تعينه ثقافته اللغوية عليه من التخيّر والانتقاء .

ثم إن الوصف الشعري لا يمكن أن يكون وصفاً جامداً ، أو وصفاً مجرّداً يشبه ما تحكيه آلة التصوير « الكاميرا » ولكنه وصف ترى فيه الصورة ، وترى فيه الحركة التي تبعث الحياة فيه ، وترى خيال الشاعر متفاعلاً مع ما تدركه حواسّه من الرؤى والمشاهد .

ولذلك أفرد الشاعر باباً في ديوانه سمّاه « شعر الطبيعة » وتقرأ في شعر هذا

الباب خلاصة ما قررناه ، وقد وصف فيه الربوع التي زارها في قلب المملكة وحواشيها ، وصف أَبْها ، ومنطقة عسير ، وحائلا ، وجازان ، وديار غامد وزهران ، وغيرها .

وقد اجتمعت في وصفه لهذه البقاع المعالم أو الخصائص التي قرّرناها . واقرأ قصيدته « من وحي عسير » [1] لترى مصداق ما ذكرناه . وفي أولها يقول :

عِهادُ الغيث منهمراً سَكُوبَا   مُلِثًّا يَهْضِبُ الرَّبعَ الحبيبَا
تغاديه السّحائبُ مُدْجَنَاتٍ   وتَمنح طيبه المعهودَ طِيبَا
وتَرْوي كلَّ سامقة جلالاً   وتُنْشِدُ كلُّ ناطقةٍ نَسِيبَا
وتبعثُ كلُّ ناسمةٍ أريجاً   وتُبْدي كلُّ باسمةً شنيبَا
وتشتبهُ اللُّغَى فتخال منها   يناجي عَندليبٌ عَنْدليبَا

وما أيسر على النقاد المحدثين أن يسرعوا إلى وصف الشعراء المجيدين بالاحتذاء أو التقليد إذا رأوا شيئا من وجوه التشابه بين القديم والجديد .

وقد يتوقفون عند هذه الأبيات التي يرون فيها السّقيا والمطر ، فيزعمون أن الشاعر يردّد ما جرت به عادة الجاهليين ومن إليهم من ذكر الأمطار ، والدعاء بالسّقيا للمعاهد والديار في أشعارهم التي صدقوا فيها فيما عبّروا به عن حياتهم الواقعية في البادية التي تشح فيها المياه ، ولا يزورها الغيث إلاّ لماماً ، فأصبح الغيث حلماً من أعزّ أحلامهم .

ولو عرف هؤلاء أن حاجة تلك البيئات التي وصفها الشاعر إلى الغيث الذي تحيا به الأرض بعد موتها ما تزال قائمة لعرفوا أن الشاعر كان صادقاً ، وأنه لم يكن محتذياً أو مقلدًا !

وينطلق الشاعر في قصيدته ، مغرقاً في إبداعه ، فيذكر « أَبْها » ومروجها الخضّر وقد خلع عليها الربيع بُرْداً قشيبا ، وهضابها الصُّفر ، وكأنها موشاة بفتات الذهب ، وبطاحها الحمر التي غدت فتنة للناظرين :

فما أَبْهاكِ يا « أَبْها » جَناباً   وما أنداكِ يا « أَبْها » هبوبَا

---

(١) على ربا اليمامة ٣٠١ .

وما أحلَى المروجَ الخضرَ يزهو   عليها بُرْد نيسان قشِيبَا
تطرّزُها الهضابُ كأنّ تبراً   ينمّق ذوبُه الرَّبعَ الخَصيبَا
وتمتدّ البطاحُ بهنَّ حُمْراً   فتكتب فوقها حُسْناً عجيبَا

ويسرح الشاعر طرفه بين تلك الرُّبا والبطاح ، وما حباها الله به من النضرة والجمال ، فيرى أسراباً من الحسان ، يصبيه حسنهنَّ المطبوع ، ويصوّبن سهامهنّ إلى حبّات القلوب ، فيصبنها في الصميم ، ويسبيه دلالهّن الذي يُطمع فيهنّ المريب ، وهنّ الحرائر العفيفات اللائى ينتمين إلى الأحرار الشرفَاء من سادة العرب :

مسارحُ رَبْرَبٍ يغْنينَ حسناً   فما يبغِينهُ حسناً خضيبَا
يفوِّقْنَ السهام بذاتِ هُدْبٍ   على الغرَّاتِ يُصْمين القلوبَا
من الَغزِلاتَ أحلاهنَّ لفظاً   على الهمَساتِ يُطْمِعْن المُرِيبَا
وهنَّ حَرائرٌ يأبَيْنَ سُوءًا   جعلن العِفَّةَ المثلى رقيبَا
من الأذواءِ في عُلْيَا مَعَدٍّ   إذا عدُّوا لمكرُمةٍ شعوبَا
أقاموا في سَرَاةِ الأزْد مجدًا   وحلُّوا من مناكبها رَحِيبَا

وجدير بمن هنّ بهذه الأوصاف من الحسن والجمال ، والغزل ، والدلال ، والتهامس والتناجي ، أن يَسْبِين الرجال ، ويُطْمِعْن من يرنو إليهن ، وهو في استجابته لهذه الدواعي معذور بعد أن نُصَبتْ له تلك الشَّباك التي لا يصطنعها إلا بنات الهوى .

ولستُ مع الشاعر في وصفهنّ بالعِفَّة مع هذه الأحوال والحركات ، لأن العفَّة تحول بين صاحبها وبين العمد إلى الإثارة التي قد تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه !

وفي رأيي أن الجدير حقّا بأن يوصف بالعفّة هو الرجل ، أو هو الشاعر نفسه الذي لم يستجب لدواعي الفتنة والإغراء . وما أجمل ما وصف به عمرو بن كلثوم حرائر قومه بقوله في معلقته :

ظعائن من بني جُشَمَ بنِ بكر   خَلَطْنَ بميسَمٍ حسبًا ودِينَا

فإن الميسم والوسامة هي أثار الحسن أجملها في كَلمة واحدة ، والحسب هو الشرف ، والدين الذي هو سبب من أسباب العفة . ففي بيت واحد بل في ثلاث كلمات أجمل عمرو بن كلثوم ما فصّله شاعرنا فيما رأيت من الأبيات ، ولم يدع ثغرة ينفذ منها الناقد إلى مثل ما رأينا .

ثم اقرأ كلمة « دينًا » في بيت عمرو لترى عظم دلالتها ، واحتواءها على جميع الفضائل النفسيّةَ ، ومنها « العفّة » ، إلى ما تجد من اتّساقها مع موسيقى البيت وائتلافها مع القافية التي بنيت عليها المعلقة .

ولعلّ شاعرنا كان أجدر بالإشارة إلى الدين من عمرو بن كلثوم الجاهلي ، وإن كان قومه بنو تغلب يدينون في جاهليتهم بالنصرانية قبل بزوغ شمس الإسلام .

وبعد هذه الوقفة القصيرة ، وفي هذا المقام ، يخيّل إلينا أن الشاعر كان متحيّرا في أمره ، يتنازعه عاملان ، لكلّ منهما اعتباره في تدفّق شاعريته وبلوغها غايتها في الإفصاح عما تريد الإفصاح عنه .

وأوّل هذين العاملين افتتانه بما يشهد من آيات الجمال التي تلحّ على شاعريته بالتعبير عن تجربته ، ووصف ما تثير في نفسه من الأحاسيس والمشاعر .

والعامل الآخر ما يحسب من حساب للبيئة المحافظة التي يعش فيها ، وخشيته من أن يظن الناس به الظنون إذا شاقه الحسن ، وأفصح عن مكنون عاطفته ، وهو الشيخ الوقور ، والعالم المرموق !

ويبدو أون دولة الحسن كانت أقوى مما يتوجّس منه في عالم الظنون في الإلحاح على شاعريته ، فكانت هذه اللوحات البارعة التي رسمها ببيانه المشرق الأخاذ .

ويبدو الشاعر وكأنه يعتذر عن تتبّعه للحسن وهيامه بالجمال بأنه إنسان كامل الإدراك ، وبأنّ الله قد خلقه شاعراً مرهف الحسّ ، فيقول في شعر رقيق صادق جميل :

دعاني الشوقُ فاسترحلْتُ عَزْمي   وأعطيتُ القيادَ هوًى جَنُوبَا
أغالي في الجمال فلا تلُمْني   إذا شِمتُ المفاتنَ أن أذوبَا

طروباً يشتهي بصَري وسَمعي ووجداني بأن أبقى طَروبَا
لأني ما خُلِقْتُ أزلَّ صلدًا ولكنْ شاءني ربّي أديبَا

وأنا لا أسمِّي المعاني التي تحملتها هذه الأبيات اعتذاراً ، وإنما أعدّها اعترافاً وإقرارًا ، وأرى أن الشاعر أكدّ فيها لوعته وهيامه بما رأى من المفاتن ، وحاول أن يعلّل صبوته ، ويشرح أسباب هواه ، فهو حريص على أن يسعى إلى ما يمتعه ويطربه ، وهو إنسان يشعر ويحسّ ، وقد خلقه الله شاعراً وأديباً .

ولم يحاول في هذه الأبيات أن يتنصل من هواه ، أو من وصف ما ألمَّ به من تبريح الصبابة ، وفعل الهوى بقلبه . ولم يعتذر عن تعبيره في شعره عن تلك العاطفة الإنسانية التي يشترك فيها الجنس البشري كله ، وإن كان الشعراء أوفر الناس حظا من هذه العاطفة لرهافة إحساسهم ، ويقظة وجدانهم ، أو لقدرتهم على الإفصاح عما يختلج بين جوانحهم من لواعج الأشواق ، ومتعة الوصال ، وألم الصدّ والهجران .

* * *

وكنت أحبّ أن أتبع هذا الحديث الذي اجتزأت به عما فاض به ديوان ابن خميس من وصف مشاهد الطبيعة في بيئته القريبة أو في أنحاءٍ متباعدة من المملكة العربية السعودية بحديث عن شيء من شعره الإسلامي الذي شغل ستا وستين صفحة في الديوان ، وعن شيء من قصائده « الفلسطينيات » وهي تسع قصائد ، وعن شيء من شعره الوطني الذي جاء أكثره تحت عنوان « تحيات ... وعواطف » .

ولكن الحديث ذو شجون ، وحديثنا عمّا فعلت ظباء « أبها » بقلب الشاعر يدفعنا دفعاً إلى وصل هذا الحديث بشيء من الحديث عن شعر الغزل في شعر ابن خميس .

وفي ديوانه « على ربا اليمامة » باب جعل الشاعر عنوانه « وجدانيات .. أو عبث الصّبا » وفيه ثلاث عشرة من القصائد والمقطعات الغزَلية .

وقد وقفت عند كلمة « وجدانيات » التي اختص بها الشاعر هذا الباب

من أبواب شعره ، مع أن الشعر في مفهومه الصحيح ينبعث من وجدان ، ويصدر عن شعور . وقد أوجز العقاد - يرحمه الله - تعريف الشعر في كلمات قليلة ، فقال : إنه « تعبير جميل عن شعور صادق » وسمّى صديقنا المرحوم حافظ جميل شاعر العراق الكبير ديوانا من أهم دواوينه « نبض الوجدان » وقد ضمّنه ما استطاع من فنون شعره المتنوعة .

وأقول إنه إذا لم يصدر الشعر عن هذا الوجدان كان نظما لا اعتبار له في تقدير الشعر ، أو كلاماً موزوناً مقفّى ليس لصاحبه منه إلاّ إقامة الأوزان ، وتنسيق القوافي .

وأنا أعرف أن الشاعر العالم عبد الله بن خميس يعلم هذا حق العلم ، ولكني أسأله عن سرّ عدوله عن الاسم الاصطلاحي المعروف ، وهو « شعر الغزل » أو « شعر النسيب » إلى الاسم الذي اختاره وهو « الوجدانيات » وأرى أن التسمية الاصطلاحية أدلّ على مضمون هذا الباب من كل تسمية سواها .

ووقفت مرة أخرى عند وصفه الغزل أو النسيب أو شعر الحبّ ، أو « الوجدانيات » كما أسماه « عبث الصِّبا » .

ولم أستطع أن أقنع نفسي بمسوّغ معقول لهذا الإطلاق .. ولم أرَ لذلك سبباً إلا أن يكون الشاعر أراد بذلك أن يدفع عن نفسه ما يظن من الملامة إذا قيل إنه وقع في شراك الغرام . وكأن ذلك جريمة أو عيب ينبغي أن يتنزه عنه الفضلاء من أمثال عبد الله بن خميس أو لعلّه كره أن يقال إنه غَزِل أو ناسب ، فعمد إلى تسمية ما نظم في الغزل والنسيب بالوجدانيات ، وبالغ في سترهما فقال إن هذه « الوجدانيات » بقية من آثار الصّبا ، أو من « عبث الصِّبا » !

فإذا كان الذي زعمته من ذلك حقّا فإني لست مع الشاعر ، لأنه إذ يعبّر عن عاطفته الذاتية ، فإنما هو يعبّر عن عاطفة إنسانية ، يشاركه فيها الجنس البشري كلّه ، كما أسلفنا .

ثمّ أليس هو الذي وصف نفسه بأنه طروب ، يأسره الحسن ، ويسبيه الجمال ، لأن الله سوّاه إنساناً ، وخلقه أديباً أو شاعراً ، ولم يخلقه حجراً صلداً

لا يحسّ ولا يتأثر ، وبأنه إذا لم يستجب لنداء قلبه ، وإذا لم يعبّر عن عاطفته غاضت قريحته ، وجفّت ينابيع شاعريته ، لأن هذه الرؤى والمفاتن التي يراها في الحياة وفي الأحياء هى لقاح شعره ، ومبعث إلهامه :

طروباً يشتهي بصرِي وسمعي ووجداني بأن أبقى طرُوبَا
لأني ما خُلِقْتُ أزَلّ صلدًا ولكنْ شاءني ربّي أديبَا
فإنْ حرّكتِ يا أبها شجوني فما شيءٌ أهجْتِ به غريبَا
رُؤًى ومفَاتِناً ولقاحَ شعرٍ وإلهاماً ومُرْتبعاً عَشيبَا
إذا لم تستدرَّ سجَالَ شعري فلا بَرحتْ تعانيه نُضوُبَا

وإذا كان من شعر الغزل ما يكره وما ينكر فهو ذلك الشعر الماجن الخليع الذي تحلل قائلوه من قيم الدين والأخلاق ، ولم يعفّوا عن وصف السَّوءات ، ومقارفة المحرّمات ، وإشاعة الفحش بين الناس .

وليس منه ذلك الشعر العذريّ العفيف الذي نقرؤه في ديوان ابن خميس ، ويعبر فيه الشاعر عن العاطفة ، والعاطفة وحدها ، وليس فيه شيء يخلّ بمروءة الرجال ، أو يخدش الحياء . وهو القائل [1] :

مالي وأحلامُ الهوى تصْبيني وتثير من بعد العُزُوفِ شجونِي
وتردّني صِفر الفؤادُ مولَّهاً يزداد عند الذكريات حنيني
وأنا الذي ترك الغرامَ تنسُّكاً وشُغلْتُ عنه بعفّتي وبديني
وإذا مثيراتُ الشجون عَرَضْنَ لي أطْبَقَتُ عن شغفٍ بهنّ جفوني
ولكَمْ عذلتُ النفسَ عن خَلَسَاتِها وهَتفْتُ ياعيْنَ الغرام دَعِينِي

والشاعر الرقيق ذو الحسّ المرهف تسبيه اللفتات ، وتصميه النظرات ، فيقع في شراك الغرام مرّة بعد مرّة ، بما تثيره تلك النظرات من ذكريات هواه القديم ، وبما تتكأ من جراحات قلبه العميد ، فلا تجديه تلك الحجب التي اصطنعها من التنسّك والتعفّف نفعاً ، ولا يرى سبيلا للخلاص من هذه الشراك ، ولا دواء لأدواء قلبه إلا إذا أقام من حوله حصناً منيعاً لا تنفذ منه تلك السهام :

---

(١) على ربا اليمامة ٤٢٣ .

فأمنْتُ حتى فاجَأتني نظرةٌ ما خِلْتُ طرْفي قبلها بخئونِ
فأهاجتِ الشوقَ القديمَ وحرّكتْ أوتارَ وَجْدٍ بالفؤاد دَفينِ
وجروحَ قلبٍ كلما نهْنهْتُهُ قال اتّئدْ أهلُ الهَوى ظلموني
لو رُمْتُ من سُودِ العيون سلامتي لجعلتُ حصناً دونهنّ وُدوني
فلهنَّ في سُود الشغافِ وقائعٌ تُودِي بلبِّ الناسك المأمونِ

وهذه هي تجربة الحبّ عند ابن خميس كما يفصح عنها شعره ، ليس فيها وصل ولا هجر ، وليس فيها لقاء أو جفاء ، وإنما هي نظرات يصوِّبها أو تصوَّب إليه ، وتدعه يعاني ما يعاني من حرقة الوجد والكمد ، ولا يجد متنفَّساً لهذه الزفرات إلاّ هذا الشعر الذي يبث فيه لوعته ، ويصف فيه شجونه ، بنظرة أصابته أو فاتنة سحرته .

ولا يتجاوز ابن خميس في غزله أو نسيبه هذا القدر من اللوعة ، وإن شئت فقل هذا القدر من التمنّي !

والسبب في ذلك فيما أرى أن الشاعر لم يَخُضْ تجربة حبّ بالمعنى المعروف عند العاشقين من الشعراء الغزلين الذين خاضوا تجارب حبّ عنيفة .. ولذلك كانت نظرته إلى المرأة لا تختلف في قليل أو كثير عن نظرته إلى أي شيء يراه جميلا مما يقع تحت حسّه ، سواء أكان في مشاهد الطبيعة الجامدة أم كان في الحياة أو في الأحياء .

وإذا أنعمنا النظر في غزليات ابن خميس ألفيناها لا تعدو أن تكون تعبيراً عما تثيره في نفسه تلك الرّؤى المعجبة والمشاهد الفاتنة التي تحدث انفعالات طارئة ، هي في حقيقتها انفعالات سطحية لا تنفذ إلى الصميم ، وهي في الوقت نفسه انفعالات مؤقتة لا تلبث إلاّ قليلا ، ثم تتلاشى وتذهب مع الريح إذا تغيّر المنظور ، أو اختلف المشهد أمام ناظريه .

وهي بهذا أبعد ما تكون عن تصوير العاطفة الملتهبة التي من شأنها الثبوت والاستقرار ، كما نراها في شعر أولئك الذين ذاقوا حلاوة الحبّ كما تجرّعوا غصصه وآلامه ، وذاقوا مرارته .

وقد يقال إن ذلك الانفعال المؤقت إذا تكرّر تحوّل إلى عاطفة ثابتة . وهو قول صحيح ، إذا تعاقب هذا الانفعال على شيء واحد ، فتتكرّر اللذة بتكرارة ، أو يتكرّر الألم بمعاودته . وينشأ عن تكرار اللذة عاطفة الحب ، وعن تعاقب الألم الكراهية أو السخط .

غير أن صاحبنا لا ينفعل بشيء واحد ، ولا يتعلق بمثال واحد ، ولا يؤثر بإعجابه إنساناً واحداً ، ولكنه ينقل عينيه ، ويتبعهما قلبه الذي يشبه النحلة في تنقلها من خميلة إلى خميلة ، ومن زهرة إلى زهرة ، حتى كثرت في شعره الخمائل ، وتعدّدت الزهرات !

اقرأ قوله في أبياته التي سماها « نُجْل العيُون »[1] :

سوفَ أعطِي نُجْلَ العيون قيادي ... ما تجلَّى الجمالُ في شهـرَزادِ
ألهمتْني ، يا طِيبَ ما أُلهمتْنـي ... ألهمتْنـــــي بحسْنها إنشادِي
لم أعُدْ أطلـق القـريضَ بليلَـى ... أو بلُبْنَـى أو كـوكَبِ أو سُعـادِ
هــذه هــذه فإنّـي بـوادٍ ... هِـمْتُ فيـه والعاذلـون بـوادِ
لـو أرادتْ لكـنتُ منها أثيراً ... في ودادِي وأيقـظتْ إسْعـادِي
لا أطيـقُ الوعـودَ يومـاً فيومـاً ... وَعْـدَ مَطـل يَزيـد في إبعـادِي
أَنجـزي الوعـدَ فالحيـاة سرابٌ ... كـلّ يـوم بشأنِ نـادٍ تنـادِى
قـال مـا قالـه المنخّـلُ قبْلِـي ... حـينما لـجَّ حبُّــهُ في التمادِي
إن يَفُتْني شرخُ الشبابِ فإنّـي ... بقريضي أدَركتُ أقصَى مُرَادي
أسحرُ الغـادةَ اللعـوبَ بفنِّـي ... ثم يأتي الجمال طـوعَ قيـادِي

ولست أعدّ هذه الأبيات من محكم شعر ابن خميس ، فهو في أولها يعطي نُجلَ العيون قياده ، وفي آخرها يسحرها فتأتي طوع قياده . وهي التي تملك أن تجعله أثيراً إليها أولاً ، ثم هو يملك بشعره زمامها فتنقاد له وتصبح طوع يمينه . وهي التي ألهمته شعره في البيت الثاني ، وشعره هو الذي يجذبها إليه في آخر الأبيات .

---

(١) على ربا اليمامة ٤١٩ .

وليعذرني القارىء إذا قلت إنني لم أستطع إدراك ما يعني الشاعر بقوله :

* كلَّ يوم بشأن نادٍ تنادِي *

وقد توهمت أن هناك خطأً في الطباعة ، فرجعت إلى الطبعة الجديدة الفخمة الأنيقة ، فوجدت فيها ما وجدت في الطبعة الأولى .

ولم يحسُن عندي قوله :

* حينما لَجَّ حِبُّهُ في التمادِي *

لأن اللجاج والتمادي سواء ، ولا يقال : لجّ في اللجاج ، كما لا يقال : تمادَى في التمادي . وأظنه لو كان قال : « حينما لجَّ حِبّه في البعادِ » لسلم المعنى ، مع صحة الوزن ، واستقامة القافية .

والحقيقة أني لم أورد هذه الأبيات لأقول فيها ما قلت ، ولكني أوردتها لأستدلّ بها على ما قدمته من أن الشاعر لم يَعْنِ في غزله واحدة بذاتها يبادلها حبًّا بحبّ ، أو يؤثرها بهواه . ألا تراه هنا يذكر أربعاً من الغانيات هنّ : ليلى ، ولبنى ، وكوكب ، وسعاد ، ليستبدل بهنّ « شهرزاد » مادام يتجلّى فيها الجمال ! وقد تكون هذه الأسماء رموزاً غير حقيقية ، ولا يعنينا كما لا يَعني الشاعر الأسماء ، بقدر ما تعنيه الذوات !

ويضيف شاعرنا إلى قائمة محبوباته « إلهام » في خمسة أبيات [1] وصف فيها بهاءها وملاحتها وصفاً مجرداً ، لا ترى فيه أثراً لعاطفة أو انفعال ، فيقول :

هلْ لي يا « إلهامُ » أن أسْألَكْ ... بفِتْنَة العالَم مَن أرسَلَكْ ؟
أَبــدَعِك اللهُ على صُورَةٍ ... لم يُعْطِها إنسانةً غيرَ لَكْ
قد كتب الحسْن بها طرَّةً : ... ليسَتْ سوى حُوريّةٍ أو مَلَكْ
بدريّــة الوجْـه ، ولكنّــه ... مُـورَّدُ الخدِّ أنيـق الفــلَكْ
بـهِ مـن الآيـات أعجوبـةٌ ... لم يُعْطها اللهُ لبدْرِ الفَلَكْ !

وتبحث عن أثر هذه الصورة الفريدة التي أبدع الله في خلقها وتصويرها على هذا المثال الفريد فلا تجد شيئا من هذا الأثر في قلب الشاعر ولا في شعره .

---

(١) على ربا اليمامة ٤٣٣ .

ومثل ذلك تماماً ما تقرؤه في أبياته الخمسة التي جعل عنوانها « يا ليتني » [1] ، ويقول فيها :

يا ليتّني غَضُّ الصِّبا مثلها	أَخطر منه في الرِّداءِ القَشِيبْ
كالظبي إلاّ أن في جسْمِهِ	مُهَفْهَفَ القدّ اللعوب الطروبْ
إنْ نطقتْ تأتِي به لؤلؤاً	أو سكتتْ فالجسمُ عنه ينوبْ
قالوا لها ليلَى فقال البِهَـا	أفرِغَ في ليلَى الجمالُ العَجيبْ
كنانتي فيها ، وما لي سوَى	كنانتي والحسْنُ فيها أُذيبْ

إن الإعجاب بالبديع الرائع في الجمادات وفي الحياة وفي الأحياء ليش شيئا جديداً ينفرد به ابن خميس في مثل ما قدّمنا ، بل هو سمة كل شاعر من الشعراء ، وكل إنسان من البشر وهبه الله القدرة على إدراك التفاوت بين الأشياء ، وتميز الحسن من القبيح ، وإيثار بعض المدركات على بعض لأسباب حسّية أو معنوية ، كل ذلك أثر من آثار الفطرة التي فطر الله الناس جميعاً عليها . وإنما تظهر الفروق الفردية فيما يتبع هذا الإعجاب ، وفيما يعبّر به عنه كلّ إنسان أديباً كان أو غير أديب .

وما أشبه ابن خميس بعمر بن أبي ربيعة في ولوع كلّ منهما بالحسن وتتبُّعه وتأمّله ، ولا همّ لهما فيه إلا هذا الاتباع بالنظرات ، ثم وصف ما يريانه من معالم الجمال في شعرهما . ولا فرق بينهما إلاّ في تخصّص عمر بن أبي ربيعة بهذا الضرب من ضروب الشعر .

وقد قرأنا في شعر ابن خميس متابعة نظراته إلى من أعجبه حسنهنّ ممّن ذكر أسماءهنّ فيما أشرنا إليه من شعره ، وإلى أسراب الحسان في أبها في قصيدته « من وحي عسير » . حتى لبنان يرتاده زائراً أو مصطافا فتروعه « غزلان سِير » و « سِير » مصطاف لبناني تجاه طرابلس ، فينشد فيهن من أرقّ شعره أبياتا يقول فيها :

---

(1) على ربا اليمامة ٤٣٧ .

ما أهاجَ الهوى كغزلان « سِير » يتدافعنَ عند شطّ الغديرِ [1]
غاب عنّي ذكرُ الصبابةِ حَتى قادَني نحو رَبعهنَّ مَسيري
تملَق القلبُ طفْلةً أقسمَ الحسْـ ـنُ ليبدي صفاتِ الحورِ
هي في زُرْقتين تختال سحراً زُرقةُ العين أو قميصُ الحريرِ
ولِها طُرَّةٌ تزينُ جَبيناً قال عنه الجمالُ هذا مجيرِي
يا عَذِيرِي في حبِّها خلِّ عنّي خلِّ عنّي في حبّها يا عذيرِي
لو ترَىَ مَا رأيتُ أزرى بك الوَجْـ ـدُ فقاسَمْتني هناك مصيرِي

وهكذا نرى أن كل منظر أنيق يفتن الشاعر ، ويهيج هَواه ، ويثير شاعرِيته ، فلا يدعه يمضي قبل أن يقول فيه شعرًا ، حتى لو كان هذا المنظر صورة لحسناء زينّت بها غلافها مجلة من المجلات !

واقرأ قصيدته « الجوهرة » التي كتب بقلمه مناسبتها « فتاة حلوة ، برزت صورتها على ناصية « الجوهرة » صحيفة حّواء القطرية ، فانتزعت صورتها إعجاب الشاعر .. فسجّل صدى هذا الإعجاب شعراً يعبّر عن بعض أحاسيسه » [2] .

وهي من شعره الذي نظمه بعد صدور الطبعة الأولى من ديوانه (١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م) ووضعها في أول باب (الوجدانيات أو عبث الصِّبا) في الطبعة الثانية (١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م) .

ومن الطبيعي أن يكون للصحافة وللكتابة الصحفية ولفتنة الصورة حظّ واضح في معاني هذه القصيدة الغزلية ، وفي أولها يقول :

بعيْنَيْكِ ما أعْيا الصحافةَ معناهُ نظائرُ في دُنيا الوجودِ وأشباهُ
بيانٌ ، ولكنْ لا يُنَهْنَه سِحرُهُ وفكرٌ ، ولكنْ عزَّ ما أَبدع اللهُ !
وفنٌّ ، وما كلّ الفنونِ بمبدعٍ وشعرٌ ، ولكنْ أين للشّعر عَلياهُ ؟
وما نظراتٌ منكِ إلا صحيفـةٌ وما هنَّ أقلامٌ وما هنَّ أفواهُ
فإنْ شئتِ ميدانَ الصحافة منبراً وإنْ عزّ في دُنيا الثقافةِ مَرْقاهُ

(١) على رباب اليمامة ٤٤١ .
(٢) على ربا اليمامة ٣٨٩ .

فَصُولى بهاروتٍ وماروتَ واكبتِي صحائف ما أحيا الإلهُ وأفناهُ
فكمْ خبرٍ في سرِّ عينيكِ كامِنٌ يغنِّيه عزّافٌ، ويتلُوهُ أوّاهُ

ثم يأخذ في وصف ملاحتها وحسنها، فيصف ثغرها المنوّر الذي يشبّهه مرّة بالوردة التي تجمعت لترشف أحلى ما في ذوب السحائب، ومرة أُخرى بشقائق النعمان، ثم يصف وجهها الذي يقطر فتنة وسحراً.

* * *

إن الدارس لديوان الغزل في شعر ابن خميس لن يجد فيه أثراً لصورة المرأة الحبيبة التي ملأت حياة شعراء النسيب، وتمثلت لهم في كل سبيل، ولم تغب صورتها عن مخيلتهم في يقظة أو منام، ففجرت ينابيع شاعريتهم بمقامها وظعنها، وبدلالها ووصلها وهجرها، والظفر بها أو الحرمان منها، وما يعقب ذلك من خُلَس السعادة، أو مكابدة الشقاء.

فإذا ضنّت بوصالها، ولجّت في صدّها استعرت الأشواق، وبرّح الوجد بقلوبهم من الصبر الممضّ، وبأجفانهم من السّهر الطويل. وقد يلمّ بهم طيف خيال حبائبهم، فيؤنس هؤلاء المحرومين في ليلهم المظلم الطويل حين تغيب عنهم أشخاصها في عالم الوعي والشعور، كما قال قيس بن الخطيم مخاطباً طيف حبيبته الذي يزوره لماماً في عالم الأحلام:

أنَّى سَرَبْتِ وكنت غيرَ سَروبِ وتقرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريبِ
ما تمنَعِي يَقْظَى فقد تؤتينهُ في النوم غيرَ مصرَّدٍ محسُوبِ

إن هذه المشاعر وأشباهها لا نجد لها صدًى أو أثراً في شعر ابن خميس، وما نراه في غزله لا يعدو أن يكون تصويراً حسيًّا. وربما كان ذلك لأن الرجل ألزم نفسه حياة الجدّ والعمل التي لم تدعْ له فرصة للاستجابة لدواعي الهوى والهيام.

وإذا كنا نفتقد في شعر ابن خميس صورة المرأة الحبيبة، فإننا نجد في غزلياته كثيراً من صور المرأة الجميلة في مثل ما أوردناه، وفي كثير مما لم نورده.

وفي رأينا أن الذي يسَّر للشاعر سبيل الغزل هو شيء آخر غير الحبّ، وهو

قدرته الفائقة على إجادة فن الوصف ، فرسم ببيانه المشرق هذه اللوحات الفنّية التي نرى فيها صورة المرأة الجميلة في بهائها ونضرتها ، وفي خطراتها وحركاتها ، وفي دلالها وغمزاتها ، كما تجد ذلك صريحا في أبياته التي جعل عنوانها « مدى الحياة » وهي ستة أبيات يقول فيها :

دَعْني أهِمْ طولَ الحياةِ بذاتها ... وأروضُ شعرِي في بديع صِفاتها
وأجيلُ طَرْفي في ملاحة وجهها ... وجَبينها السّاجِي وغمزاوَاتها
فالسحرُ في نظراتها والغُنْج في ... خطراتها والظرفُ في شاراتها
لو أبصرتْ عيناكَ حين تلفّعتْ ... بغلالةٍ سرُّ الهوى بشياتها
بيضاءُ تُنْبي عن محاسن جِسْمها ... وتريك لون الخصْرِ في طَيّاتها
وتشِفُّ عَن رُمّانتين كأنما ... حملتْ فتيقَ الوردَ في عذَباتها

ولست أعرف « غَمْزاوَاتها » في قافية البيت الثاني إلا أن تكون جمعاً لكلمة « غَمْزَاءِ » ولا أجد لها معنى في هذا السّيَاق أو غيره . والشاعر يريد من غير شك غَمَزاتها « جمع غمزة » ولعله رآها تقصر عن القافية ، فأباح لنفسِه التصرّف فيها على هذا النحو . ولا أعرف أن هذا من ضرورات الشعر التي تسوغ للشاعر دون الكاتب !

وأيّا ما كان الأمر فكلُّ ما نقرأ في هذه الأبيات أوصاف جسدية ، وصور حسّية ، وأيّما امرأة تجمّعت لها هذه الأوصاف فهى خليقة بأن تسبي الشاعر ، وإن يهيم بها طول الحياة ، وهي أبعد ما تكون عن سمات الحبِّ الخالص الذي تتواصل فيه القلوب ، وتتناجى الأرواح .

وهنالك ظاهرة ينبغي ألاّ تفوتنا الإشارة إليها في هذا المقام ، وهي أن نَفَس ابن خميس يقصر في هذه الغزليات قصراً ملحوظاً على الرغم من طول نفسه في أكثر قصائد الديوان ، فإن أطول ما في هذا الباب قصيدة واحدة عدّة أبياتها ستة عشر بيتاً ، وما بقي مقطّعات صغيرة تتراوح أبيات أكثرها بين سبعة أبيات وخمسة أبيات .

وهذه الظاهرة يتوقف عندها القارىء ، ويتساءل عن تعليلها . ولعله يجد

الجواب على تساؤله فيما قدمناه من حديث عن طبيعة هذا الغزل ودواعيه . ولعله يجد الكفاية فيما رأيناه من تعليل لهذه الظاهرة . وخلاصة ما نقول أن ابن خميس لا تجد له بين شعراء الغزل أو النسيب في تاريخ الشعر العربي إلا مكاناً ضيّقا محدوداً .

* * *

وتجد العاطفة الدينية مجالاً رحباً في قلب ابن خميس ، وتنعكس على شعره الذي يصوّر تلك العاطفة تصويراً حماسيّا في عدد من القصائد التي سمّاها « الإسلاميات » . وهي سبع قصائد وضعها في أوّل ديوانه .

وأوّل هذه القصائد الإسلامية قصيدته « الصومال الشقيق » (١) ويدور أكثر معانيها حول الأخوَّة الإسلامية التي ألّفت بين قلوب المؤمنين ، ووحّدت صفوفهم مع اختلاف أجناسهم وتباعد أوطانهم ، فبنو بسام وبنو حام والعرب والعجم كلّهم سواء يذودون عن بيضة الإسلام ، ويرفعون ألويته في كل مكان ، وينشرون رسالته بالمعرفة المستنيرة التي غذاهم الإسلام بلبانها ، وبجهادهم وتضحيتهم بدمائهم وأرواحهم في سبيل عقيدتهم ، حتى أقاموا بإيمانهم الصادق ، وسواعدهم الفتيّة صروح دولة الحق والعدل ترفرف ألوِيتها في مشارق الأرض ومغاربها :

مَعِينٌ أباحَ الواردين سُلافَهُ	إذا اشْتجرتْ حامٌ على الوِرْد أوسَامُ
فسِيَّانِ فيه يعربيّ وأعجمٌ	وسيَّانِ فيه الهندُ والصينُ والشامُ
دِمَاءٌ غَذَتْها فِطرةٌ وعقيدةٌ	فَمنها سيوفٌ في الثغور وأقلامُ
أقاموا على بحبوحة العدل دولةً	تَرِفّ لها في منتهى الأرض أعلامُ
وجاءُوا بما لا يُستطاع تفنُّناً	على حين كان الناسُ في الجهل قد هامُوا

ولم يذكر الشاعر المناسبة التي أنشدت فيها هذه القصيدة كما فعل في بعض قصائده ، ولكن القارىء سيفطن من غير شكّ من عنوانها ومن سياق أبياتها إلى أنها أنشدت في الترحيب بمقدم رئيس صومالي وفد على الديار المقدّسة حاجًّا أو معتمراً بدليل قوله في مطلعها :

---

(١) هي الأولى في الطبعة الثانية (ص ٣٧) والثالثة في الطبعة الأولى (ص ٢٨) .

كمثلِكَ مَنْ في سُدَّة الوحي قد هامُوا وقامُوا على سَلْسَاله العذْب أو حَامُوا

وقوله في أواخرها :

وما نحن والصَّومالُ إلاّ أخـوَّةٌ يشايعهـا حبٌّ عميـقٌ وإسلامُ
فما زار إلا جانباً من بـلاده يُلاقيه أنَّى حلَّ شوقٌ وإكـرامُ
يُلِـمُّ بها مستلهمـاً نفحـاتها فتعـزَف أنغـامٌ وتهتـزُّ آكامُ

ولا يريد الشاعر لهذا الضيف الكبير أن يرحل قافلا إلى بلده بعد هذا الإلمام بالمشاعر والمناسك ، فيدعوه إلى المقام في هذه الأرض الطيبة والربوع الآمنة التي تهفو إليها مشاعر المؤمنين ، ويتمنّون أن يختموا حياتهم في هذه الديار حيث مهبط الوحي والإلهام ، ومشرق شمس الإسلام ، وموئل الذكريات الغالية ، وملتقى المؤمنين الصادقين الذي يغدون ويروحون في طاعة ربّهم ، ابتغاء مرضاته ، وطمعا في رحمته وغفرانه :

أقمْ يا رعاكَ اللهُ فيها فَربعُهـا عظـاتٌ وآيـاتٌ ووحـيٌ وإلهامُ
مسارحُ إيمانٍ تـهَشُّ لمؤمـنٍ ومخدعُ ضِرغام إذا حلّ ضرغامُ
لك الودّ منها ما تفتَّق نَورُهـا وما حملتْ نشرَ الخمائلِ أنسَامُ

ولا شك أن معرفة المناسبة ، أو التعرّف على جوّ النص الشعري ، من أهم ما يعين القارىء على إدراك المعاني وتذوّقها ، كما تعين الناقد على تقدير العمل الأدبي ، ووضعه في موضعه الصحيح .

وأقولها كلمة صريحة ، وهي أنه لولا ورود كلمة « الصومال » في عنوان القصيدة وفي بيت واحد أشرنا إليه ما عرف المقصود بهذا الشعر ، ومهما يحاول فلن يستطيع التعرّف على أكثر مما ذكرناه ، وهو الترحيب برئيس صومالي .

ولكن مَنْ يكون ذلك الرئيس ، ونحن نعرف أن الصومال حكمه بعد الاستقلال أكثر من رئيس ، ولم يذكر الشاعر تاريخ إنشائِه هذه القصيدة ، وربما كان هذا التاريخ يساعد على تعيين المقصود بهذه القصيدة الترحيبية ، إذا كان الشاعر لا يريد ذكر الأسماء لسبب من الأسباب .

ثم إن في هذه القصيدة أبياتا يلفّها الغموض ، وهي أبيات لها دلالتها ، لكن

القارىء لا يستطيع فهم المراد بها إلاّ إذا كان معاصراً لوقائعها ، أو واقفاً على تفصيلاتها ، حتى تكون تلك القصيدة وثيقة تاريخية .

ومن هنا كان ذكر المناسبة ضروريا . والأبيات التي أعنيها تقع في وسط القصيدة ، وهي :

فما بال أقوام أشاحُوا وأَرْجفُوا ... وطاشتْ بهم دونَ الحقيقة أحلامُ
فمهما أرادوا واستزادوا وفنّـدوا ... وناموا على أوهامهمْ تلك أو قامُوا
فليس لنا من سَعْيِهمْ خابَ أوزكا ... أصاخُوا لداعي الحقّ يُمليه أم لامُوا
سنبعثُها يُعْشي الخفافيشَ ضُوؤها ... تقوِّضُ أصناماً ويُحْنَى لها هـامُ
نُشِيعُ ظلالَ العدلِ غارَ مَعِينُـهُ ... وُتمْحَى بها من صفحة الكونِ آثامُ

مَن هؤلاء الأقوام الذين أَشاحوا وأرجفوا ؟

وبِمَ أرغوا وأزبدوا ؟

علم ذلك عند الله ، ثم عند الشاعر الكبير ، وعند الذين عاصروا مولد هذه القصيدة ، وعرفوا أسرار تلك الإشارات !

أما الشعر فإنه لا يفصح عن شيء مما يتطلع إليه القارىء أو الناقد .

وتبقى للقصيدة بعد ذلك قيمتها الفنية ، وما فيها من القيم الإسلامية التي تتمثل في الإشادة بروح الإسلام ومبادئه السمحة التي استطاعت أن تستأصل العصبية الجاهلية ، وتوحّد صفوف المسلمين ، وتؤلف بين قلوبهم ، حتى عاشوا بنعمة الله إخواناً يملأ قلوبهم الإيمانَ ، ويسمو بهم إلى منازل العزّة والكرامة ، ويدفعهم إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، فيدكّون معاقل الكفر والنفاق ، ويزلزلون عروش البغي والطغيان ، ليبنوا مجتمعا جديداً ثابت الأركان ، لأنه يقوم على دعائم الحق والعدل ، مهتدين بنور الله ، ومستمسكين بعروته الوثقى .

* * *

وكثيراً ما تلتقي العاطفة الدينية بالعاطفة الوطنية في شعر ابن خميس ، وتتصل بها اتصالاً وثيقا ، حتى لقد تختلط المشاعر الإسلامية بالعواطف الوطنية اختلاطاً يجعل من العسير على القارىء أن يفصل بينهما ، أو أن يميز إحداهما من الأخرى .

ولا غرو في هذا الاختلاط أو الامتزاج الذي نراه في قصائده الإسلامية وفي قصائده الوطنية – وإن كان الشاعر لم يفرد للوطنيات بابا – فقد امتزجت العاطفتان في نفسه ، وملكتا عليه حسّه ، إذ كان حب الوطن من الإيمان ، وإذا كان بلده – المملكة العربية السعودية – مهبط الوحي ، ومنه انبعثت أشعة الهدى والإيمان إلى سائر بقاع الأرض .

اقرأ هذه الأبيات التي ختم بها إحدى قصائده الحماسية :

أنا مَن أنا إنْ لم أقدِّمْ مُهجتي   دون الحمى برًّا فداءً هيّنا [(١)] ؟
أنا مؤمنٌ دربُ الجهاد سبيلهُ   لا أمتري فيه مُسرّا معلنا
وطني وقومي أمّتي وعقيدتي   إنْ لم أفدّيها وإلاّ من أنا ؟

واقرأ قوله في « النشيد الوطني » [(٢)] :

أخذ الأقوامُ فضل الحمد عنّا   وسمَوْنا للمعالي منذ كنّا
والأساطينُ الذّرا فينا ومنّا   فاقتبسْ ما شئت من سفر الخلود
أرضنا ريّانة الأعطاف تبْرا   تمتري أكنافها شبـرْا فشبرا
ويدانا تنفح العافين بِـرّا   سنة الآباء جودًا بعد جودِ
قد هدانا منزل القرآن حكمة   ودعانا مذ دعانا خيرَ أمّه
وحبانا صفوةَ الأكوان رحمة   في ظلال الشرع والبيت المشيدِ

تجد العاطفة الوطنية والعاطفة الدينية وقد امتزجتا في أعماق الشاعَر امتزاجا قويا ، بحيث يصعب تمييز إحداهما من الأخرى .

وتجده في الأبيات الثلاثة الأولى يخصّ نفسه بالحديث في هذا الاستفهام الذي يقرر فيه أنه لن يكون الإنسان الذي يريد أن يكونه ما لم يقدم مهجته فداء لوطنه ، راضية بذلك نفسه ، فإنه مؤمن يعرف طريق الجهاد واضحاً بيناً ، ويعرف أن وطنه وعقيدته وقومه وأمته كلها شيء واحد ، وأنه إذا لم يفدها بروحه فمن يكون ؟

---

(١) ص ٢٧٠ في الطبعة الثانية من ديوان « على ربا اليمانة » .
(٢) الديوان : ص ٢٧٤ .

وتجد مثل ذلك الامتزاج بين العاطفتين في أبيات « النشيد الوطني » غير أنّ الشاعر في هذه الأبيات لا يتحدث عن نفسه وحده ، ولكنه يتحدث عن قومه الذين وحّدت بينهم تلك الموروثات الوطنية وفيها التاريخ الحافل بالبطولات والأمجاد ، والموروثات العقدية التي انبعث منها نور الإسلام الذي هدى الإنسانية الضالة الحائرة .

لقد كان قومه بناة المجد الذي ورَّثوه غيرهم من الأقوام ، لأنهم بناة الحضارة التي اقتبسوا منها ، وهم الذين أحالوا تلك الصحراء القاحلة إلى جنات وعيون ، وهم ذوو العطاء والسخاء الذي ورثوه عن أسلافهم ، وهذه مظاهر للحضارة المادّية .

أما الحضارة الروحية فإنها تتمثل في سمّو النفوس ، وتطلّعها للكمال ، بما هداهم الله إليه من الحكمة البالغة ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، تهتدي بهدى القرآن ، وتحكِّم شريعته الغراء في أمور دينها ودنياها ، وجعل في أرضهم بيته الحرام في أم القرى قبلة المصلين ، ومحجّ المسملين يفدون إليه من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في ذلك البيت الرفيع الذي جعله مثابة للناس وأمنا .

ولذلك كان من حق هذا الشاعر العربي الأصيل والمسلم المؤمن ، ومن حقّ قومه الأمجاد أن يفخروا بهذه المآثر التي جمعت لهم الأمجاد التي أتاحت لهم عزّ الدنيا وسعادة الآخرة .

* * *

ذكرنا أن عبد الله بن خميس لم يفرد لأشعاره الوطنية باباً خاصّا . وقد رأينا كيف تداخلت مشاعره الإسلامية وعواطفه الوطنية ، وتكوّن منهما ذلك المزاج المسلم الوطني وذلك لاتصالهما الوثيق في تكوين شخصية الإنسان المسلم العربي .

وذلك هو السرّ في أن جلّ فخره الذي زها فيه بنفسه والذي زها فيه بقومه ينهض على هاتين الدعامتين : مفاخر العرب ، ومفاخر الإسلام .

ومفاخر العرب خصوصية من خصوصيات هذا الجنس ، أما مفاخر الإسلام

فإنهم يشاركون فيها غيرهم من أبناء الأمم التي آمنت برسالة محمد ﷺ ، وقد جمع ابن خميس وقومه الحسنيين . فإنهم هم الذين :

« أشادوا » من الإسلام ركناً تطاولتْ[1]
ذراه وأرسَوْا بالـــنضال سنـــادَهُ
هم العُرْبُ – إن قيل العروبة – محتداً
وإن ذُكِر ، الإسلام كانوا عمــادَهُ
وهم وحّدوا شمل الجزيرة قبــل أنْ
يــردِّد غِــرٌّ بالدعــاوَى اتّحــادَهُ

واقرأ بعد ذلك قصيدته « أمام التاريخ .. في العاصمة الأولى – الدرعية » ٤١ ، وقصيدته « هذه الجزيرة » ٦١ ، وقصيدته « حائل » ١٦٥ ، وقصيدته « قبّل وعانق .. مهداة إلى أهل ثادق » ١٧١ ، وقصيدته « أمام الزلفي .. مهداة إلى أهل الزلفي » ١٧٧ ، وقصيدته « العود أحمد » ١٨٣ ، وقصيدته « أخت لبنان .. على ربوات غامد وزهران » ١٩١ ، وقصيدته « قادها عبد العزيز .. بمناسبة إسالة الماء للرياض » ٢١٥ ، وقصيدته « هذه هي الرياض » ٢٢١ ، وقصيدته « على ربا اليمامة .. أو جبل طويق » ٢٧٧ ، وقصيدته « طود اليمامة » ٢٨٥ ، وقصيدته « في وادي ابن عمار » ٢٩٣ ، وقصيدته « من وحي عسير » ٣٠١ ، وقصيدته « اليمامة ، والزرقاء ، وطويق » ٣٠٩ ، وقصيدته « المارد الجبار .. وقفة على سدّ جازان » ٣١٧ ، وقصيدته « العيد في أبها » ٥٤٥ ، وقصيدته « قادني الشوق .. زيارة لجازان » ٥٨٥ ، وقصيدته « حلبة السّباق في أبها » ٥٩١ ...

إننا لا نذكر عنوانات هذه القصائد عبثاً ، ولا لنملأ بها فراغاً ، وإنما دفعنا إلى ذلك السّرد ضرورة الإشارة إلى ظاهرة غلبت على شعر ابن خميس ، لتدلّ على أنها ملكت قلبه ، واستولت على مشاعره ، فعبّر عنها في تلك القصائد الطوال

---

(١) استعمل الشاعر هنا « أشادوا » بمعنى « بنوا » والإشادة رفع الصوت بذكر الشيء في الخير والشر ، والمدح والذم ، إذا شهره ورفعه ، وربما كانت « شادوا » المجردة أقرب إلى معنى « بنوا » .. يقولون « شاد » الحائطَ « يشيدُه » طلاه بالشِّيد ، وهو ما طلي به الحائط من جِصّ ونحوه .

التي زخر بها ديوانه . وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على شدة الولاء الذي يكنّه الشاعر لبلده ، ولكل موضع في شرقه وغربه ، وفي شماله وجنوبه ، ولكل مدينة أو قرية في تلك الربوع الشاسعة في أرجاء هذا الوطن المتباعد الأطراف .

ولم تظفر تلك الربوع بعناية على هذا النحو في شعر واحد من شعراء المملكة العربية السعودية بمثل ما ظفرت به في شعر عبد الله بن خميس الذي خصّ كلاًّ من تلك الجبال والسفوح والوهاد والوديان والقرى والدساكر بواحدة من روائعه يصف مشاعره الصادقة نحوها ، وما تثير في نفسه من الانفعالات وما تبعث فيها من جميل الذكريات .

ولم تكن تلك القصائد الجياد الطوال التي خصّ بها ابن خميس تلك البقاع – على كثرتها – لتشبع نهم الشاعر في حب وطنه ، بل إنه لا يفتأ يردّد أسماءها ، ويشيد بها في مواضع كثيرة من شعره ، حتى في ذلك الشعر الذي عبر فيه عن مشاعره العاطفية ، وفيما أنشده من القصائد بعيداً عن وطنه ، وفيها تتناثر أسماء هذه المواقع العزيزة عليه .

اقرأ قوله مخاطباً نفسه (١) :

يا عندليبُ وما إخالك قادرًا
إن أسعفتْكَ المعجزاتُ فهاتها

شاقتْكَ « رامةُ » و « الغويرُ » و « لَعْلعٌ »
فأرَقْت حُرّ الدّمع في عَرَصاتِها

لو كنتَ من « جازانَ » في شطآنها
لرغبتَ عن « نجدٍ » ونجديّاتِها

أوحتْ لأرباب القريض قلائدًا
نظمتْ – بما أوحتْ به – حبّاتِها

قصيدته « بغداد » التي أنشدها في مهرجان الشعر العربي نجده يقول في مطلعها (٢) :

---

(١) الديوان : ص ٣١٩ .

(٢) الديوان : ص ٣٣٩ .

بغـــداد يامعقـــل الفصحـــى أحيِّـــيكِ
طِبتِ وطابتْ مـدى الدنيـا مغانـيك
تحية لكِ من « أمّ القرى » خطَرْتَ
مِن « طيْبةٍ » من رُبا « نجد » تناجيكِ
من « رامَةٍ » من « زَرُودٍ » من رُباً « حَضَن »
من « اليمامَّة » من « حُزْوَى » من « الشُّوكِ »
مـن « الجزيـرة » أفوافـاً معطّـرةً
بعابـقٍ مـن شميم الشيـح مألـوك

وفي تحيته لأعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة لا ينسى هذه المواضعَ فلا يفتأ يذكرها في القاهرة كما ذكرها في بغداد :

يـا شاعـر الأهـرام ترحيبـةً — من خالص الودّ وذوْب الضميرْ
جاءَ بها عَـرْفُ الصَّبا موهنـاً — واسترحلتْ رهوا جناح الأثيـرْ
بالشيِّـح والقـيصوم مألوكـةً — بعابـق الرّوض ونفـح الغديـرْ
نجديـة الـنشر سوى أنّهـا — من «رامةٍ» من «لعلع» من «حصيرْ»
تطـوي إلـيك البيـدَ مختالـةً — يلفّهـا بالدجْـن يـومٌ مطيـرْ

وفي ختام قصيدته « القرن الجديد » التي أعدّها لتلقى في المهرجان الشعري في « عُمان » بمناسبة القرن الجديد الذي مثّلت فيه دول الخليج العربي بكبار شعرائها ، يختم ابن خميس هذه القصيدة بهذه الأبيات يتحدث فيها عن « عُمان » :

هنيئاً لـه ركـنُ العروبـة ثابتـاً — وبشراه نـزجيها لساحتـه بُشْرَى
يكرِّم فينا الشعرَ تزدان سوقـه — له أسْوة بالمصطفى أكرمَ الشعرا
وطاقات ورد من خمائل «طيبة» — و«أمّ القرى» طابتْ فواغمها نشرا
تجوس رُبا نجدٍ تبـرّج روضُهـا — وجرّت بها رَهْوا ذيول الصَّبا فجرا
إليكِ عُمانٌ تحمل الشوق مفعماً — معطرة الأنفاس من أمّك الكبرى

إن هذا التشبث بذكر ما مرّ من المواقع والديار شيء عظيم الأهمية في الدلالة على قوة المشاعر الوطنية عند ابن خميس ، وعلى حرصه على إبراز انتمائه إلى هذا

الوطن الذي هام بأرضه وسمائه ، وسهوله وجباله ، ومدنه وقراه . وليس ترديد أسماء هذه الأمكنة والبقاع إلا مظهرا من مظاهر هذا الانتماء .

وقد أشرنا في صدر هذا الحد يث عن شاعرية عبد الله بن خميس إلى اعتداده ببلده ، وحفاظه الشديد على انتمائه لقومه ، ونقصد بذلك انتماءه إلى الوطن كله ، وأعني به المملكة العربية السعودية ، وليس إلى بقة بعينها ولد فيها وترعرع وكبر ، واتخذها مستقراً ومقاماً ، بل إنه يمتد إلى سائر مدنها وقراها كما قدمنا .

وربما يكون هذا التعلق الشديد بالأهل والمكان هو السرّ الخفيّ الذي يكمن فيما عرف عنه من الولوع بالشعر النبطي الذي قد يسمونه الشعر الشعبي ، ولعل أجدر التسميات به « الشعر العامّي » لأنه ضرب من الكلام الموزون المقفى يصاغ بعامّية أهل البلاد السعودية .

ولهذا الشعر منزلة كبيرة عند ابن خميس يؤلفه وينشده ، ويحفظه ويرويه ويشيد به ، ويدافع بحرارة عنه في المجتمعات ويكتب عنه في الصحف والمجلات ويشيد بأصحابه ، ويدوّن أشعارهم ، ويذكر مناسباتها ، ويشرح معانيها .

وفي ذلك يقول عبد الله بن خميس : « ولقد كان لي في عهد الصبا ولع بهذا الشعر – أي الشعر النبطي – وتشبثت فيه ، فكنْتُ أحفظ جيّده ، وأحتكّ بشعرائه ورواته وتجري لي معهم مساجلات ومذاكرات فيه ، وكنت أقرضه ، وأيّ خلل يظهر في أي وزن من أوزانه أدركه بسرعة ، ولكني شُغلت عنه – ولا أسف – بغيره ، فأخذ يتلاشى من ذاكرتي ويتقلص مع مرور الزمن ، حتى لم يبق منه إلا صبابات في تضاعيف الذاكرة .... » (١) .

وإذا كنّا قد ذكرنا هذه الظاهرة التي تعرفها بيئات الأدب في المملكة العربية السعودية لابن خميس ، وإذا كنّا قد أشرنا إلى دلالتها على شعوره بالانتماء إلى الوطن بكل ما يضطرب فيه من تيارات فكرية أو ثقافية أو أدبية فإن كثيرين أهلَ الحفاظ

---

(١) عبد الله بن خميس (الأدب الشعبي في جزيرة العرب) ٢٦ من الطبعة الثانية .

على لسان العرب ، وعلى لغة القرآن التي أصبحت في مقدمة مقوّمات هذه الأمة العربية التي تضمّ صفوفها ، وتوحّد كلمتها وفكرتها وثقافتها المستمدة من تراثها العقدي والفكري والأدبي ، إن هؤلاء المحافظين لا يرضون عن هذا الاتجاه في نصرة « الأدب الشعبي » ، والإشادة به ، ويرون فيه انتصاراً ودعوة إلى العامية التي أخذ بعض المحدثين يدعون إليها ، وإلى تفتيت هذه اللغة الواحدة وإلى إعادتها إلى عدد من العاميات أو من اللهجات التي توحدت في لغة قريش ، وحفظها القرآن ، متذرعين إلى هذه الغاية بشتى الأسباب .

وليس يخفى أن الانتصار لهذه العامّيات ، والإشادة بها ، والدعوة إلى إحيائها لا يمكن أن يتأتى إلا على حساب اللغة الفصحى ، وأن أسبق هذه الدعوات إلى تمجيد العاميات ، والتهوين من أمر الفصحى إنما صدر عن نفر من المتربصين بهذه الأمة وعقيدتها وتراثها . وأظن أن المجال لا يتسع لأكثر من هذه الإشارات التي تناولناها بشيء من التفصيل والتقويم في بعض آثارنا النقدية .

ونحن لا ننكر أنه قد يكون في ذلك « الشعر الشعبي » شحنات عاطفية ، وتصويرات خيالية ، ودلالات تاريخية ، وقيم اجتماعية . ولكن مجال ذلك إنما هو المضمونات والمحتويات ، وليس الأدب والشعر معنًى أو مضمونا فقط ، وإنما هو جماع العنصرين : المعنى البديع في اللفظ الجميل . ولابدّ أن تتعادل القوى العقلية والقوى السانئة في التعبير عن التجارب الحادة التي يراد التعبير عنها .

والأدب – وكل الفنون – يقوم على خصوصية المعاني وخصوصية الأداء . وليس في العاميات خصوصيات !

ولكن الشيء الذي يلفت النظر ويستدعي التأمّل أن ينضمّ إلى هذا النفر الذي يمجد العاميات رجل في مثل وزن ابن خميس علماً وفضلاً ورواية ودراية وغيرة على أمته ، وحذقاً للغتها ، وحفاظا على تراثها .

ولست أعرف في الشعراء المعاصرين من يفوق ابن خميس أويضاهيه في التمكن من لغة العرب الفصحاء ، وفي القدرة على استعمال الجزل المختار في شعره ، مع

أن أكثر من عرفنا من الذين نحوا هذا المنحى من الولوع بالعاميات والتجني على الفصحى ووصفها بالقصور عن توصيل المعاني والأفكار كانوا من الفقراء في التحصيل اللغوي ، أي الجهلة بالإضافة إلى ما عرف عنهم من العمل على التهديم والإخراب لكل مأثور من القيم . ومن جهل شيئاً عاداه .

* * *

هذان مظهران من مظاهر حبّ ابن خميس لوطنه يتمثل أولهما فيما يعمر شعره من ذكر أماكن وبقاع تعلّق بها قلبه ، وتغنّى بها في الفاخر من شعره ، ويتمثل الآخر في إعجابه بما يسمى الشعر الشعبي الذي تغنّى به شعراء البادية .

ونجد إلى جانب هذين المظهرين مظهراً ثالثا يتمثل فيما اختاره وجمعه من شعر الفحول الذي نشره في مجلدين كبيرين يشهدان له بسلامة الذوق ، وسعة الاطلاع ، وحسن الاختيار ، وقد سمّى هذه المختارات « الشوارد » .

ومظهر رابع من مظاهر هذا الانتماء ، وتأكيد حبّه لتلك البقاع التي عاش فيها وتنقّل بينها ، وأعني بذلك الجهد الجبار الذي بذله عبد الله بن خميس في تحرير كتابه « معجم اليمامة » وهو موسوعة كبيرة في الجغرافية وتقويم البلدان ، وفي الأدب والتاريخ ، تختصّ بذلك الإقليم التاريخي الكبير في قلب الجزيرة العربية الذي وقعت فيه أحداث مثيرة في جاهلية العرب ، وفي صدر الإسلام ، وفيما وليه من القرون . وكانت هذه الأحداث ذات أثر كبير في تفجير ينابيع الشاعرية عند عدد كبير من فحول الشعراء المعروفين في الجاهلية والإسلام ، وفيهم من لم يبرح اليمامة حتى وافته منيّته ، وفيهم من هاجر إلى مواطن الرزق واتصل بالخلفاء والأمراء والوزراء في البصرة والكوفة ودمشق وبغداد ، وغيرها من الأمصار . وهناك تهيأت لهم أسباب المجد والثراء وذيوع الصيت .

* * *

هذه أربعة مظاهر لوطنية ابن خميس وولائه لبلده وقومه ، ولأدبهم ولغتهم وكلها شواهد صدق على هذه المشاعر التي انعكست على طباعه ، ثم على سلوكه في حياته ، وفي معاملة الناس ، وهي في الوقت نفسه دليل على أصالته واعتداده

بنفسه ، وبكل ما ينتسب إليه من الأهل والوطن والقيم والخلائق والتقاليد .

ولكن هذه المشاعر الوطنية لا تتوقف عند حدود بلاده ، بل إنها تلازم الشاعر العربي المسلم في كل مكان يحلّ فيه ، أو يطوف به خياله وراء هذه الحدود من منازل العرب وديار المسلمين في الشرق أو في الغرب ، فكل بلد بلده ، وكل عربي أو مسلم أخوه ، وهو معه في سرّائه وضرائه ، يرتاع له وتثور ثائرته إذا نزل به خطب ، أو ألمت به كارثة ، حتى إذا لاحت في الأفق بارقة أمل في انقشاع الغمّة هلّل الشاعر وكبّر ، وقرّت عينه ، وأخذ بشعره الحماسي يستنهض الهمم ، ويشحذ العزائم للمضيّ في طريق النصر ، والأخذ بالثار .

وتثور هذه المشاعر القومية بين جوانح ابن خميس في وقت مبكر من حياته وهو ما يزال فتًى يطلب العلم ويتردّد على معاهده ، فتفيض شاعريته التي قد يحسبها القارىء من التجارب الأولى التي يزاولها الشعراء المبتدئون في مطالع حياتهم الأدبيّة في دور التكوين ، إذا قيست بالعمر الزمني لعبد الله ابن خميس .

ولكن القارىء حين يتأمل ما يقرأ يجد نفسه أمام أعمال شعرية لا ينقصها النضج أو الحاجة إلى استواء الملكة . وتلك إحدى الخصائص المميزة للشاعر الموهوب عبد الله بن خميس .

وفي كثير من قصائده المنثورة في ديوانه « على ربا اليمامة » ترى الشاعر يجيد فيها ويتألق حتى ترى فيها سمات من شعر الفحول المعروفين في تاريخ الشعر العربي ، في تلك المرحلة المبكرة .

وفيما نحن بصدده من الحديث عن شعره الوطني الذي تجاوز فيه حدود وطنه المحدود في وادي حنيفة في ديار نجد ، أو وطنه الكبير في المملكة العربية السعودية إلى وطنه الأكبر الذي يشمل ديار العرب والمسلمين ، نتمثل بقصيدته « مصر والاحتلال » [1] وقد عبّر فيها أقوى تعبير عمّا تعاني أمته العربية في أرض

---

(١) ص ١٩٨ من الطبعة الثانية من الديوان .

الكنانة ، ويذكر الشاعر أنه أنشدها يوم كان تلميذا في السنة الأولى من كليته التي تخرج فيها تعليقاً على بيت الشاعر أحمد شوقي :

ولا خيرَ في الدنيا ولا في حقوقها   إذا قيل طلاَّب الحقوق بُغَاةُ [(١)]

عندما اشتدت وطأة الإنجليز على مصر أيام الاحتلال البريطاني ، وفي أولها يقول ابن خميس :

أمالكَ يـاركْبَ الحيـاة هُـداةُ   وقد ضلّ في الليل البهيم سُراةُ
وجُنَّ جنون السَّفْرِ واستأثرتْ به   على غير هَدْيِ المقسطين غُـواةُ
يقودونـه نحو النجـاة خديعـةً   وليس مع البغـي الصّراح نجاة
سوَى ما يرجِّيه المهيضُ بمَهمهٍ   له النّسْرُ إلْـفٌ والذِّئـابُ أُسَاةُ

وفي هذه القصيدة المحكمة يثور الشاعر على أولئك المستعمرين الآثمين الذين يستنزفون دماء الشعوب ، ويستنفدون طاقاتها ، ويجرعونها كئوس البغي والعسف والإذلال بدعوى بناء عالم الأمن والسلام ، وهم كاذبون فيما يدّعون ، لأنهم في حقية الأمر تجار حروب ، لا يؤمنون إلاّ بالغدر ، ولا يحملون إلا أسلحة الفتك والدمار التي يروّعون بها الشعوب الموادعة الآمنة ، ليقيموا على أنقاضها صروح البغي والفساد ، وليمكنوا لأنفسهم في أرض هم فيها دخلاء وغرباء ، وليعودوا بالبشرية إلى جاهليتها الأولى التي كانت تحكمها شريعة الغاب التي يمتص فيها الأقوياء دماء الضعفاء ، وينصبون من أنفسهم قضاة في حياة البشر ، وحكاماً على مستقبل الشعوب المستضعفة التي يحوّلونها إلى مجتمعات متنافرة تؤدّي بها إلى الشتات والضياع .

ذلك رأى عبد الله بن خميس فيما يفعل الاستعمار والمستعمرون في الشعوب التي ابتليت بحكمهم ، وقد سجل ذلك في هذه القصيدة معبّرا عما يرزح تحت وطأته الشعب المصري في عهد الاحتلال الإنجليزي حيث يقول :

---

(١) من قصيدة شوقي « نجاة » التي مطلعها :

هنيئـا أمير المؤمـنين فـإنما   نجاتك للديـن الحنيـف نجاةُ

(٨٥/١) وقد أنشأها في تهنئة السلطان عبد الحميد الخليفة العثماني بنجاته من قذيفة أطلقها عليه أحد نصارى الأرمن في سبتمبر ١٩٠٥م .

فيالك من ركب يغذ مسيرهُ ... وغاية إدلاج المسيرشتـــاتُ
تنازعُ أيدي الآثمين قيـادهُ ... وصدّته عن نهج الهدى شهواتُ
وقامتْ شرورٌ واستبّدتْ مطامعٌ ... وسيمت شعوبٌ واستبّد وُلاةُ
وثارت لإخضاع الأنام زعانفٌ ... تنادي .بأنّا لـلسّلام دعــاةُ
وأيّ سلام يدّعيه معــاشرٌ ... غُواةٌ لإسْعار الحروب أداةُ
بَلَى قد أعَدُّوا للسلام قوارعاً ... تهونُ لأدْنى فتكها النكباتُ
ليبْنوا على أنقاضه جاهليـةً ... لها الجورُ حكمٌ والأسود قضاةُ

هكذا صوّر الشاعر ما يفعل أولئك الدخلاء المستبدون ، وأذنابهم من الذين يمالئونهم من أبناء البلاد الذين صاروا عبيدا لهم ليشاركوهم في العسف والطغيان ، ويفتّون في أعضاد أبناء الأمة ، ويدعونهم إلى التخادل والرضا بما هو واقع بدعوى الأمن والسلام ، ليحظوا بما يشتهون من الجاه والمنصب والثراء ، متناسين حقوق شعبهم في الحرية والكرامة والاستقلال .

ولكن هيهات أن يرضى بهذا الهوان شعب مصر الأبيّ الذي شرب ماء النيل وورث حضارة أسلاف أمجاد لا يرضون لأحفادهم هذه المهانة والإذلال :

فليسُوا وُلاةَ النيل مادام جاريـاً ... وما دام في ذاك الجَناب أباةُ
حرامٌ على ابن النيل بردُ شرابه ... وأنسامُ ذاك الموطـن العِطــراتُ
وتأباه في بطن الرُّموس أُبـوَّةٌ ... وتنكـــرهُ غاداتُـــه الخَفِــراتُ

وإذا تأملنا هذه الأبيات وما قبلها ألفينا أنفسنا أمام شاعر موهوب ينبض قلبه بحبّ العروبة ، والغيرة على وطنها أيًّا ما كان موطنها .

وقد كانت مصر أقرب هذه الأوطان إلى قلب الشاعر من سائر البلاد ، فصاغ فيها هذه القصيدة وغيرها ، وكأنه واحد من أبنائها البررة الذين درجوا على أرضها ، واستظلوا بسمائها ، وارتووا من نيلها العذب الفرات ، وامتلأت قلوبهم بحبّها ، والإحساس بآلامها .

ويستوقفنا ما صبّ الشاعر فيها من المعاني الحماسية في هذه الصياغة ، وفي

هذا البناء المحكم المكين إذا قدّرنا أنه أنشد هذه القصيدة في مقتبل حياته ، وفي مطلع شبابه ، مما يدلّ على شاعرية مطبوعة ، ظهرت آثارها مبكرة .

ويذكر الشاعر أن الشيخ محمد متولي الشعراوي أستاذه إذ ذاك اطلع على هذه القصيدة فأعجب بها ، وردّ عليها بأبيات جيدة على وزنها ورويّها وختمها بهذين البيتين :

أرجّيك عبد الله باذر غيرةٍ ... لها من قوافيكَ الحِسَان بناتُ
ومثلك يُرجى ، إنّ ذلك أولٌ ... وفيها لمرجُوّ النبوغ نواةُ

وقد تحققت نبوءة الشيخ ، فقد نبتت النواة وأورقت وأزهرت وأثمرت ، وأصبح عبد الله بن خميس علما من أعلام الشعر العربي يشار إليه بالبنان !

وكنت أعرف أن الشيخ محمد متولي الشعراوي عالم كبير ، وداعية إلى الله بنظراته في كتاب الله ، ومحاولة كشف أسراره لجماهير المسلمين الذين يأخذ بألبابهم أسلوب الشيخ الشعراوي وطريقته المتميزة في الوعظ والتفسير .

وللمرة الأولى أعرف أن الشيخ الشعراوي شاعر مجيد .

وتهزّ ابن خميس حرب أكتوبر ١٩٧٣ م ، وزحف الجيش المصري ، وعبوره قناة السويس ، وتوغله في أرض سيناء ، وقضاؤه على غطرسة اليهود ، وعلى أحلامهم في السيطرة على الوطن العربي ، وبناء دولة تمتدّ من النيل إلى الفرات .

ويصوغ ابن خميس في أحداث تلك الحرب قصيدته « يوم النصر » (١) التي أعدّها آية من آيات الإبداع في الفن الشعري في العصر الحديث ، بما اجتمع لها من قوة المعاني وفخامتها ، وجودة الألفاظ وجزالتها ، ومن متانة البناء ، وإحكام النسج .

وفي مطلع هذه القصيدة يشرح الشاعر الآلام النفسية والمشاعر الحزينة التي كانت تكابدها مصر وأمتها العربية بعد هزيمتها في عدوان سنة ١٩٦٧ م فيقول :

اللهُ أكبرُ ، في طيّ القضا عِبَرُ ... وفي مداولة الأيام مدَّكَرُ

---

(١) ص ٨٥ من ديوان (على ربا اليمامة) الطبعة الثانية .

يقدّر الناسُ ، والأقدارُ ضَاحِكةٌ ولا يحيطون ما يأتي به القدَرُ
كنّا نعيش عجافاً دَرُّها عَلَقٌ ونستجمّ ثمادًا صفوها كدَرُ
ونهجر النومَ تجفونا مضاجعنا كأنما كلّلت طيّاتها الإبَـرُ
إذا تمثّل ماضينا وحاضرنـا تكاد أكبادُنا بالغيظ تنفطِرُ
يقول تاريخنا : هل أنتمُ عربٌ وهل نمتْكُمْ إلى أذوائها مُضَرُ
وما علمنا بأنَّ الغيبَ يرقبنا في موعدٍ عنده البركانُ ينفجرُ
يأتي على البغي أربَى في ضراوتِه فيستبيه ولا يُبقِي ولا يذَرُ

لقد غرّ اليهود ما رأوه من تخاذل العرب ، وضعف أسلحتهم ، وانقسامهم على أنفسهم ، فحسبوا أنهم باقون مخلّدون في أرض العرب التي اقتطعوها في حرب سنة (١٩٦٧ م) بأسلحة الغدر والعدوان ، وبمساندة أعداء العروبة والإسلام في أمريكا وأوربا ، وظنّوا أن لن تقوم للعرب قائمة بعد هزيمتهم النكراء التي منوا بها بعد تلك الحرب .

وما درى أولئك المخدوعون أنها سحابة صَيف سرعان ما تنقشع ، فإن الثورة تغلي في قلوب العرب ، وإن براكينها سوف تنفجر عما قريب لتقطع دابرهم ، وتطهر أرض العرب من رجسهم ، وتقوّض آمالهم في استكانة العرب وتخاذلهم ، وقعودهم عن الثأر لكرامتهم وشهدائهم ، يقول الشاعر :

كانوا يظنّون أنـا أمّـة عصفت بها الحزازاتُ واستشرى بها الوغَرُ [1]
لا تستفيق على ضيم يُراد بها لو دقّها في صميم الهامة الحجرُ
ما ثَمَّ إلا قطيعٌ ما له قـدَرٌ يُنْهى فيسمعُ أو يُدْعى فيـأتمرُ
وما درَوا أننـا والضاد تجمعنـا في الأرضِ ، في الدّم ، في الإسلام تنصهرُ
لا نستقيدُ وإن شطت بنا سبلٌ ولا نحيدُ ولو ينأى بنا السَّفَرُ
لنا على الدهر أمجادٌ أبتْ شرفاً أن نُستضامَ وتاريخٌ لـه خطـرُ
أراده الدهـر أحقابـاً فأعجـزهُ وحدّثتْ عن تسامي صرحه العُصُرُ

ثم يتحدث الشاعر عن طرف من خلائق اليهود ، الذين جبلوا على عبادة

(١) الوغر – بسكون الغين وفتحها – الحقد والضّغن والعداوة ، والتوقّد من الغيظ .

المال ، يجمعونه من كلّ سبيل ، وعلى الغيّ والفساد في الأرض ، لا يردعهم رادع ، ولا يزجرهم زاجر من دين أو خلق .

وقد أسكرهم انتصارهم في تلك الحرب ، وما يزالون سادرين في بغيهم وصلفهم ، ودعواهم أنهم بنو إسراءيل شعب الله المختار ، وأن من عداهم ، من عباد الله عبيد لهم . يقول فيهم الشاعر :

وعصبةٍ تطلب الغفرانَ كاذبةً ... لم ينهَهُمْ عن ركوبِ الغيّ مزدَجَرُ
معربدين لغير المال ما عبدوا ... وسادرين بغير الظلم ما شعروا
على سراب من الأوهام قد أمنوا ... وفي يبابٍ بدعوى النصر قد سكروا
أعماهم البغيُ حتى قال قائلهم ... نحن السّلالة دونها البشرُ

وجاء أمر الله فصبّحتهم جنود الله بما لم يكونوا يحتسبون .

كان اليهود يعتقدون أن القناة سدّ منيع ، لا تستطيع أعتى الجيوش أن تغامر بمحاولة عبورها ، لأنهم واقفون على الضفة الشرقية بالمرصاد لكل من تسوّل له نفسه هذه المحاولة . وكانوا يعتقدون أن « حصن بارليف » الذي أقاموه على تلك الضفة يعجز أقوى الجيوش عن اقتحامه « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب » ، وعبر الأبطال من جند مصر القناة ، ودمّروا « حصن بارليف » وانطلقوا يحرّرون سيناء من قبضة الأعداء .

اقرأ هذه السخرية المريرة من « بارليف » وحصنه الحصين ، ومن اليهود وأحلامهم الكاذبة التي ذهبت أدراج الرياح ، في هذه الأبيات :

فصبّحتهم جنودُ الله هاتفةً ... الله أكبرُ ، والإسلامُ ينتصِرُ
أين المعاقل يا « برليفُ » تحسبها ... درعَ السّلامة ما التحصين ؟ ما الوزَرُ ؟
أين الحواجزُ ماءٍ ومن لهبٍ ... من الذينَ على هاماتها عَبَرُوا ؟

وطالما ولغت إسراءيل في دماء العرب من شعب فلسطين وفي أرض العرب التي غزوها ، وطالما أزهقت من أرواح الأبرياء منهم ، ويتّمت من الأطفال الذين شردتهم ، ليهيموا على وجوهم جياعاً حفاة عراة :

كم أزهقتْ من بريءٍ ماله ترةٌ وأيتمتْ من صغير شفَّه الضررُ
واليومَ تهوي على الأذقان ساقطةً يلفّها اللهبُ المسعورُ والشرَرُ

أمّا الآن فقد آن الأوان ليثأر العرب لدمائهم وكرامة أوطانهم ، ويشفوا صدورهم .

وترى الشاعر يلهب حماسة الأبطال البواسل الذين عبروا القناة وحطّموا حصن بارليف ، فأحْيوا بذلك الأمل بالنصر القريب في قلوب العرب والمسلمين .

ويلهب الشاعر حماسة أولئك الأبطال البواسل الذين يسميهم « جند الله » ، ويحثهم على التسابق إلى التضحية في أشرف حرب يخوضونها ضدّ عدوّ غاشم لا يرعى في عدوانه إلاّ ولا ذمة :

الثأرَ ، الثأر .. جندَ الله فاستبِقُوا بوادرَ النصر لا ضعفٌ ولا خَوَرُ
لا أُلفيَنَّ امرءًا ينسى ضريبتـهُ فالتضحياتُ لأرباب العُلا غـرَرُ
يا موكبَ النصر كم أحييتَ من أمل له تأصَّلَ في نيل المنَى وَطـرُ
نـفسي الفِـداءُ لفتيـان تُرافقُهــم قلوبنا فوق خطّ النـار تَبْتـدِرُ
باعـوا نفوسَهــمُ للهِ ما وهنــوا وما استكانوا فنِعْم الفْتيةُ الصبُّـرُ
دمُ العروبـة يـذْكيهمْ ، وينـدُبهمْ ألاَ اثأروا ، ومن الباغين قد ثأُروا

وأستطيع أن أقول إن هذه القصيدة وحدها جديرة بأن ترفع عبد الله بن خميس إلى درجة شعراء العربية المعدودين في سائر عصور الشعر العربي ، لما فاضت به من العاطفة الجياشة ، والمشاعر الصادقة التي أملت عليه هذا الشعر القويّ الرصيـن .

* * *

ولا تتوقف هذه المشاعر الوطنية عند وطنه الأصليّ في المملكة العربية السعودية ، ولا عند أرض الكنانة التي توغل حبّها في أعماقه .

بل إن شاعريته تحلّق في سماء العالم العربي في المشرق والمغرب ، لتطوف بسائر أرجائه ، وتلمّ بمختلف أمصاره ، لتعبّر عن جانب من الأمجاد التي اختصّ بها كل مصر ، وسجلتها صفحات التاريخ ، وأصبح كل عربيّ يزهو بها معتدّاً بها ،

ومفاخرا بما حصل قومه فيها من المآثر ، وعما أصاب مسيرتها من التعثر ، في بعض مراحلها التاريخية ، ويستنفرها لاستعادة ميراثها من تلك الأمجاد .

يقول في بغداد من قصيدة أنشدها في مهرجان الشعر العربي الذي أقيم فيها :

شوقٌ سما لَكِ فانثالت خواطره عن « مربد البصرة » الفيحا بواديكِ
عن « الرشيد » وعن أيام دولته في مطرِف من جلال المجد محبوكِ
أيامَ كنْتِ ولا علمٌ ولا أدبٌ إلاّ وتطلبه الدنيا بناديكِ
واستأثرتْ بك أحداثٌ مروِّعةٌ لولا الأصالةُ كاد الدهر يُرْديكِ
فإنْ نزعْتِ إلى مجدٍ فلا عجبٌ المجدُ مجدُكِ والماضون أهلوكِ
وإن أتتْكِ وفودُ الضادِ مُجْلبةً فإنما لمعانٍ فيك جاءوكِ
فمرحباً بك يا بغدادُ منطلَقاً لأمّة لم تزَلْ دهرًا ترجّيكِ

وفي أكثر حواضر البلاد العربية وأمصارها أنشد ابن خميس أمثال هذا الشعر الفاخر يحيّيها ويعدّد مفاخرّها .

ولا غرو فإن هذا الشاعر الكبير قد أشرب قلبه حبَّ أمته ، فما يزال يتغنى بأمجادها ، ويشيد بانتصاراتها ، ويدعوها دائما إلى لمّ شعثها ، وتوحيد صفوفها ، ويهيب بها أن تستجمع قوتها ، وتستمسك بمقوّمات وجودها التي هي سرّ عظمتها ، وسبب بقائها . وهو القائل :

خلقٌ في طبع قومي يتسامى أينما حلّوا حجازاً وشآما
أقسم المجدُ وآلى أنَّهُ لا يراهم ما بقوُا إلاّ كراما
يعبث الدهرُ ويزْوَرُّ بهم وهمُ الأعلوْن لا يحنون هاما
يعشقون الصَّدْر يعلو وإذا عزَّهم لا يستطيبون المقاما
نحن منهم في رحاب طوَّقَتْ عنقَ التاريخ والدنيا وساما

أما حنينه إلى ديار العرب ، فتصوّره مثل هذه الأبيات من قصيدة له أنشدها في زيارة له قام بها إلى « الزبير » من أرض العراق :

يقودُني نحو « الزبير » الهوى وأهلُه لي فيهمُ آصرةْ
كمْ ذا أُناغي مطمحي في اللقا حتى تحينَ الفرصة النادرةْ

واليومَ ألقاهمْ فألقى الندى والمنتدى والحكمة السائرهْ
ألقَى بني قومي كما شئتهُمْ في حلة من مجدهم زاهرهْ

وإذا كان الشاعر قد عبّر عن مشاعره نحو المواطن العربية كما رأينا ، وإذا كان قد أشاد بشيء من مفاخرها الموروثة فإنه لم يفته وصف ما تعانيه الأمة العربية في هذا الزمان ، بتوانيها عن الصراع ، وقُعودها عن الكفاح في سبيل حقوقها التي ضيِّعت ، وكرامتها التي ابتذلت ، وتخاذلها ، وتفرّق كلمتها ، وانقسام صفوفها ، حتى أصبحت وكأنها قد فقدت حمّيتها ، ونسيت بسالتها وغيرتها على حماها .

استمع إليه في هذه الأبيات الباكية الحزينة [١] :

وما دمعة الأوطان من عين حرَّةٍ أبتْها ولكنَّ النشيجَ يذيعُها
سوى لوعةٍ تُدمي القلوب وهزَّةٍ شغوفٍ بأَعماق الكرام تُشيعُها
فحتّام تغدو والبعادُ حليفُها وحتّام تُمسِي والسُّهادُ ضجيعُها
تقولُ ، وما بالقول يسكن روعُها وتنعَى وما بالنّعْي تُشفَى صدوعُها
عفا اللهُ عن قومي ، أنامَ حفاظُها ؟ أم الهِندُوَانيّاتُ كَلَّ قُطُوعُها ؟
أم الصِّيدُ من أَبنا مَعدٍّ ويَعْرُبٍ حُماةُ الحمَى ظَلَّ ابن آوَى يروعُها ؟
أفي الحقِّ أن يستفْحلَ الخُلْفُ بينها ؟ ويُصدعَ من بعد التحامٍ جميعُها ؟
وما الخُلْفُ بين القوم إلا ضلالَةٌ هداها لمُسْتَنِّ الطريقِ صريعُها

وغضبة ابن خميس للخلف الذي شجر بين الإخوة العرب تذكرنا بَغضبة شوقي للخلف الذي شجر بين رجال الأحزاب في مصر في قصيدته [٢] التي يقول في مطلعها :

إلامَ الخلْفُ بينكم إلاَما ؟ وهذي الضجّة الكبرى عَلاَما ؟
وفيمَ يكيد بعضكمُ لبعضٍ وتُبدون العداوةَ والخصاما
وأين الفوزُ ؟ لا مصر استقرَّتْ على حالٍ ، ولا السّودانُ داما

(١) ديوان (على ربا اليمامة) ٣٥٨ .
(٢) الشوقيات ١ / ٢٢٧ .

وفيها يقول :

شببتُمْ بينكم في القُطر ناراً ... على محتلّه كانت سلامـا
إذا ماراضها بالعقل قـومٌ ... أجدَّ لها هوى قوم ضِراما
تراميتُم ، فقال الناسُ : قومٌ ... إلى الخذلان أمرهُمُ ترامَـى
إذا كان الرّماةُ رُماة سُوءٍ ... أحلّوا غير مرماها السِّهاما

وكأن الشاعرين الكبيرين ينزعان عن قوس واحدة !

* * *

وقد شغلت كارثة فلسطين كثيراً من الصفحات في ديوان الشعر العربي الحديث ، وندر أن ترى شاعراً من شعراء العرب الذين عاصروا هذه الكارثة لم ينفعل بها ، أو لم يصف أحداثها ، أو لم يعبّر عن مأساة الأمة العربية بها ، وعما جرّته على الشعب العربي في فلسطين من الويلات والنكبات ، وعما خلّفته في نفوس العرب من الحسرات .

وقد ألهبت هذه المأساة مشاعر ابن خميس كما أثارت مشاعر سائر الشعراء المحدثين . فوصف أحداثها الأليمة ، وشرح ما أنزل اليهود بأهليها من ضروب العسف والبغي ، وأشاد ببسالة المجاهدين من أبنائها ، وشحذ عزائمهم للمضيّ في طريق الكفاح ، واستنفر الأمة العربية لتشدّ أزرهم ، وتهبّ لنجدتهم وتخليصهم من هذا الكابوس الثقيل الذي جثم على صدورهم هذه السنوات الطوال التي تناهز نصف قرن من الزمان .

ومن ثمرات هذا التفاعل بين مشاعر ابن خميس وهذه المأساة قسم كبير من أقسام ديوانه « على ربا اليمامة » الثمانية ، وقد سمّى ما أنشده فيها « فلسطينيات » وحشد فيها تسعاً من قصائده الجياد الطوال [1] .

وأولى هذه القصائد قصيدته التي سماها « يوم النصر » وقد عرضنا لها فيما

---

(١) ديوان (على ربا اليمامة) ص ٨١ إلى ص ١٤٧ .

سلف ونظمها الشاعر في زحف الجيش المصري على أرض سيناء ، عقب عبوره قناة السّويس ، وتحطيمه « حصن بارليف » .

والثانية قصيدته « سلمتْ يدا شعب الجزيرة » وقد أنشدها في مناسبة افتتاح « المعرض الفنّي لصالح لجنة رعاية أُسَر مجاهدي وشهداء فلسطين بالرياض » .

وفي أول هذه القصيدة يدعو الشاعر الشعب العربي إلى الثأر من أعدائه الذين اغتصبوا أرضه ، وسفكوا دماء بنيه ، وعاثوا في وطنه الفساد .

وهذا الثأر توجبه الحمية العربية التي تأبى الضيم ، ولا تبيت على ثأر ، وترفض الاستسلام لعدوّ غادر يتغنّى بالسلام ، وهو ماض في صلفه ، سادر في عدوانه وطغيانه . ولا سبيل إلى استرجاع تلك الحقوق التي اغتصبها أولئك الدخلاء الطغاة من بني إسرائيل إلا حربهم ، وامتشاق السلاح الذي يستخلص به الأحرار الشرفاء حقوقهم ، ويستردّون مقدساتهم التي دنّسها أشرار اليهود باحتلالهم وفسادهم .

وينبغي ألا يعيش العرب في وادي الأحلام ، مخدوعين بتلك الدعوات الكاذبة إلى السلام التي يردّدها الأعداء بين حين وحين . والسلام في شرعة أولئك الظالمين لا يعني إلا التسليم بالواقع ، واستسلام أصحاب الحق لما يفرض عليهم بحكم الغلبة والقهر .

وما يزال العرب مخدوعين بالأماني ، وبتلك الدعوات الكاذبة ، حتى برزت إلى الوجود « منظمة فتح » التي لا تؤمن بالشكوى ، وترديد عبارات الشجب ، والبكاء على الأطلال ، ولكنها تؤمن بالجهاد ، وبالفداء والتضحية ، لأنها السبيل الأوحد لتحقيق أماني الفلسطينيين في العودة الكريمة إلى ديارهم ، واستخلاص مقدساتهم من أيدي اليهود الآثمين .

يقول ابن خميس في مطلع هذه القصيدة الحماسية الآسرة [1] :

الثـأرُ يوقظـه الحسامُ المنـتضَى   والحقُّ – كلُّ الحقِّ – فيما قد قَضَى

(١) ص ٩٣ من ديوان « على ربا اليمامة » .

والقولُ ترجمهُ الفداءُ قذائفاً أصداؤهنَّ تشقّ أجواز الفضا
حكمٌ وما فزِعَ الرجالُ لمثلهِ إنْ لجّ غِرٌّ في العداءِ وأوْفضا
قالتْ به « فتحٌ » وقُلنا عنوةً يَهْنيكِ يا « فتحُ » الطريق المرتضَى
رفضتْ محادثةَ السّلام وإنّها لخديعةٌ أولى بها أن تُرفضَا
تخذ السلامَ العاجزون تعِلّةً أين السّلامُ ؟ فما أعلَّ وأمرضَا
هيهاتَ ، كمْ زمنٍ نشيم بروقَه أقوى على الضَّيم المبرِّح وانقضَى

وطالما جأر العرب بالشكوى من عنت اليهود وتعسّفهم ، وطالبوا العالم والمنظمات الدولية التي نصبت نفسها حارساً على حرية الشعوب ، وضمان أمنها واستقرارها ، بإنصافهم ، واسترجاع حقوقهم المغتصبة ، فأصمّ العالم أذنيه عن الشكوى ، ولم يحرك ساكناً لإنصاف العرب وكبح جماح اليهود .

وطال الترقب والانتظار ، ونفد الصبر ، فلم يبق إلا شهر السلاح في وجه أولئك الغزاة المعتدين ، وانتزاع الحق من مغتصبيه بالقوة ، وتاريخ العرب حافل بالبطولات ، وبالصور الرائعة للبذل والتضحية ، وإباء الضيم .

يعبر ابن خميس عن هذه المعاني بقوله :

قلنا لعالمنا بنُصفةِ حقّنا فأشاحَ عن سَنَن الصلاح وأعرضَا
واليومَ نستفتي السّلاح فإنّه أهدَى سبيلا نحو أسباب القضَا
لا تستنيمُ على الوتيرة أمّةٌ تركتْ لها الدنيا سجلاّ أبيضا

والسجلّ الأبيض الذي يعنيه الشاعر في هذا المقام هو ذلك التاريخ المشرق المشرّف للأمة العربية التي حفل تاريخها بآيات البسالة والإقدام في خوض ميادين القتال ، وبقدرتها على تحقيق النصر ، واستخلاص حقوقها من أيدي الطغاة الجبّارين .

ومن أروع هذه القصائد « الفلسطينيات » في ديوان ابن خميس قصيدته ألتي سمّاها « نداء فلسطين » وهي من أروع شعره ، وأحفله بالعواطف الإسلامية والعربية الصادقة .

وقد عبّر فيها عما يعتصر قلبه وقلوب العرب والمسلمين من الأسى والهمّ

لما صار إليه حال القدس التي استبدّ بها اليهود ، واعتدوا على مقدّساتها ، وأهم تلك المقدسات المسجد الأقصى الذي هو أولى القبلتين ومسرى النبىّ ﷺ .

وقد صوّر الشاعر في أول هذه القصيدة مأساة هذا الحرم المقدس الذي أصبح ينوء بالهموم تحت وطأة أبناء صهيون الذين دنّسوه ، وصدّوا عنه جموع المسلمين الذين كانوا يسعون إليه مصلّين وعابدين ومتبتّلين وزائرين .

ونام المسلمون عن الثأر لهذا المسجد من الذين انتهكوا حرمته ، ودنّسوا قدسيّته ، وأصبح روّاده من تلك الطغمة الضالّة من الأفاقين . فأظلم نهاره ، وتطاول ليله ، وكأنه لا آخر له مادام المسلمون غافلين عن هذا الثأر ، قاعدين عن العمل لإعادته كآخر عهده بهم مثابة لهم وأمناً . وهو دائم التلفّت نحو أرض العروبة في الجزيرة التي يرى أهلها أجدر الناس بأن يغضبوا لمأساته ، وما أصابه من هوان ، لأن مجده موصول بأمجادهم ، وهم رحمه الأقربون ، وسيوفهم درعه في الملمات ..

يقول الشاعر في « نداء فلسطين »[1] ، أو نداء المسجد الأقصى :

قُنَنٌ بأُولَى القِبلتين تنادي	قد طال في الضَّيْم المُمِضِّ رقادي
ووتيرتي نامتْ وزاد تأوُّهي	ويهودُ - يالمصيبتي - عوّادِي
وأعيش في أملٍ طويل ليلُهُ	لا مسعِفٌ أو منجدٌ أو فادِي
وتلفُّتي نحو الجزيرة لأنني	يا مؤئَلَ الأمجاد حلَّ قيادِي
رَحِمي بهاتيك الرُّبا موصَولةٌ	فالقومُ أهلي والبلادُ بلادِي
وسُيوفهم درعي ، وسُنَّة أهلها	شَرْعي ، وصيحةُ حربهم إنشادِي
مُرْهُمْ فحبّاتُ القلوب قريحةٌ	كَي يُبرئوها والسّيوفُ صوادِي
وخيولهم جُرْدٌ ، وفتيان الحمى	مُرْدٌ ، وتارات البلاد تنادِي
ونشيدهم « الله أكبرُ » يالها	أنشودةً دكّتْ ذُرَا الأطوادِ

ولعلّ في هذا القدر الذي أوردناه من الحديث عن « فلسطينيات » ابن خميس

(١) ص ١٠٩ من ديوان (على ربا اليمامة) .

ما يكفي للدلالة على معاني شعره الذي أنشده في نكبة فلسطين ، وعبّر فيه عن مشاعره الصادقة تجاه أحداثها الأليمة .

ولكن هذه المشاعر لا تتوقّف عند تلك القصائد الثمان التي ضمّها باب الفلسطينيات ، بل إنها تجد لها موضعاً في كثير من القصائد التي عالج فيها الشاعر أغراضاً أخرى . حتى يمكن القول بأن « قضية فلسطين » تمثل إحدى الظواهر البارزة في شعر الشيخ عبد الله بن خميس .

ومن ذلك قصيدته « عاشت بلاد الرافدين » (ص ٣٥٥) التي طغت فيها مشاعره نحو فلسطين ومأساتها على كل ما أراد أن يقول فيها ، فقد بلغت عدّة أبياتها تسعة وعشرين بيتا ، ليس فيها من تحية بلاد الرافدين سوى البيتين الأخيرين ! وفي أولها يقول :

هواها لأجزاع الحِمَى ، ونزوعُها ... تجاذبها سرَّ الهوى أو تطيعُهـــا
تراءَى لها « الأقصى » فهاجتْ شجونُها ... وعنّتْ لها « يافا » فزاد وَلوعُها
لها في رُبا « مرج ابن عامر » سلْوةٌ ... وحيث المغانى من « أريحا » ربيُعها
ملاعبُ أنسٍ لا يَريمُ نزيلهـا ... وملهى ظباءٍ لا يُذَار قطيعُهـا

وبعد هذا الوصف الشائق لمشاهد الجمال والجلال في ربوع فلسطين ، يأخذ الشاعر في وصف ما تعاني تلك الربوع ، وهي ترزح تحت وطأة احتلال اليهود الذين أحالوا تلك المغاني الآسرة إلى أطلال تنعى حظها العاثر ، وتبكي مجدها الداثر ، إلى أن يقول :

أتُسْلَـمُ أولى القبلـتين لطُغْمــةٍ ... أذلَّ وأوهَى من نَمَاه خليعُهـا
تجوسُ ديارًا بـاركَ اللهُ حـولها ... ويشكو أذاها شيخُها ورضيعُهـا
يخرّ بمسنــون الحراب شبابُهـــا ... ويُخْضب لَبَّات العذارَى نجيعُها

ويستطرد إلى هذه المعاني الحماسية التي تدفعها عواطفه الصادقة ، وكأنه يمتاح من معين لا ينضب ، وذلك المعين هو مشاعره التي أجّجتها في أعماقه مأساة فلسطين .

وليس في القصيدة كلّها كما قدّمنا سوى بيتين في آخرها حيّا فيهما بغداد ، وكانت هذه التحية هى المقصودة ، كما يدلّ على ذلك العنوان .

ونحن لا نعيب على الشاعر تداعي هذه المعاني الفلسطينية في تلك القصيدة أو في غيرها ، ولكننا نتساءل عن العلة في أن الشاعر أبعد هذه القصيدة أو قطعها عن القسم الذي خصصه في ديوانه لقصائده (الفلسطينيات) .

وفي قصيدته « بغداد » (٣٣٧) التي أنشدها في مهرجان الشعر العربي في بغداد ، لم ينس في غمرة ذلك المهرجان أن يذكّر المحتفلين بمأساة الشعب العربي في فلسطين ، وينعى على شعراء العرب حياتهم في أبراجهم ، ومناجاتهم عواطفهم الذاتية ، وتشاغلهم بشعر العبث والغزل عن القضية الكبرى التي تقض مضاجع أمتهم العربية ، وهي قضية فلسطين ، فيقول :

فليُحْرم الشعر من وَجْدٍ ومن غزلٍ   وفي فلسطينَ شُذَّاذُ الصعاليكِ
سَلِي القوافيَ بنتَ القدس في حَرَدٍ   لا تسألي غيرها عمّن أضاعُوكِ
واستصرخي مِهرجانَ الشعر يبعثها   شعواءَ من طُغمةِ الأوباش تُعْديكِ

فتراه يحمِّل الشعراء مسئولية تلك المأساة التي أودت بفلسطين ، فقَد شغلوا أنفسهم وشعرهم بصور اللهو والعبث ، ويستصرخ شعراء العرب الذين شاركوا في هذا المهرجان ليبعثوا في أمتهم روحَ النضال ، حتى يخلص الوطن السليب من أيدي الغزاة المارقين من شذّاذ الآفاق .

وأمَّا قصيدته « القرن الجديد » وهي إحدى مطولاته إذ تبلغ عدة أبياتها واحدًا وخمسين بيتاً ، وقد أعدّها لتلقى في المهرجان الشعريّ في عُمَان الذي مثَّل شعراء الخليج دولهم فيه ، فقد بدأها بذكر السنين التي تتعاقب ، ثم يمضي بعضها في إثر بعض إلى غير رجعة ، وقد عاش من هذه السنين خمسين حجَّة في القرن الرابع عشر الهجري الذي أصبح في ذمة التاريخ ، لتستقبل الحياة قرناً جديداً ، وتكتب فيه صحفة جديدة .

ويسلّي الشاعر نفسه بالآمال التي لولاها لعصفت به الهموم التي لا تفتأ تحاصره ، حتى وخطه الشيب ، وتغضّنت صفحة وجهه ، وهو يصارع الزمن ، ويوهم نفسه بأنه ما يزال شابّا جَلْدًا فتيّا .

ويحمد للقرن الذي أدبر ما شهده فيه من يقظة الأمة العربية ، وإن شهد ذلك القرن بعض المتاعب من جراء تفكك الأمة وتمزقها ، وينعى على هذه الأمة ما هي فيه من فرقة وشتات أمام أحداث مثيرة وعواصف هوجاء تهدد كيانها ، مع أنهم أمة واحدة لا يمكن أن تباعد بينها حدود ولا صحارى ولا بحار :

أتتركنا الأحداث نهباً لفرقةٍ ... وندرأ بالتسكين داءً قد استشرى
وما العُربُ إلا وحدةٌ لا تشجّها ... حدودٌ ولا تقسيمُ بحرٍ ولا صَحْرا
وإنّا وإنْ عشناه صبرًا مرنّقاً ... تجرُّعُهُ يَفْرِي مرائرنا مُرّا
لَنرقُبها تُلغِي الفوارق بيننا ... يَفِيءُ علينا ظلّها وحدةً كبرى

إن أشهى ثمرةَ تقتطفها الأمة العربية من وحدتها والتئام صفوفها هي عودة فلسطين إلى أهلها ، وهذه العودة هي التي تكفكف دموعهم ، وترقأ مدامعهم التي أدماها بكاؤهم على ديارهم ووطنهم .

ومن أشهى هذه الثمرات استنقاذ المسجد الأقصى الذي باركه الله ، ودنّسته جرائم اليهود الذين لا يرعون في مسلم إلاً ولا ذمة :

تعودُ فلسطينُ العروبة طلقةً ... وترْقَأُ من مُرفضٍّ مقلتها العَبْرَى
وتطلق للأقصى الأسير وثاقهُ ... وكمْ فيه للجَوْر المبرّح من أسْرَى
ينوءُ بها شعبٌ أبيحت حياته ... ويستفُّ أنفاساً يردّدها جمراً
شكا غير مسُموع وعادَ فلم يجدْ ... سِوَى الصُّمِّ فاستفتَى المثقفة السّمرَا
لئن فاتهُه العيشُ الأثيرُ بأرضهِ ... فما هيَ إلاّ أن تواريه قبْرَا
أولئك ما استعصَى من الخطب مُرْتَجٌ ... تخطّوا إليه السّهل والمركب الوعْرا
وما أسمعوا الدنيا صُراخاً وضجّةً ... بَلَى ، كلَّ يوم أسْمعُوا فتكةً بِكرَا

إن الشاعر يدعو في هذه الأبيات إلى اطراح الشكوىَّ التي لم تحلّ المشكلة ، ولم تجد نفعاً في استرجاع ماضاع ، ولا في مداواة الجراح ، وأولى بهذا الشعب المشرّد البائس أن تواريه القبور إذا فقد أمله في حياته المفضلة في وطنه الأثير بعد أن عصفت به الأقدار ، وبغى فيه بنو صهيون ، وعاثوا في أرضه الفساد .

ولا يجد هذا الشعب الأبيّ سبيلا إلى تحقيق هذا الحلم السعيد ، سوى

الاحتكام إلى السيوف والرماح والسلاح ، بعد أن قاسى ألوان البغي والجور ، وضجّ بالشكوى التي أصمّ العالم الذي يدّعي الحضارة أذنيه عن الإصغاء إليها ، وترك اليهود يتمادون في بغيهم وغطرستهم .

وما قدمنا من هذه النماذج من شعر ابن خميس سواء منه ما أودعه في باب « الفلسطينيات » في ديوانه ، وما تناثر في قصائده التي عالج فيها أغراضاً أخرى يصوّر لنا مدى إحساس الشاعر بمأساة فلسطين وفداحتها ، ومدى توغل هذا الإحساس في نفس الشاعر ، وتأثيره العميق في وجدانه ، وانعكاس هذا على نتاجه الشعري .

* * *

ولعلنا بهذا القدر من الكتابة استطعنا التعريف بشاعرية عبد الله بن خميس ، والتوقيف على أبعادها واتجاهاتها ، والكشف عن مقوِّماتها ، وعن العوامل المؤثرة فيها ، وعن خصائص نتاجه الشعري كما رأيناها في ديوانه الضخم الأنيق .

ولعل أبرز هذه الدوافع أو العوامل المؤثرة في توجيه هذه الشاعرية هو شدّة شعور صاحبها بالانتماء إلى الجنس العربي الذي ينتسب إليه ، وإلى الوطن الذي عاش في أحضانه ، وأقلته أرضه ، وأظلته سماؤه ، وإلى المجتمع الذي وصلته به أواصر الانتساب والاعتقاد ، ووحدة الأماني والمشاعر ، وإلى القيم المأثورة ، والتقاليد الموروثة ، والتراث الفكري والأدبي واللغوي الذي ثقفه ووعاه وفقهه .

وكلّ ذلك طبع الشاعر بطابعه ، وأثر في سلوكه ، وتسلّط على فكره ، وبرزت سماته وخصائصه في شعره .

إن ما قرأته في ديوان « على ربا اليمامة » من شعر عبد الله بن خميس يدفعني دفعاً إلى أن أقول في غير تحرّج إن هذا الشاعر واحد من أفذاذ الشعراء العرب المحدثين الذين أعادوا للشعر العربي مذاقه العربي الأصيل ، وردّوا إليه رُواءه وماءه مما سلبه دعاة التجديد من فخامة المعاني ، وقوّة الديباجة ، وروعة البيان ، في اللفظ المشرق المختار الذي يجمع بين السلاسة والعذوبة والجزالة والقوّة .

وإذا كان لي أن التمس لابن خميس شبيها في هذ الصنيع من شعراء هذا العصر فإنني أجد هذا الشبيه في محمود سامي البارودي الذي يعدُّه مؤرخو الأدب حامل لواء نهضة الشعر في العصر الحديث بعد أن ركدت ريحه ، وهوى إلى حضيض التكلّف والضعف في فترات التخلف السّابقة .

كما أجد هذا الشبيه في الجيل الذي خلف البارودي من شعراء مصر الحذّاق من أمثال علي الجارم ومحمد عبد المطلب وأضرابهما من الذين ثقفوا لغة العرب ، وعكفوا على دواوين الفحول المجيدين من الشعراء القدامى ، وأفادهم هذا العكوف وقوفهم على تقاليد الشعر الأصيل ، وأصوله الفنّية في المعاني وفي المباني ، فسلس لهم قياده ، حتى ملكوا ناصية البيان ، وأعانتهم على بلوغ هذه الدرجة من الإجادة والإتقان مواهبهم الفنية التي جدّوا في تحصيل [illegible] نحو المثل العليا للفن الشعري كما عرفته أمتهم العربية .

إن محمود سامي البارودي وعلي الجارم ومحمد عبد المطلب وعبد الله بن خميس وأضرابهم من الشعراء المحافظين رأوا في النسق المأثور لفن الشعر الذي ألفه الذوق العربي وأعجب به وطرب له ، أنه هو النسق الجيد الجدير بالاتباع والاحتذاء ، فالتزموا به وأصرّوا عليه ، ورأوا فيه سبباً من أسباب الوصل بين حاضر الأمة وماضيها ، حتى تلتئم سلسلة حياتها الفكرية والثقافية والفنية .

وقد كان في وسع هؤلاء الشعراء جميعا أن يخرجوا على ذلك النسق المألوف لأن هذا الخروج لا يكلفهم شيئا ، في حين أن الالتزام يضع أمامهم عقبات لا يتخطاها إلا القادرون الموهوبون .

وفي رأينا أن الشعر الذي تحلّل من قيود الأوزان وموسيقيتها ، ومن نظام القوافي المعروف يمثل خروجاً ، ولا يمثل تجديداً ، لأن من شرط الجديد أن تكون فيه إضافة إلى القديم تزيد في إمتاع النفس ، وإرهاف السمع ، وإراحة الأرواح ، وبهجة القلوب ، وتحقيق المنفعة إذا كان تحقيق هذه المنفعة هى الغاية التي يرمي إليها المفكر أو الأديب .

ولم يتجاوز المجّددون في تجديدهم القوالب أو الأشكال الشعرية ، وقد

حاول بعضهم اصطناع ضوابط لموسيقى هذا الشعر الجديد فثاروا عليه ، وحطموا ضوابطه وقالوا إن هذا الجديد لا يخضع لضابط أو قاعدة ، لأن هذا الضابط أو القاعدة يحدّ من الحرية المطلقة التي ينشدونها .

وقد ألّف واحد منهم « ديواناً » وجعل عنوان المقدّمة التي كتبها لذلك الديوان « حطّموا عمود هذا الشعر » !!

إذن فهي محاولة لتحطيم القوالب والأشكال الشعرية المأثورة ليس غير !

وكيف يكون التحطيم في حد ذاته غاية أو هدفا ؟

وإذا كان الهدف إشباع هوايتهم في مجاراة بعض شعراء الغرب الذين نحوا هذا المنحى فإن ذلك هو « التقليد » بدعوى التجديد !

وقد اضطررت إلى الاستطراد إلى الحديث في هذا الموضوع لأني رأيت قوماً من الأدباء أو النقاد يسمون عبد الله بن خميس وأضرابه من الحِراص على المثل الأصيلة في أعمالهم الشعرية بميسم الجمود أو الرجعية أو التخلّف .

وفي رأيي أن هؤلاء الشعراء ذوُو وَعي ودراية ، لأنهم عرفوا مفهوم الفن الشعري الحقيقي فالتزموه ، ولأنهم أثاروا في أشعارهم موضوعات جديدة ، ووصفوا أحداثا عاصروها ، وتجارب شعورية عانوها في البيئة والزمان اللذين عاشوا فيهما .

ولا أستطيع أن أعدّ عبد الله بن خميس في المجدّدين إذا كان المقصود بالتجديد الهبوط بلغة الشعر إلى اللين الذي يدنو من الابتدال ، أو إذا كان المقصود الخروج عن المألوف من أنساق الشعر العربي وأنماطه التي استقرّتْ ، بعد أن استبانت معالمها ، ورضيت عنها أذواق الأدباء والمتأدبين طوال حياتها التي امتدت ما يقرب من عشرين قرناً من الزمان ، ولم تعْيَ بما حُمِّلتْه من الأحاسيس والعواطف والمعاني والأفكار التي أُريدَ تحميلها إيّاهَا .

يقول ابن خميس مخاطباً ابن زيدون في مهرجانه الذي دعت إليه حكومة المغرب واشترك فيه ابن خميس ، فأنشد فيه إحدى روائعه قال في أولها [1] :

---

(١) ص ٣٢٩ من ديوان (على ربا اليمامة) .

يا رائد الشعر إبداعاً وتلوينـا كيما تخلّد منه الخرَّد العينـا
ألهمْتَه نفثـاتِ السِّحْـرِ راقصَةً ورُضْتَهُ ليكـون الـدّرُّ موضونـا

إلى أن يقول معرِّضاً بأولئك المجدّدين :

أبا الوليد أعِرْ نجواي مُصْغيـةً لطـالما سمِـعتْ صوت المحبِّينـا
القومُ بعدك عقّوا الشعر واتّخذوا بعـد الجيـاد الكـريمات البَراذينـا
ضاقوا به يخلب الألباب مُرْتجَزًا جَمَّ النُّهى عبقَرِيَّ الفكرِ موزونا
واستبدلـوهُ بـأمشاجٍ مُلفّقـةٍ تجترُّهـا بدعـةُ التقليـد تَلْقينـا

ويعبّر ابن خميس عن رأيه الصريح في الشعر الحر ، وذلك في قصيدة عنوانها « يادار » [1] وقد كتب تحت العنوان هذه العبارة « مهداة للأستاذ الشاعر عبد الرحيم نصار رجعاً لقصيدته « سنوات حزن فلسطينية » من الشعر الحرّ كما يسمونه ويبدؤها بقوله :

ما أنصفتْكِ قوافي الشعر يا دارُ وفيكِ للملْهَـم المِنطِيـقِ أسرارُ
ضنُّوا عليك بـأوزانٍ وتقفيـةً يشتارها مثل أَرْى النحل مُشتارُ
وأركبوا الشعر إمّا قصّروا شططاً وبعضهم عن ثمين الشعر قصَّارُ

ويبدو أن قصيدة عبد الرحيم نصار « سنوات حزن فلسطينية » لم ترقْ في نظر شاعرنا عبد الله بن خميس الذي رأى أن بكاء الشاعر في « سنوات الحزن » كان ضعيفا لا يعبّر عن عمق الأسى مع أن الخطب في مأساة فلسطين خطب فادح . وكان هذا الخطب جديراً بأن يفجر براكين الثورة التي تغلي في صدور المحترقين بها ، ويجب أن يكون الأسى موازيا لفداحة المأساة ، فيقول ابن خميس مخاطباً الدار :

بَكاكِ « نصّارُ » لكنْ دمعُه شَبِمٌ لم يسْفِهِ بـدم الفِـرصاد نصّارُ
وكان لو شاء ألقاهـا مدَمْدِمـةً كأنها من دم الأحـرار إعصارُ
عجبتُ يُكْدِي وتحت السّرج سابحةٌ تشأى الجيادَ وفي يُمناه بتَّـارُ
يـزاوجُ اللفـظ أحيانـاً ويُفـردُه ويصطفـي تـارةً منـه ويمتـارُ

---

(١) ص ١١٣ من ديوان (على ربا اليمامة) .

عُونٌ عجافٌ وأمشاجٌ سوائمه   وأمّهاتٌ وأظآرٌ وأبكارُ
ما بينهَا وأصيلِ الشعر من نسَبٍ   هي الحروفُ وألفاظٌ وأسطارُ
جَوْفاءُ ما ألهَبتها نارُ عاطفةٍ   أو سار فيها من الأفكار تيّارُ

لم يكتف ابن خميس في هذه الأبيات بموقف الشاعر المجيد الذي لا يشقّ له غبار ، ولكنه أضافه إلى هذا الموقف موقف الناقد الخبير ، البصير بجواهر الكلام وعوامل سموّه ، ومظاهر اتّضاعه .

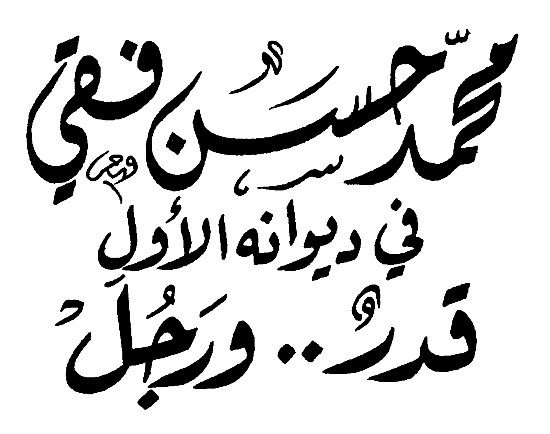
وقد تناول في هذه الأبيات معاني هذه القصيدة – قصيدة نصّار – المتهافتة ، وألفاظها المختلطة التي جمعها الشاعر من كل واد ، وعواطفها الباردة مع حرارة الدّوافع التي تحتاج إلى شاعر صناع ، متوقد القريحة ، مشبوب العاطفة ، ناصع البيان .

أما « الشعر الحرّ » فهذا هو رأى ابن خميس فيه :

دَعَوْهُ حرّاً ويالَلنّاس من زمن   قال المخفُّون وزناً نحن أحرارُ
حرّيةٌ ظلموها واسمُها لغةً   فوضَى وسيّان شاءُوا الحقّ أم جاروا
لأنّها بدعةُ التقليد نافقةٌ   قالوا وقلنا ، وسرْنا حيثما ساروا
رُميتَ يا شعرُ بالداء الذي رُميتْ   به العروبة ، والأيام أطوارُ
قد أثخنُوها جراحاً ، وابتغَوْا مددًا   يقوم منها عليها وَيْك أنصارُ
قالوا لهم : إنه التجديدُ فانطلقوا   يجدّدُون فقلنا : إنه العارُ
إذا سَرَت في لسان القَوم بادرةٌ   عجماءُ فاستمرءوها بئسما اختاروا

وما كان للشاعر العربي الأصيل الذي عرف لغة العرب ، وذاق حلاوتها ، وماز شاردها وفصيحها من سفسافها ، ووقف على أساليب بلغائها ، وخاض بحار الشعر ، وراض عصيَّة ، وانقاد له أبيُّه ، حتى صار من أعلامه البارزين ، ما كان له أن يستمرىء هذه البدعة ، ولا أن تستهويه تلك الضلالة التي تستهوي الضعفاء الذين قصرت هممهم عن بلوغ مرتبة الإبداع ، أو مرتبة العطاء باللفظ الجيّد ، والتركيب الأنيق ، والقافية الملتزمة في الوزن الرشيق ، والمعنى البارع ، والخيال الجميل .

* * *


محمد حسن فقي
في ديوانه الأول
قدرٌ.. ورجُل

قلّما يقرأ الناقد البصير في هذا الزمان ديواناً من دواوين الشعر ، أوعملاً من الأعمال الشعرية ، فيقع من نفسه وفكره موضع الرضا الذي يصل إلى التمام ، ليصبح هذا العمل ، أو يصبح صاحبه به نموذجاً من تلك النماذج الأصيلة المعدودة في عالم الشعر منذ كان حتى هذا الزمان الذي نحيا فيه .

وفي عصور الضعف تقفر الملكات ، وتتّضع آثارها ، حتى تصل إلى درجة خير ما يمكن أن يقال فيها أنها درجة التوسّط ، أو درجة المقاربة التي يصبح من النادر معها أن تلمع في سماء الفنّ شخصية من الشخصيات ، أو تبرز في عالم الفنون عبقرية من العبقريات ..

وفنّ الشعر في أوضح مفهوماته وأوجزها هو فنّ العبارة الممتازة عن التجارب الإنسانية التي تستحق عناية الأديب ، أو عناية الفنان .

ومعنى ذلك في اختصار شديد أن فن الشعر على وجه الخصوص ينهض على هاتين الدعامتين : العبارة الأنيقة الجميلة ، والمضمون الإنساني الذي يتحمل معاناة الشاعر في تجاربه الشعورية .

ويندر في هذا الزمان أن يظفر الناقد بما يحقق تطلّعه إلى عمل شعري اكتملت فيه معالم هاتين الدعامتين ومقوّماتهما ، حتى يستطيع أن ينتزع منه الشعور بالرضا والإعجاب ، على الرغم من كثرة ما يتاح له أن يطالع من مجموعات الشعر ودواوينه التي تعزّ على الإحصاء ، وتلفظها المطابع العربية في كل بلد عربي ، فتغصّ بها المكتبات ، وتملأ دكاكين الوراقين .

وقد تظفر بعض الأعمال الشعرية المعاصرة بالعواطف الجياشة والتجارب الغنية ، ولكنك تحسّ وأنت تقرؤها بضعف الصياغة وقصور الأداء ..

وعلّة هذا القصور واضحة في ضعف القدرة البيانية ، وضآلة الثقافة اللغوية ..

وفي بعض الأحيان تجد ما قد يروقك من الصياغة ، فإذا أنت فتّشت عن

المحتوى أو المضمون لم تجد فيهما شيئاً جديداً ، وإنما تجد بهارج لفظية ، وزخارف شكلية لا قيمة لها ، لأنها أشبه بالطلاء على غير ما يناسبه من البناء .

ولكنك لن تظفر في هذا الشعر الكثير إلا بالنادر القليل من تلك النماذج الفنية العالية التي تجمع إلى عظمة المعنى روعة الأداء .

* * *

من ذلك القليل النادر في جودته وأصالته في عالم الشعر المعاصر ما قرأته للشاعر العربي السعودي محمد حسن فقي في ديوانه الذي سمّاه « قدَر .. ورجُل » .

فإنك واجد في هذا الديوان أكثر ما تتطلع إليه ، وأكثر ما تنشده في الشعر المعاصر من معالم القوة ، ومظاهر الفحولة .. وواجد فيه ما يحملك على أن تقول : إنني أقرأ شعراً !.. فإن بين يديك من الأسباب الفنّية والشواهد الموضوعية ما يصدقك فيما تقول ! .

وذلك في زمان يكثر فيه أن تسمع هذه الكلمة على سبيل الجهل ، أو على سبيل الدعوى ، أو على سبيل المجاملة الآثمة على حساب الشعر ، أو على حساب الفن !

وأعتقد أن الجهالة والدعوى والمجاملات هي علّة العلل فيما تعاني الحياة الأدبية المعاصرة ، وهي التي شجّعت كثيرين من الأغرار المتطفلين على موائد الأدب على أن يؤلفوا القصائد وينشروا الدواوين التي لا تقرأ فيها إلا كلاماً منظوماً ، أو أشبه بالمنظوم ، لا يغني من الشعر شيئاً !

ولست أخلي النقد والنقاد الذين يسهل عليهم أن يلقوا الأحكام جزافاً ، غير ناظرين إلى مغبّة هذه الأحكام ، وغير مقدّرين لخطورتها وأثرها الرديء في حياة الأدب والأدباء ــ لست أخليهم من المسئولية الكبرى في ذلك التدهور الملحوظ الذي تشهده حياتنا الأدبية في فنّ الشعر بخاصة .

ولكن ديوان « محمد حسن فقي » يعيد إلينا الأمل ، ويحملنا على القول بأن دولة الشعر العربي ما تزال بخير .

وإذا كان من حقنا أن نحاسب الضعفاء والمقصّرين والمتطفلين ، ليتحاشوا أسباب الضعف والقصور ، أو ينحّوا أنفسهم بعيداً عن هذه الصناعة التي لم يخلقوا لها – فإن من واجبنا أن نشيد بالأقوياء والمطبوعين الذين يعيدون لهذا الفن الإنساني الرفيع سمات حياته ، وسابق أمجاده ، ليكونوا مثلا أو منارات على الطريق يهتدي بها المتأدبون الذين يصرّون على أن يكونوا من فرسان هذا الميدان .

* * *

إن شعر محمد حسن فقي في « قدَر .. ورجُل » غنـيّ بالتجارب الشعورية ، حافل بالمعاني النفسية ، مفعم بالمشاعر والأحاسيس التي صورها الشاعر بريشة فنان صَنَاع ..

اقرأ قصيدته « من أنا ؟ » وهي أولى قصائد هذا الديوان ، وفي أولها يقول :

منذُ عهد من الزمان بعيدٍ لسْتُ أدري عن بدئه وانتهائهْ
كنتُ طيراً مرفرفاً فوق غصْن مائسٍ باخضراره ورُوائهْ
كان هذا الوجودُ روضاً أنيقاً طرّزتْ أرضَه أكفّ سمائهْ
وأنا فيه ذَرَّةٌ في مغانيـه صدًى – ما يذوب – من أصدائهْ
وحواليّ ألفُ لون من الحُسْـنِ تناثرنَ في البساط الرحيبِ
فتحوّلتُ وردةً وتبرّأتُ من الشوكِ في الربيع الخصيبِ
لمسَتْني الأكفُّ لمسَ حنانٍ ورعتْني العيونُ رعيَ حبيبِ
لم ترُعني يد القطافِ فعُمِّرْتُ طويلا بنضرتي وطيوبي

إنك لا تقرأ في هذه الأبيات ولا في غيرها من أبيات القصيدة كلمات بقدر ما تطالع هذه الصور الرمزية التي جسّد الشاعر فيها مشاعره وأحاسيسه منذ استقبل حياته وليداً ، حتى شبّ وترعرع ثم اكتهل .

فقد استقبل هذه الحياة طائرا يرفرف بين الحدائق الخضر ، أو الرياض الزُّهر ، تطربه الحياة بفتنتها ورؤاها ، ويطربها بما يستمد من مباهجها من الأصداء التي يعكسها على أجوائها .

ثم صار وردة لاشوك فيها ، تتناولها الأيدي ، وترعاها العيون ، وكُتب

للوردة البقاء ، فلم تصل إليها يد القطاف ، فعاشت تبث أريجها ، وتمتع العيون بنضرتها ..

ثم تحول غديراً رويّا عذب النمير ، يترامى حوله العشب النضير ، لا يمنع وِرْدَه آدمياً صادياً ، ولا طيراً ، ولا وحشا ..

ثم أصبح دوحاً ظليلا في قلب الصحراء ، يتفيأ ظلاله الذين لفحهم الهجير ، وهو بذلك جدّ سعيد مع ما يلقى مع لفح الصحراء ، لأنه استطاع أن يجلب السّلوى للمهمومين ، والراحة للمجهدين . واكنه لا يلبث أن يصبح صخرة صمّاء في جبال وشعاب تهيم فيها الوحوش ، فلا يرى في الحياة شيئا جميلا ، فكان عقابا كاسرة تستبيح مالا يباح ..

إنها جملة من الرؤى والمشاعر التي اتصلت واستقرت في ذات الشاعر في سلسة اتصلت حلقاتها ، وهي لا تمثل تلك الحياة المادية التي تدرّج فيها الشاعر وهو يخطو مراحلها بقدر ما تمثل تلك الحلقات الموصولة للمشاعر التي صحبته في مسيرته عبر السنين .

لقد احتفظ الشاعر بتلك الرؤى والخلجات النفسية التي صحبته وصحبها برغم تقادم الزمن ، وبعد العهد بها ، حتى تصل تلك الحياة الشعورية أو تنتهي إلى إحساسه بالحياة الواقعية ، حتى إذا وصل إلى هذا الإحساس بنفسه وبالناس ، وبما يختلج بين جوانحهم من دواعي الشر لم يلبث ذلك الإحساس أن يتحول إلى شعور بالغربة ، والبعد بينه وبين الناس ، وإن كان يحيا بين ظهرانيهم ، وتنفعل نفسه بما كان يرى منهم ، حتى إنه ليحار في الحكم على ماضيه وعلى حاضره ، وفي أيهما كان خيرا ، وأيهما كان شرّا ، ثم أكان هو وحده الذي مرّ بهذه التجارب ، أو هذه التحولات ، أم كان الناس جميعاً يشاركونه في هذه الحياة :

وأنا اليوم كالغريب .. فقد كنتُ غديراً .. وكنت طيراً وزهراً
وعقاباً يخافه الطيرُ في الجو رهيباً .. وكنتُ في القفْر صَخرا
أيّ عمر هذا ؟ وهل كان خيرا يشتهيه الأنام .. أم كان شرّا
وأنا من رأى الحياة أفانينَ .. وحيداً .. أم الخلائق طرّا

ثم يناجي نفسه بتلك الآلام التي بدّدت سعادته ، وأسلمته لليأس ، فيقول معبرّا عن إحساسه بوحشة الغربة :

ياغريباً عن الديار .. عن الناس .. عن الخلق كلّهم أجمعينا
ياوحيداً طوى السِّنينَ .. فراضتْه .. وما استطاع أن يروضَ السنينا
خلِّ ذكراكَ .. ليس في الأرض ذكرى .. مثلُ ذكراك تستثير الشجونا
إنها أنت .. حين كان بكَ الغيبُ ضنينا .. وكنتَ فيه جنينا
نمطٌ — كان للزمان — فريدٌ .. ثم شاء القدر ألاّ يكونا

وعلى ذلك النحو من الاستغراق العميق في التجربة تتابع الصور ، وكأن الشاعر فيها معين لا ينضب ، وشعلة لا تخمد جذوتها .

ولكن هذا الاستغراق في حديث النفس لم يحل بين الشاعر وبين الناس ، فقد رأينا تساؤله عن عمره ، أكان خيراً يشتهيه الأنام أم كان شرّا ؟ وعما رأى من صروف الحياة وألوانها ، أكان وحده الذي عاناها ؟ أم شاركه في تلك المعاناة الناس جميعا ؟

ثم نراه يقول في هذه القصيدة :

أنا مثل الألوف في هذه الأرض .. رسيفٌ ما بين شتّى القيود
أيُّهذي السّدودُ .. هل نصرم العمر هباءً .. ونحن خلف السّدودِ

ونراه أيضا ينكر على نفسه أن يكون كالعقاب .. إذا سنحت له فرصة الانقضاض اهتبلها ، ولا يعترف بالحرام لأن كل شيء في شريعة الغاب مباح ! كيف يسعد الإنسان بشقوة الآخرين :

ما يرى في الوجود شيئاً حراماً .. بل يرى في الوجود شيئاً مباحاً !
أيّ روح هذي التي تنشد العيش رخيّا .. فتزهقُ الأرواحا ؟

قد نرى في شيء مما مرّ علامة من علامات السخط والتمرد ، ولكن الشاعر لم يستطع أن يتخلص من مشاعره نحو الإنسانية ، وهو في ذلك الاستغراق العميق في معاناته الذاتية ..

ونستطيع أن نقول أيضا إن الشاعر لم يحاول أن يصطنع لنفسه عواطف

أو أحاسيس أو مشاعر ، ويزعم أنه مختصٌّ بها دون غيره من البشر .

وتلك سمة من سمات الصدق الذي تتميز به النفوس الفاضلة ، التي لا تُحسِنُ التكلف ، ولا تعرف النفج ولا الادّعاء ، بالإضافة إلى ما تحمل من معاني الإنسانية ، ومثلها الرشيدة ..

* * *

على أن تلك النزعة الإنسانية ، وأعني بها حبّه للناس ، وإحساسه بآلامهم ، هي إحدى الظواهر البارزة في شعر محمد حسن فقي ، وهي انعكاس لما تمكن في أعماقه من حبّ الناس ، وحب الخير للناس ، على الرَّغم مما يتردّد في كثير من شعره من الشكوى مما يجد منهم ، ومن الثورة على مالا يرضيه من خلائقهم . حتى لقد تبلغ به الشكوى مما يلقى من عنتهم درجة تشعر باليأس من الحياة والأحياء .

استمع إليه ، وهو يقول في قصيدته « غربة الروح » .

إنّ روحي يدب في ظلمة اليأ ... س مهيضاً كأنّ روحي سجينُ
راسفٌ في قيوده ينشد العو ... ن زماناً قد عزّ فيه المعينُ
إنني ضيغمٌ ، وإنْ أنكر الغا ... بُ زئيري ، وإن جفاني العرينُ
وبوجهي من الخطوب أخاديـ ... ـدُ تغذّ المسير فيها السِّنينُ
ربّما نالت الليالي من الحُرّ ... ولكـنْ قناتـهُ لا تليـنُ

ولكنها على أيّ حال روح الشاعر الذي يعرف طعم الحبّ والصفاء ، وينفر من القطيعة والخصام ، حتى يبدو أن حبّه للناس غريزة متأصلة فيه ، حتى صار منها بمنزلة الوليد الذي يأبى الفطام ! وهو القائل :

إن رُوحي تجيش بالحبّ للنا ... س ، وتطوي بين الضلوع السّلاما
وهي ما تحمل الضغينة والشرّ ... وما تعرفُ القِلى والخصاما
وهي لو تستطيع عانقت الكوْ ... ن ومَن فيه صبوةً وغراما
جذبتْها إليـه نزعـةُ منهو ... م إلى الحبّ ما تطيقُ الفِطاما
تستفـزّ الأنـامَ للأمـل الحا ... لم أن يطرد الضياءُ الظلاما

تستفزّ الحياة للحبّ ، فالحـ ـب ربيـع يـنضّر الأيامـا

ثم يتساءل في حيرة عما أجدى عليه ذلك الحبّ الذي استبدّ به ، وملك عليه قلبه :

أفأغنى هذا عن الرُّوح شيئاً أمْ سقاها الشقاءَ جاماً فجاما
لقيتْ شرَّ ما يـلاقي المحبّـو نَ جـزاءً يبـدِّد الأحلامـا

ولكن هذه الروح الشاعرة بكثرة ما عانت من الناس تحاول أن تتمرّد على طبيعتها ، ليذوبَ حبّها للناس ، وعشقها للجمال في غمرات الحيرة ، وبين مشاعر القلق الذي يستبدّ به ، فتتحول أحيانا إلى ثورة عارمة يفيض بها شعره بمرارة الألم والتبرم والسخط على الحياة ، والشكوى من الناس .

وقد تدفعه تلك المشاعر الثائرة إلى إيثار العزلة ، وتغريه نفسه المتمردة بأن هذه العزلة والانقباض عن الناس هما سرّ نبوغه ، ومصدر إلهامه ، وأنه يخلو في هذه الوحدة إلى فنّه الذي هام به وأخلص له ، واتخذه سببا إلى الكرامة التي يعشقها ، وإلى الخلود الذي يحلم به .

وبهذا تصبح الوحشة عنده أُنساً ، والغربة عن عالم الناس اجتماعا بما يحبّ ، وسعادة بما يجد في آفاق الشعر والفنّ ، وسبْحاً في أودية الخيال التي يحلّق فيها حرّا طليقا ..

وبتلك المعاني الرومانسية يناجي الشاعر نفسه ، أو يسلّيها في هذه الأبيات :

لسْتِ في غربةٍ ، فما تعرف الغرْ بـةَ روحٌ .. تفجـرّتْ أنغامـا
لسْتِ وحشة فما تعرف الوَحْـ ـشةَ روحٌ تجلّـلتْ إلهامـا
لسْتِ في وَحدة فما تعرف الوَحْـ ـدةَ روحٌ تمثّـلتْ أقلامـا
أنتِ دنيـا حفيلـةٌ بالفرادي ـس تناهتْ حسنا وطابت مقاما
لن تراعي بغربـة أيتها الـرّو حُ إذا كنت تمتطين الغماما

حتى ذلك القلق الذي استبدّ به فأحال حياته ظلاماً ، أصبح عند الشاعر شعلة الحياة ، وهو كما يسميه الشاعر « زيت النبوغ » .

إيه يـاروحُ إنـه القلقُ المضـ ـني جَنَيْنا من روضه الآلامـا

هو زيت النبوغ يلـهب مسْرا ةُ ، فيطوي الأمْداءَ والأعواما
لا يبالي أوَحْده واصل السَّيـ ـرَ أو أن الطريق ضجّ زحاما

لقد أحبّ الشاعر الحياة ، وأحبّ الناس ، فما أجدى عليه ذلك الحبّ ؟ .

لقد تقرّب إليهم فازدادوا عنه إعراضا ، بما ركبّ فيهم من اللؤم والحسد ، كما يرى ، فزوّد نفسه بما رأى أنه خير زاد في رحلتة الشاقة في طريق المجد ، فباعد ذلك بينه وبين ما كان يطمح إليه من المكانة والعظمة ..

وكان يرى نفسه أهلا لكل كرامة في دنيا الناس ، فخابت آماله في الدنيا وفي الناس ..

ثم كان من هذا وذاك تلك الطاقة الملتهبة من الرؤى والأحاسيس ، ومن العواطف والانفعالات التي فجرّت شاعرية محمد حسن فقي ، فجادت بتلك النفحات الشعرية البديعة .

* * *

أشرنا فيما سبق إلى بروز النزعة الإنسانية في جملة شعر محمد حسن فقي الذي تمنّى فيه أن لو وسع قلبه الناس جميعاً ، بل لو وسع الكون كلّه . ثم أشرنا كذلك إلى تعبيره عما كان يحسّ به من ظلم الناس له ، وغمطهم لحقّه ومنزلته ، حسدا من عند أنفسهم ، ثم إلى عزوفه عن المجتمع ، واعتصامه بالوحدة أو بالعزلة عن الناس ، متخذا من فنّه الأثير الذي وُهبه ، ومن السبح في أودية الخيال ملاذاً وسلوى ، وسبب أنس وسعادة .

وديوان « قدر .. ورجُل » يرسم صورة واضحة لصاحبه في أمانيّه وأحلامه ، وفي وساوسه وأوهامه ، وفي مباهجه وآلامه ، وفي حيرته وقلقه وفي رضاه وسخطه ، وفي ثورته ودعته ، وفي ضيقه وسعته ، وفي نظرته إلى الحياة ، وإلى ما وراء الحياة ، وفي سائر نزعات فكره ، وخطرات قلبه ..

ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائد هذا الديوان الحافل من صورة لشخصية الشاعر في تلك الأحوال النفسية التي ذكرناها .

* * *

وإذا كانت النظرية النقدية التي تقول إن الشعر هو الشاعر ، وإن الأسلوب هو الرجل تصدق على بعض الشعراء الذين صدقوا في التعبير عن أنفسهم ، ولم تختف حقائق تجاربهم ومشاعرهم وراء عامل من العوامل الكاذبة المصطنعة من الرغبة أو الرهبة – فإن في طليعة هذا النفر من الشعراء الذين تصدق عليهم هذه النظرية شاعرنا محمد حسن فقي ، حينما نقرأ شعره في ديوانه الأول « قدر .. ورجل » !

ذلك أن الشعر عند صاحبنا ليس ضرباً من ضروب اللهو ، أو أثرا من آثار القدرة على الصنعة ، وليس وسيلة من الوسائل التي يصطنعها بعض القادرين على نظم الكلام وبهرجة الصنعة ، لتصيُّد المنفعة ، أو اجتذاب العطاء من القادرين عليه ، فيكونون حينئذ أشباه الصائد الذي يبذر الحبّ بين شباكه ليخدع به الطير ، فتهوي إلى الأرض لتلتقطه ، فتقع في الفخاخ التي نصبت لاصطيادها .

ولكن الشعر كما يعرفه محمد حسن فقي إلهام نفحة سماوية ، يترنّم بألحانها الشجية ، وهو مستغرق في عالم اللاشعور ، بعيدا عن عالم الزيف والزلفى والتهريج الذي يعرفه هواة الكسب أو الباحثون عن بريق الشهرة .

ولذلك كان الشعر – كما يعرفه – بعيد المنال إلا على الموهوبين الصادقين الذين يحرصون على السموّ بهذا الفنّ إلى سمائه الصافية ، كما يحرصون على شرف الشعراء وكرامتهم ، ويأبون ابتذال الشعر على ألسنة المحترفين أو المتكسبين ، وهم كثيرون يعرفهم تاريخ الأدب في كل بيئة ، وفي كلِّ زمان ، ولا يخفون على أهل البصر بالشعر ، القادرين على تمييزه .

وفي ذلك يقول الشاعر :

وما الشعر إن كانت حِبالة قانصٍ قصائدُه .. أو كان لغوا نشيدُها ؟
فما هو إلا في تجلّيه نغمةٌ سماويةٌ ما يستفيق عميدُها
تسامتْ عن التهريج فامتدّ ظلّها وعزّتْ على الإجداب فاخضرَّ عودُها
ويارُبَّ مفتونٍ تمنّى وصالَها فأيأسَهُ لما تناءتْ صدودُها
وذي منطق قد رامها فتمنّعتْ عليه وأعيتْه اقتحاماً حدودُها

ويحاول الشاعر أن يفرّ من عالمه المشحون بالنفاق لأنه شديد الإنكار على من يخفون في سرائرهم خلاف ما تجهر به ألسنتهم وحناجرهم ، وما تسطره أقلامهم ، مما لا تعرفه تجاربهم ، ولا يعبّرون به عن ذوات أنفسهم ، فتتوارى حقائق مشاعرهم وراء مزالق أهوائهم ..

إنه يعرف خلائق الذين حوله من الذين يجيدون صناعة الملق والخداع ، ويأبى أشد الإباء أن يكون من الذين يسرّون حسْوا في ارتغاء . وهو القائل :

إنّ حولي من التملّقِ والمكـــ ـــرِ نطاقا ترتّد عنه العيونُ

وإذ قد عرف ذلك منهم ، فإنه ماض في طريقه ، لا يلوي على شيء ، ولا يبالي بما يكون في غده ، فيقول :

وأيقنتُ أن الخلق عُبدانُ غايةٍ تكبّلهم أغلالها وقيودها ..
فما عادت الأيامُ بيضاً تسرّني وما عاد يشقيني من الخوف سودُها

ورجل لا يعنيه في يومه ما يكون في غده ، ولا ما تنتهي إليه مسيرته ، ولا ما سوف تأتي به الأيام من خير أو شرّ لابّد أن يكون على قدر كبير من الشجاعة والصدق في التعبير عن ذات نفسه ، وعن حقائق معاناته وتجاربه .

وذلك ما رأيناه في شعره الذي كان مرآة أنعكست على صفحتها صورة حياته ومعالم شخصيته بكل ما يتنازعها في جدّها وهزلها ، وفي تراخيها حيناً وفي تماسكها أحيانا ، وفي إقدامها وإحجامها ، وفي مدى استجابتها للدواعي المتباينة التي تؤثر في سلوك البشر ، وفي تلوين شخصياتهم بألوان خاصة تعزلها أو تميزها من شخصيات الآخرين .

* * *

وذلك الاختلاف بين المثالية التي يطمح إليها محمد حسن فقي ، والواقعية التي تشدّه إليها ، وتجذبه نحوها هو الذي أدّى إلى ذلك الصراع في دخيلة نفسه ، كما أدّى إلى طغيان نزعته التشاؤمية التي جعلته ينظر إلى الحياة من خلال منظاره الأسود الذي حجب عنه جمال الحياة وأدى به إلى الشعور باليأس وخيبة الأمل ، فلم يعد يستمرىء صفواً يعقبه كدر ، أو يتعلق بلذة يعقبها ألم ، أو سعادة يخلفها شقاء ..

حتى لقد يبدو في بعض الأحيان أن القيم تختلط عنده كما يختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، والخير بالشر ، والصواب بالخطأ .. فكيف تتشبث نفسه بحياة يفقد فيها الأمل في مسيرة واضحة على المنهج الذي يرتضيه :

ماذا نريد من الحياة وهذه حسناتها تفضي إلى سَوْءاتها
كمنتْ بها الآلام تحت رغادةٍ كالنار تكمن في جميل صفاتها
لا تأمننّ لها ، ولا لصِلاتها فلرُبَّ حرمانٍ أتى بصِلاتها

ولا بد من التنبيه إلى أن تلك النزعة التشاؤمية تختفي عنده أحياناً ، وتتعدّل عنده أحياناً ، لتحل محلها نظرة أخرى ، فلسفتها أنه لا يوجد في هذه الحياة خير محض ، كما لا يوجد فيها شر محض ، وقد يأتي الخير بالشر ، كما يأتي الشرّ بالخير ، فالرغد قد تكمن فيه الآلام ، والروضة الفينانة تمسي فلاة مجدبة ، وقد تكون الصلة سبباً في الحرمان !

وعلى هذا الأساس من التوازن بين الخير والشرّ ، أو تعادلهما ، وعدم القدرة على ترجيح أحدهما على الآخر ، لا يكون هناك مجال للتشاؤم ممّا قد يتوقع فيه الشر ، كما لا يكون هناك مجال للتفاؤل بما يظن فيه الخير !

وتتردّد أمثال هذه المعاني بكثرة ملحوظة في شعر الديوان ، حتى أصبحت إحدى الظواهر البارزة في شعر محمد حسن فقي ، ولولا هذه الكثرة التي شدّت انتباهنا لأعرضنا عنها ، ولما منحناها شيئا من هذا الاهتمام .

ومن أوضح الشواهد على هذه الظاهرة ، وأكثرها تصريحاً في شعره قصيدته التي جعل عنوانها « خاتمة المطاف » وهي آخر القصائد التي سجّلها في ديوانه « قدر .. ورجل » وختم بها شعره فيه . وفيها يقول مؤكداً ما أسلفناه :

وعلّمني سُخْر المقادير أننا ضحايا المآسي ، أو ضحايا المهازلِ
وأنّ نعيق البُوم شكوى حزينةٍ إلى ربّها من طيب شدْو البلابلِ
ففيمَ بزيف النّحس يبدو تشاؤمي وفيمَ بزيف السّعد يبدو تفاؤلي ؟

وإيراد هذا الشعر في « خاتمة المطاف » وفي آخر شعر الديوان يوحي بأن هذا القول هو آخر ما انتهى إليه الشاعر من رأي أو فلسفة في الحياة ، أو في السعادة والشقاء اللذين يتساويان عند الشاعر .

والقصيدة كلّها تتردد فيها تلك المعاني ، وأولها قوله :

تعبتُ من التجوال في غير طائل وأُبْتُ من الترحال من غير نائلِ

وهذا المطلع يذكرنا بقصيدة حافظ إبراهيم التي مطلعها :

سعيتُ إلى أن كدتُ أنتعِل الدّما وأُبْتُ وما أعقبتُ إلا التندّما

وكأن الشاعرين ينزعان عن قوس واحد ، لشدّة ما كابدا من العناء في رحلة الحياة ..

ثم يستطرد محمد حسن فقي إلى وصف تجاربه الأليمة والسعيدة التي حملته على الاعتقاد بتساوي اللذة والألم ، والسعادة والشقاء ، فلم يعدْ يحسّ بطعم أيّ منهما ، فيقول :

فما أنا بالراضي بعيشة مانح ولا أنا بالراضي بعيشة سائلِ
وذقتُ أفانين النعيم فلم أجدْ بها غير طعمٍ واحدٍ متشاكلِ
وجرّبتُ ألوانا من الناس فاستوتْ فضائلهم عندي بأخزى الرذائلِ
لسّيان أن أسعى مع الناس عاملاً وأن أتوارى خلفهمْ غير عاملِ
وَأنْ قيل عنّي إنني خيرُ نابهٍ وأنْ قيل عنّي إنني شرّ خاملِ
وأنْ كان شِرْبي آسناً عافه الصّدِي أم العذبَ صفواً من كريم المناهلِ

وتلك مشاعر الناقم على الحياة البرِم بها ، الذي لا يرضيه ما يرضي الناس ، ولا يسخطه ما يسخطهم ..

لقد حار – كما يقول – في اليقين ، فدفعته حيرته إلى الشك ، فازداد حيرة وقلقاً ، ونشد النور في الهداية ، فلم يجد فيها غير الظلام الذي كان يجده في حياة الضّلال ، وظنّ السلامة في المحبّة وفي الصفح ، فألفى المحبة لا تختلف عن البغضاء ، ووجد الصفح لا يختلف عن الانتقام .

إنك واجد هذه المعاني وأشباهها في قصيدته التي سمّاها « ازدواج الشخصية » التي يقول في أولها :

أيها النفس قد شقيتِ من البُرْ ءِ كما قد شَقِيتِ من أسْقامي
ولقد قادني سُلوّى إلى اليأ سِ كما قادني إليه غرامي

ولقد جِزْتُ في اليقين فشكّكـ ـتُ فزادت من حيرتي أوهامي
ولقد رحتُ في الهدى أنشد النو رَ فلاقيتُ كالضلال ظلامي
وتلمَّستُ في المحبّة والبُغـ ـضِ سلامي فما وجدت سلامي
قيل : للصفح لذّة ، غير أني لم أجدْها في الصفح أو الانتقامِ
وارتضاعي اللذاتِ قد أسقم الرو حَ ، ولم يشفِها مريرُ الفطامِ
وبلوْتُ الهوى فما كان صلحي فيه أدعَى إلى الرضا من خصامي
كم تذوّقتـه فضِقتُ بلونيـ ـهِ ، وكانت كصحوتي أحلامي !

إن الشاعر يسمي هذا كما رأينا « ازدواج الشخصية » ..

و « الازدواجية » في معناها الواضح جمع بين المتباينات والمتناقصات في سلوك الفرد ، إذ يصدر عنه ما يدلّ على أنه راض كل الرضا عن شيء في وقت من الأوقات ، ثم يبدو في وقت آخر أنه ساخط كل السخط على ذلك الشيء بعينه .

وقد يكون في سلوكه ما يبعث على الاعتقاد بأنه خيرّ من الأخيار ، ثم يصدر عنه في وقت آخر ما يبعث على الاعتقاد بأنه شرّير من الأشرار ولا يجتمع الضدّان في حالة واحدة ..

ومن هنا يصعب الحكم على تلك الشخصية بأنها شخصية واحد من الأخيار ، أو واحد من الأشرار ، لأنه يصنع صنيع هؤلاء وهؤلاء .

ولكن الشاعر في تلك المعاني لا يجد في أحد النقيضين ما يشفي نفسه ، وما يبلّ صداه ، فيكره هذا ، ويسخط على ذاك .

ولهذا نستطيع أن نقول إن هذا الشعر لا يتضمن إلا معاني التبرّم بالحياة ، والثورة عليها .. وتلك هي مشاعر النفس المضطربة القلقة التي لا تستقر على حال ، والروح التي تحسّ بأنها في غربة دائمة .

وربما كان في قصيدة أخرى – وأعني بها قصيدته « عذاب الحيرة » – شيء من معالم تلك « الازدواجية » أوضح مما رأيناه في القصيدة السّابقة . وفي « عذاب الحيرة » يقول الشاعر :

لمَ لسْتُ أقنع في الحياة بكلّ أوطار الحياة ؟

لِمَ حين تمنحني الهبات أضيق ذرعاً بالهبات ؟
ويشوقني الحرمانُ .. ثم أضيق بالحرمان من كلفي بذاتي !
ويحي ! فما أشكو سوى .. أني أعيش بلا ثبات !

تلك أماني النفس الملتهبة ، وخطرات الروح الحائرة التي ضاقت بالحياة ، ووصل بها اليأس إلى ذلك الشعور الذي تساوى فيه عندها الخير والشرّ ، كما تساوي فيه الحلو والمرّ .

* * *

وأعتقد أن المشاعر التي أفضت بتلك المعاني لم تكن صدى لفلسفة من تلك الفلسفات المتمردة التي شهدت بعض الآداب الإنسانية – ومنها الأدب العربي – نظائر لها ، كالذي نقرؤه في شعر أبي العلاء وغيره من الشعراء القدامى والمحدثين ، ولا نستطيع أن نسلكه في سلك أولئك المتمردين .

ذلك أننا نقرأ في شعر الديوان كثيرا مما يحملنا على الإعتقاد بإيمانه الراسخ ، وسلامة معتقده من سبحات الأوهام ، ومن شطحات العقول .

وحسبنا أن نقرأ هذه المناجاة للرسول الأعظم محمد ﷺ في قصيدته التي سمّاها « من وحي النبوّة » وأهداها كما يقول « إلى الروح العظيم الذي هدى الأرض بوحي من السماء ، وفيها يقول :

يامن أتيتَ من السماء بملّةٍ ... تهدي العقول بمنطق خلاّبِ
ملأتْ بقاع الأرض حكمة سَرْمدٍ ... وسلامَ آبادٍ ، وخُلد شبابِ
هرِمَ الزمانُ وما تزال فتيّةً ... معصومةً من نكسةٍ ومعابِ
الدين والدنيا رفيقا منهجٍ ... في شرعها للسّوق والمحرابِ
الخير غايتها بكلّ وسيلةٍ ... والحقّ مطلبها بكلّ خطابِ
يقف المليك وإن تطاول ملكُهُ ... برحابها في موقف الحطّابِ
ما كان أسعدَنا بدينك مفضياً ... بحياتنا لمرابع الإخصابِ
لو لم نحدْ عنه لكان لمجدنا ... ما كان منه بسالف الأحقابِ

وهذه القصيدة إحدى روائع الشاعر الذي غمرت قلبه نفحات الإيمان

ولقد طال نفسه فيها طولا ملحوظاً حتى بلغت أبياتها مائة وتسعة من الأبيات ، واستوحى معانيها من روح الدين الحنيف ، ومن صور البطولة في جهاد المسلمين ، ووصل بها الماضي المجيد بالحاضر الذي يتطلع الشاعر إلى أن يعيد سيرته الأولى ، ليكون للمسلمين المعاصرين من الأمجاد ما يقارب أمجاد الأجداد .

ثم اقرأ بعد ذلك قصيدته في مكة المشرّفة ، لتقرأ الآيات الناطقة والمشاعر الصادقة التي تفيض بالحبّ والولاء لمهبط الوحي الذي انبعثت منه أنوار الإيمان ، وهفت إليه قلوب المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها .

وفي أولها يقول :

مكّتي أنتِ .. لاجلال على الأرض .. يداني جلالَها أو يفوقُ
ما تبالين بالرشاقة والسّحْر .. فمعناك ساحرٌ ورشيقٌ
سجدتْ عنده المعاني .. فما ثمَّ جليلٌ سواه .. أو مرموقُ
ومشى الخلد في ركابك مختالاً .. يمدّ الجديدَ منه العتيقُ
أنت عندي معشوقة .. ليس يخزي العشقُ منها ولا يضلّ العشيقُ
ما أباهي بالحسن فيكِ ، على كثرة ما فيك من مغانٍ تشوقُ
كلّ حسْنٍ يبلَى وحُسْنُك - يامكة - رغم البِلى الفتِيّ العريقُ

إلى غير هذه الروائع الصادرة عن قلب مفعم بالحب ، عامر بالإيمان .

* * *

إن هذه الخطرات التي أومأنا إليها ، وقد تعدّ من سبيل الفلسفات ، لم تكن في حقيقتها إلا تعبيراً عن حالات نفسية عارضة ، أو ردود فعل لظروف أغلقت أمامه أبواب السّعادة التي كان يحلم بها .

ولكم تمنّى الشاعر أن يهادنه الزمان ، وتسالمه الخطوب ، ولونسِيَ نفسه ، وارتدّ بعد المعرفة جاهلاً في زمن يسالم الجهلة والأغبياء ، ويحارب العقلاء والفضلاء . وفي ذلك يقول :

ياشقائيَ .. أفلا تعقب هذي الحربَ سلْـمُ ؟
أعطني الجهلَ بما شئتَ .. فإن الجهلَ غُنْمُ !

هو نُعمَى .. ولقد تاق لها .. نضْوُ عذابْ
كلّما جدّ إلى النّبع .. تلقّاهُ السّرابْ
فمضى يلهثُ .. في الرمضاءِ .. في الأرض اليبابْ
لمح النّور .. وأغراه .. فواراه الحجابْ
فهو لا يبصر معنى النور .. إلاّ في الضبابْ

* * *

وربما كان من حسن الحظّ أنني عندما وفدت على هذه البلاد منذ سنين ، وحاولت التعرّف على اتجاهات كتابها وشعرائها ، كان ديوان « قدر .. ورجل » أول دواوين الشعر التي وقعت بين يديّ . وفي نظرة سريعة تصفحت هذا الديوان ، ووجدتني مدفوعاً إلى استكمال قراءته ، وإلى التأمل فيه ، والفحص عن اتجاه صاحبه ، ومدى حظه من الإجادة والإبداع ، وأين هو من شعراء العصر داخل المملكة العربية السعودية وخارجها ..

وقد أسلمتني تلك النظرة الفاحصة إلى الاعتراف بأنني أمام شاعر مكين ، وأنني أقرأ شعراً عربياً خالصاً عالي الطبقة ، وبأن مثل هذا الشعر خليق بالتقدير ، وخليق بأن يعيد إلينا الثقة بأن هذا الفن العربي الأصيل ما يزال يحيا ، برغم محاولات التشكيك ، وبرغم ما تعرض له من الحملات والنكسات وعوامل الإخراب التي كادت تودي به ، وتزهّد فيه أكثر الناس حبّاً له ، وحرصاً عليه .

أما هذا الديوان فإنك تقرأ فيه شعراً اجتمعت فيه قوة الأفكار وفخامة المعاني التي تشد القارىء ، وتدعوه إلى التأمل ، كما توافر له صفاء الديباجة ، وروعة العبارة التي لا تجدها إلا في أعمال كبار الشعراء المطبوعين في عصور الحضارة والازدهار من أمثال أبي عباد وابن الرومي وأبي الطيب المتنبي ، وأضرابهم من الفحول المعدودين الذين تتصل في أشعارهم الفكرة بالفكرة ، وتتفاعل هذه وتلك بأحاسيسهم ومشاعرهم ليكون ذلك المزاج الشائق المعجب الذي يبرز في مجتلى من البيان المحكم الرصين .

ولست أشعر بشيء من الغلو أو المجاملة إذا قلت إنه بمثل هذا الشعر الذي

نقرؤه لمحمد حسن فقي يتجدد للشعر العربي شبابه ، ويعود إليه رونقه ونضارته ، بعد أن جفّت ينابيعه ، وغاض معينه ، وذبلت زهرته ، وكاد يكون نسياً منسياً ..

وأكبر الظن أن محمد حسن فقي لم يقدم على كتابه هذا الشعر الحيّ إلا بعد أن استوت ملكته ، ونضجت شاعريته ، وبعد أن استكمل عدة الأدب ، واستوفى أدوات الشعر بما ألزم نفسه به من القراءة الواعية المستوعبة لأعمال كبار الأدباء والشعراء الذين عرفهم تاريخ الأدب العربي التي وقفته على تقاليد الأدب وأساليبه ، وأمدته بثقافة أدبية ، وثقافة لغوية واسعة أتاحت له المعرفة بأسباب التفوّق والنبوغ ، إلى جانب ما وهبه الله من الشاعرية المطبوعة ، والذوق الفني السليم .

* * *

وقد يكون من المناسب في هذا الحديث عن شاعرية محمد حسن فقي أن نورد أبياتا تفصح عن رأيه في الشعر ، ومذهبه فيه .

ونقتبس هذه الأبيات من قصيدة وفاء عامرة ، رثى بها المرحوم عباس محمود العقاد عقيب وفاته ، ومنها :

وذُدْتَ عن الشعر الرعاعَ فأجلبوا ... عليكَ فحطّمتَ الدَّعِيّ المكابرا
فما شعرُهم إلا الغُثاءُ فمن لهم ... بشعرٍ يهزّ القائلوه المنابرا
قوافيه والأوزان جرْسٌ ، ولفظه ... يشايعُ معناه فيلقاك آسرا
فقد رام هذا الشعر رهطٌ فأخفقوا ... فكادوه ، واستعدَوْا عليه الأصاغرا
إذا لم يكن في الشعر ما يسْتفزّنا ... إلى الخَلْق والإبداع كان قماطرا
فلسْنا نريد الشعر إلاّ خمائلا ... ولسْنا نريد الشعر إلا مزاهرا
إذا البلبلُ الصدّاحُ فوق غصونه ... ترنّم خِلْنا مَنْ ترنَّم شاعرا

والتعريض بدعاة الشعر الحر وأنصاره في هذه الأبيات واضح لا يحتاج إلى مزيد من البيان . وقد كان العقاد رحمه الله في طليعة الناقمين على هذا الشعر .

* * *

وبعد ، فلعلّ هذه السطور استطاعت أن تكشف القناع عن دوافع هذه الشاعرية ومسالكها ، وتفصح عن النوازع النفسية التي كانت وراء هذه الروح الهائمة في رياض الشعر ، وأن يجد فيها القارىء ما يعينه على معرفة الظواهر البارزة في شعر محمد حسن فقي وتفسيرها .

ونرجو بعد ذلك أن نكون قد وفقنا إلى التنويه بأهم جوانب هذه الشاعرية الفياضة وإلى فتح باب للنفاذ إلى أعماق الشخصية الفنية كما تبدو في هذا الديوان الذي يشجّع على القراءة ، ويُغري بالتأمل في هذا الشعر الحافل بالأحاسيس والرؤى والمشاعر ، الصادق في التعبير عن صاحبه بالتصوير الرائع ، وبالبيان المشرق الذي يجمع إلى رصانه الفحول عذوبة شعر المحدثين في القوالب المحكمة ، والقوافي المتخيّرة التي تنمّ عن تمكّن الشاعر ، وحذقه لصناعته ، مع قدرته البارعة على إطالة النفس في القصيدة ، مما يعيد إلى الأذهان ذكرى الحداة السابقين ، والرواد الأوائل لهذا الفن العربي الأصيل ..

* * *

محمد سعيد الخنيزي

في ديوانه

شيء اسمه الحبّ

طلع الشاعر محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي على الناس بديوانه الجديد الذي سمّاه « شيء اسمه الحبّ » . وكان قد صدر له ديوان قبله سماه « النغم الجريح » .

وقد ولد الشاعر في القطيف من المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية سنة ١٣٤٣ هـ ، وكُفّ بصره وهو صغير .

وعلى صفحة الغلاف الأخيرة لهذا الديوان عرّفنا الشاعر بنفسه في سطور قليلة ، فقال إنه ولد في القطيف بالسعودية ، وإنه تلقّى دراسته الأولى على يد مدرّسي بلده ، وعالج الشعر وهو لدْنُ العود ، فأبدع في الشعر الدرامي ، وتميّز عن رفاقه الشعراء الجدد بأسلوبه الحزين ، وخياله المجنّح .

ولسنا ندري مفهوم الشعر الدرامي عند الخنيزي ، ولعله يقصد الشعر الذي بثّ فيه همومه وأحزانه ، وهو معنى بعيد عن المفهوم الصحيح لمصطلح « الدراما » ومفهومها عند النقاد .

ومن حق الشاعر أن يتحدث عن نفسه كما يشاء ، ومن حقّه أن ينعت شعره بما يحلو له أن ينعته به .

ولكن من حقّ الناقد أيضاً ، بل إن من الواجب عليه ، أن يمحّص هذا الكلام ، وأن يتوقف في قبول ما لا يرضاه ، أو مالا يطمئن إليه ، وما لا يجد دليلاً عليه في كلام الشاعر عن نفسه ، أو فيما وصف به شعره ، ولاسيما إذا كانت عناية النقد متجهة بكليتها إلى العمل الأدبي في ذاته ، وإلى البحث المجرّد عن القيم الفنية فيه !

ولم تسمع أذني ، ولم أقرأ من قبل أن شاعراً قال عن نفسه إنه « أبدع في الشعر » ، أو أنه « تميز عن رفاقه الشعراء » ، اللهمّ إلا ماروي عن البحتريّ فيما رواه أبو الفرج أنه كان يتشادق ويتزاور في مشيه ، مرّة جانبا ومرّة القهقرى ، ويهزّ رأسه مرة ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمّه ، ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنتُ والله ! ثم يقبل على المستمعين ويقول : مالكم لا تقولون أحسنْتَ ؟ هذا

والله ما لا يحسِنُ أحد أن يقول مثله ! .. ولا شك أن هذه الحركات وتلك الكلمات كانت تغضّ من جمال شعره ، كما كانت مدعاة لاستهزاء الناس به .

قد يدافع الشاعر عن شعره إذا هوجم ، أو إذا حاول أحد انتقاصه ، كما كان يفعل ذلك أبو الطيب ، ولا ضير عليه في ذلك ، ولا ينكر عليه شيء منه ، لأنه حين يدافع عن شعره إنما يدافع عن نفسه وعن فنّه الذي يستمدّ منه وجوده ، ومنزلته بين الناس ، ومكانته بين الشعراء .

أمّا أن يبتدىء بالثناء على نفسه ، والإطراء لشعره ، فذلك ضرب من الغرور الذي لا يحمده الناس .

وقد يكون الشاعر صادقاً فيما أثنى به على نفسه ، أَو فيما مدح به شعره ، ولكننا نؤثر أن يصدر هذا الثناء عن غيره من علماء الأدب ونقّاده .

* * *

إن أول شعر افتتح به الشاعر ديوانه « شيء اسمه الحبّ » هو هذه المقطعة التي جعل عنوانها كلمة « طيف » وفيها يقول :

في ليلةٍ قبل انبثاق السَّنَى رأيتُها تَسْرِي إلى مخدعِي
أنفاسَ طيفٍ كربيعٍ نَدِي ونغمةً تنسابُ في مَسْمَعِي
أين أغاني الحبِّ ؟ أين المنَى ؟ تناثرتْ كالزهرِ في بَلْقَعِ
أين ليالي الحبّ رفَّافةً عرائساً ترقص في مَرْبَعِي ؟

وهذا شعر عاطفي رقيق ، لا أشك في رقته ، ولا أشكُّ في جودته ، ففي هذه الأبيات القليلة التي تتألف منها المقطعة نقرأ لهفة عاشق ولهان يخايله طيف حبيبته ، فيراه كالربيع الرطب في حياته الموحشة ، وكالنغمة العذبة تسري في مسامعه .. ولكن هيهات أن يسليه ذلك الطيف العابر عن محبوبه ، الذي يطمع أن يراه لينشده لحون الهوى ، ويلمّ شتات الأماني التي تناثرت في صحراء حياته .

إنه لا يريدها طيفاً يخايله ، ولكنه يريدها بشخصها حقيقة ماثلة أمام عينيه ، تتراقص في مرابعه وتملأ عليه حياته . ولكنه لا يراها إلا في المنام ، أو في عالم الأحلام .

وما أكثر ما يتردد هذا الشبح ، أو هذا الطيف ، في قصائد هذا الديوان ومقطعاته ، وكأن الشاعر في حلم دائم تداعبه فيه الطيوف مادام قد حُرم الشخوص ، فهو يقول في مقطعته « تحت ظلال القمر » :

ذكَـرْتُك تحت ظـلال القمـــرْ فعـاودني طيـفُ عهـد غبـــرْ
ذكـرتُك والبـدرُ مـلءُ الـفضا ءِ يرصّع هـامَ الرُّبـا بالـدررْ

وهي صورةُ حسّيه فريدة ، تبرز مقدرة الشاعر على تركيب تلك الصور البصرية التي يؤلفها بخياله ، ولا يراها بعينيه . وهو في هذا يشبه بشّارًا الذي كان يرى ما لا يراه المبصرون ، وطالما أعجب المتأدّبون بشعر بشار ، وطالما أشاد العلماء ببيته المشهور الذي قال فيه :

كأن مُثارَ النقْع فوق رُءوسنا وأسْيافَنَا ليلٌ تهاوَى كواكبُه

ولا يقلّ الخنيزى عنه في جودةَ التصوير في بيتيه المذكورين .

ويعاوده الطيف في مقطعة تالية فيقول :

أنتِ في جنفـــيَ أطيَـــا فٌ تـراءتْ وهْـيَ وَسْنَـى

وفي قصيدته « ذِكرَى » التي تلي هذه المقطّعة يخاطب حبيبته فيقول :

خَلَّفتِ لي ذِكرَى وطيفاً حائراً في مقلتيَّ ، وصورةً في خاطري
خلَّفتِ لي ذِكرَى وصورةَ ليلةٍ ألواحُهـا صبـحٌ يضيءُ لناظـري
خلّفْتِ لى اسماً كالـنسائم رقـةَ وصدَى ذكاراتٍ كطيـفٍ عابـرِ
ذِكرَى لقـاءٍ ما يزايـلُ خاطـري أصداؤه خَفَقـات قـلبٍ ثائـرِ

وقد أكثر الشعراء العشاق من ذكر طيف الخيال في أشعارهم ، لأنهم يجدون من الأنس والنشوة بطروق أطياف حبائبهم ما حرموه بفقد الحبيب أو بهجره وصدّه ، أو بحيلولة الظروف التي تباعد بين المحبين ، وتمنعهم متعة اللقاء في عالم الصحو واليقظة ، فإذا غلبهم الكرى واستغرقوا في الأحلام التي يصحو فيها العقل الباطن ، وتستيقظ فيها المشاعر المكبوتة في غيبة الرقيب أو العقل الواعي ، فيحلّ ما كان حراماً ، ويذلّ ما كان متأبياً أو ممتنعاً .. وقد عبّر عن هذا أصدق تعبير شاعر عربي قديم ، هو قيس بن الخطيم في قوله مخاطباً طيف محبوبته :

أنَّى سَرَبْتِ ؟ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ وتقـرِّب الأحـلامُ غيـرَ قَـريبِ
ما تمنعي يَقْظَـى فقـد تُؤتينَـهُ في النّوم غير مُصَرَّدٍ محسُوبَ !

وفي أكثر هذا الشعر روعة وجمال ، لأنه يعبّر في غير حذر عن أحرّ العواطف ، وأصدق التجارب .

* * *

ولعلّ القارىء يجد فيما قدّمت تعليلاً ، أو تفسيراً مقبولاً ، لحديث الشعراء ، أو العُشاق منهم ، عن الطيف ، ولتكرار ذكر الطيف عند شاعرنا الخنيزي .

ويبقى السؤال عن لجوئه إلى عالم الخيال ، وإيثاره الكفَّ عن ذكر حقيقة تجاربه العاطفية ، فإنني لا أشكّ بعد النظر في شعره ، والتأمل فيه ، في وفرة هذه التجارب !

وقد يكون الخنيزيّ قد اصطنع في هذا شيئا من الرمزية ، فرمز بالطيف لما لم يستطع البوح به ، أو التصريح بمكنونه من تلك التجارب في بيئته المحافظة .

ويبدو أن الشاعر قد ابتلى في أول عهده بالشباب بتجربة حبّ عنيفة ، ولعلّ ظروف حياته كانت أشبه بتلك الظروف التي عاش فيها أولئك العشاق العذريون وأضرابهم من الذين كانوا يهيمون على وجوههم ، ويدورون حول أنفسهم ، ويدفعهم حبّهم العارم إلى الطواف بمضارب محبوباتهم ، لعلهم يظفرون بنظرة إلى وجوههنّ ، أو حديث إليهنّ ، أو يسمعون أصواتهنّ ، أو أصوات من يناديهنّ ، فتنتعش أرواحهم بتلك الأصداء تحملها إلى آذانهم الرياح ، فتنبسط آمالهم في اللقاء ويتعلّلون بالسَّراب ويحسبونه الماء !

والخنيزي كما ينطق شعره واحد من هؤلاء ، استمع إليه في قوله :

في مساءٍ مبطّـــنٌ بالغمـــامِ ... جئتُ أسعَى - في حيرتي - كالظلامِ
جئتُ أسعى حتى مررتُ ببيتٍ ... فيـه دُنيـا صَبابتـي وغرامـي
هتفوا باسمكِ المضمَّخ بالـحُبِّ ... فهبّت مـن الكـرى أحلامـي
فتلـــفَّتُّ يَمنـــةً ويساراً ... لصداك الموقّـــع ، لأنغـــامِ
آمـلا أن تفـوزَ نـفسي بلُقيـا ... كِ ، وأرْوي غليل قلبي الظَامي
نفحاتُ الخلود في صَوتِك العذ ... بِ ، ولُطفِ الصَّبا ، وشدْوُ اليمامِ
بالَصِوْتِ أرقَّ من نسمةِ الفجـ ... ـرِ ، وأندَى من رقّـةِ الأنسامِ

يالصوْتِ في السمع مثلِ المزاميـ ـرِ ، وفي القلب نشوةُ الإلهَامِ

ولا غروَ بعد ذلك أن تكون « ميّ » التي أسره صداها ، وسحره هواها أنشودته في ديوان كامل ، لم يتحوّل فيه إلى غرض آخر غير وصف الجوى وتباريح الصبابة في قلبه المعمود .

والشاعر يصف حياته دائماً بالعُقم والجفاف الذي لا تُروِّيه إلاّ أجراس حروفَ اسمها ، إذا نطقه أو سمعه ، لتستحيل أيامه الجافة العقيمة إلى ربيع تورق أشجاره ، وتصدح بلابله وأطياره ، وتتفتح أكمامه ، وتونق رياضه ، ليعيش في هذه الأحلام الحلوة أياماً ، ويلهو بها زمانا ، حتى يعود إلى الحيرة والضياع :

يامَيُّ ، واسمُك في فمي حلوُ الصدَى ... فكأنــه لحنُ الربيــع الباكـــرِ
ما إنْ نظرتُ إلى الربيع وزهرِهِ ... إلاّ رأيتك في الربيع الزَاهـــرِ
ما إنْ ذكرتُك يالُيَيْلاَتِ الهوَى ... إلاّ صَبَوْتُ إلى الزمـان الغابـرِ
ذِكرىَ ليالٍ أفلتتْ من قَبضتي ... عَجْلَى فشقّتْ بعدهـنَّ مرائـري
أودعتها في عُمق قلبٍ خافـقٍ ... يـالهفَ قلبـي للغـرام العاثـــرِ
واهاً لقلبٍ كادَ يُشعلهُ الجَوى ... قد بات خفّاقاً لنجـمٍ سَاهَـرِ

وذلك القلب ، الذي بات خفاقاً يشعله الجوى ، هو ذلك القلب الذي فجرّ حبّه ينابيع الشاعرية ، فجرى نميرها في هذا التيار العاطفيّ البديع ، الذي ينساب في جداول هذا الديوان الحافل بنفثات العاطفة الجياشة ، والتجربة العميقة .

ويعترف الشاعر في كثير من المواضع بأنه لولا ذلك الحب الذي تغلغل في سويداء قلبه ، ولولا « ميّ » وذكرياتها ، ولولا طيفها الذي لا ينفكّ يداعبه ، ويتراقص في خياله .. لولا ذلك كله لما كان له في دولة الشعر مكان ، ويعترف بأنه مدين بعواطفه وشاعريته ونتاجه لذلك الحبّ العاتي العميق .

ونستمتع معاً بهذا الشعر العذب الرقيق :

لَمستِ قلبي فاغتدى شاعـرا ... يصوغُ فيـكِ المثـل السّائـــرا
وعــاد كَالبُلبــل في حقلـــهِ ... يُرْقِصُ بـالشدْوِ الشذَا العاطــرا
أنتِ سماءُ الشعـرِ يـا فتنتـي ... لَوْلاكِ ما جوّدْتُ هـذا النشيـدْ

أنتِ نعيمُ القلب يا جنّتي   نشقْتُ منها نفحاتِ الخلودْ
مرّتْ كهمْس الطلِّ فوق الزهورْ   وقُبلةٍ فيها معاني الهَوى
فأنتِ في قلبيَ نارٌ ونورْ   فيها عَرفْتُ الحبَّ سرَّ البقا
شعراً غدا في كل ثغرٍ مثالْ   ألَهمْتِني ماهزَّ قلبَ الصَّفا
مرَّتْ كلمح البرقِ ، بلْ كالخيالْ   من ذكرياتٍ لليالي الهوَى

وكل ذلك من الظواهر البارزة عند المجيدين من شعراء النسيب على اختلاف أزمانهم وأوطانهم ، إذا كانوا صادقين في حبّهم ، بل هو ما تنطق به مشاعر كل من وقع في شراك الحبّ من سائر الطبقات .

وأنت ترى آثار هذه العواطف المشبوبة ، وهي تنساب في كل ما تطالع من قصائد هذا الديوان ومقطعاته ، فتراها حيناً باسمة متفائلة بنفحات الرضا وحلاوة الذكريات ، وتراها أحياناً عابسة ملتاعة بفعل الصدِّ والإعراض .

ويتوسّل الشاعر إلى حبيبته لتطلقه من أسر هجرها وصدّها ، لا من أسر حبّها وهواها ، ليهنأ بسعادة الوصال ، وترفع الستار أو الحجاب الذي أسدلته بينها وبينه ، لتطلّ عليه فتبدّد أساه وشقاءه ، كما يشرق نور الصباح فيبدّد ظلمات الليل ووحشته ، فيقول :

أطلقيني ياميُّ من أسْر هجرٍ   ودَعيني أهنا بوصلٍ سعيدِ
وارفعي دوننا الحجابَ ولُوحي   من كُوَى شُرْفةٍ كصبحٍ جديدِ
واسْكبي نغمةَ الحنانِ بقلبي   أنتِ يا فتنتي وطِيبَ وجُودِي

إننا نرى في هذه الأبيات ملامح الصدق ، وأماراتِ العُذرية ، وآثار الحبّ العميق الذي يبدو في هذا الاستعطاف في طلب الوصل ، ورفع الحجاب ، حتى يرى المحبّ الولهان إشراق وجه حبيبه ، ويكفيه أو يرضيه أن تلوح له من كوّة صغيرة ، لتجعل ليله نهاراً .

وكلّ ذلك يؤكد ما أسلفناه من هيام الشاعر بمحبوبته التي ملكت عليه قلبه ، حتى لكأنه لا يرى في حياته شيئا غيرها ، وحتى يبدو في مقدمة الشعراء العشاق

من الذين يذكرهم أهل الأدب في تاريخنا العربي ، والذين تتحدث عنهم الآداب الإنسانية .

ولكننا لا نلبث حتى نتوقف قليلا عندما يفاجئنا الشاعر في أخريات هذا الديوان بما يكاد يغيّر ملامح الصورة التي صوّرها فيما سبق ، أو صوّرها الشاعر فيما أشَرنا إليه في قصائده ومقطّعاته . فإذا أنت تسمعه يقول :

لم أعُدْ صبًّا إليكِ اليومَ أو لحنَ حنانِ
فليالي الحبّ قدْ ماتتْ على ثغر دنانِ
وسنينُ العمرِ وَهْداتٌ على مرِّ الزمانِ
كلّ عامٍ حطّ في الجبهةِ سطراً من بيانِ
والتجاعيدُ تماثيل .. ورَعشاتُ بنانِ !

ثم تسمعه يقول :

مزّقيها ، أَحرقيها ، أنتِ يا نارُ ، ذَريها كالحطامِ !
لم يَعُدْ قلبى مثلَ الأمسِ محرابَ هُيَامِ !
إنما قد عادَ قبراً ، فيه أشلاءُ رمامي !
التجاعيدُ على وجهكِ أوْدَتْ بالغرامِ
شَوَّهَتْ صُورتَكِ البِكرَ ، وعاشتْ في القوامِ
نظرةٌ حوّلت القلبَ إلى دُنيا ظلامِ !

تُرى ما الذي غيَّر قلب الشاعر الولهان ؟

وماذا أحدث هذه الثورة العارمة على الحبّ ، وعلى الحبيب ؟

أهو اليأس بعد طول الاصطبار ؟

أم هو التجاعيد والخطوط التي عرت الجبهة وصفحة الوجه ، واستبدلتهما الأيام برونق الصِّبا ونضارة الشباب ؟

وهل يُعدُّ ذلك من العُذرّية التي تمتزج فيها الأرواح ، وتتحوّل فيها

الشخوص إلى معانٍ ، ويحترق أصحابها ، ويموتون كمدًا ، وهم على العهد صابرون ؟

والسؤال الأخير :

هل يموتُ الحبّ ؟!

* * *

مُحَمّد بن عَلي السُّنُوسي (رحمه الله)

شَاعِر الجَنُوب

جازانُ ، يادُرَّة الجَنُوبِ الباسمِ الناعـمِ الخصيبِ
لكلِّ قلبٍ إليـكِ شوقٌ مضمَّخٌ من هَوًى وطيبِ
البحرُ والصَّخرُ فيكِ يزهُو بنشوةِ السحر في الغروبِ
والليلُ والبدْر فيك يلهُو على رُؤَى الشاطىء الطروبِ
وأنتِ في رَوْعـةِ المجالي وسِحْرها الفاتِن اللعوبِ
عروسةُ الشعر والأغـاني ومُنيـةُ النـفس والقلـوبِ
وأنتِ أنتِ الهوى المصفَّى للفنِّ ، والحبِّ ، والحبيبِ[1]

تلك إحدى المقطعات الكثيرة التي يتألف منها ديوان « أزاهير » للشاعر محمد ابن علي السنوسيّ . وهي كما ترى أنشودة لمدينة « جازان » التي ولد فيها الشاعر وعاش وترعرع في ربوعها .

وقد تغنّى الشاعر كما رأيت بالطبيعة الفاتنة في تلك المدينة التي غدت بها كما يقول « درّة الجنوب » ووصفها بالخصب والنماء ، وفيها منظر الغروب الساحر بروعة البحر ، ومنظر الصخر ، وقد ائتلفا ، ووحدّ بينهما الليل المقبل ، فانتشيا بسحر الغروب ، وبدت على الشاطىء أضواء البدر ، فعكست على النفوس الأنس والبهجة ، وسرت فيها نشوة الأمل ، واستخفّها الطرب .

وفي قصائد هذا الديوان ومقطعاته يصف الشاعر ما يعمر تلك البقاع من الرُّؤى المعجبة ، والمشاهد الساحرة ، ويعبّر عن عواطفه الذاتية تجاهها ، ولا يفوته وهو مأخوذ بروعة ما يرى أن يتحدث عن انفعاله بالأحداث المثيرة التي تلمّ بأمته ، وتفرّق شملها ، وتتركها نهباً للأعداء والطامعين .

وديوان « أزاهير » الذي اقتبسنا منه هذه الأبيات هو ثالث الدواوين التي نشرها محمد بن علي السنوسيّ من شعره ، وقد نشر قبله ديوانين سمّى أولهما « القلائد » وسمّى الآخر « الأغاريد » ، ثم نشر له بعد ذلك نادي جازان الأدبي

---

(١) جازان – أغنية . ديوان (أزاهير) ٣٠ .

ديوانه الرابع « الينابيع » ثم ديوانه الخامس « نفحات الجنوب » . وإذا كان لتلك الأسماء التي اختارها الشاعر عناوين على مجموعات شعره شيء من الدلالة ، فإنها تدلّ على نفس رضيّة مشرقة بنور الأمل ، مشبعة بروح التفاؤل .

وفي اعتقادي أن الرضا ، والأمل ، والتفاؤل إنما تنبعث كلّها عن الإيمان الراسخ في قلب صاحبه ، وتصدر عن اليقين الذي يعمر حياته .

* * *

وُلد السّنوسيّ – كما تقدم – في مدينة « جازان » سنة ١٣٤٢ هـ ، وعاش فيها ، وبقي على الوفاء لها ، فلم يبرحها إلى غيرها من مدن المملكة إلا لماماً .

فكانت « جازان » مسقط رأسه ، ومدرج صباه ، ومرتع شبابه ، وموطن عشيرته ، ومهبط إلهامه ، فاستقرّ حبّها بين جوانحه ، وأنشد أجود شعره في وصف مغانيها ، والتغنّي بجمال سفوحها ووديانها ، وبحرها وصخرها .

وفي عام ١٣٥٧ هـ وكانت سنه خمس عشرة سنة التحق الشاعر بالوظائف الحكومية ، فعمل في سلك « الجمارك » ومازال يتنقل فيه حتى شغل منصب مدير « جمرك » جازان ، ثم رأت الدولة أن تنقله رئيساً لبلدية جازان ، وظل يشغل هذا المنصب حتى عين مديراً لشركة كهرباء جازان ، ثم تفرغ للأدب ولأعماله الخاصة كما يقول .

ويبدو أن الوصول إلى هذه المناصب في ذلك الزمان لم يكن يتطلب الحصول على شهادة أو مؤهل علمي أو فني ، فإن ثقافة صاحبنا لم تكن تتجاوز ثقافة « الكُتّاب » الذي كان أول وآخر مرحلة في تعلمه النظامي ، أو تعلمه المدرسي .

ولا يعنينا هذا بقدر ما يعنينا حرص السنوسيّ على البقاء في بلده « جازان » وعدم إيثاره بلداً آخر عليه .

* * *

ومحمد بن علي السنوسي واحد من شعراء العربية المطبوعين في هذا العصر . وفي رأيي أنه يمثل صورة مشرقة لما يستطيع الشاعر الموهوب أن يبلغه بطموحه

وإصراره على ما أراد لشاعريته أن تصل إليه من درجة عالية في سلم الصعود إلى قمة المجد الأدبي بالجد والدأب والمثابرة ، حتى تم له ما أراد .

وشاهدنا على ذلك تلك الدواوين الأربعة التي يصوّر كل ديوان منها درجة متقدمة يفوق بها الديوان الذي سبقه من حيث نضج الشاعرية ، ومن حيث وفرة التجارب وشمولها .

ونستطيع أن نقول إن محمد بن علي السّنوسيّ هو الذي شقّ لنفسه طريق النبوغ والإبداع في الفن الشعري ، حتى برز اسمه بين أسماء كبار الشعراء في المملكة العربية السّعودية ، حتى لقب « شاعر الجنوب » ولم يزاحمه في هذا اللقب واحد من شعراء بلده ، ولم ينكره عليه واحد من شعراء المملكة . فقد استجاب السنوسي لطبعه الموهوب ، وألزم نفسه القراءة ، وأكبّ على دواوين الشعراء القدامى والمحدثين ، فحفظ من جيّدها ما استطاع ، كما واصل النظر في التراث الأدبي الذي خلفه الأسلاف في مجموعاته وموسوعاته التي حوت أخبار الأدب والأدباء وقدراً كبيراً من جيد مأثوراتهم .

وكان هذا الاطلاع الواعي المستوعب هو السبيل الذي سلكه للتعرف على أساليبهم الممتازة ، وتعابيرهم المختارة ، فملك بذلك زمام اللغة ، وسلس له قيادها .

وبذلك اجتمع له الطبع الموهوب ، والبيان الجيد الفصيح الذي أعان تلك الشاعرية المطبوعة على البوح بمكنونها ، والتعبير الجميل عن تجاربها . وهذا يؤدّي بنا إلى القول بأن محمد بن علي السنوسي هو الذي علّم نفسه وثقفها بتلك الثقافة الأدبية الواسعة .

ويدفعنا على هذا القول ما عرفناه من أن الشاعر لم تتح له فرصة التعلم الكافية ، واقتصر على تلك الثقافة المحدودة التي يحصّلها المبتدئون في « الكُتّاب » الذي التحق به في صباه ، ولم يقرع باباً من أبواب التعليم الأخرى التي تجاوز مرحلة « الكتّاب » !

وليس ذلك بكثير على ذوي الهمم العالية من المطبوعين ، فإن شعراء العربية

الأقدمين لم يستمعوا إلى موجّه ، ولم يجلسوا إلى معلم يلقنهم أصول فن الأدب ، أو صناعة الشعر .

وكذنا نلحق شاعرنا بأولئك الفحول المتقدمين من حيث الاستغناء بالملكة عن التعلّم ، وبالطبع عن الصنعة ، لولا ما عرفناه عن أبيه العالم الأديب الشاعر « الشيخ علي بن محمد السّنوسيّ » الذي ولد بمكة المكرمة ، وحصّل ما استطاع تحصيله من صنوف العلم وفنون الأدب ، حتى أصبح أستاذاً يقصده طلاب العلم ، وقاضياً يفصل في الخصومات ، كما كان معدوداً بين الشعراء المعروفين في بيئته، وتوفي بجازان سنة ١٣٦٣ هـ .

ومن الطبيعي ألا يدّخر الأب وسعاً في الأخذ بيد ابنه ، ويوجهه إلى سبل الإفادة والتحصيل .

ويعترف شاعرنا محمد بن علي السّنوسيّ بفضل هذا الوالد في تنشئته على حبّ العلم ، وتوجيهه إلى خوض بحار الأدب .

ففي أول صفحة من صفحات ديوانه « نفحات الجنوب » وهو آخر ما طبع من دواوينه ، نراه يهدي هذا الديوان إلى روح والده الذي حبّب إليه العلم والأدب . ونص عبارة الإهداء [١] :

« إلى روحه المرفرفة في عالم البقاء والخلود ..

« وإلى ذكراه العاطرة في عالم الشعر والأدب ..

« القاضي العلامة الشاعر الأديب :

« والدي علي بن محمد السّنوسي ، تغمده الله برحمته ..

« أهدي هذه النفحات ، اعترافاً بفضله ، وتقديراً لأثره في توجّهي إلى محامد الفكر ، ومكارم الأدب » .

وقد رأيناه قبل ذلك يذكر هذا الوالد ويثني عليه ، ويعترف بحسن أثره في توجيهه وإرشاده إلى دولة الأدب ، وبما أورثه من الهيام بفنّ الشعر ، حتى غدا له عاشقا .. وذلك في قصيدته التي سمّاها « عاشق الفن » [٢] وقد ألقاها في

---

(١) ديوان (نفحات الجنوب) ٥ .

(٢) ديوان (الينابيع) ٩٩ .

حفل افتتاح نادي جازان الأدبي في الثالث من ذي الحجة سنة ١٣٩٥ هـ ، ونشرها في ديوانه الرابع « الينابيع » .

وهذه القصيدة من أجود شعر السنوسي . وفي أولها يقول :

في سبيل العلوم والآداب ذابَ قلبي هوًى وشابَ شبابي
عاشقٌ مدنَفٌ ومحبوبي الحرْ فُ وكم للحروف من أحبابِ
رأسُ مالي ، وقد بدأتُ من الصِّفـ ـرِ طموحي وهمّتي وكتابي
وأبٌ فاضلٌ تعهَّد إرشا دِي إلى منهج الهُدى والصوابِ
حين كُنَّا ، ولا تسَلْ كيف كُنَّا نَعصِرِ الماءَ من أديم السّرابِ
نَحفظ الدرسَ في ضياء (الفوا نيسِ) على شاحبٍ من النور خابِ
ونطيل الجلوسَ فوقَ حصيرٍ في الكتاتيبِ غارقٍ في التّرابِ

وقد اكتفيت بهذه الأبيات لدلالتها على ما أريد من اعترافه بفضل والده ، وإن كنت أرى أن هذه القصيدة الطويلة من أصدق شعره في الحديث عن نفسه ، وفي وصف مسيرة حياته ، وتجاربه المريرة التي عاناها في تلك المسيرة منذ كان صبيًا يستقبل الحياة حتى شبّ وكبر ، ولانت له الحياة بعد جمودها . ووصف فيها هيامه بالأدب والعلم ، وقد أفادهما بالرغبة الملحّة ، والعمل الموصول ، وبإرشاد الوالد وتوجيهه كما سبق .

ولم يعمد السّنوسيّ إلى شيء من المبالغة أو الكذب في وصف هذه المسيرة المضنية ، فقد ذكر في صراحة أنه بدأ حياته من (الصفر) ، وأنه تعلّم في مدرسة الحياة ، ومن القراءة الموصولة ، حتى كلّت عيناه .

وإذا كان لابد من التسليم بما أفاد الشاعر من توجيه أبيه ، فإنه لابدّ كذلك من التسليم بأن هذه الإفادة لم تكن لتتحقق لولا أن هذا الوالد العالم الشاعر وجد التربة الخصبة الصالحة لغراسه الذي تعهّده بالريّ والسُّقيا ، ورأى من ولده الاستجابة وحسن التقبل لتوجيهه ، والعمل بنصحه وإرشاده . وقد رأينا كثيراً من الأبناء لم يكونوا على شاكلة آبائهم ، ولم يبلغوا عُشْر معشار ما بلغوا من المنازل في الآداب والعلوم ، بل لم يكونوا على شاكلتهم في أدب النفس أو مكارم الأخلاق ..

وما أشبه شاعرنا في عصاميته ، واقتصاره على ثقافة (الكتّاب) ثم تزويده نفسه بما استطاع من ألوان الثقافة بالأديب الكبير عباس محمود العقاد الذي توقّف في تعلّمه الرسمي عند الشهادة الابتدائية ، ولكنه علّم نفسه ، وزوّدها بأقصى طاقة من المعارف العلمية والأدبية ، صار بها مفكراً من كبار المفكرين ، وأديباً وناقداً في طليعة أدباء العربية ونقادها المعدودين .

وقد كان شاعرنا السنوسيّ من أعرف الناس بمكانة العقاد ، ومن أكثرهم تقديراً لشخصيته الفذّة ، وعقله الكبير ، وعلمه الغزير ، وأدبه الرائع ، وبيانه الناصع .

وحسبك أن تقرأ قصيدته « العقاد العملاق » لترى آيات الإعجاب ، ودلائل الإكبار . وفي أولها يقول[1] :

عاشَ للفكرِ عيشةَ الزُّهّادِ وهو في ثروَةٍ من الأمجادِ
ثروةٌ ثرَّةٌ من العلمِ والجِسْـ ـمِ تجلَّى بها رفيعَ العمادِ
عَلَمٌ تنتهي إليه ذُرا الـ أعْلام والنابغيـنَ والـرُّوَّادِ
كان في الشرَق قلعةً من قِلاعِ الْـ ـفكرِ جبّارةً لصدِّ الأعادِيَ
لم يكنْ ينْحني لغير جَلال الْـ ـحقِّ ، والحقُّ منطقُ العقادِ

هذا هو العقاد كما يعرفه الشاعر ، قضى حياته في محراب العلم ناسكا من النسَّاك ، وهو غنيّ بما حصّل من الأمجاد ، وقد آتاه الله بسطة في العلم ، كما آتاه بسطة في الجسم ، فبدا علماً شامخاً يبذّ سائر أعلام المعرفة وروّاد العلم . وكان مفخرة من مفاخر التفكير في الشرق ، يصدّ عنه غارات المهاجمين ، وكيد الأعداء الطامعين ، لا ينحني إلا لمنطق الحقّ الذي لا يرضى إلا به ، ولا ينزل إلا عند حكمه . ثم يصف ما وُهب العقاد من قوة البيان ، ونصاعة الحجة ، فيقول :

قلمٌ رائعُ البيانِ وعقـلٌ عبقريٌّ ذو قـوَّةٍ واعتـدادِ

---

(١) ديوان (الأغاريد) ٥٨ .

إنْ أفاض الحديثَ قُلتَ جرى السَّيـ ـلُ وفاضَ العُبابُ من كل وادِ
وإذا أوجز الكلامَ ترامتْ قطراتُ النَّدَى على الأورادِ
وإذا ما عدا يوضّح فهماً نَشَرَ النُّورَ في سَوادِ المدادِ
وإذا ما مضَى يجادلُ خصماً جاء برهانه كما الفجر هادِ

حُجَّةُ النّابغين في أدب الضّا دِ ونبِراسُ كلِّ هاوٍ وشادِ
كمْ لهُ من يدٍ على اللغة الفُصْـ ـحَى وتاريخها تبزّ الأيادِي
تحتمي في ذراه من كلِّ أفّا كٍ وتزهو به على كل نادِ

أما العقاد الكاتب فإن قلمه يصوغ البيان الرصين الذي ترفده عبقرية مفكر معتدّ بقوته وأصالته ، يحشد فيه آثار عبقريته ، فإذا أطنب فسيل يتدفق ، وإذا أوجز فطلّ ندي ينعش النفوس ، ويحيي الخواطر ، يجري سواد مداده نوراً للعقول ، وفضل العقاد على لغة الضاد لا يمكن أن يجحد ، فهو الذي أعلى منارها ، ورفع لواءها بما حمّلها من آثار عقله الكبير ، وعلمه الغزير .

ثم ينتقل من تعداد هذه النُّعوت الفكرية والأدبية التي كان يزدان بها العقاد ، إلى وصف الفاجعة بما حملت الأنباء من نعي العقاد :

أيُّ رُزْءٍ ذاك الذي فجع الكُتّا بَ في كاتب من الروَّادِ
همسَ البرقُ نعيَــه فتهاوَى كلّ قلبٍ من روعةٍ وارتعادِ
وأفاقوا على الحقيقــةِ والمذْ ياعُ يهتزّ من فمٍ رَعّــادِ
كان صوتُ العقاد يَصْهلُ منْ فيه فَأضحى صدىً لذاك الجوادِ

ذاك صدى العقاد في نفس الشاعر ، وهو صدى حبّ عميق برزت آثاره في هذه القصيدة الناطقة بصدق العاطفة نحو العقاد العملاق . وما إخال هذه العواطف المتدفقة إلا صدى للإحساس بذلك التقارب في الاستعداد ، وفي الدأب على بناء الشخصية بالجهد الذاتي !

* * *

قلنا إن محمد بن علي السنوسي لم يتجاوز في مراحل تعلّمه مرحلة « الكتّاب » وإنه شغل بدنيا الوظائف وسنّه خمس عشرة سنة . ويبدو أن أباه الشيخ علي بن محمد السنوسي هو الذي يسّر له سبيل الالتحاق بالوظيفة ، وأنه نفعه في ذلك بجاهه وتسنّمه منصب القضاء ، وهو الذي شجع ابنه على خوض هذا المعترك قبل أن يتمّ مراحل التعلّم الممكنة آنذاك .

وقد كان الشعور السائد في مختلف البيئات العربية أن الوظيفة هي منتهى آمال الشباب في البلاد العربية ، وغاية ما يتطلعون إليه ، وما يتمنّاه لهم آباؤهم ، إذ كانت الوظيفة أقرب الأسباب لتقريبهم من الحكام ، وتضمن لهم أرزاقهم بغير جهد كبير يبذلونه في الحصول على هذه الأرزاق ، وهي في الوقت نفسه تهيىء لهم الجاه ، وتجعلهم من أولي الأمر والنهي ، باعتبارهم من رجال السلطان ..

وأذكر بهذه المناسبة أن إخواننا العراقيين مايزالون يسمّون أجور الموظفين أو مرتباتهم (الأرزاق) .. والأصل في معنى « الوظيفة » ما يقدرّ من طعام أو رزق أو نحوه أو ما يجرى على العامل أو غيره من أجر أو مكافأة ، ثم أصبحت في هذا الزمان تطلق على العمل الحكومي الذي يستحق العامل عليه الأجر .

وأنا أزعم أن شاعرنا كان حريصاً على مواصلة السّعي في طلب العلم ، والانتظام في معاهده المعروفة في بلده أو البعيدة عن وطنه ، حتى يسير في الشوط إلى غايته ..

وأزعم أيضاً أنه لم يكن راضياً كل الرضا عن انقطاعه عن طلب العلم ، ودخوله في دنيا الوظائف ، وإن خفّفتْ عنه مئونة التحصيل ، وأجْرَتْ عليه ما يشاء من المنزلة أو « الوظيفة » !

ويشجعني على هذا الزعم أنه انقطع عن وظيفته في أقرب فرصة سنحت له وقد يشجعني على هذا الزعم أيضاً ما قرأته له في قصيدته « طموح » [1] وقد أنشدها على لسان طالب من طلاب العلم ، وفيها يناجي أباه :

دَعْني أواصلُ تعليمي وتثقيفي يا والدِي أنا لا أرضَى بتوظيفي

(١) ديوان (الأغاريد) ٥١ .

دَعْني أفكُر في درسي وفي كتبي أرجوكَ أرجوك من لَوْمي وتعنيفي
مازال عُودي طرِيّاً يا أبي وأنا في مَيْعة العُمر لا أعنَى بتكليف
دَعْني أغوصُ وأطفو في العُباب فقد أحبَبْتُه وانتظرني أنت في السِّيفِ [1]
فسَوفَ آتيكَ بالآمال باهرةً كالدُّرِّ ما بين منثور ومَصْفوفِ
فقد طمحتُ بأبصاري إلى أُفُقٍ مشعشعٍ بضياءِ العلِم محفُوفِ
وذُقتُ طعمَ حياةٍ لسْتُ منصرفاً عنها ولو قُطِعَتْ عنّي مصاريفي
ياوالدي أنا أرجو أن أراكَ غَداً أبا لنجل بعيدِ الصوت غِطْرِيفِ

وفي رأيي أن هذا الطالب الذي أجرى شاعرنا هذه القصيدة على لسانه لم يكن إنساناً آخر غير محمد بن علي السنوسي ، وأن والده الذي ناجاه في هذه الأبيات لم يكن إنسانا آخر سوى أبيه الشيخ علي بن محمد السنوسي .

وأعتقد أيضاً أن هذه القصيدة كانت من أولى محاولاته الشعرية ، وأنه ألّفها في تلك الفترة التي أعقبت تركه التعلّم والتحاقه بالوظيفة في حياة أبيه ، إذ كانت المشاعر التي صوّرها في هذه الأبيات هي المشاعر التي كانت تتجاذبه ، وتتسلّط عليه في تلك الفترة .

وليس بين أيدينا ما يؤيد رأينا هذا أو ينفيه ، لأنني لم أسأل عنه أحداً من الذين عرفوا هذا الشاعر عن كثب وتتبّعوا خطواته في الحياة ، و لم ألقه إلا دقائق معدودات عند صديق من الأصدقاء .

والحقيقة أني أوثر أن أعتمد على الشعر في استخلاص ما أستطيع استخلاصه ، أي أنني أوثر أن أدع الأدب يتحدث عن الأديب ، والشعر يتحدث عن الشاعر ، فإذا استطاع هذا الشعر أن يدلّنا على صاحبه ، وأن يفصح عن عواطف مؤلفه ، ويصوّر في صدق تجاربه الشعورية ، فذلك هو الشعر الذي نستدل به على حقيقة تلك التجارب ، وإلا اطَّرحناه و لم نعبأ به .

وبقية أبيات القصيدة :

وأطرق الشيخُ مشدوهاً وقد عصفَتْ به الخواطرُ عصفَ الريح باللِّيفِ

---

(١) السِّيف – بكسر السين – ساحل البحر ، وساحل الوادي .

ماذا ؟ لقد سمعتْ أذناه فلسفةً وحكمةً وطموحاً غيرَ معرُوفِ
ومرَّ في فكره عمرٌ يعايشُهُ على الجهالةِ ملفوفاً بملفوفِ
فاغرورقتْ عينُه الشكرَى بدمعته وضمّه في حنان جدّ مشغوف
وقال والفرحُ الفياضُ يغمره سِرْ يابنيّ ولا تنظر إلى السِّيفِ

ولعلّ ما ذكرناه من صلة هذه القصيدة بتجربة الشاعر كان السبب في حرصه على الاحتفاظ بها ، وإثباتها في ديوانه . وهي من وجهة نظرنا ليست من الشعر الذي يؤثر ويختار ، أو يعتدّ به قائله لروعة في معانيه ، أو جودة في مبانيه .

بل إن هذه القصيدة في رأيي دون غيرها من سائر شعره المنشور في دواوينه الخمسة بدرجات كثيرة ، إذا نظرنا إليها من الناحية الفنّية ، فإن معانيها متهافتة ، ونسجها مهلهل ، وعباراتها ركيكة مبتذلة .

وحسبك أن تقرأ في هذه الأبيات مثل هذه العبارات :

أنا لا أرضى بتوظيفي – دعني أفكر في درسي وفي كتبي – مازال عودي طريّا – قُطِعتْ عني مصاريفي – عمر يعايشه ملفوفاً بملفوف .. ثمّ ما معنى قولَه : « أرجُوك أرجُوكَ من لومي وتعنيفي » في لغة العرب ، وهو يسأله أن يشفق عليه ، ويكفّ عنه لومه وتعنيفه ؟

ليس هذا في رأيي من الشعر الذي يختار بما يأسر القلوب ويشنّف الأسماع بألفاظه المختارة ، وصوره الأنيقة ، ومعانيه الجديدة ، ولكنه من الكلام الموزون المقفّى الذي ليس فيه ماء ، ولا رونق ولا بهاء ، مع أنه يعبّر عن تجربة من التجارب الحادة التي كان لها أثر في حياة الشاعر .

* * *

وبعد هذه الوقفة القصيرة مع الشاعر ننطلق معه إلى أهم ما خاضت فيه شاعريته من المجالات .

وسنرى أن محمد بن علي السنوسي واحد من الشعراء الذين أبدعوا في فنّ الوصف ، وهو من أهم الفنون التي تميّز بها عدد من شعراء العربية في بعض العصور ، وفي مختلف البيئات .

وتتناثر في دواوينه قصائد ومقطعات كثيرة يظهر فيها ولوعه بمشاهد الطبيعية ، يجتلي محاسنها ، ويستلهم مفاتنها ، ثم يصورها في لوحات شعرية أنيقة ، إذ أنه أطلق لحواسّه العنان لتحلّق في تلك الآفاق ، وتتأمل فيما أبدع الله ، ثم يسلط شاعريته ، لتجمّع هذه الرؤى ، وتصفها بأجمل الأوصَاف .

ومن أجود شعره في ذلك قصيدته التي سمّاها « عُرْس الفجر » [1] التي حشد فيها طاقة كبيرة من صوره الأنيقة ، وفي أولها :

هبَّ نسيمُ الصباح هَبَّا	ورَفُرَفَ الزهرُ واشْرَأَبَّا
واستيقظ الكونُ من كَرَاهُ	وفضّ من كنزِه المخبَّا
وأوْمضَ الفجرُ مستنيراً	مشعشعاً كالغَدير عذْبَا
وأشرقَ النورُ في سَماءٍ	كحيلةٍ مُقلةً وهُدْبَا
وغرَّدَ الطيرُ في رُباهُ	وهزَّ أعطافه ولبَّى
لَبَّى نداءَ الصَّباحِ حُلْواً	مُرفرِفاً خفَّةً ووثْبَا
يصبُّ ألحانه النَّشاوَى	في عُرسِه العبقريّ صبَّا
عُرْس السَّنَى والسَّنَى وليدٌ	لمّا يزلْ كالحرير رطبَا

لقد استطاع الشاعر في هذه الأبيات أن يستجمع جوانب الصورة مفصّلاً أجزاءها على هذا النحو من الاستيعاب والتفصيل ، فنسيم الصباح يهبّ رقيقاً عليلاً ، والزهر يرفرف على أفنانه يرقب الضياء الذي بدت تباشيره ، والحياة تدبّ في أرجاء الكون لتستقبل الصباح بنوره المشرق ، والطيور تغرّد ملبّية نداء الصباح ، وترفرف خفيفة رشيقه من غُصْن إلى غُصْن ، وكأنها في عرس بهيج هو عرس النور الذي لا يزال رطباً وليداً .

ولا مناص من استكمال الصورة كما رسمتها ريشة الفنّان الصَّناع :

شعاعُه يُلهم السّواقي	أغانيا والقلوبَ حُبّا
وعطرُه ينُعشُ الروابي	فتزدهي أيكةً وعُشبَا
رَنَا إلى الأفَقْ فاستهلَّتْ	غيومُه مُزنةً وسُحْبَا

---

(١) ديوان « أزاهير » ٤١

وعانق النهرَ فاسْتفاضتْ مياهه أنجماً وشُهُبَا
وقبَّل الأرض فاسْتعادتْ شبابَها نضرةً وخِصْبَا

وهذا الجمال الآسر جدير بأن تجتليه العيون ، وتسعد به النفوس . وما أحوج الشاعر إلى رفيق حبيب يشاركه السعادة والمتعة بهذه الطبيعة الجميلة الفاتنة :

فقُمْ بنا يا حبيبَ قلبي نَعُبُّ هذا الجمال عبًّا
نطيرُ في جوِّه ونسْمو إلى الذّرا مهجةً وقلبًا
فليس إلاّك يا حبيبي مهذَّباً فكرةً ولُبّا

وللسنوسي كما رأيت قدرة بارعة على تأليف الصور التي تتابع في شعره في الأبيات المتتالية ، وكأنها تفيض من نبع مستفيض ، ومن موردٍ لا ينضب . وقد وعاها حسّ الشاعر، ودبجها خياله الخصب ، لترى فيها الخيال الحركي ، الذي يخلع الحياة على الموات ، ويهب الحركة للجماد ، مما يراه في بيئته التي تشحذ الذهن ، وتفتق الخيال ، فترى العبير يَرفّ والطَّل يوشّح الشجر ، وريح الصبّا ترشُّ بالعطر وجوه البطاح ، والشَّذا يطوف هيمان على ورد الخدود ، أما الإشعاع فإنه عبقريّ ، والأرِيج الذي ينبعث من تلك الرؤى يمتزج بالجوى الذي تخفق به الضلوع .

إن هذه الظاهرة – ظاهرة الهيام بالطبيعة ومفاتنها – تبدو واضحة في كثير من شعر السنوسي ، وبخاصة في ديوانه « أزاهير » .

وهناك نموذجاً لهذه الظاهرة من قصيدته التي سمّاها « حسناء الريف » (1) :

يا عيدُ إنْ شعشعَ نورُ الصباحْ ورفّ في الأفْق عبيرُ الأَقاحْ
وزقزقَ العصفور في أيكةٍ وشّحها الطَّلُ بأزهَى وشاحْ
وانطلقتْ أنفاسُ الصَّبا ترشُّ بالعطر وجوهَ البطاحْ

(1) ديوان (أزاهير) ٣٨ .

وطـافت الأشذاءُ هيمانـــةً   على ورودٍ كخدود الملاحْ
وانتشر الإشعاعِ زاهى السَّنى   حُلوَ المرائي عبقريَّ المراحْ
فاضمُمْ شذَا الوردِ وأنفاسَه   ونفحة الرَّندِ وطيبَ الأقاحْ
وامزجْ شذاها بجوى خافقٍ   ما بين جنبيَّ كسيرَ الجناحْ

ثم يجعل هذه الطاقات البديعة الفريدة تحية أو هدية يقدمها إلى « عروس الريف » التي فتنه جمالها ، وأسره حبّها فيقول :

تحيـــةً منّـــي إلى غـــادةٍ   هيفاءَ لفَّـاءَ كعــابٍ رَدَاحْ
ريفيّـــةٌ تهتـــزُّ أعطافهـــا   خصوبةً من مرحٍ وارتياحْ
ترعرعَتْ بين ظلال الرُّبـا   ونسْمة الوادي وَعزفِ الَرياحْ
في الشمس والظلِّ نمتْ واستوتْ   فهي مثالٌ للجمال الصُّراحْ
تختالُ من دَلٍّ ومن صَبْوَةٍ   في حسْنها النشوانِ من غير راحْ
رأيتُها بين شعاع الضُّحَـا   ضُحاً ، وصبحاً يتحدّى الصباحْ

ويستطرد في وصف مفاتنها ومحاسنها التي لم يجد لها شبيها في مثيلاتها ، فيصف عينيها ، وقامتها ، وسالفها ، وغُرَّتها .. وينتَهي من ذلك إلى قولِهِ :

سوفَ أظلُّ العمرَ أشتاقهـا   وإن تعلَّقتُ بما لا يُتَــاحْ
فـإنها في مُهجتـي مُنْيَــةٌ   وفي فمي لحنٌ وشهدٌ وراحْ

إن كلّ عارف بفن الشعر ، وكل قادر على تذوقه ، لابدّ أن يحسّ ، ولابدّ أن يتأثر ، ولابد أن يعجب بهذه القوالب الموسيقية ، والألفاظ الجيدة الأنيقة وبما استطاع الشاعر أن يودعه فيها من العواطف المشبوبة التي تنبعث من قلب شاعر يحسّ بالإبداع في الكائنات ، ويقدر الجمال في المخلوقات ، ولا يمرّ بتلك المشاهد مرًّا ، ولا تكفيه منها متعة النظر إليها ، ولكنه يتوقف عندها ، ويتأملها طويلاً ، حتى تتصل بمشاعره ، وتتفاعل هي وعواطفه ، حتى تصبح تجربة من تجاربه ، يجليها للناس في مثل ذلك الثوب القشيب الأنيق .

ولا يحسبنّ القارىء أنني أجنح في هذه الأوصاف إلى المجاملة ، فإنني لا أملك شيئاً من أسبابها ، وليس هناك ما يدفعني إليها . وربما كانت هذه

الأوصاف دون ما أريد ، ودون ما يستحقه الشاعر الذي أقرأ شعره فأجدني أمام شاعر في مقدمة الشعراء الوصّافين المبدعين ، وما أقلّهم في هذا الزمان .

على أن هذا الإبداع لا يقتصر على قصائده أو مقطعاته التي جرّدها لوصف الطبيعة ، بل إنه ليغلب على أكثر شعره العاطفي ، وشعره الوطني ، حتى لكأنك وأنت تطالعه في معرض أنيق للصور الخلاّبة ، والخيالات البارعة التي رسمها رسّام من أعلام المصوّرين .

وإن شئت المزيد فاقرأ معي هذه القصيدة العاطفية التي سمَّاها « أخت القمر »[1] لترى مصداق ما قلت :

سُبْحانَ مَن أبدعَ هذا الصِّبا   وجلّ من نسَّق هذا الحَوَرْ
أُسْهَبَ في شَعرِكِ حتى انتهى   إلى الرُّبا مُسْترسِلاً وانحدرْ
ورقَّ في خَصرِك حتَّى استوى   إيجازُه في قَـــدِّك المختصَرْ
والغَيَدُ النشوانُ في سالـِفٍ   رَيّانَ يَسْتهوي شفاه الزّهَـرْ
والخَفَرُ النُعسَانُ في مُقلـةٍ   تكاد تَسْتصْبي فؤاد الحجَرْ
حَلَوتِ حتّى كِدْتِ أن تُرْشَفِي   رَشفاً وأن يحسُو صباكِ النظرْ

هذه أوصاف فاتنته : نشوة الصِّبا ، وحور العينين ، واسترسال الشعر . ورقة الخصر ، ودقة القدّ ، والخفر والدلال ... أما أثر ذلك في نفسه فإنه يشرحه في هذه الأبيات :

أطبقت جفني على نظـرةٍ   رفَّتْ على قلبي رفيفَ المطرْ
أحيتْ بأحشائي مواتَ الهوَى   وجدَّدتْ ذكرى زمانٍ غَبَرْ
أيامَ أيّامي كقطر النَّـدى   صفوًا وأحلامي كلحن الوترْ
يافتنة القلبِ الذي لم يزلْ   يهفو إلى رؤياكِ مهما صَبَرْ
هل علمتْ عيناكِ ماذا جنتْ ؟   وهل درى سحرُكِ مَن ذا أسَرْ
لا ، لن أسمِّيك ! وما حاجتي   وأنتِ بنتُ الشمس ، أختُ القمرْ

* * *

---

(١) ديوان (أزاهير) ٣٥ .

وإذا كان السّنوسيّ واحداً من شعراء الوصف المعدودين ، وبخاصة وصف مشاهد الطبيعة التي هام بها ، وأجاد في وصفها على النحو الذي قدّمنا ، وإذا كان قد عبّر عن عواطفه تعبيراً نرى فيه دلائل الصدق ، ومعالم الحذق ، فإنه كذلك واحد من شعراء الوطنية المعدودين .

وفي دواوينه الخمسة عدد كبير من القصائد الجيدة في وصف مشاعره نحو بلده ووطنه .. وأكثر هذه القصائد الوطنية تمتزج فيها المشاعر الوطنية بالعاطفة الدينية ، فإذا أحبّ وطنه ، وفخر ببلاده المملكة العربية السعودية ، وامتدح أهلها ، ووصف مفاخرهم وأمجادهم وفضائلهم ، فإنه يرجع تلك المفاخر والأمجاد إلى ما خصّ الله تعالى به هذا البلد وأكرمه ببقاعه المقدّسة ، وبإشراق شمس الإسلام بين ربوعه ، وباصطفاء أشرف خلقه محمد ﷺ من بين أهله ، واختصاصه بأعظم رسالاته ، وبدينه الحنيف الذي كان سكان الجزيرة أول من اهتدى بهديه ، واستمسك بتعاليمه ، وتأدب بأدبه ، واقتدى بصاحب الرسالة في صبره وجهاده ، وفي عفّته وعدالته ، وفي سائر الفضائل التي اختصّه ربّه بها .

اقرأ قول السنوسي في « خلق المسلم » (١) :

لي وإنْ كنتُ كقطْر الطلِّ صافِ	قصفةُ الرَّعْـد وإعصارُ السّوافي
أتحاشَى الشرَّ جُهـدي فـإذا	لجَّ في عسْفِي تَحدَّاه اعتسَافي
خُلُـقٌ ورَّثنيـهِ « أحمدٌ »	فجرى ملءَ دمائِي وشغافـي
لم يزلْزِلْـه على طـول المدى	بطشُ جبّارٍ ، ولا كيد ضعافِ
فسَلُـوا التاريـخَ عنّـي تجدُوا	أنني كنت معَ التـاريخ وافِ

ثم يستطرد إلى الإشادة بمفاخره التي هي مفاخر الجنس العربي من حمايةِ الجار ، وحبّ الإنصاف ، وإيثار الحق ، ومحاربة الأهواء ، والوفاء بالعهود ، وقرى الضيفان ، والانتصار للحق ... ثم يذكر أن هذه المثل العالية ، والقيم الشريفة إنما أفادها من الإسلام ، وتعلمها من القرآن :

---

(١) ديوان (الأغاريد) ٩ .

قيمٌ عُليا أَضاءت للورَى سُبُلَ العلياء في الليل الغُدافِي
وسجايا قد سقانيها الهُدَى وغذانيها من القرآن شافِ
رَفّت الدنيا عليها وازدهت وتغنَّتْ بمعانيها القوافِي
وأنا المسْلمُ مَنْ يعرفُنِي يعرف الجوهر في الإنسان صافِ

وقد اخترنا هذه القصيدة لدلالتها على ما قدمناه من حيث المعاني والمضمون ، ومن حيث أثر الإسلام في نفوس العرب ، وإن كانت هذه القصيدة في رأينا ليست من شعر السنوسي الذي يرقى إلى مرتبة الجودة ، فإن في هذه القصيدة ضعفاً في الصياغة ، وارتكاباً للضرورات ، ومخالفة لقواعد العرب في ضبط أواخر الكلمات ، كما تجد ذلك في أول شطر من أول بيت في القصيدة ، وهو قوله « وإن كنتُ كقطر الطلِّ صَافِ » فإن موقع كلمة « صاف » النصب « صافياً » لوقوعها خبراً لكان ، ولم يقل واحد من العرب إن « كان » ترفع الجزأين ، كما زعم بعضهم أنّ « إنّ » تنصب الجزأين في لغة بعض العرب !

ويبدو أن كلمة « صاف » عند شاعرنا من الكلمات التي تلزم حالاً واحدة مهما يكن موقعها من الكلام ، فهو يوردها آخر كلمة في قصيدته كما أوردها في أول شطر في بيتها الأوّل مرفوعة ، وذلك في قوله « يعرف الجوهرَ في الإنسان صافِ » وموقعها هنا يقتضي نصبها .

ومثل ذلك لا يُرضى من السنوسيّ ، ولا من أي شاعر آخر سواه ، إذ المفروض أن الشاعر من أعرف الناس باللغة ، وبأسرار التعبير بها عن انفعالاته وتجاربه .

ولا أحبّ أن يعتذر الشاعر أو أن يعتذر عنه أحد بفعل الضرورة الشعرية ، فليس هذا من الضرورات التي أجازوها للشاعر دون الناثر . وإن كنت لا أعترف أصلاً بما سمَّوه « الضرورات الشعرية » فإن الصواب صواب ، والخطأ خطأ في المنظوم والمنثور على السّواء [1] ! ومثل ذلك قوله « كنتُ مع التاريخ وافِ » فإن

---

(١) يجد القارىء تفصيلا لرأينا هذا فيما أسميناه « أخطاء لاضرورات » في صفحة ٨٣ وما بعدها من كتابنا (نظرات في أصول الأدب والنقد) .

موضع « واف » النصب ، والتعبير سقيم على كل حال .

وكان على الشاعر الذي أشدنا به فيما قبل أن يعيد النظر فيما كتبه على البديهة ، وأن ينقحه ، فليس استدراك أمثال هذه الهفوات كثيراً عليه ، قبل أن ينشره في ديوان فيه كثير من قصائده الحسان !

وفي شعر السنوسي في هذه المعاني الوطنية الممتزجة بالعواطف الدينية ما حلّق به في آفاق بعيدة من الإجادة والإتقان . ومن ذلك قصيدته « الجزيرة العربية .. ماضياً وحاضراً » وهي من أطول قصائده وأجودها ، وقد جعلها أول قصيدة في ديوانه الذي سمّاه « نفحات الجنوب » وهو فيما أعلم آخر ما طبع من دواوينه (١٤٠٠ هـ) . وفي مطلعها يقول [1] :

جزيرتي ياهوَى رُوحي ويا أمَلي	أنتِ الجديرةُ بالتَّشبيب والغَـزلِ
أهواكِ ريفاً وشطآنـا وأوديـةً	حريَّة بعنـاقِ الشِّعـر والقُبَـلِ
وأصطفيكِ لنفسي وهي عاشقةٌ	حبيبة يَسْتَبِيني حُسْنُها الأزَلـي
فأنتِ في مُهجتي حسًّا وعاطفةً	قصيدةٌ أنا منها في هوًى ثَمِلِ
وأنتِ في مُقلتي نورٌ يضيءُ بهِ	وجهُ البسيطة في سهلٍ وفي جَبلِ

وينتقل الشاعر من هذا الغزل أو الثناء إلى شعره الذي ينشده فيها ، وهي التي ألهمته إياه ، كما ألهمت « ليلى » مجنونها « قيساً » حبّها ، وما أنشد فيها من شعر اللوعة والغرام . ويعود إلى تاريخ الجزيرة ليسأله عن الأسلاف ، وعن صفحات المجد الذي كتبوه فيها ، وعن الحروب التي خاضوها ، ويشيد بهم وبانتصاراتهم على جيوش الفرس وجحافل الروم في الجاهلية والإسلام ، فيذكر يوم « ذي قار » الذي انتصروا فيه في جاهليتهم على الفرس ، ويوم القادسية الذي انتصروا فيه عليهم وهم مسلمون ، وكذلك يوم اليرموك الذي بددوا فيه جيوش الروم :

ويوم ذي قارَ في تاريخهم عجبٌ	براكب الفيلِ أَوْدَى راكبُ الجملِ
وكان إسلامهم نوراً أضاء بـه	وجهُ الحقيقة في قول وفي عملِ

(١) ديوان (نفحات الجنوب) ٩ .

في القادسيَّة واليرموك مافتئا   على مدى الدهر فخراً ساطعَ الشُّعَلِ

ثم يتحدث عن الشعر العربي الذي هو ديوان العرب ، ودائرة معارفهم . وسجلّ مفاخرهم ، يقرأ في كل بيت طباعهم ، وفي كل قصيدة صورة من صور حياتهم في حلّهم وترحالهم ، كما يقرأ حكمهم وآدابهم وآثار معرفتهم وفلسفتهم في الحياة .

ويخلص إلى القول بأن حضارة العرب حضارة ذاتية أصيلة ، أقاموها بأنفسهم ، ولم يتأثروا فيها بأمة من الأمم ، ولم يقلّدوا غيرهم في فضائلهم .

ويستطرد بعد ذلك إلى مفاضلة بين بعض أعلام العرب وأعلام الغرب . فيذهب إلى أن « شيشيرون » خطيب الرومان المعروف لا يبلغ في خطابته مبلغ قسّ بن ساعدة الإيادي ، وأن شاعرية « شيلي » شاعر الإنجليز دون شاعرية البحتري ، في قوله :

ما « شيشرونُ » خطيباً كابن ساعدةٍ   قُسّ الإيادِي ولا كالبحتريّ « شِلِي »

وفي رأيي أن هذا الحكم من مبالغات الشاعر ، وأنه حكم لا يقوم على معرفة واضحة بسبب تقدمة « شيشرون » على خطباء الرومان ، ولا بالمنزلة الحقيقية للشاعر الإنجليزي « شِلِي » . ولم يذكر الشاعر خصيصة واحدة يمتاز بها الخطيب العربي على خطِيب الرومان ، ولا علّة واحدة لتفضيل البحتري على شِلِي .

وليس من الصَوابِ أن يدفعنا التعصُّب إلى مثل هذه الأحكام الجزافية التي لا تُحترم ولا تفيد .

والصواب الذي كان ينبغي أن يقال إن الشعر والخطابة لم يختص بهما الأوروبيون دوننا ، فقد كان عندنا الشعراء المبدعون كما كان عندهم الشعراء المجيدون ، وعندنا الخطباء المصاقع كما كان عندهم الخطباء البارعون .

أما الفخر الصادق الذي لا يماري فيه أحد فهو ما قاله السّنوسيُّ يخاطب الجزيرة العربية :

على تُـرابكِ أنفـاسٌ معطّــرةٌ من السماءِ ونورٌ غيرُ منفصلِ
إذْ كان أوَّلُ بيتٍ للهُدى وُضعتْ أركانُه في ثراكِ الطاهـر النَّهـلِ
اختـاركِ اللهُ لـلإسلام منطلقـاً واختار قومَكِ منهم أفضل الرسلِ
تربَّعي فَوق عرش المجد وانطلقي إلى المعالي بعزم القائـد البطـلِ

ثم الإشادة بالرسالة المحمدية التي أنقذت البشرية، وطهَّرت النفوس من الرجس والشرك وعبادة الأوثان ، والثناء على صحابة رسول الله ﷺ ، الذين كانوا أئمة للهدى ، ومنارات للعدل والحق :

ففي رمالك سمراءِ الجبين مشَى محمدٌ منقذُ الدنيا مـن الخطـلِ
وطلحـةٌ وأبـو بكـر وصاحِبُـه وذو الضياءيْن عثمانٌ وشبّ عَلي
نجومُ هَدى تعالى الله خالقهـم أئمةُ الدين والدنيا بـلا جَـدَلِ

ثم ينطلق الشاعر إلى حاضر الجزيرة العربية ، فيذكر طرفاً من سيرة مؤسس دولتها ، وراعي نهضتها ، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الذي وحّد البلاد ، ووطّد في ربوعها دعائم الإسلام ، روفع راية التوحيد ، وأعاد إليها حياة الأمن والاستقرار ، لينصرف أبناؤها إلى العمل الجادّ النافع ، وهم آمنون على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، فبنى بحزمه وعزمه أمة قوية مسلمة ، يحمي حماها ، ويدفع عنها كيد الخائنين ، وطمع الطامعين . استمع إليه في هذه الأبيات :

جزيـرتي ألهمينـي نظـمَ قافيــةٍ تشْدُو بصقركِ صَقرِ الأمَّةِ البطلِ
عبد العزيز الذي داواكِ من سقمٍ وصان عِرضَكِ من عارٍ ومن خلَلِ
مؤسّس الدولـة المثلى وصانعهـا بالحقّ والعدلِ لا بالزور والحيَلِ
وزارع الأمنِ فيها فهو مؤتلـقٌ في الرِّيفِ والسِّيفِ والصحراءِ والسُّبلِ
ورافـع الرايـةِ الخضراءِ معلنــةً توحيدَها وهي بالتوحيد كالجبلِ
ترتدّ عنها الرياحُ الهوجُ خاشعةً وينثني كلّ وَغْلٍ وهو كالحملِ

ومن أرقّ شعره الإسلاميّ وأعذبه وأجوده قصيدته الغنائية التي أنشأها في موسم الحج ، وسمّاها « اليوم الخالد » [1] وفيها تتدفق شاعرية السنوسي ،

---

(١) ديوان (أزاهير) ٢٠ .

وتفيض بالمعاني الجياد ، والألفاظ العذاب ، والعواطف الجياشة الصادقة ، فيحتق بها ما شاء في آفاق الإبداع .

وفي أوّلها يقول :

في مثل هذا اليوم من كلّ عامْ	يزدهرُ الحجْرُ ويزهو المقامْ
مَقامُ إبراهيمَ سامي الخُطا	وحِجرُ إسمَاعيلَ نعمَ الغلامْ
وتسبــحُ الأرواحُ رَفّافــةً	أطيافها مثل رَفيف الحَمامْ
وتلتقـي الدنيــا بأجناسِهــا	في وَحدة رائعة وانسجامْ [1]
من كلّ فجٍّ أقبلوا حُسَّراً	شوقاً إلى البيت العتيق الحرامْ
كالسَّيل فاضوا وأفاضُوا به	وانسكبوا بين الذُّرا والخيامْ
تستبقُ الخطـوَ إلى ساحـةٍ	مَشَى « ابنُ عبدِ الله » فيها وَقامْ

ولولا خشية الإطالة لوضعت هذه القصيدة بتمامها بين يدي القارىء . ليستمتع بهذاا لشعر المطرب بموسيقيته ، المعجب بعذوبته ورقّته . ولا غرو فقد أطلق الشاعر نفسه على سجيتها ، وعاطفته نحو هذه الجموع المؤمنة الوافدة ، ونحو البقاع الطاهرة المقدسة التي تهفو إليها قلوب المسلمين من كل حدب وصوب . ونحو ذكرياتها التي تملأ قلوب المسلمين ، فجادت شاعريته الدفاقة بهذا الشعر السمح البديع .

ويحتشد في دواوين السنوسي كثير من أمثال تلك القصائد التي تفيض بالعاطفة الدينية الصادقة التي ملأت قلب الشاعر ، وتمتزج هذه العاطفة غالبا بمشاعر الحبّ والولاء لوطنه في المملكة العربية السعودية وللوطن الإسلامي الكبير .

ومن ذلك خمس قصائد نشرها في أول ديوانه« الأغاريد » [2] وأولها قصيدته « هي الجزيرة » ومطلعها :

---

(١) درج المحدثون على استعمال هذه الكلمة في معنى التناسق والتناسب ، ولم أجد هذا المعنى في استعمالات العرب ، وإنما وجدت عندهم انسجام المطر من السحابة ، وانسجام الدمع من العين .

(٢) ديوان (الأغاريد) ١ و ٤ و ٦ و ٩ و ١٣ .

هي الجزيرةُ ، فاقبِسْ أيها السّارِي هدًى من البيت أو نوراً من الغارِ
واستلهم الرشدَ من آي ومن سُوَر وَضَاءةٍ وأحـاديثٍ وآثـارِ

وثانيها قصيدته « أجنحة التاريخ » ومطلعها :

رَفرفَتْ أجنحةُ التاريخ في أفْق بلادي وتسامَى رائعَ الوثْبةِ جبارَ الطِّرادِ
عربيًّا ، فيْصَلِيًّا في اعتزازٍ واعتدادِ تغمرُ الدنيا أياديه وتَسقي كلَّ صادِ

وتليها قصيدته « طيْبة » التي فازت بجائزة وزارة الإعلام ، للتلحين والغناء ، ومطلعها :

هذه طيبةٌ فحيِّ الـرسُولا بُوركتْ منزلاً ، وطابتْ نزيلا
هذه طيبة التي خصّها الله بما خصّهـا بـه تفضيـلا
منزل الوحْيِ والملائكِ والأنصا رِ والطيِّبين جِيلاً فجِيـلا

ورابعها قصيدته « خُلُق المسلم » وقد أشرنا إليها فيما سبق .

ثم قصيدته « رمضان » وأولها :

رمضانُ يا شهر الضيـا ءِ الحرّ من أسْرِ الظـلامْ
أطلـقْ بـأضواءِ الهُـدى أسْرَ النفوس من الحُطـامْ

وتتجلّى مشاعر السنوسي نحو أمته العربية والمسلمة في كثير من شعره الذي تقرؤه فيروعك ما يحمل في طيّاته من طاقات الحبّ التي يكنّها لإخوانه العرب والمسليمن في كل مكان ، وتراه في هذا الشعر الحماسي الجميل يحسّ بإحساسهم ، ويشاركهم البهجة والسّرور في سرَّائهم ، والحزن والأسى في ضرّائهم .

اقرأ قصيدته « انتصار الحرية » لترى معالم البشر والسّعادة في كل بيت من أبياتها ، بل في كل كلمة من كلماتها .. وقد أشاد في هذه القصيدة بما أحرز إخوانه العرب والمسلمون في الجزائر من نصر على أعدائهم المغتصبين من الفرنسيين ، فأجلوهم عن ديارهم ، واستردوا حريتهم وكرامتهم بعد كفاح مرير أودى بمليون من شهدائهم المجاهدين . وفي أولها يقول :

مرحبًّـا بالجزائـر العربيّـةْ دولـةً حـرَّةَ الكيـان فتيَّـةْ
وسلامـاً لها شبابـاً وشيبـاً ولأبنائهـا فتًـى وَصبيَّـةْ

وتحايا من الجزيرة من أر ض القداسات والطيُوبَ الزكيّهْ
من حمَى العاهلِ العظيم المفدّى بطَلِ الشرقِ نخوةً وحَميَّهْ
يتهادَى بها الأثير قصيـــدًا مفعماً بالمشاعــر الأخويَّـهْ
مرحبًّا بالجزائـريين شعبًــا عربيًّا بين الشعوب القويَّـهْ
الأُباةُ الكماةُ الغرر الصِّيـدُ المغَاويـرُ فيلقــا وسَرِيَّــهْ

وبعد هذه التحية الحارّة للشعب الجزائري المجاهد يأخذ الشاعر في وصف شجاعة الجزائريين وبسالتهم ، وحسن بلائهم فيما خاضوا من معارك طاحنة مع أعدائهم المستعمرين :

غضبوا غضبةَ الرجالِ وقادوا ثـورةً في نضالِهـا عبقريّـهْ
كلُّ شِبْرٍ من أرضهم كل فِتْرٍ من ذراهم معسكرٌ أو خليَّهْ
في رُءوسِ الجبالِ تحتُ رُبا الأشـ ـجار فوق الذّرا خلالَ الثنيَّهْ
كالأعاصير ، كالسيول اندفاعاً في سبيل المطالبِ الوطنيَّـهْ
ألهبُوها على المغيريـن نــارًا تتلظّى وأشعلوهَــا حِميَّــهْ

ويصف بعد ذلك استبسال الجزائريين في الدفاع عن وطنهم ، وصبرهم على البلاء الذي أنزله بهم الفرنسيون الذين استخدموا في قتالهم أحدث ما توصلوا إليه من آلات الفتك والتدمير :

الصِّراعُ الرهيبُ والسَّجنُ والتعذيـ ـبُ والانتقــامُ والبَرْبريَّــهْ
والعِراكُ المريرُ والقصْفُ والنّسْـ ـفُ وتلك الملاحمُ الدمويهْ
والصواريخُ والقنابِلُ والألغَـا مُ والطائــراتُ والمدفعيّــهْ
كلُّها لم تحُلْ عن الهَدف السّا مى ، ولمْ تُرهِب النفوسَ الأبيّهْ

* * *

وإلى جانب تلك القصائد الوطنية التي تغنّى الشاعر فيها بأمجاد أمته قصائد أخرى باكية حزينة ، عبّر فيها عن الأحداث التي ألمّت بالوطن العربي ، ومزّقت أوصاله ، وشارك غيره من شعراء العروبة في وصف محنة الشعب العربي في فلسطين ، وآثارها الدامية في قلوب العرب والمسلمين ، وفي استنهاض الهمم ،

وشحذ العزائم للثأر من الأعداء ، واستخلاص الحق المغتصب من أصحابه ... إن هذه الأحداث بآلامها تنال من شاعرنا الرقيق ، فتؤرقه وتقض عليه مضجعه ، وتنسيه صبوته وأحلامه . استمع إليه في هذا اللحن الحزين :

هدأ الليلُ فاهْدَئي يا مشاعِـرْ ... وَدعيني من الرُّؤى والخواطـرْ
هدأ الليلُ ، وانطوتْ في دياجيـ ... ـه قلوبٌ كليمـةٌ ونواظـرْ
لم تعدْ مهجتي يرفّ هواها ... لِلُحُون المنَى وعزفِ المزاهـرْ
بات قلبي يحنُّ شوقاً إلى الما ... ضِي ، وُروحي تئِنُّ حزناً لحاضرْ

ثم يشير إلى شيء من صور البطولة وسِيَرَ الأبطالَ في تاريخ العرب والمسلمين ، ويوازن بين تلك الصفحات المشرقة من تاريخ السّلف ، وصفحات الأسى الماثِلِ التي قعد فيها الخلف عن تحصيل المجد ، واستكانوا للدعة ، وإيثار السلامة .. إلى أن يقول متحدثاً عن الخلف المتواكلين :

كيف أضحَى أحفادُهم يا فلَسْطيـ ... ـنُ صغاراً لا يأنفون الصغائرْ ؟
بَرَدَتْ في دمائهمْ نخوةُ العِزّ ... وماتتْ تلك السّجايا الحرائـرْ
فهـم القـومُ عُـدَّةً وعديـدًا ... لو تصافتْ قلوبُهم والسرائـرْ

تلك بعض الصور التي تفصح عن عواطف السّنوسيّ ومشاعره نحو وطنه ، ونحو إخوانه من بلده ، ونحو شركائه في العقيدة والجنس في كل مكان .. وقد صوّرها تصويراً تحسّ بما فيه من يقظة الوجدان ، وحرارة الشعور ، وليس لذلك من سبب إلاّ حرارة الانفعال ، وقوة التجربة ، والصدق في التعبير .

* * *

وكذلك كان السّنوسيّ صادقاً في تعبيره عن نفسه ، وفي الكشف عن حقيقة تجاربه ومعاناته ، وتصوير ميوله وأهوائه .

وقد مرّ بنا أنه وصف حياته التي قرّر في صراحة أنها بدأت من « الصفر » وأنه كان يقرأ في ضوء « الفوانيس » ، وأنه كان يجلس في « الكتّاب » على حصير بالٍ ، وكيف كان « يعصِر الماءَ من أديم السراب » كما يقول .

وذلك الصدق في التعبير عن النفس ، وفي وصف حياته كما كانت من غير

محاولة للتمويه ، أو إخفاء التجارب المرة التي كابدها ، هو الذي دعاه إلى الكشف عما هو مكنون في أعماقه من تباريح الهوى ، ولواعج الغرام . فكان صادقاً في تعبيره عن عاطفة الحبّ التي ملأت قلبه ، ووصف آيات الجمال التي فتنته ، وصفاً جميلاً فاتناً .

وقد تستمع إليه في مثل قوله في وصف عابرة [1] :

خطرتْ في أناقةٍ ورَشاقَهْ   وتهادتْ في خفّةٍ ومشاقَهْ
خطوَ عصْفورةٍ على المرمَر المصْـ   ـقولِ وثْباً وهزّةً وانزلاقهْ
كلّ عُضْوٍ يهتزّ فيها وَيرْتجُّ   وينداحُ رقةً واندفاقَهْ
خطواتٌ « مموسقاتٌ » وجسْمٌ   في « تقاسيمه » لحونٌ مُراقَهْ
غَيَدٌ آسِرٌ ودَلٌّ فتُونٌ   وجمالٌ ملائكِيٌّ الطلاَقهْ
غادةٌ في جبينها طلعة الشمـ   ـسِ ففي كلِّ لَفْتةٍ إشراقَهْ

فقد صوّر في هذه الأبيات مفاتن هذه « العابرة » التي بدت في أناقتها ورشاقتها ، وفي حركاتها الخفيفة ورقتها ، وكأنها تسير في خطواتها المنتظمة على وقع ألحان موسيقية ، فتأسر القلوب بجمالها .

اقرأ أثر ذلك كلّه في قلبه الذي كاد يطير من الشوق ، واقرأ أثر نظرتها ودلالها في إيقاظ عواطفه :

نظرتْ نظرةَ المُدِلِّ بحسْنٍ   جُنَّ قلبي به ، وحَلَّ وَثاقَهْ
نظرةً أيقظتْ براعمَ قلبٍ   شاعريٍّ ، وفتّحتْ أوراقَهْ
فتأمّلتُها وقلتُ لقلْبي   والهَوى قد أثاره وأشاقَهْ
وَيْكَ إنّ المحيط أزرقُ فاحذرْ   عمقَه في لحاظها ، وازرقاقَهْ
والسجُوُّ الذي تراه نذيرٌ   لهبوب العواصف الخفّاقهْ
حسبُكَ النفحةُ الشذيَّةُ ياقلْـ   ـبِي ، وحسْبي من ذلك الرّوض «باقهْ»

إنك تقرأ في هذه القصيدة وصفاً جميلاً أملاه الإعجاب بما رأى الشاعر من مفاتن هذه « العابرة » التي اعترضت طريقه ، أو رآها صدفة في الدرب ، وهي

(١) ديوان (الأغاريد) ٣٦ .

في الغالب امرأة مجهولة ، لم يرها من قبل ، ولم يعرفها . ولكن وقع نظره على هذه المحاسن فيها ، فعدّدها ، ووصفها بهذه الأوصاف المادية أو الأوصاف الحسّية التي قرأتها في هذه الأبيات !

وهناك فرق كبير بين الإعجاب والحبّ ، لأن الإعجاب انفعال ، والحب عاطفة ، وأثر الانفعال مؤقت سرعان ما يتباعد ويزول بتباعد المؤثر وزواله . أما العاطفة فإنها شعور ثابت مستقرّ في أعماق النفس لا يزول ولا يستحيل . وقد يتكرر الانفعال بشيء ما فترسخ آثاره في النفس ، ويتحول إلى عاطفة دائمة نحو ذلك الشيء .

ويكفي أن يصف شاعرنا هذه المرأة بأنها « عابرة » وأن يصفها بتلك الأوصاف الجسدية ، وأن يتنبّه عقله ليحذّره من السَّبح في ذلك المحيط العميق ، وأن يقول الشاعر بعبارة صريحة « حسبي من ذلك الروض باقة » . فإن ذلك ليس من أثر الحبّ السّابق ، وإنما هو أثر نشوة « عابرة » أو انفعال طارىء .

ولكنك قد تجد أثر هذا الحبّ الصادق في قصائد أخرى من شعر السنوسي ، كما نقرأ ذلك في قصيدته « إغراء الحب » [1] . وفي أولها يقول :

سَلُوا راحَ عينيها ووردَ لماهـا ... متى علمتْ أَني صريعُ شذاهـا
فقد حرمتْني نفحهـا وابتسامَهـا ... ورقّـةَ نجواهـا وحلـوَ جناهـا
وبـاتَ يعنّيني هواهـا ودَلُّهـا ... وتسخـرُ بي أطيافهـا ورؤاهـا
وقد كنتُ آتيها فيهتزّ فرعُهـا ... طروباً كما هزَّ الغصونَ صَباها
وتصدحُ عيناها لحوناً وتنـتشي ... أحاديثهـا رفّافـةً ولُغاهـا
وتُضفي عليّ السحرَ والعطرَ والمنَى ... وتمنحنـي أنفاسَهـا ونداهـا

فنقرأ في هذا الشعر أنفاساً حارّة ، وعاطفة صادقة ، وذكريات لذيذة سابقة ، ونقرأ لهفة على تلك الذكريات التي يخشى عليها أن يصيبها وهَن ، أو أن يعصف بها الهجران .

وهذا الحشد من العواطف والذكريات نلمس فيه الحبّ العميق ، وحرقة

(١) ديوان (الأغاريد) ٣١ .

الوجد ، ومرارة الصَّد ، وفرط الصبابة ، كما نلمس ذلك في أشعار العذريين الذين يوصفون بالعفّة ، ولا يتحدثون عن متعة الجسد . وإنما هي أرواح المحبين التي ائتلفت ، وحلقت في سماء الطهر والعفاف .

وقد عرفت محبوبته هواه ، وإشادته بحبّها ، فغرّها ذلك منه ، واصطنعت الدلال ، إذ عرفت أنه يؤثرها بحبّه ، ولا يشرك معها في هذا الحب غيرها :

فأصبح يُغريها بي الحبُّ أنني   أحبّ وأنّي لا أحبّ سواها
تصدُّ إذا أقبلَتُ زهواً وتنثني   وتمنعني حتى رخيم صدَاها
ولو علمتْ أني ضُحاها وفجرُها   لما احتجبتْ عن فجرها وضحاها
فلولا أغاريدي لما رفّ حسنها   ولولا أناهيدي لجفّ صِبَاها
فيا واحةَ الصَّادي حناناً ورقّةً   لقد ظمئتْ نفسي وأنتِ حَبَاها

فهو دائما ظمآن ، وهي الواحة التي يجد عندها الظّل والراحة . وهذا لا يقوله إلاّ محب صادق ، يتهالك في صبابته ، ويصبر على حرّ الجفاء ، ولا يدفعه إلى الصدّ أنفة ولا كبرياء ، وتلك شيمة المتيمين الذين استغرقوا في تجربة الحبّ . ولم يكن صاحبنا كذلك الذي قال مهددًا صاحبته :

فإن تَصِلِي أصِلْكِ وإن تَبيني   بهجرٍ بعدَ وصلِك لا أُبالي

ولا تعترف شريعة المحبين الصادقين بمثل هذه الشروط !

* * *

ولبعض كتابنا المحدثين ولوع بإلحاق كل شاعر من شعراء العربية بمذهب من المذاهب الأدبية التي عرفت في أوربا منذ عصر النهضة وتولدت منها بعد ذلك مذاهب تقرب منها أو تبعد عنها .

وهؤلاء الكتاب لا يخصّون شعراء العربية المحدثين أو المعاصرين بهذا الإلحاق ، ولكنهم يرجعون إلى شعراء العصور السّابقة وإلى الجاهليين ، ويعمدون إلى وصل كل شاعر منهم بمذهب من تلك المذاهب إذا وجدوا شيئا من ملامح الشبه بين شعره وشعر أعلام ذلك المذهب أو الاتجاه في أوربا . مع أن أكثر

هؤلاء الشعراء العرب لا يعرفون شيئا عن تلك الاتجاهات أو خصائصها أو أعلامها في الشرق أو في الغرب .

وإذا كانت في شعر السنوسي ملامح تقرّبه من مذهب من تلك المذاهب الأدبية فإنه من أقرب شعرائنا إلى « الرومانسية » بما فيه من آثار العاطفة المشبوبة ، والإحساس الرقيق ، ولولوعه بمشاهد الطبيعة ووصفها وتصويرها في لوحات فنية رائعة ، وركوبه متن الخيال . ويختلف عنهم كثيراً في حرصه على التقاليد والأعراف المأثورة وعدم تمّرده عليها ، كما يختلف عنهم في حفاظه في شعره على القيم الخلقية ، والآداب الإسلامية ، ولعل لتربيته الدينية وثقافته العربية الخالصة أثرا بعيداً في هذا الاختلاف ، أو في ذلك الحفاظ الذي ينفر منه الرومانسيون الذين يحاولون دائما الخروج على القيم والموروثات والتحلل من مختلف القيود التي تحدّ من الحرية المطلقة التي يحلم بها الرومانسيون ، ويرفعون علم الثورة على كلّ ما هو معروف مألوف ، ولو كان من الفضائل الإنسانية التي يجمع عليها البشر .

والسنوسيّ واحد من شعراء العربية المحدثين الذين احتفظوا للشعر العربي بموسيقيته الموروثة ، ولم يحاول التمرد على قوالب الشعر وأوزانه ، أو الخروج على نظام القوافي ، أي أنه حرص على النسق الذي ألفه الذوق العربي ، وطربت له الآذان في كل بيئة من البيئات التي تنقل فيها الشعر العربي ، وفي كل عصر من العصور التي عاش فيها .

وقد يتنقل في قليل من قصائده من قافية إلى قافية بعد عدد من الأبيات ، تطريةً لأذن المتلقى ، وتجديداً لنشاط السّامع .

وهو يرى أن مجال التجديد في الشعر العربي ليس في القوالب والأشكال ، وإنما مجاله الموضوعات التي يعالجها الشعراء ، والمضمونات والأفكار التي يصبونها في تلك القوالب الموروثة . وفي ذلك يقول [1] :

إنْ كان لابدَّ من فـنٍّ نجدّدهُ ... فجـدّدوا في مضامين وأفكـارِ
وأَنطِقُوا الصخرَ في ترنيم قافيـةٍ ... كرِعْشَةِ الضَوءِ في لمع السَّنَى السَّارِي

(١) ديوان (الينابيع) ٩٨ .

حريَّة الشعر في إشراق فكرتهِ　　وفي تساميه عن لغوٍ وأقذارِ
وأن يكونَ لكمْ في كلِّ معتَرَكٍ　　رأيٌ جهيرٌ وعزمٌ غيرُ خوّارِ

وهذه الأبيات من قصيدة له طويلة عنوانها « الشعر الحر » وفي أولها يقرّر أن هذا الشعر الحر غريب على الذوق العربي ، ويُنحي بأشدّ اللوم على أصحابه ، متهما إياهم بالتقليد الضار الذي يفقدهم الأصالة ، ويبعدهم عن روح الشعر المطبوع ، فيقول في مطلع تلك القصيدة :

لا العُودُ عودِي ولا الأوتارُ أوتاري　　ولا أغاريدُكم من شدْو أوتاري !
من أين جئتمْ بهذا الطير ، وَيْحَكمُ　　لا الريشُ ريشي ولا المنقارُ منقاري !
إني أرى في جناحيْه وسِحْنتهِ　　سِماتِ « إليوتَ » لا سيماءَ بشّارِ
وصِرْتُ أسمعُ ألفاظاً مُقلْقلةً　　طرقَ المسامير في دُكّان نجّارِ
ألبَستموني ثياباً لا تشرِّفُني　　كأنها فوقَ جسمي حبلُ قصّارِ

ثم يُدْلي بصريح رأيه في القضية ، وهو أن عمل الشاعر في بناء قصيدته أشبه ما يكون بعمل المهندس في تنسيق أعماله ، وأن الوزن هو روح الشعر ، فإذا فقده أضحى جماداً ، أو جسداً بلا روح :

الشعرُ هندسة كبرى تكاد ترى　　في النّسْج واللفظ منه رُوحَ فرْجَارِ
والوزنُ للشعر روحٌ وهي إن فُقِدَتْ　　أضحَى جمادًا بلا حسْنٍ كأحجَارِ

* * *

والسّنوسيّ علم من أعلام الشعر الغنائيّ ، وتلك حقيقة يدركها من يقرأ شعره ، وينعم النظر في معانيه وفي مبانيه ، ويتذوق حلاوة ألفاظه المختارة ، ومعانيه القريبه ، فقد انعكس صفاء طبعه وسماحة نفسه على أعماله الشعرية ، فأحالها إلى معرض رشيق ، وروض أنيق ، تفتحت أكمامه ، وصدحت بلابله فوق أفنانه .

ولقد خاض السّنوسيّ في أكثر فنون الشعر العربي المعروفة ، فمدح الرجال بالأعمال ، ووصف فأبدع في وصف الطبيعة في الجبال والوهاد ، وفي السهل والحزَن ، وفي البرّ والبحر ، وفي الأرض والسماء ، وتغزّل فأجاد ، ورثى من يستحق البكاء ، وفخر بوطنه ودينه وقومه .

وهو إنسان يحبّ الناس ، لا يرى فيهم إلا الخير ، ولا يعرف في الحياة إلاّ كل جميل ، فلا ترى في دواوينه كراهية لأحد ، ولا نيلا من إنسان .. وكأنه لا يعرف الطريق إلى فنّ الهجاء !

ويبقى بعد ذلك أن أقول إن محمد بن علي السّنوسيّ لم يحظ من ذيوع الصيت بما حظي به كثير غيره من شعراء المملكة العربية السعودية ، ولم تسلّط عليه الأضواء كما سلّطت على غيره ، وفيهم من هم دونه بكثير ، أي أنه لم يُنزل المنزلة الجدير بها بين شعراء الزمان ، وهو منهم في السّنام !

والسبب في ذلك فيما أرى هو هدوء نفسه ، وسكون طبعه ، ثمّ لزومه بلده في أقصى الجنوب ، فلا يفارقه إلاّ لماماً .

ويحضرني في هذا السّياق ما كان بين الفرزدق وذى الرُّمة ، فقد أنشده ذو الرمّة شيئا من شعره ، ثم سأل الفرزدق : كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس ؟ فقال له الفرزدق : ما أحسنَ ما تقول ! فقال ذو الرّمّة : فما لي لا ألحق بالفحول ؟ فأجابه الفرزدق : قصَّر بك بقاؤك في العَطَن ، وبكاؤك الأطلال والدِّمن !

ولعل ذلك كان من جملة الأسباب التي دفعتني إلى العناية بهذا الشاعر العربي المجيد ، وإلى الكتابة عن شاعريته بشيء من التفصيل !

* * *

الخاتمة

أحمد الله تعالى على ما يسّر ، وما أعان عليه من الكتابة عن هذه الكوكبة المجلّية في ميدان الشعر العربي في هذه الحقبة من التاريخ من شعراء المملكة العربية السعودية الذين رأيتهم جديرين بالدراسة والتعريف والتقدير ، وجديرين بعناية نقّاد الأدب ودارسيه بنتاجهم ، استكمالاً لحلقات الدرس الأدبي في بيئاته المختلفة .

وقد درست هؤلاء الشعراء في حدود ما أتاحت لي الظروف الاهتداء إليه من أعمالهم فيما وصل إليّ من دواوينهم ، أو من مجموعات أشعارهم .

وفي هؤلاء الشعراء الذين درستهم من لم أقرأ له إلاّ ديواناً واحداً هو الذي تيسّر لي الحصول عليه ، فوقفت دراساتي مضطّرا على ما وقع بين يديّ من هذه الدواوين المفردة .

ولبعض هؤلاء الشعراء الذين تناولتهم هذه الدراسة شعر كثير نشر شيء منه في الصحف والمجلات عزّ عليّ جميعها والإفادة منها في هذا الكتاب . كما أن لبعضهم شعراً كثيراً أيضاً ضمّته دواوين مطبوعة أخرى لم أستطع اقتناءها ، لبُعدي عن أصحابها ، أو لبُعدها عن متناول يدي .

ومن هؤلاء على سبيل المثال المرحوم الشاعر المعروف « أحمد قنديل » الذي عرفت أن له شعراً كثيراً نشره في الصحف والمجلات ، وشعراً جمعه في دواوين مطبوعة ، ولم يقع بين يديّ من شعره إلاّ مطوّلته التي سميت « ملحمة الزهراء » وقد عثرت عليها في السجلّ المطبوع لأعمال المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي انعقد في جدة منذ سنوات بعيدة .

وقد تناولت مطوّلة « الزهراء » وحدها بالدراسة في هذا الكتاب . وأعتقد أن قصيدة واحدة – مهما تكن سعتها أو طولها – لا يمكن أن تنهض بمهمة التعريف بمواهب هذا الشاعر الكبير ، أو استقصاء اتجاهاته في عالم الشعر .

ومنهم على سبيل المثال أيضاً الشاعر الكبير « محمد حسن فقي » الذي اقتصرت في الكتابة عنه على مجموعة واحدة من شعره ، وهي التي ضمنها ديوانه الأوّل « قَدَر ورجُل » .

وقد عرفت أخيراً أن لهذا الشاعر عشرة دواوين طبعت منذ عهد قريب

متفرقة أو مجموعة تحت عنوان « الأعمال الكاملة » ولم يصل إليّ شيء منها .

ومنهم الشاعر المعروف « حسن عبد الله قرشي » الذي قرأت له ديوانا واحداً أهداه إليّ منذ عشرين عاماً ، وهو ديوانه « النغم الأزرق » وقد خصصته بالدراسة مع ما أعرف من أن له دواوين أخرى لم يتيسّر لي الاطلاع عليها .

وأعتقد أن اجتماع آثار المؤلفين بين يدي الكاتب أو الناقد من أهمّ ما يعينه على الاهتداء إلى معرفة مواهبهم ، وعلى حظهم من الأصالة أو التقليد ، وعلى التقدير الصحيح لمنازلهم في عالم الشعر والأدب ، لأن محتوى ديوان واحد لشاعر من الشعراء – إذا كانت له دواوين أخرى – لا تكفي قراءته لتقديم صورة كاملة مستوعبة لخصائص أدبه ، أو لتحديد مسار شاعريته واتجاهاتها .

وهناك سبب آخر يقتضي هذا الشمول ، وهو أن شاعرية الشاعر سلسلة موصولة الحلقات يكمل بعضها بعضا ، ولا يمكن فصل بعض أجزائها عن بعض .

وقد يكون في القليل الذي تناولته بالتحليل والتقويم ما يغني عن الكثير الذي لم أقف عليه .

وهذا عذري على كل حال ، أطمع أن يكون موضع التقدير من قارىء هذه السطور .

* * *

ويعنيني في هذا المقام ، وقبل أن أنهي هذه الخاتمة أن أشير إلى أمر له حظُّه من الاعتبار ، وهو أن هذا الكتاب الذي يُعنَى بشعر المملكة العربية السعودية وينوّه بطائفة من شعرائها الذين سمَّيتهم « شعراء الصحوة » قد خلا من التعرّض لطائفة أخرى من المجيدين الذين ليسوا دون أكثر من ذكرتُ ، بل إن فيهم من يتفوّقون كثيراً على بعض من ذكرت من حيث استواء الملكة ، ومن حيث نضج الشاعرية ، ومن حيث غزارة العطاء .

وفي هؤلاء من له شعر وليس له ديوان . وفيما قرأت من أشعارهم في الصحف والمجلات ، أو ما سمعتهم يلقونه في بعض المحافل والمجتمعات جودة وإتقان يبشّران بمستقبل مرموق في عالم هذا الفن .

وفيهم أعلام كبار من أصحاب الدواوين التي أتوقع الحصول عليها في وقت قريب بإذن الله ، وفي مقدمتهم الشعراء : عبد الله الفيصل ، وعبد الله بن إدريس ، وضياء الدين رجب ، وأحمد عبد الغفور عطار ، ومحمد هاشم رشيد ، ومحمد بن سعد الدبل ، ومعيض البخيتان ، وحسين عرب ، وحسين سرحان ، وعبد الرحمن صالح العشماوى ، وطائفة من شعراء القصيم وغيرهم .

وأعمل الآن على استكمال ما بدأت من دراسة شعرهم والكتابة عنهم ، ليكونوا موضوع الحلقة القادمة إذا شاء الله ، وامتدّ بي العمر ، ونسأ الله لي في الأجل .

وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله .

وهو حسبنا ونعم الوكيل

وكتب في القاهرة يوم الاثنين
١٥ من شوال سنة ١٤٠٨ هـ
٣١ من مايو سنة ١٩٨٨ م

بدوي أحمد طبانة

الفهـــرس

الموضـــــــوع | الصفحة

شعراء مغمورون

عزيزي القارئ ..

لا بد أنك سمعت بشعراء لم تكتب لهم الشهرة ، ولكن الذي وصلنا من شعرهم يدل بوضوح على علو كعبهم في ميدان الشعر ، وعلى أن ما لدينا من شتات شعرهم جزء من شاعرية فياضة ضاعت في خضم الأحداث ، ولتعريفك بهؤلاء الشعراء أصدرت دار الرفاعي سلسلتها الجديدة : شعراء مغمورون ، حيث صدر من السلسلة عددان من تأليف الأستاذ عبد العزيز الرفاعي :

١ ـ عبدالله بن أبي صبح المزني ٢ ـ خارجة بن فليح المللي

ص . ب ١٥٩٠ ـ الرياض ١١٤٤١ ـ هاتف ٤٧٨٨٨٣٣ ـ فاكس ٤٧٩٤٣٢١

دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

